الرواية الحائزة على جائزتي
«فيناك الشهيرة» و «جونكور للثانويين»
صادرة بفيلم سينمائي ومترجمة إلى عدة لغات.

فيرونيك أولمي

بَخيتة

رواية

ترجمة
سهير فهمي

مكتبة نوميديا 224
Telegram@ Numida_Library

بَخيتة

فيرونيك أولمي

الرواية الحائزة على جائزتي «فناك الشهيرة» و «جونكور للثانويين»
صادرة بفيلم سينمائي ومترجمة إلى عدة لغات.

بَخيتة

رواية

ترجمة
سمير فهمي

■ الكتاب: بَخيتة - رواية
■ الكاتبة: فيرونيك أولمي
■ ترجمة: سهير فهمي
■ الطبعة: 1440 هـ / 2019 م

دار المؤلف
Dar Al-Moualef
للنشر والطباعة والتوزيع ش م م
for Publishing, Printing and Distribution s a r l

بيروت - لبنان
هاتف: 00961 1 823720
فاكس: 00961 1 825815
info@darelmoualef.com

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه
إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

© All rights reserved

No part of this publication
may be reproduced or transmitted
without prior permission from the publisher.

© Editions Albin Michel - Paris 2017

Publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Schéhadé, cet ouvrage bénéficie du soutien du Ministère de l'Europe et des Affaires Etrangères et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France.

التنفيذ
الفني
والطباعي
المجموعة الطباعية
info@printinggroup.com

إهـداء

إلـــى لـويـس

إلـــى بونـي

"سوف ينتزعون منا حتى أسماءنا: فإذا أردنا الاحتفاظ بها، علينا أن نوجد في داخلنا القوة اللازمة كي يتبقى وراء هذا الاسم بعضًا منا، بعضًا مما كناه".

(بريمو ليفي... إذا كان رجلًا)

I

من العبودية إلى الحرية

هي لا تعرف اسمها. لا تعرف بأي لغة تحلم. تتذكر بعض الكلمات بالعربية والتركية والإيطالية، وتتحدث ببعض اللهجات. التي يأتي الكثير منها من السودان وأخرى من "فينيتو". الناس يقولون: "خليط". إنها تتحدث نوعًا من "الخليط" والناس يفهمونها بصعوبة. ويجب تكرار كل شيء بكلمات أخرى لا تعرفها. هي تقرأ ببطء متوهج تشوبه بعض العاطفة الإيطالية وتكتب بخط مرتجف به مسحة طفولية. هي تعرف ثلاث صلوات باللغة اللاتينية. أغاني دينية تغنيها بصوت منخفض ولكنه قويّ.

طُلب منها كثيراً أن تروي قصة حياتها، وقد روتها منذ البداية مرارًا وتكرارًا، وكانت هذه البداية الشفاهية، تجذب اهتمامهم فقد كانت ترويها لهم بكل ما اختلط بها وهكذا استعادت ذاكرتها. وكانت تحكي بالترتيب الزمني ما كان بعيدًا جدًا ومؤلماً جدًا storia meravigliosa (قصة رائعة). كان ذلك هو عنوان الكتيب الذي يروي قصة حياتها. وقد سبق وأن نشرت على حلقات ثم صدرت فيما بعد في كتاب. لم تقرأ أيًّا منهما. فقط كانت تقصّ عليهم حياتها بخجل وفخر في الوقت نفسه. كانت تخشى من ردود الفعل ولكنها أحبت حبهم لها من أجل قصتها بكل ما قالته وكل ما سكتت عنه. أما ما لم يريدون الاستماع إليه وما لم يكونون قادرين على فهمه لم تخبرهم به. "قصة رائعة"، ومن أجل هذه

القصة استعادت ذاكرتها. ولكنها لم تجد اسمها، أبدًا. لم تعرفه. ولم يكن ذلك هو المهم. ولكن من كانت هذه الطفلة، التي حملت الاسم الذي أعطاه لها والدها، وهذا الحدث الذي لم تنسه. فقد كانت تحتفظ بداخلها بنوع من الاعتزاز بالطفولة، للطفلة التي كانتها. هذه الطفلة التي كان يجب أن تموت في العبودية وبقيت على قيد الحياة. فهذه الطفلة كانت ولا تزال. ما لم ينجح أحد إطلاقًا أن يسلبه منها.

حينما ولدت كانت فرداً من توأم. كانتا فتاتين صغيرتين متطابقتين. واستمرت في العيش معها رغم عدم معرفتها بمكانها. وكانتا منفصلتين وتنضجان وتكبران بعيداً عن بعضهما البعض، ومع ذلك كانتا متشابهتين. كانت تشعر بها حاضرة خاصة في الليل. جسدها المفقود قريباً منها إلى الحد الذي تشعر معه بأنفاسها. والدهما كان شقيق رئيس القرية في أولوجوسا في دارفور. وقد أخبرها الآخرون عن اسمي القرية والمنطقة، وقد قام من أخبروها بقصتها بالتدقيق في الخرائط والتواريخ والأحداث. كان والدهما قد قدمهما للقمر لحمايتهما، وأفضى له باسميهما للمرة الأولى مما سيعيد إلى الذاكرة دائماً كيف جاءتا إلى العالم الذي سيتذكرهما إلى الأبد. إنها تثق أن ما حدث كان قد حدث بهذه الطريقة وبشكل مؤكد وأبدي. وحينما كان يأتي المساء تتذكر يدي أبيها الممدودتين، وتتساءل أين يكمن اسمها وفي أي جزء من هذه المساحة الشاسعة الأبعاد.

في المساء في أولوجوسا، عندما كانت تتراجع الشمس خلف جبال الحجر، وقد عاد الرجال والقطعان، وبروك الماعز تحت الأشجار، بينما تصعد أصوات الحمير كالموسيقى النشاز، والأرض لم تبرد حرارتها بعد، وقد تجمع الناس حول النار في

قريتها، حينذاك كانت تستكين إلى ركبة والدها وتضع رأسها على كتفه. ويرتعش جلدها عند سماعها صوته عندما يتحدث. كانت رعشة ذات رائحة وموسيقى وحرارة. وكانت أختها التوأم تجلس على الركبة الأخرى ومثلها كانت أيضًا تخاف من المساء الآتي. وكم من مرة، فكرت في تلك الليالي، وحلاوة خوفها المحمّي. كيف كانت تغلق عينيها. وتحتفظ لنفسها بهذا الحزن غير المحدد والذي من المستحيل شرحه. فلم تكن لديها اللغة لتستطيع البوح بهذه المشاعر، خاصة أن الكلمات التي تعرفها آلية وعملية وبها خشونة. كانت بهذه الكلمات التي تعرفها تستطيع إعطاء رسم بياني أو نموذج. ولكنها لم تكن لتقول ما لا يرى بالعين المجردة، والذي يتبقى في النهاية. وعيناها كانتا تحتفظان بهذا التباين بين صلابتها وبراءتها، وفي عينيها كان هناك دائمًا ما فقدته وما سمحت لها حياتها الداخلية من استعادته،حياتها التي كانت تحميها كهدية.

من المؤكد أن وجه والدتها كان جميلًا، لأنها هي أيضًا كانت جميلة. وكان جمالها دائمًا هو السبب في اختيارها. كانت والدتها طويلة وذات خدين بارزين ولها جبهة عريضة وعيونها سوداء، يشع وهج أزرق يشبه نجمًا زرع وسطهما. رائحة أمها كانت خليطًا من الدهُن المشوي والسكر المر والعرق والحليب. وكانت تشعر بهذه الرائحة التي تفوح منها وتمنحها للآخرين. وكانت تدرك أن هذه الرائحة تفوح من أعماقها لأنها كانت تعود إليها عدة مرات وكانت تؤثر على تنفسها، وكان من الصعب الإمساك بها.

أن تتلقى الصدمة دون أن تتلقى هذا الإشعاع ودون أن تتذوق حلاوته. وكان شعورًا يمتزج فيه خليط من الراحة والقلق الغامض بدون حزن. ومن الأحد عشر طفلًا الذين أنجبتهم والدتها، أربعة قد لقوا مصرعهم واثنان خطفوا.

كانت تبلغ من العمر خمس سنوات عندما حدث هذا لأول مرة، خمس سنوات أو ست أو سبع سنوات، كيف لها أن تعرف؟ ولدت في عام 1869، ربما قبل ذلك بقليل، أو بعد ذلك بفترة وجيزة، إنها لا تعرف، وعلى أي حال، فإن الزمن بلا هوية بالنسبة لها، ولا تحب كتابة الأرقام. ولا تتابع الوقت على الساعات. فقط تتبع الظل الذي تلقيه الأشجار. وحين طلبوا منها أن تسرد قصة

حياتها منذ البداية وصلوا إلى عمرها من خلال توقيت الحروب في السودان، وسوف تجد هذا العنف في أمكنة أخرى، طالما أن العالم في كل مكان على الحال نفسه، ولُد من الفوضى والانفجار بينما يتقدم وهو ينهار.

عمرها خمس سنوات وهذا نهاية عالم. بعد ظهر هذا اليوم يحمل ضوءًا لن يعود أبدًا بعد ذلك ويحمل أيضًا فرحة هادئة ترتج دون أن تلاحظ. نحن لا نعرف أنها هنا. ونعيش فقط في داخل هذا الفرح مثل الطيور المنهكة.

وفي قريتها، بعد ظهر ذلك اليوم، كان الصغار يلعبون في ظل شجرة (الباوباب) الكبيرة. والشجرة مثل الشخص الذي يملأ المكان بالثقة، فهي المركز والأسلاف وهي الظل والمعلم . وكان كبار السن ينامون في هذه الساعة من اليوم بينما يجمع الرجال البطيخ من الحقول. وعند الخروج من القرى، سنرى النساء تضرب الذرة الرفيعة، وهذه هي الموسيقى الهادئة لقرية مسالمة تزرع فيها الحقول. وستحتفظ بهذه الصورة للجنة المفقودة لإقناع نفسها أن هذا قد وجد بالفعل، وأنها أتت من هنا، من هذا المكان حيث تمت مذبحة البراءة والطيبة والراحة، وهذا ما تبتغيه أن يأتي من حياة عادلة، مثل أي حياة لم تعرف الشر بعد.

بعد ظهر ذلك اليوم، ذهبت شقيقتها الكبرى كيشمت (Kishmet) إلى منزلهم بعد أن تركت قرية زوجها، كانت تبلغ من العمر تقريبًا أربعة عشر عامًا. ولكنها لم تكن تحمل طفلها معها، لأن حماتها تعتني بالطفل الذي يعاني قليلًا من الحمى.

ومن ثم تصبح كيشمت من جديد ابنة والديها لبضع ساعات وتستمتع بالنوم مع توأمها، تنام في مربع (كوخ) النساء. وكانت حزينة لأنها تعيش في مكان آخر ولأنها تنتمي إلى زوجها وليس إلى والدها. ولكنها أيضًا كانت فخورة بأن لها طفلًا وبأن ثدييها ممتلئان وقد شربت توأمها بعض حليبهما قبل أن تنام وقد أراح هذا كليهما.

كان غناء النساء اللواتي يضربن الذرة الرفيعة يشبه ضجيج الحشرات.

هي الآن تبلغ من العمر خمس سنوات، تلعب بجانب والدتها بالحصى الصغيرة. إنها تفعل مثل ما يفعله جميع الأطفال، تخترع وتمنح الحياة للأشياء، للأحجار والنباتات، إنها تبعث الحياة وتتخيّل. كانت تلك هي لحظات البراءة الأخيرة. لكن المعرفة سوف تقع عليها في ضربة واحدة وتقلب حياتها رأسًا على عقب مثل قفاز. أمها كانت تغني بوتيرة أبطأ قليلًا من النساء الأخريات، فأفكارها في مكان آخر، لأن ابنتها الكبرى أتت لقضاء بعد الظهيرة، وقريبًا ستكون مثلها لديها بالفعل طفل. وسوف يكون لديها آخر وآخر، سيكون لها حياة امرأة متزوجة. الأغنية البطيئة للأم تقول الفخر والقلق، القلق المكتوم. والحنان.

عمرها الآن خمس سنوات، وهي تخاف من الثعابين، غالبًا ما يرسم أخوها الأكبر شرائط طويلة على الرمال، بطرف عصاه ويضحك عندما تصرخ، إنها لعبة، مزحة الأخ الأكبر وسيظل دائمًا أخوها والأفعى مرتبطان في ذهنها. وسوف تتوق إلى هذه

اللعبة غير المتكافئة، وإلى عيون الأخ الذي يراقب خوفها وإلى هذه النظرة الساخرة منه، والتي كانت تعطيه بعضًا من الأهمية.

بعد ظهر ذلك اليوم، عندما رأت آثار الثعبان الذي من المحتمل، ألا يكون قد رسمه أخوها، تسمع ضوضاء هائلة. غير معروفة الهوية. هي لا تفهم ماذا يحدث، ولكن في الوقت نفسه تتوقف النساء عن ضرب الذرة البيضاء وترتفع وجوههن، ويصرخن كما لو كن بالفعل أمام مصيبة. إنهن يركضن للحاق بها. وتمسكها والدتها دون النظر إليها مثل طرد، وتجرها مثل عشب، وتجري وهي تصرخ، ثم تنساها. لقد تركتها فجأة هنا في القرية المشوّهة وسط ألسنة اللهب مندفعة إلى المربع الذي تنام فيه كيشمت والتوأم، وتكتشف أنها بمفردها في خضّم النار والموتى. وفي داخلها يُزرع الرعب من الهجرة، تنادي على والدتها، تصرخ باسمها ولكن صراخها يضيع وسط صوت النار الغاضب والرجال الذين يضربون بالشوكات والبارود وسكب المياه. ويغلّف الدخان القرية ويخنقها، الطفلة تسعل وتنادي على والدتها ولكن لا بكاؤها ولا ذراعاها الممدودتان يتلقيان أي مساعدة.

عندما تصل إلى مربع النساء، تبحث الأم عن كيشمت ولا تجد إلا التوأم. وحدها على قيد الحياة، تهزها، تقلبها، وتدفعها بعيدًا عنها، إيماءات مذعورة وغير متناسقة. تصرخ في الطفلة، أخبريني بما رأيت! إنها تكررها بصوت حاد، إنها تأمرها وهي تبكي بطريقة هستيرية، قولي لي ما رأيت؟ الطفلة تظل صامتة. تعرف الأم ماذا رأت، تعرف ماذا حدث، هي نفسها ولدت في الحرب وتعرف نظام

العبودية، تعرف لماذا اختطفت ابنتها وتعرف كيف سيستعملونها. إنها تريد العثور في قصة الطفلة عن صورتها الأخيرة، قولي لي ما رأيت! وهذا يعني "قولي لي أنك مازلت ترينها"! لكن الطفلة تظل صامتة لا تتحرك، لقد تغيرت نظرتها، إنها الآن تحمل معرفة جديدة،لا تملك بعد الكلمات التي تعبر بها عنها.

بعد ظهر ذلك اليوم، كان الخاطفون قد وصلوا مسرعين مع النيران والبنادق والسلاسل والشوكات والخيول. أخذوا كل شيء يمكن أخذه. وخاصة الشباب. الأولاد للجيوش. والفتيات من أجل المتعة والخدمة المنزلية. فعلوا ذلك بسرعة تتيحها لهم خبراتهم السابقة. كانوا يعرفون القرية جيدًا وقد أرشدهم المتعاونون الذين كانوا من قرية مجاورة على الطريق. كان الخاطفون يعرفون جيدًا ما الذي سيجدونه.

وصل رجال ونساء أولوجوسا بعد فوات الأوان. حاول أولادهم وبناتهم الفرار أو الاختباء ولكن تم القبض عليهم وجرحوا وقتلوا وأصواتهم فُقدت في الصخب الكبير للنيران. كانت هناك جثث مقطوعة ومحترقة وأخريات تئن وتحتضر في برك كبيرة من الدم. كان هناك ماعز يتجول وكلاب تنبح وطيور صامتة. كان هناك مربعات محطمة وشوكات تستعمل للعبيد مكسورة تشهد على مرور المغتصبين. النار مازالت تجري من نقطة إلى أخرى. وكان كل هذا بتوقيع تجار الرقيق.

ستظل القرية في حال عدم التنظيم لعدة أيام، مثل حقل بعد العاصفة.

هي لا تتعرف على أختها التوأم ولا تتعرف على المكان الذي تعيش فيه، وأولوجوسا مليئة بآهات لا تتوقف من الجرحى في تكرار للمعاناة التي ستتحول إلى نداء بطيء ويائس. هي لا تتعرف على الأشخاص الذين تعيش معهم. السكان قد التقطوا القتلى وحصدوا أعداد الغائبين. لقد اكتشفوا عجائزاً مقطوعي الرأس وأطفال مبتورة أعضاؤهم. واكتشفوا أيضًا آثارًا للنهب وللحقول المدمرة والأبقار المحتضرة ومياه النهر الملوثة بجثث متضخمة، كانت كل علامات الحياة منتهية. قامت النساء حينئذ بجرح أجسادهن حتى انبثق منها الدم، وخبطن جباههن على الأرض وهن يصرخن بأصوات لم تسمع من قبل. بينما الرجال حملوا رماحهم و(التام تام) وغادروا في الليل. وجاء الساحر (المعالج) وقام بعمل بعض الأضاحي. وبعد عدد قليل من الأيام والليالي عاد الرجال، مطأطئي الرؤوس لا يستطيعون رفع أعينهم إلى زوجاتهم ولا أمام أبنائهم. ففي مواجهة البنادق والبارود فإن السهام والأقواس لم تستخدم إلا للإشارة إلى وجودهم العاجز. يا لها من سخرية.

ظلت القرية لفترة طويلة تحتفظ برائحة الجثث والقش المحروقين. وطار الرماد عدة أيام قبل أن يختفي في الريح، وعندما اختفى كان كل شيء قد اختفى تمامًا. ولكن هناك على الرمال أمام مربع النساء، حيث تركت جثة الشقيقة الكبرى آثارًا لثعبان مثل خط صنعه فرع من شجرة باوباب، كانت تراها طول الوقت، حتى عندما يسير الآخرون على هذه الآثار، وحتى عندما

يحيل المطر الأرض الحمراء إلى حزم من طين. كانت ترى صورة غيابها الوحشي والأبكم، بينما هي ما تزال تحتفظ بالخوف العاري، خوف صرخاتها التي لم تسمعها والدتها. إنه خطر جديد: افتقاد حماية والدتها، والدتها التي لم تعد تتعرف عليها بعد أن أصبحت امرأة قلقة عصبية وبلا نوم.

تردد سكان أولوجوسا في مغادرة قريتهم منذ ذلك الحين، على الرغم من أن القرية الآن باتت معروفة للتجار وبالتأكيد سيعود وكلاؤهم. لكنهم أيضًا تذكروا أولئك الذين فعلوا ذلك من قبلهم وهربوا من قريتهم المنهوبة. أولئك الذين تركوا مزارعهم وخسروا أسرهم وذهبوا إلى مكان آخر لم يصلوا إليه أبدًا. فكروا في أولئك الذين وجدوهم موتى جوعًا عند سفح التلال، في السهل وفي الغابة. ولذلك قرر سكان أولوجوسا البقاء مع الخوف من جلب الخشب وجلب الماء. الخوف من أن يذهب الأطفال بعيدًا ومن أن النساء يزددن جمالًا. والخوف من أن تعود البنادق بالخطوة السريعة في أي وقت من النهار أو الليل. وأصبح فرحهم أكثر غموضًا، مضطربًا بسبب الحداد والعجز. الشعور بعدم الثقة الجديد لم يكن فقط تجاه الأجانب ولكن أيضًا وبخاصة تجاه أولئك الذين أرشدوا الأجانب وبدون أي خطأ أين وكيف يمكن العثور عليهم؟.

كانت والدتها كثيرة الأطفال، هكذا تتذكرها دائمًا مع أطفال يمسكون يديها وساقيها وينفخون بطنها ويمصّون ثدييها وينامون على ظهرها.

شجرة وفروعها، تلك هي والدتها، والدة جميع الصغار، أم محبة وعالمية، مرآة لجميع النساء اللواتي ولدن، تبقى شابة وخصبة دائمًا وتظل محبة وقوية، هي الحب غير المشروط، الحب المطلق والاستشهاد، تجسيد حي للأم الحزينة (السيدة العذراء).

اجتهدت كثيراً في أن تحتفظ بالصور الجميلة لهذه الأم، صور ما قبل الغارة، كان يوم العيد حيث رأت جسدها مطليًا باللون الأحمر، لامعًا من الزيت يرسم لهبًا يمتد فوق الرمال، كانت جميلة كأنها غريبة، يتبعها الأولاد ممسكين أياد بعضهم البعض مع الضحكات الخجلى. كانت القرية دائماً مليئة بالأطفال، كنا نكبر بطفل في ذراعنا، أو فوق الفخذ، أو على الظهر أو في اليد.

كنا نشيخ ونحن نستقبل كل الذين جاؤوا وراءنا، كنا نكبر فقط كي نستطيع حملهم، ولم يكن لهذا أية نهاية. كان الأطفال يهربون، يتناثرون، يذهبون وهم عرايا أحرار مع صرخات حادة وضحك وبكاء عابرين. وكان هناك دائماً آخرون يولدون بالفعل.

هي الآن تتذكر، أنّ من أجل هذه الحفلة، ضفرت والدتها شعرها بخرز أحمر وأصفر وأزرق، وأحاطت خصرها ومعصمها من نفس الخرز الأحمر والأصفر والأزرق التي كانت من أملاك أجدادها وكانت علامة لقبيلتهم ووسيلة التعرف عليهم كما الرسومات على الأجساد والوجوه ووشم الجفون وتسريحات الشعر وهذه الحلي، هذه الألوان التي تعود وقطع الطفولة التي تطفو والتي ترغب هي في تصديقها. من أجل العيد، منحتها والدتها وقتًا لها وحدها. وعندما انتهت قالت لها أنت جميلة؛ لذا أيقنت في نفسها بأنها كانت جوهرة. وأقسمت على أنها لاحقًا ستشبهها، ستبدو كالشعلة الحمراء التي يتبعها الأطفال.

بعد عامين من الغارة، ظنت أنها ستتزوج وسيكون لديها أطفال وسوف تملأ الفراغ الكبير الذي تركته الأخت الكبرى. أنها سوف تقوم بإصلاح التعاسة هذا ما ستفعله، ستصلح ذلك البؤس من أجل أن تتوقف والدتها عن كونها هذه المرأة التي تقع، هذه المرأة التي ترصد وتأمر عشرات المرات في اليوم بضرورة الابتعاد وعدم التحدث أبدًا مع الغرباء وعدم السير وراء الناس الذين لا يقطنون القرية، حتى النساء، حتى المراهقين، هذه المطالب لم تعد تسمعها، إنها الأغنية الجديدة للأم.

هي الآن تبلغ من العمر سبع سنوات، وتعلم أن وراء التلال اختفت أختها الكبرى وغيرها من الفتيات والفتيان الصغار وقد أصبحوا عبيدًا.

"عبدة"!! لا تعرف ماذا تعنيه الكلمة تحديدًا. فقط تعلم أنها

تعني الغياب عن القرية المشتعلة، إنها الكلمة التي يليها اللاشيء. تعلمت ذلك، ثم واصلت العيش، مثل الأطفال الصغار الذين يلعبون ولا يعرفون أنهم يكبرون ويتعلمون.

إنها تبلغ من العمر السابعة وتقود الأبقار إلى النهر، ولا تذهب أبدًا بمفردها، وغير مسموح لها بالابتعاد أبدًا. ولكن هناك احتياج لها وهذا يعجبها، لها مكانتها وشخصيتها أيضًا، يقولون إنها سعيدة، دائمًا مزاجها رائق، وأنها لا تستقر في مكانها، وتقول والدتها "إنها رقيقة وطيبة" حتى عندما تكون ساخطة، حتى عندما تكون غاضبة، وتحاول أن تقترب مما تقوله والدتها عنها "رقيقة وطيبة" وهذا يحفظها بعض الشيء، يعيدها إلى شيء معقول، هي التي لديها مثل هذا الخيال والتي تخترع كل يوم قصصًا ترويها للأطفال الصغار. القصص التي تحكيها تقوم بتمثيلها بالإيماء لتضخيم حكيها بحركات وأداء صوتي. إنها تحب ذلك، تحب نظرة الأطفال الذين ينتظرون بقية القصة، تحب صرخاتهم بخوف حقيقي أو بخوف مزيف، تحب رؤية أياديهم أمام أفواههم، ضحكاتهم بعد الانفراج، إنها تحب أن تعطيهم لحظات الابتكار هذه، تفخر بقدرتها على إظهار المشاعر الخفية: خوف أو أمل.

إنها الآن تبلغ من العمر سبع سنوات وهي تطيع والدتها التي تطلب منها، بعد ظهر أحد الأيام، الذهاب لإحضار العشب من عند مخرج القرية. وهي ليست بمفردها، إنها مع صديقتها التي تُدعى "سيرا". وهي تتذكر اسمًا ناعمًا، لما لا يكون "سيرا" . إنها تمضي قدمًا وهي تميل يديها، تغنّي أغنيتها الصغيرة، "عندما كان

يولد الأطفال من اللبوة". أغنية من اختراعها وتغنيها للأطفال الصغار. الأغنية تتحدث عن امرأة عجوز تتذكر أن الأطفال كانوا يولدون وأجسامهم مغطاة بالشعر ومسلحون بالأسنان التي يفقدونها أثناء نموهم ليصبحوا بشرًا حقيقيين. وكانت عندما تخترع روحًا، طفلًا ضالًا، أو حيوانًا محاربًا، تشعر أن خوفها الخاص بها ينحسر مع النهاية السعيدة للقصة!

بعد ظهر ذلك اليوم، تسير صديقتها "سيرا" بجوارها، وهما يتكاسلان قليلًا لإحضار ذلك الذي طلبته الأم. هناك شيء بليد، فالهواء يهدأ، والشمس فقدت قسوتها، وربما بسبب هذه النعومة شعرت هي وسيرا بهذا الاستهتار (اللامبالاة) وشرد ذهنهما. هما يريان الرجلين ولا يرتبان، فلا بارود ولا بندقية ولا حصان، هذان رجلان من قرية ليست بعيدة. إنهما جيران.

هما أيضًا كانا ضحايا الغارات. لقد فقدا كل شيء، ربما يريدان تبادل واحدة من هاتين الطفلتين مع واحدة من اللواتي أخذها تجار العبيد ويأملان في العثور عليها. وربما كانا أيضًا ناجيين من الموت من قرية (razzie) يحاولان البقاء على قيد الحياة، والفتاتان وحدهما، هما صغيرتان في السن.

وتباع الفتاة الصغيرة بأعلى سعر، حتى قبل الفتى الصغير. الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سبع وعشر سنوات هم الأكثر قيمة. وهما يريان أنها جميلة بالفعل، يران هذا الجمال الذي سيزدهر ويستحق التكلفة، جمال نساء الحريم. يبتسمان ويحييان في لهجة ليست بعيدة كثيراً عن لهجتها، وينتظران قليلًا.

على الرغم من نفاذ الصبر، ينتظران ويتحدثان إلى بعضهما البعض بصوت منخفض ويتفقان على ما يجب فعله، فهما لن يأخذا سوى واحدة فقط.

لم يعودا شابين والفتاتان تبدوان قويتين بالفعل، وسيدافعان عن نفسيهما مثل النمرات، وواحدة فقط ستكون أقل مخاطرة. واحد فقط يتحدث إليها، حتى لا يخيفها، والآخر يقف على استعداد للتدخل، في حالة المقاومة.

يطلب الرجل من "سيرا" أن تبتعد قليلًا. أكثر قليلًا، أكثر انخفاضًا، تتراجع "سيرا" دون أن تلتفت، وهو يلوح بيديه دائماً وهي تطيع، إنها تتوقف بالقرب من النهر. ويشعر الرجلان بالدهشة من سهولة الأمر، فالصغيرتان لا تعترضان، فهما ليستا ببعيدتين عن القرية، وصرخة واحدة كافية ليفرا بسرعة. بالنسبة لها يطالبها الرجل أن تذهب في الاتجاه المعاكس، نحو شجرة الموز، هي لا تتحرك، إنها تبدو ضائعة، غبية تقريبًا. إنه يشير لها نحو شجرة الموز، ويقول إن عليها أن تذهب لإحضار حزمة، وهي لا تفهم، فقط تنظر إلى الشجرة وتنظر إلى صديقتها، تقفز "سيرا" بساق على الآخر بدون توقف، وعيناها شاسعة الكبر. الرجل يتحدث إليها الآن بصوت أقوى، "إنه غريب على قريتنا"، جاءتها الفكرة كما السهم. وصديقتها تركض بطريقة أسرع بقدم على آخر بخوف. عالقة هي في شباك الخوف الذي يسري من الرجلين إلى "سيرا" ومن "سيرا" إليها. أذناها يطنان ورؤيتها تتشوش. الرجل يكشر وترى أسنانه الصفراء وابتسامته المتعجلة. والآخر، الذي يضع يده على فخذه يتنفس بقوة وهو منزعج.

الرجل يراقب، القرية ليست بعيدة، يمكن لأحد أن يمر الآن، إنها نهاية فترة بعد الظهر، وسوف يعود الرجال بالقطعان، وهذه الفتاة جميلة لكنها غبية، إنها تشعر بالوقت يشوه ويزن. هي لا ترى الحزمة، لا تستطيع الكلام، وليس لديها رغبة في الصراخ، ولا تحاول الفرار، إنها تشعر إنها تنزلق، تقع في مكان ما. لكنها لا تعرف أين، قبضتا اليد محشورتان في الفم، مطويتان على بعضهما. تنظر إليها "سيرا" ويبدو جسمها وكأنه سوف يغرق في الأرض، العالم صامت وغاضب. الريح لم تعد تهب والسماء البيضاء عالقة بسحابة واحدة ضخمة بلا حراك. الرجل يصر. تنظر إلى الشجرة التي يطلب منها الوصول إليها، هي لا تعرف لماذا ولكنها تفعل، تذهب إلى الشجرة. الرجلان يتبعانها وينضمان إليها بحذر تحت شجرة الموز. صوت قلبها يعلو، صوت قلبها مثل صوت (التم تم) الذي ينادي به من أجل التجمع. الرجل الذي كان يمسك بيده على فخذها، يسحب خنجرًا ويضعه على حنجرتها وبيده الأخرى يغطي فمها، "إذا صرخت سأقتلك!"، اليد كبيرة جدًا، تغطي كل وجهها، ورائحتها كريهة، و(التم تم) يضرب في رأسها، في صدرها، في بطنها، وساقاها ترتعشان. هي لا تعرف ما الذي جعل الرجلين غاضبين، يصرخان الآن بلهجتيهما الخاصة والخنجر يضغط بشدة على رقبتها، وتفكر ربما أنهما يأكلان الفتيات الصغيرات كما الغزلان. يجرونها مثل غزالة ميتة، هي عارية مثل أطفال قريتها. يتقدمان قدمًا وهما يسحبانها. تبتعد أولوجوسا، وتنهار أسرع من تحت اللهب.

سارت معهما حتى هبوط الليل، لم تسمع الناس من قريتها يلاحقونها، ولم تسمع دقات الطبل من النعل، لم تر والدها القوي المهيب يظهر. استمرت في السير طويلاً، كان اليوم على وشك الانتهاء وكانت لا تزال تنتظرهم. تظنهم سيحلقون وسيسرعون الخطى، وسيركضون حتى يعثروا عليها. لكنهم لم يأتوا، لذلك رعب مفاجئ داهمها، كشف ما كانت قد فجرته، رأت قريتها وقد التهمتها النيران. فكرت في أن ذلك هو السبب في أنهم لم يأتوا إليها للمساعدة. يؤخذ طفل وتحترق القرية والسكان مشغولون في مكافحة التدمير. هذا ما فعلته، لقد عصيت وأثارت كارثة النداء على والدتها ومد يديها كانا مرة أخرى عديمي الفائدة، لم يعد أحد يسمعها.

انتظرت، انتظرت كثيراً، ومشت كثيراً، وجاء الليل ثم الصباح... ثم... ثم، لم تذكر هذا أبدًا، كما لم تتذكره أبدًا، إنه ليس قصة رائعة storia meravigliosa فحتى تكون القصة رائعة، يجب أن تكون البداية رهيبة، ولكن أيضًا يجب أن تكون المأساة مقبولة ولا يخرج أحد منها ملوثًا، لا التي تقصّ ولا الذين يسمعون.

لقد حان الليل. كانت بمفردها مع الخاطفين. كيف لها أن تحكي ما لم تكن تريد أن تعيشه أبدًا؟

استمر المشي يومين وليلتين، لم تعرف أين كان النهر الكبير وأين القرى وما وراء التل ووراء الشجر ووراء النجوم. لذا حاولت أن تتذكر طريق السير في الاتجاه الآخر والعودة إلى المنزل. كانت خائفة وكانت ضائعة وكانت تسمع الجدول الصغير، الملكية المسورة، المعزات الأربع، الكثبان الرملية، الشجيرات البرية، البئر، شجرتي الموز، العليق، الكلب الأصفر، الحمار، الحمارين، النخلة قزمة، الرجل المسن يجلس فوق كثبان رملي، حقل الذرة البيضاء، الطريق الممهد بالحصى السوداء، الفيل خلف الأبواب، الأعشاب الخضراء، الحجارة الحمراء.

وتبدأ من جديد: حماران، رجل مسن يجلس فوق الكثبان الرملية. إنها تتعثر، إنها تقع، الجدول الصغير، الملكية المسورة، تقوم. بئر، جمل، القمر. تتردد، النجوم، الكلب، العقرب والنجمات الثلاث الأخوات، حماران، لا نخلتان قزمتان، حقل الذرة الصفراء. تسمع أصوات نشاز لضبع. تحولت الحرارة إلى جليد في الليل الذي جاء، والرياح باردة وسريعة، المشهد يتلاشى، إنها في وسط اللامرئي (الخفي).

مدخل قرية. طريق ترابي صغير، بعض الحانات وكلاب هزيلة وأصداء لحياة بعيدة، رجال هنا يتحدثون مع بعضهم البعض بلا انتباه (بشرود) وبدون عاطفة، إنهم يحيّون الرجلين ويعودون إلى كلامهم، إنهم متعودون على الأطفال المسروقين هناك في كل مكان وطوال الوقت منذ الأمد. هم لا ينظرون إلى الفتاة الصغيرة، ليس هناك شفقة ولا فضول. فهذه أمسية عادية.

يفتح الخاطفان بابًا. يقذفانها، تقع على أرض صلبة ومجمدة. ويغلقان الباب بالقفل الكبير، إنها مرعوبة، ولا تنبس إلا بكلمة ماما، الشيء الوحيد الموجود حقًا، هذه الكلمة تسكن رأسها وصدرها وكل جسدها، وتختلط بالألم، بالخوف الكبير الذي ارتكبوه في حقها، بالشيء الذي لا تفهمه، فهو الاسم الوحيد المتبقّي لها. هناك اسم آخر مفقود هو اسمها في الليلة الأولى، سألها الرجلان عن اسمها، كانت خائفة جدًا من النظر إليهما، وبعيونها المسدلة كانت تنظر للخنجر، لامعًا وباردًا. ما اسمها؟ كيف كانت تناديها والدتها؟ ما اسمها؟ كيف ناداها والدها عندما تحدث إلى القمر؟ أحد الرجال وضع يديه على ساقيها النحيفتين الملطختين بالأشواك (السنط - الأفاقيا) أثناء المسيرة.

ما اسمها؟ لقد تركت اسمها بالقرب من الجدول، لقد تركت اسمها تحت شجرة الموز، كان يقول كيف جاءت للعالم، ولكنها لم تعد تعرف كيف جاءت إلى العالم، هي تبكي من الذعر، فقط اسم والدتها حاضر، هو في كل مكان، لكنه الآن عديم القيمة.

في الغرفة المغلقة حيث ألقوا بها لا يوجد نهار والمساء لا يحل أبدًا، لا توجد شمس، لا قمر، ولا نجوم، الخارج يبدو ضعيفًا، من خلال ثقب صغير في الجزء العلوي من الجدار. تظل هناك طويلًا، ربما شهر، إنه زمن بدون إيقاع، زمن يتحد مع القلق. هي تنادي على أمها ولا تأتي. بحنان تتوسل إليها تطلب المغفرة، أنا آسفة، آسفة لن أفعل ذلك مرة أخرى، عاقبيني، عاتبيني، أنا آسفة. في بعض الأحيان تظهر والدتها في أحلامها وفي هذيانها، ظهورًا يربطها بذويها. هل تستيقظ أثناء الليل

للبحث عنها؟ هل تتوسل لوالدها ليجدها؟ هل تلعنها بسبب توسيع الجرح العميق لحزنها؟

في بعض الأحيان تعتقد أنها ستبقى هناك طوال حياتها، مع الخاطفين الاثنين اللذين يأتيان في المساء مع قليل من خبز وماء وعنفهما أيضًا. سوف تكبر هكذا، هل هذا ممكن؟ هل هذا يحدث؟ أن ننسى كل من كانوا ماعدا هذين الرجلين؟ ألا توجد هي إلا من أجلهما؟

إنها في الليل، ولا شيء بعد تلك الليلة إلا استعادة هذه الليلة.

إنها تشعر بالجرذان وبالقمل في شعرها، كل شيء غير مرئي ومنذر. هي قذرة ومُعتدى عليها، ترتدي جسدًا جديدًا، مليئًا بالألم والعار. الآن لم يعد أحد يقترب منها إلا ليؤذيها، وأي وجود هو تهديد، وسوف تحتاج إلى وقت طويل كي لا تنتفض عندما يقتربون منها، كي لا تخاف من يد تمتد، ومن نظرة تومئ لها. هي متأكدة إلى درجة كبيرة من نفسها، سوف تستغرق وقتًا طويلًا لتهدئة شعورها بأنها غريبة، تلك التي تحيا وكأنها بالمرصاد دائمًا، حتى في أوقات الفرح أو النوم.

إنها تنام كجنين، وتمص إبهامها وأحيانًا تغني أغنيتها "عندما ولد الأطفال من اللبوة" وهي تضع يدها على صدرها لتشعر ببشرتها تهتز مثل ما حدث مع والدها، يرتعش صوتها مثل الهواء في شمس منتصف النهار، ويتمزق جلدها، فلدغات الصراصير والفئران ترسم علامات ساخنة يمكن تتبعها بالأصابع.

في صباح أحد الأيام، تقرر الهروب، تجد في داخلها قوة الأمل، أن تؤمن بشيء وبأن تعصي لأيام، تكشط الأرض، حفرة الطين في الجزء العلوي من الجدار برؤوس الأصابع وبجسد ممدود، تحفر بقدر ما تستطيع. إنها صغيرة ونحيفة ولكنها تقرر أن تحفر في كل وقت، كل يوم، وستصبح الحفرة أكبر وسوف تذهب إلى المنزل. تكتشف في داخلها قوة عنيدة، شرسة، إنها الرغبة في الحياة، التي يسمونها غريزة البقاء. وسيكون هناك دائمًا اثنتان، واحدة تحت رحمة عنف الرجال والأخرى مصانة بطريقة غريبة، ورافضة لهذا المصير، إن حياتها تستحق شيئًا آخر، هي تعرف ذلك.

كل يوم تحفر وتكرر "ماما ماما"، هذه الكلمة تأخذها، وتيرتها المتكررة تصبح أمرًا. وسريعًا ما ستجد أصابعها تنزف، تتشكل القشور ثم تتمزق، كيف لها أن توسع هذه الحفرة، بماذا؟ صباح أحد الأيام، تستدعي فئرانًا ليساعدوها، ولكن تلك التي لا تسقط، تخرج من الثقب دون قضم أي شيء نهائيًا، واللاتي تسقط تصدر صرخات حادة تغذي خوفها اجعلني صغيرة جدًا" إنها تناجي القمر الذي لا تراه، "دعني أخرج". إنها تبكي وتشعر إنها تتلاشى، والحياة تهجرها. ثم فجأة تتوقف، شيء ما يسحبها وينتشلها من اليأس. تنظر إلى الحفرة، وتتحدث إليها وتصبح صديقتها وعدوتها، حيوان يجب ترويضه، روح يجب أن تتوسل إليها، إنها تحفظها في عينيها حتى عندما تغلقهما. إنها تحتفظ بها في رأسها حتى عندما تنام. خلال يوم كامل تدلك فيها شعرها، ولكن شعرها ينكسر والحفرة لا تتوسع.

كل يوم تقف على رؤوس أصابعها، تقيسها بيديها الممدودة، ثلاثة ولا أكثر.

ثم تجد وسيلة أخرى لإنقاذ نفسها، إنها القصص، تحكيها لنفسها وتتخيل أحيانًا أن الأطفال الصغار يستمعون إليها بعيونهم المليئة بالخوف والأمل. وهي تبدأ القصة ولا تنهيها أبدًا، لا تعرف أين تتوقف، كل شيء يهرب، والحمى تأخذها وهي تغوص في عالم قبلي، حيث تسمع الصرخات ليلًا وهي تعيد القطعان ونداء والدتها لتناول الطعام، والأصوات المشروخة لكبيرات السن وهن يثرثرن عندما تغرب الشمس. إنها تسمع وترى كل شيء، وتضع كل هذا من حولها، وتبدل العقارب والفئران والنمل إلى أشخاص تحبهم، تسميهم وتشاهدهم وهم يحيون لبعض الوقت. هذا الواقع الآخر، ينقذها من الموت، ثم يعود اليأس. وترى أين هي في الواقع، هي لم تعد أي شخص، تصرخ مثل الحيوان المهجور، تصرخ وتبكي بين الحلم والنوم، والسفر بين الخيال والواقع، بين الطفولة ونهاية الطفولة، إنها تضم قبضتها والفتحة الفخارية عين تراقبها، هي في الطابق العلوي، ولا يقوم أحد بعمل شيء لتخليصها.

في أحد الصباحات يفتح أحد الخاطفين الباب، ويسحبها إلى الخارج، الضوء مثل السكين. هناك أصوات، وهناك رجال، وصخب كثيف بلغة غريبة ليست لغة قبيلتها. فتدرك على الفور أن من هم هنا ليسوا من قريتها. خيبة الأمل عنيفة، مثل الشمس، إنها تشعر بأيدي الرجال عليها وتفتح عينيها، إبر بيضاء ترقص، ولا شيء آخر، أحد الرجال يرفع جفونها ويقول إنها مريضة، ثم يأخذ الخاطف ذقنها بين يديه، ويجبرها على فتح

فمها وإظهار أسنانها، ويقومون برمي عصى لها لكي تعيدها، وفي البداية لا تفهم، ولا تذهب لاستعادته، ويصفعونها ويعيدون الكرة، تجري ويبصق الرجل عندما تقع، ساقاها لا تحملانها بعد الآن، تقف على جزئين من الخشب الملتوي، وهي لا تفهم ما يجب عليها فعله. إنها فزعة، لا تعرف ماذا يريدون، وهذا ما يؤلمها، ولا تفهم لماذا يرغبون دائماً في إيذائها، إنها تبكي من سوء الفهم هذا وتبكي من الإحباط، فيغضب الخاطف ويظهر للتاجر عضلات الصغيرة ورتلة الساق والذراعين ويكرر "إنها جميلة Djamila"، إنها الكلمة التي تصفها Djamila والأحاديث تبدأ والمشاحنات والضحكات. تعتاد عيناها على النور وترى أن هناك رجالًا ومن ورائهم نساء، مجموعة صغيرة تنتظر، لا تعرف لماذا، إنها تستمع إلى الصفقة في لغة لا تفهمها. هل ستعود إلى الحفرة؟ تأمل في لحظة أن هؤلاء الرجال قد أرسلهم والدها، ثم ترى المال يمر من يد الرجل إلى يد الخاطف، ترى بوضوح القطع، ولا تريد العودة إلى الحفرة والمكوث مع الخاطفين، إنها تفضل أن تذهب مع هؤلاء الناس، وهي تريد أن تذهب مع هؤلاء الناس، هي تستمع وتفهم بعض الكلمات التي تقول إنها تبلغ من العمر سبع سنوات، وتقول إن اسمها بَخيتة، يضع الخاطف المال في محفظة صغيرة، ويدفعها نحو مجموعة الانتظار، هي مذعورة، ولكنها تغادر سجنها، وهي لا تعرف أن بَخيتة، هو اسمها الجديد، ويعني "محظوظة" إنها لا تعرف أنه تم الاستيلاء عليها من قبل تجار عبيد مسلمين. في الحقيقة، إنها لا تعرف أي شيء مما يعني هذا.

هم مربوطون بعضهم البعض، ثلاثة رجال في المقدمة، السلاسل من حول الرقبة مرتبطة برقاب اثنين آخرين. في الخلف ثلاث نساء، السلاسل حول الرقبة، مرتبطة بعنق الشخصين الآخرين، كلهم عراة مثلها، هناك أيضًا فتاة صغيرة بالكاد أكبر منها في العمر وليست مربوطة ويضعونها بجانبها بين اثنين من الحراس، ويطلقون المسيرة. هي ترى هذا الموكب، الحراس يحملون سياطًا وبنادقًا والمكبلون بالسلاسل يسيرون دون شكوى، لم ينظروا إليها ولن ينظروا إليها. طوال حياتها ستتأمل نظرة أولئك الأشخاص الذين يعانون من سوء المعاملة خلال الحياة، قسوة العمل أو الأسياد. إنها تدخل في العالم المنظم للعنف والخضوع وهي تبلغ سبع سنوات. وعلى الرغم من الخوف، فهي منتبهة. لم تكن تعلم أننا نستطيع أن نسير مكبلين بالسلاسل ومجلودين، لم تكن تعلم أنه كان يفعل ذلك أيضًا بالرجال. وهي لا تعرف ما هو الاسم الذي يطلق عليه، لذلك تسأل الفتاة الصغيرة: ما اسمه.

- هس... أجابت الفتاة.

- من هو؟

وتكرر بصوت أكثر انخفاضًا، ولكن الفتاة الصغيرة تشير

بأنها لا تفهم، وهي لا تتحدث لهجتها، وهي تشير إلى البالغين، الصغار جدًا، الذين يسيرون أمامهما.

- هم! من؟

الفتاة الصغيرة تغمض عينيها وهي تحاول أن تفهم، ثم فجأة تقول:

- عبيد.

ثم تشير عليها:

- أنت عبدة.

يقطعها العذاب مثل صفعة، عابدة، أختها، هذا هو، ما حدث لها، عبدة، إنها أسوأ مصيبة، عبدة، إن كيشمت وهي وفجأة تصبح حقيقة، إنها موجودة أمامها، إنها هنا، أمام عينيها وتتساءل لأول مرة: "هل كيشمت هنا؟" وسوف تتساءل دومًا هذا السؤال.

ترى نفسها وقد فقدت وسط دخان القرية، وهي تنادي على والدتها التي لا تسمعها، وهي تنظر إلى الفتيات المكبلات بالسلاسل وتسمع والدتها: "قولي لي ما رأيت؟" إن أمها تأمرها الآن بذلك. فهي تنظر إلى الأجساد الشابة المنحنية إلى الندوب على ظهورهم وأقدامهم الممزقة. وكلمة "عبد" كلمة الرعب التي تسير أمامها والصغيرة إلى جانبها تشير إلى نفسها وتقول بصوت منخفض: "بيناه بي – ناه". ثم تشير إليها وتسألها سؤالًا لا تفهمه ولكنها تخمنه، وهي تود أن تجيبها لكنها لا تعرف كيف، لقد مر

وقت طويل منذ ذلك الحين ولم يتحدث معها أحد، وأي لغة هي الآن بمثابة لغة أجنبية. وهي تتردد، وتنظر إلى العبيد، ثم تمر بأصابعها على عينيها المبتلة وتمسح مخاضها بذراعها القذر وتقول للمرة الأولى، وهي تشير إلى نفسها: "بَخيتة".

في الأيام التالية، تشعر كأنها تعبر الأرض بأكملها، سهول وصحارى وغابات وجداول دون مياه، ومستنقعات نتنة ويعبرون شقوقًا في أرض مشققة، هم يتسلقون جبال، مع أحجار ساخنة تحرق تحت الأقدام، والرجال محملون مثل الحمير يسقطون. والحجارة مع الثعابين تحتها، إنها تصفر وهي ترفع رأسها، تكرر اسمها الذي تكرهه وهي تحاول التأقلم عليه: "بَخيتة".. لا تصرخ عندما ترى اللسان الراقص للثعبان، "بَخيتة" لا تمسك يد "بيناه" عندما تقع على الحجارة... إنها تخشى، مع هذا الاسم الجديد، ألا يتعرف عليها الشمس والقمر. هي تحاول أن تجد طريقها في هذه الحياة الجديدة، لكنها لا تعرف إلى أين هم ذاهبون وماذا سيحدث؟ إنها تعرف أن قريتها تبتعد ولكنها لا تعرف هذا المشهد، فكل ما تراه، تراه لأول مرة. الريح حارة وتلسع ساقيها بحفن من الرمال وتظل لدغتهم على الجلد لفترة طويلة، مثل لدغات الناموس غير المرئي. هناك أيام تمتلئ السماء بالماء، تبدو كبطن ضخمة ورمادية فوقهم، ولكن لا أحد يتحدث إلى المطر ولا أحد يقول الصلوات والأغاني لكي تأتي، ويظلون هكذا بعطشهم منفصلين عن السماء.

إنها لم تعد في السجن، فهي في العالم الضخم والمتغير

وتنظر بإرهاق وشوق أيضًا، إنها ترى طيورًا بأجنحة حمراء وزرقاء تنادي على بعضها البعض من بعيد جدًا، تلتقي ثم تختفي بسرعة كما لو تم محوها من السماء مرة واحدة. هل تطير هذه الطيور إلى والدتها؟ هل يمكن أن ترى نفس الأشياء؟ هل تستطيع إرسال أفكارها لها؟ هي تبحث عنها، في كل ما تراه، في الصباح، في وقت مبكر جدًا، ترى صقرًا يستريح في السماء وأجنحته مفتوحة مثل يد هادئة، وهذا الهدوء يجعلها تبكي، يبدو مثل والدتها، قبل المصيبة الكبرى، وترى الزهور تتحرك في مهب الريح وتتساءل ماذا تريد رقصتهم أن تقوله لها؟ ولكنها لا تستطيع أن تخمنه، والدتها تعرف هذا، والدتها تعرف قراءة مناظر الطبيعة. ترى شجرة على الأرض تمت الإطاحة بها من قبل الحيوانات البرية وفروعها المزروعة في الأرض مثل مخالب وتتذكر جذع الباوباب على الأرض الذي يلعب عليه الأطفال في قريتها، وحيث تجلس والدتها لمشاهدة الشمس الآتية في الصباح، وتسمع وحوشًا تجري، تسمعهم من دون أن تراهم، خطواتهم ترتعش تحت أقدامهم وتفكر في والدتها عندما ترقص وهي لا تبارحها، ولكن وراء هذه الأفكار، هناك التعب والألم. الوطن الذي يجعل لعابها يسيل، ويبكيها عندما تنظر إلى النساء المقيدات وهن لسن أختها الكبرى، حناجرهن تصدر أصواتًا، لسعال لا يخرج، تتحشرجن وتتعثرن وأيديهن تتحركن باستمرار وأصابعهن يرتعشن في نهاية أذرعتهن. ورقابهن مشجوجة ومنتفخة، وأحيانًا أصابعهن تحاولن دفع السلسلة وهن دائمًا يعدن هذه الحركة ولأن هذا غير مجد تتوقفن، ثم يبدأن من

جديد، وهذا يضحك الحراس، إنه يزعجهم أيضًا، إنهم يقولون أنهن محظوظات لأنهن حرات الأيادي. ولكن هذا لن يدوم، إذ سيستخدمون سياطهم وعصيهم وخناجرهم، ويرفعون بنادقهم والنساء تخفن وعندما تسقط إحداهن، تسقط الأخريات أيضًا محدثات فوضى كبيرة، وتخنقهن السلاسل أكثر وأكثر، صرخات ودموع، ودائماً ما تتذكر الأخريات المكبلات وهي تفكر في أختها الكبرى. هل فعلوا هذا بها؟

إنها تدرك أنه منذ اختطافها لم تقم برحلة صغيرة، فهي مشت كثيراً وهي لا تحاول حتى أن تكون لديها علامات: التلال والجبال والكثبان الرملية والسهول والغابات، هي لا يمكن أن تعلم كل ذلك، إنه العالم الذي تكتشفه، تتغير اللهجات مثل المناظر الطبيعية، وأشكال الأكواخ، والحيوانات في الملكيات المسورة وتلك الموجودة في السهول ووجوه الرجال والنساء، والعلامات على بشرتهم وسواد بشرتهم. وبعضهم عليهم وشم والبعض الآخر بشرتهم مشروطة ولم تر هذا من قبل، وهذا جميل ومخيف، وبعضهم طوال ونحاف مثل سيقان النبات والبعض الآخر صغير مثل أطفال كبار في السن، وجميعهم معتادون على مرور القافلات، فقراهم على درب العبيد التي تذهب من (zeriba) إلى (zeriba) هذه المراكز المنتشرة في جميع أنحاء البلاد حيث تجمع وتحافظ وترتب بالنسبة لكبار التجار الذين يملكون العاج والأسرى. في وقت لاحق، سيتم نقلهم إلى الأسواق الكبيرة في هذه القرى الممتازة، أحياناً تنتهي الأعمال بشكل غير متوقع، أولئك الذين ليس لديهم عبيد للبيع يبيعون

شخصًا سرقوه أو أحد أفراد أسرتهم، "بَخيتة" رأت هذا مرة في هذه القرية المهجورة بسبب المجاعة، هذا الشاب المتضور جوعًا الذي اقترح فتاة صغيرة، مشوهة من النحافة. بصق الحراس على الأرض، لمن يأخذونها؟ صفعوا الفتاة بسوط وعلى الفور سقطت، وهذا دليل أنها كانت بلا قيمة. لم تفهم "بَخيتة" أنها أخت الصبي و"بيناه" هي التي شرحت لها وأصرت على أنها تصدق ذلك. تسد "بَخيتة" أذنيها، أحيانًا معرفة العالم هي إرهاق عظيم، ثم في اللحظة التالية يبدو العكس. وهي تريد أن ترى كل شيء وتستمع إلى كل شيء، حتى الذي لا تفهمه. إنها تريد أن تتذكر كلمات بالعربية، أن تتذكر ما تراه، وماذا يصنع الجوع والبؤس في الرجال، إنها ترى الخوف الذي يولد الغضب، واليأس الذي يولد الكراهية. أنها تتلقى كل هذا دون قدرة على تسمية الأشياء بمسمياتها، مشهد الإنسانية. هذه المعركة التي تمزقهم كلهم.

تكتشف أن الجميع يشتري ويبيع العبيد، ألا يمتلكون واحدًا أو اثنين فذلك هو قمة البؤس. وهي ترى العبيد في الحقول وفي البيوت، الحدادون ورجال المليشيات والفلاحون، هم في كل مكان، وباء من العبيد. وعندما يشتري الحراس عبيدًا جددًا ودائمًا ما يكونون شبابًا، تتكرر في كل مرة العملية نفسها: قبل الشراء يفحصون الأسنان والعيون والجلد والداخل والخارج، العضلات والعظام ويرمون العصا ويديرون ويقفزون ويرفعون الأذرع وأحيانًا يجعلونهم يتكلمون وأحيانًا يضربون النساء اللواتي يبكين، واللواتي يصرخن عندما يفصلونهن عن صغارهن فلا يصرخن بعد ذلك. يفتحن أفواههن، يمسكن الجزء السفلي من

بطونهن. في الجليد، تنظر بَخيتة إليهن وتفكر في طفل كيشمت، هل هي فتاة أم ولد؟ هي تشعر بالخجل، والانزعاج من البؤس الشديد، هي في هذه القصة عبدة، وهي لا تستطيع الإفلات من ذلك، هذه القصة المخيفة لا تخرج منها. وهي تستمر. هي خائفة أيضًا لأن التاجر يشتريهم ويتخلى عنهم، يتخلى عن الذين استنفذتهم المسيرة، أولئك الذين يسعلون، أولئك الذين يعرجون، أولئك الذين ينزفون وأولئك الذين يسقطون. ولكنهم يحتفظون ببنياه وبها، إنها تريده أن يحتفظ بهن، لأنه بدونه سيكون الأمر أسوأ، تعرف هذا. أن يتخلى الحارس عنهما لا يعني أنهن أحرار. على العكس، هي تعلم منذ اختطافها بأن رجالاً آخرين يمكن أن يأخذوها ويحتفظون بها ثم يبيعوها من جديد. لذلك فهي تخاف من التعرض للأذى، للمرض، من إظهار التعب أو العطش، تتبع القافلة، الرجال في المقدمة والنساء في الخلف وهي وبيناه بين حارسين. إنه طابور طويل من العري، واليائس الذي يجتاح العالم في لامبالاة كبيرة. هي التي قدمها والدها للقمر، من كانت تعرف أنها ضيفة الأرض، لم يعد الكون يحميها. يمر العبيد ولا تعيش في أي مكان. شعبهم لم يعد موجوداً. هم جزء من هذا التبعثر، الاستشهاد، الرجال والنساء بعيدون عن أرضهم، يسيرون وغالبًا ما يموتون على الطريق.

في الليل وقبل الراحة، يقوم الحراس بإزالة السلاسل والأقفال من حول أعناق الرجال والنساء ويضعونها في أقدامهم. اثنان يتم تقييدهما مثلهم مثل بَخيتة وبيناه، ويقومون بربطهما معًا، ويفعلان كل شيء معًا. مع الكثير من العار، في البداية، لا

يجرءان على النظر إلى بعضهما البعض، وبالكاد يتحدثان معًا. في ليلة، يجعلهما الإحراج، يضحكان لذلك يحافظان على الضحك. في الليالي التالية، يضحكان مسبقًا على ما يجب عليهما القيام به معًا في الأرض، وحتى لو كانت ضحكاتهم أكثر افتعالاً من الصدق، فإنهن يعطين للعار بعضًا من الكرامة. وتتعلم بَخيتة ذلك وستحتفظ به طيلة حياتها، كأناقة أخيرة: فالفكاهة، هي وسيلة على دلالة الوجود وحنانها أيضًا.

تحاول مع بيناه مزج لهجتيهما، وهو أمر صعب، وهما يمزجان بضع كلمات بالعربية، ولكن الكلمات العربية القليلة التي يعرفانها عنيفة وخشنة وغير قابلة للاستخدام بالنسبة لما يريدان أن تقولاه لبعضهما البعض. ويريدان رواية قصص الماضي والقول للآخر كيف كانت الحياة من قبل عندما كانت صغيرة (وأيضًا أكتر صغرًا) وبالتالي الإبقاء على اتصال مع حياتها، بقصتها الخاصة، بأحيائها وأمواتها. وتدرك "بَخيتة" أن "بيناه" أُخذت بوقت قليل قبلها، أنها أيضًا تريد أن تجد والدتها. أن تقول لها أن أختها الكبرى لم تُؤخذ عن طريق تجار العبيد، لكنها ماتت أثناء الولادة من ولد صغير، ولكي تفهم تقوم بالحكي بالإيماء عن الولادة والرضيع والموت. و"باختيا" لا تفهم كل شيء، هي تنظر للصغيرة وتفكر في الأطفال الذين كانت تروى لهم القصص وترى في نظرة "بيناه" التوقع نفسه، وتتخلى عن إخبارها عن أختها التوأم وعن والدها، وعن قطيع الأبقار التي كانت تقوده بالقرب من جدول الماء، وعن أخيها الذي كان يرسم ممر الثعابين على الرمال، وعندما تسألها "بيناه" عن اسمها الحقيقي،

فهي تلوي فمها وتقوس ذراعيها حتى لا تبكي. "بيناه" تعرف ما اسمها. اسمها (Awadir أوادير) وتقوله لـ بَخيتة كسرٍّ لا يجب أن تكرره أبدًا. في الليلة التالية، تنامان وهن ممسكتان أياديهما، وتشعر حينئذ "بَخيتة" بقوة غير متوقعة، بتيار قوي، هذا هو أيضًا جديد، أن نتبادل مع إنسان غريب حبًا لا نستطيع منحه للذين نفتقدهم.

في خضم عنف شمس بيضاء، تصل القافلة إلى تاويشا (Taweishia) لم تعد كما كانت تمامًا. كان قد تم شراء بعض العبيد، وتوفي آخرون . وقد تم متابعة القافلة خلال مسيرتها من سباع ونسور تنتظر أن تتغدى على العبيد المرضى الذين فصلهم الحراس وكانوا يحتضرون، وأولئك الذين توقف تنفسهم ويسقطون فجأة، وهؤلاء الذين يتوسلون ويقضي عليهم الحراس بضربة عصا ثم يتركونهم في المكان. وكان يتم وضع علامات على درب القافلة بهياكل عظمية مكسورة، مثل حزم الخشب، نظيفة وبيضاء. وقد تعرفت "بَخيتة" على الموت بدون طقوس أو دفن، موت ما بعد الموت. وهؤلاء ليسوا مجرد رجال يموتون ولكنه نظام يستمر في الحياة. كانت خائفة من صرخات الضباع والسرقات الثقيلة للنسور، وإنها لم تكن تعرف أنه على مسارات أخرى للقوافل الكبيرة، هناك هذه الحيوانات وقد شبعت جدًا، فلا تبرح مكانها. يموت العبيد ويبقون في الصمت الكبير للمسارات مثل ركام جثث أو مدفن للعظام.

تاويشا (Taweisha) هي النقطة المركزية حيث يصلون في النهاية بعد ثلاثين يومًا، هي المدينة الحدودية الأخيرة بين

دارفور وكودفان، في هذه الزريبة (zeriba) يدفع صياد الرقيق الأسرى الذين لن يقودوهم إلى الساحل. هي مدينة للتهريب ولكل تجارة غير مشروعة، الاتجار بالخصيان، الاتجار بالعبيد المستبدلين أو المباعين إلى الوسطاء، تهريب العاج والرصاص والبضائع والمرايا والعطور. ويوجد فيها تجار كبار ولصوص صغار، وكل شيء يتم تقيمه وقياسه، هو قابل للبيع.

أكواخ (?Cases مربعات) من القش وأكواخ من الحجارة معلقة بالتل حيث يعيش السكان وأسفل التل مخصص للعبيد وهي عبارة عن أكـواخ كبيرة بدون نوافذ. عندما تصل "بَخيتة" إلى تاويشـا، لا تعلـم أنها قد أصبحت جزءًا من التنظيم الشرس للعبودية. وفي الحال، فتشت قافلتها من قبل اثنين من الـ(faroucs)، سود كما خشب الأبنوس، سود مثلها، سود كخاطفيها، لكنهم أيضًا عبيد،. هم مسؤولي المعسكر، الجيش الذي بدونه لا يمكن فعل شيء، هم محسودون ومحميون، ويملكون في تاويشا المزارع، ولديهم النساء والأطفال، ولديهم عبيد أيضًا، غلمان صغار السن اختطفوا أو تطوعوا لخدمتهم وامتنانهم هائل تجاههم، فهم جنود أطفال، أنقذوا من البؤس. يتحدث الـ (faroucs) مع الحراس، ويعرفون بعضهم البعض جيدًا، فهي مسألة ثقة وتنظيم وتسلسل هرمي، بعض السكان ينزلون من التل، ويأتون أيضًا لرؤيتهم ويقولون أشياء بلغة لا تفهمها "بَخيتة". وهناك أطفال ينظرون إليهم بدون دهشة، لأن هذا يحدث طوال الوقت، فرز العبيد قبل الذهاب للسوق الكبير. ثم يحدث صمت فجأة تنهض الأجساد ثم تنحني،

والشيخ المسلم، "الفقي" قد وصل للتو، يجب أن تنظر "بَخيتة" إلى أسفل ولكنها لا تفعل فهي منجذبة فجأة إلى طفل صغير من سكان تاويشا نائم في أحضان والدته، لديها رغبة في لمس أقدام هذا الطفل. ذهنيًا، تخرج من صفوف العبيد، وتغادر الحياة الكريهة وتذهب إلى الحياة الأكثر ضعفًا والأحدث هي بالكاد تلاحظ "الفقي" المبجل الذي يدعو للتقوى والمرتدي لملابس سوداء ولحيته الطويلة تطفو على صدره والذي يأتي لأخذ الصبية الصغار. هناك يصطف العبيد مع صراخ وبكاء وجلد وتوسلات، فالخوف يسري مع الأنفاس. "بَخيتة" مستغرقة في تأمل أقدام الطفل، إنها صغيرة جدًا، فقد نسيت كم هي جميلة القدم بالأصابع الشديدة الصفر والأظافر التي تكاد أن تكون شفافة، وكسرتها، وانحناءها وبشرتها الرقيقة، فقد نسيت قدم الطفل، هذه القدم التي لم تمشي أبدًا. الفقي يستمر في اختياره ويعلم أن من بين العشرين صبيًا الذين سيختارهم في ذلك اليوم، سيبقى اثنان فقط على قيد الحياة، بعد الخصي، فالندرة، على وجه التحديد، هي التي تصنع الثمن، ولا شيء يجلب مالًا أكثر من شخص مخصي. الهواء ثقيل، والنسيم يرفع الأرض الجافة بكسل، "بَخيتة" تمد يدها نحو أقدام الطفل، والدته ترتد إلى الوراء وهي تصرخ فينهال حارس بالسوط على الصغيرة. يسود الصمت قبل أن تبكي هي ويبكي الطفل بدوره فقد أيقظه بكاء الأم. "بَخيتة" لا تبكي فقط بسبب السوط، إنها المفاجأة الحارقة، إنها تبكي الأطفال في قريتها، طفل كيشمت والطفلة التي كانت واختفت. إنه بؤس ليس له عزاء، الأم وطفلها يبتعدان، والأولاد

العشرون يتبعان الفقي، يذهب بنفسه لخصيهم، وهو استثناء يفتخر به، لأن هذه العملية يقوم بها عمومًا اليهود ولا يجب أن يمارسها أي مسلم. ولكن الخصيان أصبحوا نادرين لذلك اضطر فقهاء دارفور أن يضعوا أياديهم في العجين ودارفور، في غرب السودان، هو المكان الجديد للاتجار، وهو مكان لجوء لجميع الجناة، العنف في العنف واللاإنساني في اللاإنساني.

"بَخيتة" تبكي بحرقة وعبر الدموع التي تحرق عينيها المليئتين بالغبار، ترى عبدة شابة تمزق شعرها وهي تصرخ. تشرح بيناه: "الصغير، شقيق لها". توجه "بَخيتة" إلى صف الصبيان الصغار الذين يتبعون الشيخ الكبير. ليسوا مقيدين بالسلاسل، يمسكون أيادى بعضهم البعض ويتحركون بهدوء، فقد أخبرهم الفقي أنه يختارهم من أجل مصير عظيم، حياة للنخبة، إنهم لا يفهمون العربية. ولكنهم يتقدمون بشكل جيد لأنهم رأوا العقوبات التي تم اتخاذها ضد الذين يعصون. لذلك يظلون ودعاء ويتصرفون بحكمة. واحد من بينهم يلتفت في لحظة خاطفة نحو الفتاة التي أصبحت مجنونة، في نظرة بسيطة ناعمة وعميقة.

بعد ذلك، يصبح العبيد عصبيين ويبدؤون في الارتعاش من التعب تحت السماء البيضاء. ويتكئون على بعضهم البعض، ويؤلمون بعضهم البعض وهم يسحبون أعناق بعضهم البعض. ويخاف الحراس من تلف البضاعة، فيفتحون الأقفال لإزالة سلاسل الرقبة ووضعها في القدمين، ويفتحون باب الصناديق الكبيرة المستديرة ويدفعون بالنساء في صندوق آخر مخصص للرجال مع تحذيرهم: "لا زنى". ولكن العبيد لا يفهمون الكلمة.

ومن سيكون لديه قلب ليلتصق، وأي منهم سيكون لديه القوة ليتزوج؟ إنهم لا يعيشون. إنهم فقط على قيد الحياة.

تدرك "بَخيتة" سريعًا أن وجودها في الصندوق أسوأ من كونها في الخارج، هي تشعر بضيق شديد، تمامًا كما كانت الحياة في الحفرة حيث حبسها الخاطفان.

العقارب كبيرة مثل كف اليد، والفئران تبدو مثل الثعالب الصغيرة، وهي تدفع "ببيناه" في عمق الصندوق، يقفان ظهر كل منهما في ظهر الأخرى. وتدندن أغنيتها الصغيرة "عندما يولد الأطفال للبوة"، إنها لا تنطق في الحقيقة الكلمات، تهز فقط الموسيقى من بين شفاهها الجافة وهي تردد دائمًا نفس العلامات الموسيقية. تحاول جاهدة الهروب إلى داخل رأسها، لكن كل شيء من حولها يصرخ ويئن، فالعالم من حولها أقوى، ولا تستطيع الفكاك منه وتشعر ببيناه خلفها، وقد وضعت رأسها على كتفها منهكة وهادئة وتقول لها: "أنا أحب أغنيتك الصغيرة". هي لا تفهم الجملة لكنها تفهم الشعور. ومن الآن فصاعدًا ستكون تلك وسيلتها للتقدم في الحياة، متصلة بالآخرين عبر الحس، وما ينبثق عنهم ستشعر به من خلال الصوت والخطوة والنظرة أحيانًا.

إنها تنظر إلى اللواتي تعيش معهن. النساء اللواتي هي جزء منهن. هن شبات في معظمهن وهناك فتيات صغيرات أخريات، ينظرن إلى بعضهن البعض، يبحثن عن واحدة من ذويهن، يسألن عن الأخبار في مزيج من اللهجة واللغة العربية، ثم يعدن في

خيبة أمل وتعب إلى حالتهن كفتيات للبيع. هناك رائحة قيء وعرق وصديد وبول ودماء حيض ويفترشن كلهن الأرض، عندما ينمن. أين هن ذاهبات؟ ماذا سيفعل بهن؟ كم من الوقت سيدوم هذا؟ لا يعرفن ذلك. يأتون ليأخذوا المرضى ويخرجن ولا يُرين مرة أخرى. يأتون لأخذ الأكثر تقدمًا في السن، ويخرجن ولا نراهم مرة أخرى. يتم استدعاء الفتيات لبضع ساعات وعندما يعدن، يترنحن مثل النساء السكارى ويتحدثن عن قتل أنفسهن. أخريات يخبرن بقصص مروعة لا أحد يريد فهمها وحين يفهمنها لا يريدان تصديقها. تستمع "بَخيتة" لقصة هذه العبدة التي لم تعد تستطع اتباع القافلة وعلقها التاجر من رقبتها في شجرة، ليتأكد أنها لن ترتاح وأنها ستموت ولن يستفيد منها أحد آخر. هي لا تسمع اسم هذه العبدة الصغيرة ولكنها تفكر في أختها، وتعرف أنها أيضًا غيروا لها اسمها، ما اسمها اليوم؟ اسم مسلم لكي تصبح مسلمة وأيضًا للخلط بين الجميع، وأن لا يمكن لأحد العثور على أي شخص، ويتم التشويش على الجميع وتصبحن جزءًا من القطيع الكبير. يتم الحديث عن العبيد المهجورين؟ عن الشوكة في أعناقهن من مشتر ليس لديه ما يطعمهن، عن عبدات مطعونات أو مقتولات بالرصاص، ويتحدثون عن ذلك الرضيع الذي ألقي به للتماسيح وقفزت الأم في النهر للحاق به، وأيضًا عن البطن المليئة التي شقت إلى جزأين لأن الخاطفين راهنوا على جنس الجنين.

لم تعتد "بَخيتة" سماع كل هذه القصص التي لا تفهمها جيدًا. عن الكراهية والجنون الذي يستولي على بعضهن البعض، هناك حب قمشت، ولذلك ولفترة قصيرة جدًا، كانت كل

المحبوسات يشبهونها، تلك التي تحك خدها حتى النزيف، وتلك التي تنطح رأسها في حائط بيزية (Pise)، وهذه التي لم تعد تتحدث بعد الآن ولكنها تتذمر وتشتكي، وتلك التي تصلي والتي تشخر، والتي تضحك وهي تبكي. فتاة صغيرة جدًا جاءت تحتمي في صدرها، ترفض الكلام وتظل عيونها مغلقة. تشعر "بَخيتة" بقلب الطفلة ينبض ولديها هذا التشنج العضلي الذي يجعلها تضرب ذراعها بأصبع، ربما تكون هذه وسيلة للهدهدة وربما هذا نوع من الإيقاع لقصة، وربما هي تفقد عقلها، كيف نعرف، هي مثل طير صغير محمي ببعض القش، مساحة صغيرة من الدفء حيث تجد الراحة وعيونها مغلقة في حضن "بَخيتة". إنها تتنفس خارج نطاق الخوف، "بَخيتة" لا تعرفها، لا تعرف اسمها ولا من أين أتت، وكيف وصلت إلى هنا.

إنها تبلغ من العمر أربع سنوات وربما خمس. "بَخيتة" تشعر أن جميع النساء المحبوسات يرغبن في أن يفعلن مثل هذه الفتاة الصغيرة، تضع يدها على جمجمة الطفلة وتشعر بنبضها ينبض على كفها، وهي في المقابل تهدأ، وتتجرأ على التفكير فيما هو عزيز عليها، وتتجرأ في استدعاء وجه والدتها، ضحكتها، صوتها، رائحتها، تلك الحياة الأخرى حين كان لها اسما. عندما كان لها اسم!!... ما اسمها؟ وأختها التوأم؟ شقيقتها الأكبر؟ وصديقتها؟ كيف كانت أسماؤهن جميعًا؟ تبحث، ثم تقفز الفتاة الصغيرة في حضنها، تريل وتنطق بتنهدات عميقة.

في الصباح وقد صاح الديك للتو للمرة الأولى تنتفض

مذعورة، وتسمع النداء للصلاة، وتسحب من النوم فجأة بعد حلم عنيف، ملون وغير متماسك، تعرق ويدق قلبها في حنجرتها. وقد ضمت الصغيرة أرجلها إليها، لها ساقان صغيرتان نحيلتان مليئتان بالكدمات، الحواجب مقطبة والفم مضموم وهي ممدودة مثل العشب الجاف. لديها بالتأكيد، هي أيضًا، اسم مسلم، اسم لا يقول كيف كان العالم في اليوم الذي ولدت فيه. ولكن آباءهن لم يرددوا عبثًا اليمين للقمر، آباؤهن أقوياء وطيبون، وهي متأكدة أن اسمها المنسي يعيش في مكان ما، محمي، إنها تخمن أجسادًا نائمة في الرائحة الرهيبة والضوضاء الحميمة وتقرر أنها تقبل أن يكون اسمها "بَخيتة". هي تقرر ذلك وتقبله، "بَخيتة"، عبدة، مثل هؤلاء النساء وتلك الصغيرة جدًا بين ذراعيها التي تقول نعم ثم تعاود النوم. إنها تنزلق في حلم، تحضنها وتبحث عن الكلمات لتخبرها أنها تحبها، أن تطمئنها، هي تحبها لدرجة أنها لا تستطيع العثور على الكلمات التي تعبر عن هذا الحب.

بعد بضعة أيام، يتم إخراجها من الصندوق، ليس فقط للعمل أو خدمة متعة الرجال، يخرج الجميع الرجال والنساء والشباب والصغار جدًا يخرجون. لقد قذفوا بالموتى. وقبل أن يكونوا عديمي القيمة تخلصوا من المرضى بأن تنازلوا عنهم بأرخص الأسعار لبعض الباعة المتجولين عابري السبيل. ويظل الخيار الأول للشباب والأطفال، الأصحاء والأقوياء، يخرجون ويلتقون باليوم من جديد، روائح الخبز المطبوخ والذرة المحمصة، النباح وتأوه الماعز وصراخ الحمير ونداءات وأصوات القرية، هذه هي الحياة وجمال الحياة وصعب مواجهتها، تسمع "بخيتة" صوت الريح في أوراق شجرة الباوباب، قريبة ومألوفة جدًا، حتى أن الدموع تتسلل إلى عينيها، لا تعرف لما كل ما هو جميل يسبب لها الكثير من الألم، ولماذا اضطراب هذه الأوراق التي تهتز بشدة تقبض قلبها. هناك تسابق، ويوضعون كلهم في صفوف. والخوف، في لحظة، يستولي عليهم. تسمع صوت بكاء، في مكان ما أمامها، إنه من الفتاة التي كانت تنام في ذراعيها ومتجاوزة شكواها، هناك أصوات الريح في أوراق شجر الباوباب، هي أغنية تتضخم، خارج النغم. أصبح الطقس حارًا بالفعل، وبداخل كل عبدة، هناك هذا الإحباط الكبير من فكرة السفر من جديد والمشي بدون أن تموت.

سيتقرر من سيذهب إلى الساحل، السوق الضخم، إلى الخرطوم، حيث يعيش التجار الثلاثة الكبار الذين يتشاركون في التجارة. حتى هذا الوقت، ذهبوا فقط من يد إلى يد، من وسيط إلى وسيط، والوجهة النهائية تقترب، يفحصون من جديد ويتم تقيمهم، منقسمين إلى مجموعات، والـ (Faroucs) يوجهون العمليات، والفقي هنا أيضًا، ومفاوضات ومناقشات وكلام لا ينتهي. وتعلم بَخيتة أنها لا ينبغي لها أن تفتح عينيها بكامل طاقتيهما، ويجب عليها المشي ببطء حتى تستعيد ساقاها قدراتهما، وأن لا تلمس أقدام الرضع وأن لا تنظر للبالغين في عيونهم بقوة وبدون رمشة عين، وأن لا تتحدث مع بيناه وأن لا تظهر أي نوع من المعاناة وأن لا تطلب أن تشرب. وهي تعرف بالتأكيد كيف يجب عليها أن تتصرف ولكنها تخشى من أن يفصلوها عن بيناه. ساقاها ترتعشان من وقت لآخر وتتلامس أصابعها وهي تقول: *"لن أتخلى عن يدك*، وهما تطالعان الشباب والشابات وهم يغادرون، واحدًا تلو الآخر. تتشكل القافلة ويرحلون فيبدأ كل شيء من جديد، المفاتيح والأقفال والسلاسل، والواحد تلو الآخر يختارون، وهي تفكر لو أنه تم فصلهما هي وبيناه ستصاب بالجنون مثل اللواتي رأتهن في الكوخ وتتذكر والدتها مرة أخرى، "ابنتي الصغيرة الحنونة والطيبة". وهي لا تزال طفلتها الصغيرة. وهي لا تزال ابنتها الصغيرة. ولم تصبح بعد مجنونة، ولن تصبح هكذا. ترى الصغيرة التي كانت تنام بين ذراعيها وهي تتعثر وترحل، وجهها مرفوع ونظراتها ضائعة تبحث عن امرأة تتعلق بها. المجموعة ترحل وسحابة من الغبار مسجون في الضوء المسبب للعمى.

عندما تبتعد أصوات السلاسل والسياط والأوامر، وعندما لم تعد تسمع شيئًا أكثر من نباح الكلاب التي كانت تتبعهم، ثم أصوات الكلاب العائدة، تكون هي وبيناه معًا لمرة أخرى. ربما لمدة يوم أو اثنين فقط، ولكنهما معًا. ربما كان هناك الكثير من الأطفال في القافلة التي غادرت للتو، سلعة معقدة وثمينة تؤدي إلى إبطاء القافلة. وقد وُضعا جانبًا من أجل قافلة أخرى. مفاجأة مدهشة، هذا الذي يحدث لهما، فهذه مصادفة حركت فيهما الرغبة في الصراخ والتصفيق والقفز في مكانهما وأن ترمي كل واحدة نفسها في أحضان الأخرى، وأن تشعر في حضنها بجسدها النحيل وعظامها كفتاة صغيرة ورائحة الرطوبة والبول والغبار ورائحة العجائز التي لا تتناسب مع قوة هذه السعادة الخفية. بالطبع هما لا تفعلان ذلك، إنهما فقط تغامران بالالتصاق ببعضهما البعض، ولكن بدون أي إشارة للتعلق وبدون أي فيض من الإنسانية.

يقوم الحارس بتقيدهما معًا، يحبسهما مرة أخرى، ويتحدثان معًا ولا تفهم إحداهما لهجة الأخرى ولكنهما يفهمان أحزانهما. دون الحاجة لمتابعة قصص بعضهما البعض، تفهمان عصيانهما، وقريتهما وآباءهما وأجدادهما وإخوانهما وأخواتهما وأبناء عمومتهما وأسلافهما وموتاهما، كل أولئك الذين ينتظرونهما، فيصبح كل هذا حقيقيًّا مرة أخرى وبلا نهاية أيضًا، كما لو أن هناك حياة طويلة وراءهما. وأحيانًا تروضان الكلمات الأخيرة لكل منهما، وأحيانًا يكون هذا غير مشجع وغير مفهوم، وأحيانًا أخرى تتطابق الكلمات وتتفجر وعندئذ يكررا الكلمات الأجنبية. وعندما يتركان بعضهما وتبقي كل منهما بمفردها تجتران كل ما اعترفتا به، فإذا

بالحزن يقتحمهما بعنف لا يمكن احتماله. حتى أنهما في صباح ما، في انفجار من جنون ما، تفعلان هذا وتقرران ذلك، وتقولا: سيذهبان للتواصل مع أسرهما. إنها علامة على فقدان الوعي والشباب والحياة. ستهربان.

يدوم الحال على هذا المنوال لمدة ثلاثة أيام. التحدث والحلم. التحدث عن قراهما والحلم بهروبهما. إنهما جزء من عالم لم يختف بعد، طالما يتذكرانه وسوف تعودان إليه، تعودان على آثار خطواتهما، تعودان إلى نقطة البداية.

وتتخيل بَخيتة نفسها بين ذراعي أمها، وهي تمسكها في أحضانها وعيناها مغلقتان، حينئذ ستشم رائحة اللبن وعرقها المسكر وتوأمها أيضًا ستكون هنا، نصفها الآخر الذي انتظرها والتي بفضلها لم تترك القرية بكاملها، فجزء منها صار عبدًا والآخر مازال حرًا يحتمي كل ليلة بكنف والدها. العاطفة هي المحرك والعائق، وبَخيتة تنتابها التيارات المضادة من الحلم والقلق، وتتساءل هل ألوجوسا مازالت موجودة، وإذا ما كان رحيلها لم يشعل النار في القرية، وأن السكان لم يهربوا من هذا المكان الذي أصبح خطيراً جدًا، فهل الأماكن تظل موجودة عندما نتركها؟

في براءتهما وأملهما وحوارهما غير الدقيق، تتخيل هي وبيناه أن قراهما قريبتان وعائلتيهما يعيشان معًا، وأن العثور على إحداهما هو عثور على الأخرى. في النهار، تعملان في إحدى مزارع (الزريبة)، في وسط عبيد آخرين، ونساء مسنات صامتات ومنهكات، مكبلات بالسلاسل ويحرسهن حارس . وفي المساء في الكوخ الذي بلا نافذة، هما مازالتا مقيدتين. ومع ذلك تعرفان

أنهما سوف تجدان وسيلة، فالهروب يبدأ من العقل. في الليل تشدو بَخيتة أغنيتها الصغيرة وتعلمها لبيناه في عمق الكوخ المليء بالصور وبالأغاني والحكايات عن عائلاتها والأساطير المدهشة أيضًا، تحكيان لبعضهما، قصة الساحر الذي يقوم بإصلاح البنات وقصة الأم البرية والأشياء التي تعود، وألعاب الزلط، والقمر يولد كل شهر من جديد ويقترب، وعالمهما سيتغير، وبالفعل عالمهما تغير.

وفي ليلة، يحدث الأمر. يعود الحارس من الحقول مع حاويات الذرة التي تملأ عربته. هو ذو مزاج سيئ وفي عجلة من أمره. يجعلهما تخرجان من الكوخ ويأمرهما أن تفرزان الذرة لأن عليه بيعها قبل الليل وليس من مصلحتهما التسكع. ولكي تسير الأمور بشكل أسرع يرفع عنهما السلاسل. يسمعنها وهي تسقط. ثم تشعران بأقدامهما تتحركان على الأرض وترقصان من الأمام للخلف، ويمكنهما الآن أن تقفا وتلتفتا، وأن تتحركان بدون إيذاء بعضهما، والساقان ريشتان يمكنهما الطيران. وهذا يجعلهما ترتعدان بقوة. لأنهما تعرفان أنه الآن. يجب عليهما الفعل . إنهما لا تحتاجان للتحدث إلى بعضهما. يجب عليهما الطاعة وفرز الذرة حتى لا تتعرضان للضرب، ولكن يجب أيضًا عدم فرز الآذان والهروب. أيديهما ترتعشان وهما يفرزان الذرة وتنظران من حولهما. وبسرعة ومثل الطيور، تحولان رأسيهما، الذرة والقرية، الذرة والطرق حول القرية، الأصوات والروائح والعالم الذي يتنفس، ثم يدخل الحارس في الكوخ. يتركهما وحدهما. كلاهما بدون السلاسل. تسمعان الدعوة للصلاة، الصوت لم يعد

يخيفهما، إنه صوت في الريح، والسماء في مكان آخر.

يبدأ قلب بَخيتة يدق على إيقاع التم تم، بنفس الطريقة التي حدثت عندما خطفها الرجال وراء أشجار الموز، وهو نفس النداء الذي يدق في الأذن ويسحب الجسد برفق، ويقرع ويصر ولا يتوقف، ويقرع من جديد ويصر حتى الدوار.. لم يعد في استطاعتهما فرز الحاويات المخصصة للبيع، والأخرى التي ستعطى للحيوانات يرميانها عشوائيًّا في أي مكان وهما تنظران لباب الحارس الذي ما زال مغلقًا، تراقبان وترصدان وتأملان في اللحظة التي ستبدآن فيها الجري. الأطفال يلعبون على التل، وصرخاتهم وضحكاتهم تسري في المساء القادم، نداءات الحمير التي تنتظر الطعام، والكلاب التي تدور حول الرجال الذين يطعمونها، ومن حظهما أن الكلاب جائعة. هناك امرأة بالقرب من البئر. ملأت جرتها وسحبتها ووضعتها فوق رأسها. حتى هذا الوقت هي مازالت هنا. بيناه تبدأ في البكاء لأن المرأة تظل بالقرب من البئر بدون سبب وحيدة مع إرهاقها وكسلها. باب الحارس مازال مغلقًا يمر رجل بالقرب من كوخه، يتردد ثم في النهاية لا يقرعه، يغادر، وهو يمسك سبحة في يده ويحركها بسرعة شديدة وينظر إليهما وهو يغادر وقد تأرجح جسده الكبير جدًا، والمنحني. المرأة أيضًا تغادر البئر. الظلام يهبط . ولا يوجد أحد. في الصمت مازالا يسمعان صرخات الحمير. هي تشبه أصوات قرون البقر التي ينفخ فيها الموسيقيون. وهو ما يثير الضيق. وكأنه إشارة. ودون التحدث مع بعضهما البعض، دون النظر إلى بعضهما البعض، فإنهما تقذفان بآخر آذان وتمسكان بيدي بعضهما ويركضان.

بطريقة عشوائية. وبأسرع ما يمكنهما تركضان. يأتي الليل، ويهبط على أرض بدون سماء وبدون ضوء، فقد اختبأ القمر وراء السحاب، والظلام يحميهما. وأيديهما متداخلات معًا وأنفاسهما مثل غناء المزامير. إنهما تركضان، بدون تفكير تركضان، بدون شعور بالتعب أو الخوف، وإلى الإمام يقمن بالفرار. *"أنا لن أترك يدك"*.

تصلان إلى غابة. ومن المستحيل الركض بسرعة وسط الأشجار والجذور، إنهما تبطئان. والأشجار مليئة بالعصافير التي تنادي على بعضها البعض . وهناك في الفروع أصوات أجنحتها، تضرب سريع وفوضوي. هناك قرود، صراخهم حاد. الأشجار مرتفعة، ضيقة وقريبة جدًا من بعضها البعض، فروعها ترتفع إلى السماء ويبتلعها الفضاء. تسيران بسرعة، وقت طويل. ثم تتوقفان. أن تتنفسا فهذا شيء مؤلم، والعرق يسيل مثل مطر، والفم ساخن وجاف. لا تعرفان أين هما. ولا تعرفان في أي اتجاه يجب عليهما الذهاب. ولكن يجب الاستمرار.

تسيران في الليل، إنه عالم جديد، معقّد وثقيل، ولكن في نهايته تنتظراهما والدتيهما. هما الآن لا تشعران بسيقانهما، فقد تجاوزتا التعب والألم، وتجاوزتا أي تفكير. فجأة هناك ضوء، وهج يأتي من عمق الغابة، إنها شعلة تمر بين الأشجار دون حرقها، يتم الاحتفاظ بها مضيئة وآمنة، الصغيرتان تغادران مرة أخرى، وتركضان من جديد وقدماهما اشتبكتا في الجذور، وفجأة تشتعل الغابة. هناك شعلات في كل مكان، وكأن التي تتبعهما قد أشعلت شعلات أخرى غذّتها النيران في الغابة وفي السماء، هذه

الهزات الصفراء والحمراء، تطوقّهم الحرب. وهما تركضان. وتقعان وتجرحان وتقومان وقبل أن تلتهمهما النيران تتخليان عن كل شيء، وقد فازت النار وتتوقفان. وترتجف أقدام بَخيتة المليئة بالدم وكأن سوطًا يقودهما بعيدًا. هي تستعيد نفسها. وتنظر. الغابة غارقة في الليل. ولا يوجد مشاعل. وبالتأكيد لم يكن هناك أبدًا. لقد هدهدهما الخيال ولم يتركهما الهذيان . وتسمعان الطيور الأخيرة تنادي بعضها البعض، وأوراق الشجر الأخيرة تزوي معًا والقرود تئن، ثم يهدأ كل شيء. كل شيء يهدأ.

إن بَخيتة وبيناه طفلتان ضالتان وقد كانتا تدوران في الفراغ واخترعتا الحريق، وفي ملاحقتهما الخيالية استعادتا خطواتهما. والآن تنتظران صامتتين وعاجزتين في الغابة الساكنة، وتمسك كل منهما بيدي الأخرى وتشعران أنهما على قيد الحياة. لم تأخذا حذرهما عندما سمعا الخطوة الهادئة والبطيئة تقترب. وهما تعتقدان أنهما ما زلتا تتخيلان، ولكن سرعان ما سمعا تذمرًا بطيئًا ومتعبًا يتفق مع الخطوة القادمة. إنه وحش كاسر. وهي صبورة، لا تهتز. بَخيتة تدفع بيناه نحو شجرة والصغيرة تتسلقها، مدعومة بالخوف تصعد بسهولة. تتبعها بَخيتة. وستظل طيلة حياتها تتذكر هذه الليلة. إنها مثل قصة خيالية، أسطورة. وسوف تفخر بها مع بعض الحرج، ولكنه سيعيدها إلى الوحشية الحقيقية لسودان كان لها فيه وكانت تعرف كيف تواجهه. ودائمًا، سيحب الأطفال أن تحكي لهم عن الوحش الذي سوف يلتهم الفتيات الصغيرات الهاربات. وسوف يحبون تخيل بَخيتة وهي صغيرة ونائمة في شجرة، مثلها مثل القرود والعصافير.

ولكن ما لن تقصه على الأطفال، هي آهات بيناه الصغيرة ورعبها. ما لن تقوله، هو أنه في الشتاء، عندما تعود ذئاب فينيتو إلى التلال المحيطة فإنها سوف تسمع بيناه التي تناديها ولم تستطع إنقاذها.

في الصباح، الغابة توقظهما بحدة أغاني الطيور، كما لو أن الأشجار تتفجر مع نداء وصرخات الوحوش الجياع في ذلك اليوم الآتي، متنافرة وخفية ومتواصلة. والضوء يمر بالكاد بين جذوع الأشجار الضيقة وفي الأعلى، الأوراق لها اللون الشفاف للحياة. لقد هدأت روح الليل ولديهما فرصة جديدة. إنه الصباح الأول بدون سلاسل وبدون حراس. إنه اليوم الأول.

إنهما تجمعان الفاكهة التي لا تعرفان كيفية فتحها بشكل جيد، والتي لا تعرفان اسمها، فالعالم يرحب بهما ويطعمهما، وهنا شيء تتذكرانه، إنه الزمن بدون تهديد. ويدفعهما نفاذ الصبر من جديد إلى العثور على أمهاتهما، وبعد ساعتين من المشي، تخرجان من الغابة وتصلان إلى السهل الكبير. إنه مشهد واسع وجديد، وتنتابهما الرغبة مجدداً في الركض على هذا السهل، لكنه مغطى بمطبات صغيرة وكأن الأرض كانت تغلي واحتفظت بحروقها التي شكلت الآلاف من البثور يصعب المشي فوقها وسريعًا ما يصير مؤلماً. وهناك أيضًا تلك الشجيرات المليئة بالأشواك التي تدفعها الرياح تجاههما وتطفو على سيقانهما وتخدشهما. لا يمكنهما فعل أي شيء للدفاع عن نفسيهما وتمشيان على الرغم من كل شيء، تمشيان والشمس عالية والسماء الحارقة تنزل إليهما. هذا هو الطريق للعثور على أمهاتهما ويجب متابعة التحدث مع أمهاتهما طوال الوقت، من

أمل تهدئة قلقهما. وبَخيتة تخبر والدتها بما رأته وما صنعوه معها ووالدتها تغفر لها، وهذه المغفرة تقويها؛ لذلك هي تعبر هذا اليوم بكل ما فيه من أشواك وحرارة من أجلها.

اليوم يصل لنهايته، وسوف يأتي الليل ومعه الحنين الممزوج بالخوف. إنهما لم تعدا تتحدثان، تتقدمان بخيبة أمل دون أن تبوحا بهذا الشيء، إنهما مشوشتان ومترددتان. وفي الوقت نفسه، تسمعان معًا هذا الصوت البشري الذي يسمرهما في مكانهما. وعلى الفور تتوقفان للبحث عنه. ولكن السهل مهجور. وأنهما نقطتان سوداويتان في كف الغروب. والصوت يقترب. إنهما تجلسان القرفصاء وراء شجيرات من الأشواك وترصدان. الصوت موجود هنا. الحارس وجدهما. وصوته يحمل الغضب والتهديد. تمسكان أيادي بعضهما . بيناه تبدأ في البكاء وترتعش يدها بقوة في يدي بَخيتة كما لو أن أحدًا يحاول فصلهما. الصوت قريب جدًا الآن وهو صوت السوط. السوط الذي يخيف حتى إن كان ساكنًا. وقد عاد هذا الصوت للبحث عن بَخيتة. وكان يأتيها كثيرًا للبحث عنها. كان يأتي عندما كانت نائمة. وكان يقول إنها لم يكن لها الحق في الراحة. وكان يأتي عندما كانت تصلي. كان يقول أن ليس من حقها أن تأمل. الصوت هنا الآن في السهل الذي كانت تعتقده مهجورًا. وهما تجلسان القرفصاء وراء الأشواك، واثقتين من أن الحارس سيراهما، ولكن لا تستطيعان الوقوف أمامه، لا تستطيعان ترك أياديهما. وبرأسيهما المنخفضتين تنظران وجسدهما المنحني، ومن تحتهما تتسرب فضلاتهما وهما الآن أكثر قذارة وخجلًا من أي وقت آخر. يمكن أن يكون

الحارس فوقهما الآن، وهو صابر، يستمتع بغضبه. وتغلقان عيونهما بقوة شديدة حتى أنهما ترتعشان وتقرصان خدودهما بينما الأفواه مغلقة وتسمعان. الآهات. والشكاوي. والكحة ذات الأزيز. وتتعرف بَخيتة على الأزيز المليء بالمياه في حناجر النساء. هؤلاء هم العبيد. العبيد الذين يمرون أمامهما. إنهم العبيد الذين يعودون.

إنهم يتقدمون في السلاسل ذات الأصوات الثقيلة. إنهم يسحبون أنفسهم ويضربون الأرض ويندبون سوء حظهم. إنه صوت الحديد يصفع ويئن في الهواء. الطابور طويل، للمنهكين والمحتضرين. بتكشيرتهم المصنوعة من الألم. وشفاهم المحترقة. وعيونهم العمياء. وبشرتاهم الممزقة. وكأن الذي يمر ليس قافلة ولكنه شخص واحد، وألم واحد، يضع قدمه على السهل ويسحقه.

إنهما تشاهدان العبيد أثناء مرورهم. ثم تراقبانهم وهم يختفون وصوت الحارس يتلاشى. في تلك الليلة، لقد سار الشقاء من أمامهما وتجنبهما.

والمكوث في السهل بمثابة تعرضهما للخطر، وكأنهما معروضتان للأعين الكثيرة، يجب عليهما الابتعاد عن درب القوافل. وليس لديهما نقاط أخرى للتواصل إلا الغابة، ولذلك عليهما العودة للغابة محبطتين ومرعوبتين من الظلام، إنهما تستعيدان طريقهما آملتين أن خطواتهما ستقودهما إلى مكان ما، ولكنهما لا تعرفان قراءة السماء أو الأرض وظلالهما تتبعانهما بشكل عشوائي.

تشتكي بيناه من ألم في الأسنان وتئن وهي تمسك خدها. ولا تشعر بَخيتة بأي شيء وقد تجاوز جسدها الألم وأصبح شبه كتلة. وهما تمشيان حتى الليل العميق وعندما تدخلان في النهاية الغابة، المشدودة القامة والمرتفعة الجسد مثل ملكة عملاقة، لا تشعران بنوع من الراحة ولكنه ارتباك كبير. فـ بَخيتة لا تتعرف على الأرواح الخيرة. وهي تنظر إلى الليل وتحاول أن تتذكر ما كانت تقصه عليها والدتها عن العالم وهي تخشى أن يمحيها الليل وأن يخفيها. كل شيء ممكن حدوثه. وكل شيء قد حدث بالفعل. في هذه الليلة ليس لديهما شجاعة النوم من جديد في جوف شجرة، مع الخوف من الوقوع، فتتركان نفسهما لثقة قدرية، وتنامان على الأرض. ولا تزال أسنان بيناه تؤلمها. وقد حفرت الرمال جروحًا في أقدام بَخيتة والألم يقرع حتى القلب. ولا يعيش منها حتى الآن إلا جزء صغير جدًا. وهي مستلقية على الأوراق الصلبة والجافة دون أي حركة ودون خوف وبدون حزن. وهي تنحرف. ثم فجأة يحدث شيء. ضوء مبهر ويد وضعت في داخلها، تنزع عنها ألمها مثل شراع يستريح. وهي تتنفس من دون ألم. تنتظر قليلًا، وهي متفاجئة وتتساءل إن كان ذلك سيدوم، وهو يدوم، حينئذ تجلس وتنظر إلى الليل. وهو مضيء ويرتعش بسبب حرارة تمر من فوقها، ولهذه الحرارة تستسلم.

في هذه الليلة قصّت القصة المسلسلة storia meravigliosa التي تحكي "لقاءها مع ملاكها الحارس". وهي لم تذكر هكذا ليلة العزاء. كانت لغزًا وأملًا، وكانت بالتأكيد رغبة في الحياة أكثر، الفجوة التي تمر منها القوة الإنسانية الأخيرة، مع اليقين الناري

والعنيف، بأنها ليست وحيدة تمامًا.

في اليوم التالي، مشيًّا لفترة طويلة بأقل ثقة وبأقل براءة، وخرجا من الغابة، ليس عبر السهل الذي تعبره القوافل ولكن من خلال السهوب. السهوب التي تبدو هائلة. ولا يبدو أن لها نهاية. ولسوف تتذكر بَخيتة هذه السهوب دائمًا باعتبارها محيط أمواج منخفضة لا تنتهي أبدًا، وكانت السهوب أثناء المشي تستمر وتكشف عن غيرها، وهكذا فقدتا كل مرجعية، كان ذلك كله يخلق بالنسبة للفتاتين الصغيرتين نوعًا من الدوار.

وكانتا تتعثران في العشب بدون شكوى. وكانت الريح تصارعهما ثم تتجنبهما ثم تعود إليهما بازدراء عظيم. وكانت الأعشاب تقطع أقدامهما وأرجلهما، وهما مازلتا يسيران تحت السماء الهائلة التي لا تشير إلى شيء. والمشهد لا يتغير أبدًا، نفس الساعات تحت نفس السماء الفارغة وهما تسيران وأعينهما محترقة وشفاههما مدمية وتشعر بَخيتة بجسدها يتقلص من تأثير العطش والجوع. فهي تشعر أن العطش يملأ عضلاتها وتحت جلدها. وتشعر أنها قريبًا لن تشعر بشيء.

ثم فجأة تظهر الحقول. في البداية لا تصدقان ذلك فكل شيء غير واضح وغير واقعي فهذه الحقول فجأة، إنها بمثابة وهم. بيناه تسمع الجدول قبل أن تراه، صوت يقرع ضد الرياح، صوت صفير جدًا يختلط بأنفاسها الواسعة، بينما، بَخيتة، لم تسمعه. بدون بيناه كانت ستموت. وبدون بيناه لما كانت لديها القوة أن تصدق وجوده: فأصوات المياه كانت تتداخل مع أصوات الرياح. هما تشربان لوقت

طويل، وحتى وهما لم تعدا عطشانتين، استمرتا في الشرب، حتى الري، إنهما تشربان مثل خيول نهمة . تشربان وتغتسلان وتشعران بتدفق الماء الفاتر وانهماره. تختلط دموع العرفان بالجميل بماء النهر. إنها لحظة، تشبه ما كان في الماضي، تخبرهما بأن طفولتهما ليست ببعيدة، وأن المفاجأة ستتحقق لعائلتيهما، إنها الفرحة التي تقارب الشعور بالألم.

تبدآن في المشي مجدداً، وتجدان في نفسيهما رغبة في التحدث مرة أخرى والحكي مرة أخرى عن ما سيجدونه، الأحياء والموتى. الآباء والأجداد. وتعرف بَخيتة قصص بيناه، ويبدو لها أنها عرفت بعضًا منها تمامًا، أختها الصغيرة التي علمتها المشي، والتي تُدعى منديه (Mende) والقط الصغير الذي أعطاه لها والدها والذي يُدعى قط، وهي تريد دومًا أن تشدو لها بَخيتة أغنيتها الصغيرة "عندما كان يولد الأطفال من اللبوة" وذكرياتهما، المفهومة وغير المفهومة، تختلطان، كما لو كانتا تفصحان عنها للحصول على المزيد منها. ولكن وجوه أمهاتهما وصوتيهما، فهما يحتفظان بهما لنفسيهما، كنوع من الأمل القوي لدرجة إنه موجود في شهقة. وعلى كلٍّ لا يجب العودة بسرعة شديدة إلى هاتين الفتاتين الصغيرتين. يجب التماسك. والإبقاء على بعض الشجاعة . والقوة من أجل الاثنتين.

اليوم التالي هو يوم سعيد. إنه اليوم الثالث، وهما قريبتان جدًا. انتهت الغابة، وسهل العبيد والأعشاب المتحركة في السهوب. والآن هناك الحقول والحيوانات الأليفة وعمل الرجال. هناك الحياة ومظاهر الحياة. وعلى كل، إنهما تبتعدان عن القرى بغريزتيهما. وتراقبان البائعين الجوّالين على ظهر حميرهم المحملة أو أبقارهم الهزيلة وتسمعانهم وهم قادمون من بعيد، يبيعون الأقمشة والبصل والخرز الزجاجي وخواتم الحديد أو النحاس، وأحيانًا البشر من كبار السن أو المرضى في معظم الأحيان، والضعفاء الذين لا يريدون أن يزاحموهم، فلو كان لديك عبدٌ للبيع فهذا يرفع من قيمة تجارتك بعض الشيء، والذي ليس لديه حتى عبد للبيع فهو معدود من الفقراء المعدومين. وقد بدأتا في فهم سير الأشياء. وهما تراقبان أيضًا المربوطين بسلاسل والرجال الفرادى، فقد أخذتا من الحيوان ضبط النفس والاستشعار، وهما تتقدمان وتلاحظان من بعيد، وتسيران بمحاذاة العالم، هذا العالم الذي يجذبهما ويثير اهتمامهما، وتتساءلان من هي أول من ستشاهد ظهور شجرة قريتها. وفجأة تدفع بيناه بَخيتة من كوعها:

-أليست أمك هناك؟ أمك؟ هناك؟

بَخيتة لا تعرف أين توجه نظرها وبيناه تشير إلى امرأة تضع

طفلًا على فخذها يغني وعلى ظهرها آخر ينام.

-إنها هي! هاه! هي أمك؟ أمك؟

ولكن المرأة لا تشبه في شيء أم بَخيتة، لا الحجم، ولا الوجه ولا لون البشرة. وما الذي ستفعله أمها هنا في هذه القرية التي ليست لها؟ وبَخيتة تشير إلى بيناه وإلى قطيع من الأبقار.

-أبقار قريتك هناك؟ هاه؟ أبقارك؟ هناك! انظري!

وتصمتان، ثم تبدآن في البكاء وهما محبطتان ومملوءتان بخيبة الأمل، كما لو أن الطرف الآخر لم يبذل أي جهد للاعتراف بذويه، كما لو أن الآخر لم يبذل إلا سوء النية. إنهما تريدان أن تسألا عن طريقهما ولكنهما لا تجرؤان على التحدث إلى الأجانب، وتريدان السؤال عن المساعدة ولكن بمجرد فتح فمهما، سيكون من المفهوم أنهما ليسا من هنا. ولكن لماذا لا يوجد في أي تل أو في أي ملكية مسورة أو في أي حقل أو عند أي عابر طريق علامة صغيرة واحدة عن عائلتيهما؟ الكثير من الناس ولا شيء عنهما، بعد ثلاثة أيام من المشي ومن الشجاعة، ولا شيء مألوف لهما. ومازالتا تمشيان وقريبًا سوف يصاحبهما الظلام، وسيقودهما بلطف إلى ليلة أخرى طويلة في الخارج. وفجأة يظهر. ويسمرهما الذهول في مكانهما.

"إنه هو"! تقول بيناه.

تنظر إليه بَخيتة، والقلق يعتصر حنجرتها، وبيناه سعيدة وتكرر: "إنه هو! إنه هنا! لقد وصلنا!" هذه هي نار قرية بيناه، نار قعدة السهرة، المشتعل عن بعد. وبالنسبة لـ بَخيتة إنه شيء آخر.

منذ الغارة والقرية المشتعلة فإن النار شيء آخر. بيناه تأخذ يدها، والضحك يرتفع داخلها عصبي ومموّه، وتركض وهي تجر بَخيتة. وهذه الأخيرة تعتقد أنه يجب عدم الذهاب، ولكنها تستسلم لحماس بيناه، ورغمًا عن إرادتها تتبعها، لأنها هي أيضًا، لديها رغبة في أن تصرخ "ماما"! وأن يكون ذلك ممكنًا. أن تصرخ الكلمة كملاذ أخير، كأغنية انتصار. "ماما" بكل النغمات، كنداء، كأمر! لذلك تركضان والنار تخرق الظلام وعندما تتوقفان للحظة لالتقاط أنفاسهما، يقترب رجل. وبشكل غريزي، يرجعان إلى الوراء. وتنظران إليه بكل الريبة وكل التحدي القادرتين عليه.

-"أنشرب؟ قليلًا؟"

انضم كلب أصهب إلى الرجل الذي يسلمهما القرع، وتترددان وترفضان على مضض، وهو يصر. ومن خلال إطالة ذراعه إلى أقصاه، إحداهما تستولي على القرع. وتتناوبان على الشرب والماء يكاد يكون طيبا طيبة تشبه حمامهما في النهر. الماء يهدئهما. ويريحهما. والتعب يملؤهما مرة واحدة، وفي لحظة الراحة هذه يعيدان القرع للرجل، وتهمسان شكرًا وتذهبان بعيدًا. وتمسك كل منهما يد الأخرى، وتمشيان ببطء كأنهما في حالة طيش واشمئزاز، نحو النار.

البرد ينزل مع الليل، وتظهر النجوم، وكأنها ألقيت هنا مثل علامة ترحيب، ولكنها بعيدة وغير منظمة. والقمر البرتقالي بحجم الشمس. وبعد قليل يركض الكلب الصغير بجانبهما، وهما تقتربان من بعضهما البعض، وهو يرافقهما، والرجل يصفر له، ويناديه، هو كلب غير مطيع. والرجل مضطر أن يأتي لأخذه.

وهو يؤدبه بركلة من قدمه ويسأل الفتيات الصغيرات في لهجة غير مفهومة تمامًا بالنسبة لهما. إنه يسألهما سؤالًا، بيديه وعينيه ونبرة صوته. ولكن ما هو السؤال؟ بَخيتة لا تحب هذا الصوت. وقد فهمت بيناه وتجاوب وهي تشير إلى النار المشتعلة عن بعد:

- هناك!

يبدو على الرجل الاستغراب.

- الآن؟

وتسحب بَخيتة بيناه من ذراعها.

- نعم، هناك!

يشير الرجل "إن النار بعيدة". وهما غير مكترثات. يقوم الرجل بإيماء البرد. الليل. لكنهما غير مكترثات. ويشير إلى الجروح في ساقيهما. وهما غير مكترثات. ويشير إلى الليل وينخر كحيوان متوحش جامح . كيف له بمعرفة هذا؟ كيف خمن أنهما تعرفان الوحوش الجامحة؟ وأنه حدث لهما هذا؟

- "نحن لسنا خائفات" تقول بَخيتة.

- "جيد جدًا" أجاب الرجل بابتسامة.

ثم يشبك يديه على خده ويمثل بالإيماء النوم ويشير إلى كوخه.

- "تنامان هنا وغدًا تذهبان هناك".

تقولان "لا" ويعاودان سيرهما والنار بعيدة حقًا وهما لا تدركانها بعيونهما، وهذا موكب صغير، وعناد طفلتين لم تعدا

واثقتين من أنفسهما، وفجأة تصرخ صراخ مروع، وترجع إلى الوراء منتكسة على نفسها وملتوية من الخوف. ولا تفهم "بيناه" ماذا يحدث. ويركض الكلب في المقدمة ويعود بثعبان في حلقه، ولا تزال بَخيتة تصرخ، ويضرب الرجل كلبه، ويفتح حلقه ويرمى بعيدًا الحيوان الزاحف، وقد أكل الكلب نصفه . وتبكي بَخيتة. فيضع الرجل يده على كتفها.

في كوخه يعطيهما الطعام والشراب. بمحاذاة الكوخ هناك حظيرة. وتسمعان ضجة من الأغنام والتيوس الحبيسة هناك. والكلب يجلس على العتبة، ويحميهما من الوحوش والثعابين، وتعتقدان أنه هو حارس الرعية، هو كلب جيد، والرجل الراعي يخبرهما بأنهما سوف تستريحان قليلًا في كوخه. وغدًا، بمجرد ظهور ضوء النهار سيقودهما بنفسه إلى القرية حيث تحترق النار الليلة. هاه؟ غدًا؟ تفهمان؟ هما موافقتان؟ لا يريد الضغط عليهما. ويمكنهما المغادرة إذا أرادتا. لم تكن لديهما القوة على الإجابة بأنهما لا تريدان. وتنامان في أحضان بعضهما البعض، نومًا فوريًّا. ولقد وصلتا إلى نهاية ما يمكنهما عمله. وما الذي كان يمكنهما القيام به أقصى من ذلك.

عندما يوقظهما الرجل في وسط الليل، لا تتصوران أنه منتصف الليل. تعتقدان أنه النهار وأن الرجل يوقظهما ليقودهما بنفسه إلى قرية بيناه. والجو بارد. تخرج الصغيرتان من النوم وهما لا تزالان في عالم الأحلام، ولكنهما تريان الكلب، وتتعرفان عليه، وهو يقترب الآن ويكشر عن أنيابه. وهما مستيقظتان وكأنه

ة. سكب دلوًا من الماء المثلج على ووجهيهما. وتستمع بَخيتة إلى صراخ بيناه. ثم تشعر بالسلسلة التي توجد حول كاحلها. وهي تحاول الركض فقد أسقطت بيناه كلتاهما على الأرض. الآن وبيناه تصرخ، وتحاول أن تزحف ويديها تتشبث بالأرض المتجمدة من البرد، وبَخيتة تمسك يدها وتدفعها في حضنها، وتمسك بها بقوة. تشهق بيناه بين ذراعيها. وتصمت بَخيتة. فإنها ليس لديها أي نوع من المفاجأة أو الحزن. لم تعد خائفة. هي الآن عالية وباردة كالنجوم التي أخفى ضوءهم القمر. إنها تعيش بعيدًا جدًا، متجاوزة هذه الليلة بينما صغيرتها بيناه بين ذراعيها. متعلقة بها. من جديد.

إن ذكرى ما عاشتاه في هذه الحظيرة، هي وبيناه، سيظل أحد أقوى صدماتها. هو إنذار استيقظ داخلها، ذكرى كانت في كل هواجسها وفي كثير من لياليها. كزيارة. النار في أولوجوسا، والحفرة حيث سجنها الخاطفون وهذه الحظيرة، ثلاث من نقاط الهلاك، عتبات جهنم.

بعد أن وضع الراعي لهما السلاسل، هما الآن محبوستان في هذه الحظيرة، وقد دُعستا بالأقدام وضُربتا باللكمات وقُرصتا من قطيع بالكامل من النعاج والتيوس يمشي فوقهما ويمنعهما من التنفس، يلكموهما ويفعلا عليهما ما يفعلونه على الطريق، ودائمًا هذه السلسلة في القدم التي تحفر كاحليهما، والصغيرة بيناه لا تتحرك إلا وهي تشهق. بَخيتة ليس لديها أي كلام لمواساتها. إنهما لا يتحدثان معًا. فقط يلمسان أيادي بعضهما

البعض. وهما يغفوان قليلًا أثناء النهار عندما تخرج النعاج والتيوس من الحظيرة، ينامان على الأرض القذرة مع رائحة الروث الذي يجعل المرء يتقيأ، ينامان على فترات صغيرة، ممزقتين بالجوع والعطش، وعندما تنزل الشمس، تسمعان عودة القطيع، والثغاء الذي يقترب ليكون هذا بمثابة قلق طويل وحاد يوخزهما مثل إبرة، وعندما تتشاجر التيوس فإنهما يستقبلان ضربات القرون وتبكيان من هذا الظلم الكبير. ورغم أنهما تعاملان مثل الحيوانات وتساء معاملتهما من الحيوانات، إنهما محبوستان وتدعسان بالأقدام ومربوطتين، إلا أن شخصيتيهما وأحلامهما ما زالتا مستمرتين معهما، بل إن جزءًا من براءتهما ما يزال، قائماً.

في صباح أحد الأيام، يأتي الراعي ليأخذهما، ويجرجرهما إلى الخارج. كم من الأيام وكم من الليالي أمضياها في الحظيرة، إنهما لا تعرفان. عشرة أيام؟. ثلاثين؟ إنه كابوس ليس له أي علاقة بالزمن. تم فيه تشويههما من العنف، تحت سطوة رجل قاس، وعادي، ومتخلف. عندما تخرجان من الحظيرة سيكونا أقرب إلى امرأتين مسنتين من كونهما فتاتين صغيرتين. بشرتيهما تلفتا واسلأتا بالبؤر وازدادت قذارتهما، وهما منحنيات يمسكان أيادي بعضهما البعض، وبأظافرهما المكسورة يخرجان إلى النهار، نصفهما إنساني والنصف الآخر حيواني، بالطاعة نفسها والغباء نفسه. يجرونهما إلى الخارج . وهما لا تقاومان، لا تفكران ولا تتوقعان شيئًا، إنهما فقط تطيعان. وقد انتصرت عليهما العبودية مرة أخرى، كما لو أن كل مظاهر الحياة قد اختفت. وبقيت الحقيقة الوحيدة، العبودية.

التاجر الذي أراد الراعي أن يبيعهما له يتحسسهما وهو مكفهر، وتفهم بَخيتة أنهما لا تستحقان الكثير. ولكنهما صغيرتان وهذا أفضل في البيع. فالأطفال. يمكن تشكيلهم بسهولة أكثر. وفقًا لذائقة المشتري. يجعلوهم يقومان ويجثمان ثم يقومان ويجثمان من جديد. يلمسون أماكنهما الخاصة جدًا وتخجل بَخيتة من قذارتها على هذه الدرجة الكبيرة . وكان خجلها هو العلامة

الأولى لكونها لا تزال على قيد الحياة. عندما يزيلون السلاسل ليرونهما وهما سائرتان، تقع بيناه وتصرخ بَخيتة باسمها، صرخة حادة مثل الزلط لأنها هي كذلك مثل الزلط والأرض. تخاف أن تشتري دون صديقتها. تنظر بيناه إلى بَخيتة كما لو كانت تراها من بعيد، كما لو كانت تحاول أن تتذكر من هي. وضوء النهار يعمي البشر، وبَخيتة تمد يدها إلى بيناه، لكن بيناه تنظر إليها دون أن تتحرك. الراعي يركلها في ظهرها كي تقوم. فتتقوقع على نفسها وتحول وجهها بعض الشيء نحو السماء وهي تغمض عينيها، وتظل في مكانها. بَخيتة لا تزال تمد لها يدها، تريد أن تسمع مرة أخرى قصة (ماند) الصغيرة التي علمتها بيناه المشي. تريد أن تشدو لها مرة أخرى أغنيتها الصغيرة. لأنها تثق في أن بيناه لو امتلكت القوة لتقوم من جديد، سوف يبدآن من جديد في مواصلة الحياة. ولكن إذا اختيرت واحدة ورفضت الأخرى، فالأخرى ستعود حتمًا بمفردها مع الأغنام والتيوس. بمفردها معهم. وهو ما لا يجب. أن تكون بمفردها مع الراعي، هذا ما لا يمكن احتماله. بدأ صبر التاجر ينفذ. خلفه عبيده ينتظرون. إنهم يرتجفون من التعب والغضب. الذين يبكون هم بالتأكيد الذين أخذوا منذ زمن بسيط، وأولئك يتم جلدهم باستمرار حتى ولو كانوا بلا حراك. إنهم يحصلون على السوط حتى وهم ينتظرون ساكنين. تستمع بَخيتة إلى تذمر الحراس وإلى صفير السوط قبل أن يضرب الجلد في صوت مبلول، وترى الدموع التي تأتي من الرجال، والدموع التي تأتي من النساء. تحاول أن تنساهم، فتميل نحو بيناه وتهمس: "أوادير Awadir"، اسمها كطفلة محبوبة،

وبيناه تفتح عينيها، إنها تتمنى أن تغفر لها بَخيتة، ولكنها لا تستطيع، لقد فاض بها الكيل، هكذا انتهى الأمر. ونظرتها تطلب المغفرة وعيناها تنغلقان بمفردهما، استسلام حنون إلى درجة الاستسلام، لذا فإن بَخيتة تنسى التاجر والراعي والحراس والسوط، إنها لا تهتم، وهي مصممة فقط على إنقاذ صديقتها، تلمس كتفها وتمد لها يدها بحزم، هذه اليد التي طالما أمسكتها بيناه، إنها القوة.

"لا تتركيني"... تقول بَخيتة.

وتبتسم بيناه بعض الشيء، بأسى.

"لا تتركيني وحدي"..

تتردد بيناه، إنها تريد أن تبتسم لها ولا تستطيع.

"تعالي من فضلك".

التاجر يضرب بَخيتة التي تتراجع إلى الوراء. ويقول كلمات غاضبة ويضربها مجدداً، وبَخيتة تضع يدها على وجهها وعندما يتوقف عن الضرب وتنزل ذراعها ببطء، ترى بيناه واقفة أمامها . لقد نهضت وتنتظر أن يفتشونها. التاجر يلتفت لها، ويبصق على الأرض ويكشر وهو يجس عظامها وبطنها ثم يركل ساقيها ويرفع ساقيها وعندما يمسك ذقنها لرؤية ما بداخل فمها، تتقهقر بيناه إلى الوراء، فأسنانها تؤلمانها وخدها وحلقها يحترقان. يفتح التاجر فمها كله وكأنه يحاول تقسيم بيناه إلى اثنتين، يحاول أن يفتحها عن طريق الفم ويحشر أصابعه في داخلها. ويدفع. تشبه بيناه حصان صغير. وعيناها مذعورتان مثل أعين الخيول عندما

يخافون. تذوم وترتد إلى الوراء ولكن التاجر يمسكها بحزم عن طريق الفك، ويخلع سنيّن من الداخل، ضرسان برميهما على الأرض، ثم تبدأ المناقشات من جديد مع الراعي. تبصق بيناه خيطًا رفيعًا من الدم، وبَخيتة تربت بيدها على ظهرها، تود أن تقول لها إنها ستتحسن بدون أسنانها التالفة، ولكنها تصمت باكية؛ لأن الأمر انتهى، فهما لن يريا أمهاتهما مرة أخرى. تنظر بَخيتة من حولها، اليوم مشرق، وبالطبع لا يوجد أي سبب لوجود نار عظيمة تنتظرهما في مكان ما. انتهى الأمر، لمّ الشمل أو الأمل في لمّ الشمل. العالم كبير جدًا وفقير جدًا وجشع جدًا. وهنا وسط كلام التاجر والراعي، والترتيبات والنزاعات، وسط تنهدات الرجال والنساء، وثغاء الخرفان وغناء الديك، في منتصف كل هذه الفوضى تسمع بَخيتة، بين العبيد طفلًا يبكي. وعلى الفور تعتقد أن والدتها بين العبيد. وبحركة واحدة، تستدير نحوهم، وتبحث عن والدتها وهي تنظر إليهم وهي قافلة الصغيرة، تحدّق فيهم كلهم بسرعة كبيرة وبسرعة أكبر تفهم، إنها ليست هنا. ومع ذلك، لن يتركها هذا الإحساس أبدًا. فطيلة حياتها، وحتى نهايتها، عندما تسمع طفلًا يبكي، ستعتقد أنه في أحضان والدتها. حتى عندما ستتجاوز والدتها سن الأمومة. وحتى عندما ستتجاوز والدتها سن أن تكون على قيد الحياة. كل طفل يبكي سوف يكون في أحضانها وسينتظر أن تواسيه.

بيناه أيضًا تسمعه. صرخة هذا الطفل الأصغر منها. وهما الاثنتان من عمر الأخوات الكبيرة، عمر الأمهات الصغيرة في قريتيهما. هذا الرضيع أكثر هشاشة منهما؛ لذا تبدأ بيناه في

التمخط بأصابعها وتبذل مجهوداً كبيراً كي لا تبكي. والطفل لا يزال يصرخ، وبيناه تتظاهر بأنه يمكنها الوقوف بشكل مستقيم مثل واحدة كبيرة. تتنفس بالكاد والألم في فمها يشع على كل وجهها، ولكن الطفل يذكرها بأن ذلك هو النظام. الوافد الجديد هو جزء من القافلة، ولذلك فعليهما الاثنتان - ذواتا السبع سنوات - أن تذهبا أيضًا.

تم شراؤهما معًا، هي وبيناه. مرة أخرى. وعلاوة على ذلك بدون السلاسل، تمشيان بين الحراس. وتذهبان. وتستمران. *"أنا لن أترك يدك"*.

مع القافلة تمشيان على هذه الأرض إلى السودان المفتوحة تحت السماء الهائلة والملوثة بالمقايضة والتجارة. تمشيان وتفهم بَخيتة أن زمن الفرار هو زمن ضائع، وأن عالم العبيد هو عالمها ولكن يوجد هناك دائمًا، لإبقائها على قيد الحياة، أمل. سوف تمران ربما عن طريق قريتيهما. وسوف تجدان كيشمت. لن تقضيان حياتهما على الطرق، وفي يوم ما المشي سيكون قد انتهى، وفي يوم ما سيكون هناك شيء آخر وهذا الشيء الآخر لن يكون أكثر سوءًا، فالأسوأ قد مضى بالفعل. بَخيتة تتبع الطريق، وهو طويل وملتو وخطر مثل رسوم الثعابين التي كانَ يرسمها أخوها لإخافتها وتقرر أنها لن تخشاهم أبدًا. إن الذي جعلها تصرخ عندما أخذهما الراعي فقد كان الأخير. عدم الخوف من الثعبان هو هزيمة للثعبان. هذا القرار، بطريقة غريبة يطمئنها. هي مستغربة، وترغب في مشاركته مع بيناه ، لكن الكلام ممنوع وعلى كل، ليس لديهما أي قوة على فعل أي شيء . إلا المشي والشجاعة التي يتطلبها ذلك. لكن هذه الغربة في الحياة التي تستولي عليها هنا في هذا الأسر حيث تعتبر أقل من حمار، هو بمثابة وعد تأخذه على نفسها: إنها تريد أن تعيش هذه الفكرة من أجلها وألا يستطيع أحد أن يأخذها منها. لقد رأت العبيد وقد تخلوا عنهم للنسور والضباع. وقد رأت العبيد غير القابلين للبيع والذين باعوهم للفقراء. إنها لا تعرف إن كانت

تساوي أيّ مال، أو ماعز أو أربع دجاجات أو ملح، أو أحواض نحاس، أو عقود أو ياقات أو دين أو ضريبة. إنها لا تفهم مقابل أي شيء سيبادلونها، لكنها تعرف شيئًا واحدًا، لا تريد أن تترك مهجورة على جانب الطريق؛ لذلك فهي تطيع، تمشي تركز على الجهد. هي الآن مع بيناه، وقد أنقذتا من الحظيرة والراعي. الآن تمشي ولديها صديقة، حياة أخرى غير حياتها، متمسكة بها بأقصى ما لديها من قوة.

لكن هناك دائمًا هذا الطفل، الطفل الذي يبكي والدته صغيرة جدًا وهو طفلها الأول. خافت جدًا عندما اشتعلت النار في الكوخ حتى أن لبنها لم يعد يتدفق. هذا ما تتفهمه بَخيتة من الشائعات المشتركة للقافلة. أشعل الزنوج السود النار في قريتها . تمامًا مثل ما حدث عند بَخيتة. لأنه في كل مكان تدور الحكاية نفسها، تكرار للعنف، ونار البنادق والمشاعل، والنار التي تلتهم الأكواخ والناس الذين بداخلها، النار التي تلتهم الحيوانات، والأشجار والحقول، النار التي تركض أسرع من الحياة.

هذا الطفل الذي يبكي، سيمنع بَخيتة بعد حين من التنفس. إنها لم تعد تستطيع السير من غير فقدان توازنها . وهي ليست الوحيدة. هذا الطفل الذي في وسط كل هذه السلاسل والصراخ، وهذه الضربات، كل هذا الضجيج، لا يسمع إلا هو. وأمه تمسكه في حضنها. تحاول أن تهدهده، لكنها ترتعش إلى الحد الذي يجعلها تقفز في مكانها، تحاول وهي تهز طفلها، أن تضغط على ثدييها لتجلب بعض اللبن، ويمسك الطفل حلمتيها، ثم يقذفهما بعيدًا وهو يصرخ، ثم يبدأ من جديد، وفمه يلتوي ويضرب رأسه

في صدر والدته ويمسك الحلمة وتبدأ دموعه مرة أخرى على الفور. يقوم الحارس الأقرب، وهو رجل صغير الحجم، مكتظ ككتلة من الحجر، بجلدها حتى يتوقف كل هذا الضجيج، "اجعليه يصمت!" يصرخ، وهو صغير في السن، ولكن لديه عمر إنجاب أطفال، ربما لديه أطفال. وهو حقيقة منزعج من صرخات الطفل. أو ربما، تقول بَخيتة لنفسها، ربما هو يخاف منه. يبدو لها أنها ترى هذا في قسوة هذا الرجل، الخوف.

أياد تمتد نحو الأم التي تسقط، ونساء ينظرن إلى الطفل ثم يلتفتن بأعينهن بتقطيبه ألم. والبعض الآخر، مستاء، مثل الحارس القلق أيضًا، فهم يعرفون القصة المتكررة والمدركة، والمكتوبة سلفًا. ثم هناك هذا الصبي الصغير جدًا الذي يشعر بغضب شديد جدًا حتى إنه إذا كان نظر الحارس تقاطع معه، لكانْ قد أحرق على الفور. لديه رأس حليق ووجه قوي منذ الآن، عنيد ولطيف في نفس الوقت، وجه أخ كبير على استعداد للقتال، ولكنه لا يزال يحمل حنانًا شفّافًا هو بمثابة عبء عليه.

بعد المشي لمدة ساعة طويلة، ربما اثنتين، تصل القافلة بالقرب من الحقول المزروعة. وغالبًا، فإن القرى لن تكون بعيدة والأم لديها ضحكة صغيرة مثل شهقة بكاء. ما تزال تهز طفلها وتظن أنها تهدهده، وجهها يتحول إلى كل الاتجاهات، ومن الذعر تتبول تحتها، وينسال شريط بولها على ساقها، ولا تشعر به. تبحث حولها وفجأة تندفع نحو الحارس. لقد رأت الماعز. وتقول إنها ستسرع جدًا ولن تؤخر القافلة، وإنها ستعود وهي تركض. يدفعها الحارس بضربة من مرفقه في الصدغ. هي تقريبًا

تبتسم، ذلك لا يثبطها. وكأنها لا ترى ماذا يحدث، وكأنها فقدت عقلها. هي معهم وبعيدة عنهم بالفعل، بعيدة جدًا. تعود إلى الحارس بطفلها وهو يبكي وتقول له إذا كان ابنها سيكبر سيكون قادرًا على الانتفاع منه. وتنظر إلى العبيد، وتريد الموافقة في العينين، نعم، هذه فكرة حسنة، إذًا أخذ الطفل لبن الماعز، إذًا لم يمت، سوف تكون قيمته كبيرة. لكن لا أحد يعتقد أننا سنتوقف حتى ترضع الماعز طفلها. والشاب الغاضب يقول بصوت عال جدًا كلمات لا أحد يفهمها، وصوته يتهدج من الثورة، ويرتطم بالأحجار ثم ينطفئ. الحارس لا يضربه. فإذا بالشاب الغاضب يعيد هذه الكلمات التي لا يفهمها أحدًا، ثلاث مرات وهو ينظر إلى السماء، ولكن السماء لا تمنحه إلا شمسًا شرسة. بَخيتة وبيناه تمسكان أيادي بعضهما البعض، إنهما خائفتان الآن، وهي عادة الخطر البشري. ومعدتاهما يعتصرهما الخوف من الآتي. فثمة شيء سيء يطفو ويسمم الهواء. امرأة شابة، ولكن من عمر والدته، تنظر إلى أم الطفل وتقول لها بصوت منخفض: "آسفة." وتهز رأسها من الآسى، لأن الأم الشابة التي هي من عمر الشقيقة الكبيرة لـ بَخيتة، أربعة عشر عامًا على الأكثر، لا تفهم ما يحدث.

القافلة تمر أمام الماعز والحقول والجدول، ويصبح الفضاء فارغًا مرة أخرى. ودائمًا ما يسمع بكاء الطفل كأغنية قديمة مختلطة بشهقات والدته. وهذا كله يغلف ويثقل العبيد، كلهم مغلفون بهذا الآسى، بعضهم يبكي بصوت منخفض، مع العجز عن دموع ليس لها نفعًا. والشاب الغاضب يمشي بشكل أكثر استقامة من الآخرين، كما لو أن هذا يساعده على احتواء غضبه،

وعيناه تنظران بطريقة مستقيمة أمامه، وفكه ضيق مثل فخ نجح في الحصول على فريسته. ولا يبدو عليه إرهاق. فتفكر بَخيتة في أنه يمكن أن يكون أخًا كبيراً طيبًا أو ابنًا بارًا. ولكن النظر إليه يؤلمها بالقدر نفسه الذي تسمع فيه الأم وطفلها. لقد وصلوا ربما، وأحدهم من الطيبين سيشتريه، وسيعطيه لبنًا أخيراً، تقول بَخيتة لنفسها. "لن يستمر هذا طويلًا". ثم بعد ذلك ترى التل. إنها تشعر بالطمأنينة والمنظر يتغير، إنها علامة جيدة، وسيصلون إلى مكان آخر، قرية، ربما. ولكن التل يصبح حائلًا. وهم في سفح هذا التل والمنظر ليس إلا هو، وهو فقط. ترفع بَخيتة رأسها لرؤيته بأكمله وهي توشك أن تقع. فهو عال جدًا ومليء بالصخور كأنها حصوة عملاقة قد كسرت. يمشون حفاة الأقدام على هذه الحصوة المجوفة. تنظر بَخيتة إلى الأم، لتراها تمشي وهي تنظر إلى طفلها، إنه يبكي بصوت أقل علوًا، يئن ورأسه المقلوبة تصلها أشعة الشمس الحارقة مثل كشاف يسلط عليه وحده. بَخيتة وبيناه يدعمان بعضهما البعض، ويمسكان بعضهما عبر المرفق والكف، والرسغ، رأساهما منخفضتان، وحتى الحراس يجدون صعوبة في المشي، إنهم يضربون بالسوط دون صراخ، هم فقط يضغطون على أسنانهم، وعندما يتوقفون للشراب، نرى في نظرة بعض العبيد الرغبة في قتلهم. فإن العطش يؤلم ويصل إلى أماكن بداخل بَخيتة لم تكن تعرفها من قبل أماكن في داخلها تتلوى وسيقانها تؤلمها وكأنهما ليس لها. والشاب الغاضب ينظر إلى الطفل ويتمتم بصوت منخفض، وعيناه تبرقان كشعلتين قويتين مظلمتين.

على التل، يبدأ الطفل في البكاء من جديد. ورئيس القافلة يوقف المشي بطريقة مفاجأة. المسلسلون يتزاحمون، يرتطمون ببعضهم، وأنفاسهم لها صوت أتون ينصهر بداخله حديد. "اجعلي هذا المعتوه يسكت!" يصرخ القائد في وجه الأم. وهي تنظر إليه بتعجب بعيد، وتضع حلمتها في فم الطفل، ويدها ترتعش. "لم أعد أستطيع! لم أعد أستطيع!"

الطفل يبكي بقوة أكثر، وبَخيتة تحاول أن تتحدث إليها، عبر أفكارها، ترسل إليها تعزية، وكلمات ظريفة ومذعورة، والشمس تضرب بقوة تجعل الهواء يرتجف، وكل شيء غير محدد المعالم، كما لو أنه انمحى بالفعل. القائد يقترب. يقول إنه سيسكته بنفسه. ذلك المعتوه الأحمق. والأم لا تصرخ. عندما يأخذه منها.

إنها لا تصرخ، فقط تفتح فمها وتكشيرتها تغطي كل وجهها، مثل قناع حرب. فمن أين تجد هذه القوة لترمي نفسها على القائد لاستعادة ابنها؟ فهي صغيرة جدًا في السن وهزيلة، ولا أحد كان يمكنه تصور هذه القوة الهائلة، وصرختها الجبارة، وقبضتها العنيفة جدًا على وجه قائد القافلة. ولكنها يقينا ليست قوية بالقدر الكافي. ولا تستطيع أن تستعيد ابنها. تحاول فقط أن تمسكه وهي تقفز وترتمي عليه، والقائد يتراجع وهو يضحك يمسك الطفل بقدم ويديره في الهواء مثل حبل للقبض على حيوان. الطفل يتقيأ والرجل يقضي عليه بضرب رأسه بحجر. الطفل يتشنج. وعيناه تنزف ويرتجف مثل سمكة أخرجوها من النهر. عبدة تركع وتصلي وهي تبكي، وآخرون يصرخون وهم ينظرون إلى السماء.

لا تفهم بَخيتة ماذا يقولون. إنها تشعر بصعوبة أن تظل واقفة، وتشعر أن بيناه تمسك يدها. إنها فقط تشعر بهذا. وعندما تطلب الأم من القائد أن يقتلها لا تفهم بَخيتة أيضًا. فهي قد ركعت وتوسلت: "اقتلني! اقتلني!" وبَخيتة لم تعد تعرف، ماذا يعني هذا. الحياة أو الموت. هل يجب فعلًا البقاء هنا؟ وما تراه لا تفهمه. إنه يحدث ولا تفهمه. إنه شيء صاعق.

يصرخ عبد بكلمات غاضبة جدًا، وآخرون يفعلون الشيء نفسه، إنه ضجيج من الغضب، من لهجات، من الصلوات ومن التمرد. فيقوم القائد برفع سوطه ويضرب الأم إلى أن تقع على الأرض راكعة، يضربها إلى أن لا يبقى منها إلا بشرة كبيرة ممزقة. وفجأة يصمت كل العبيد. ولم يعد يُسمع إلا صوت الضربات وأزيز القائد وهو يمتلئ بالعرق واللعاب من الغضب. وجسد الأم ينتفض ثم ينفتح تحت وطأة الضربات وتتحول الحجارة إلى اللون الأحمر. أصوات طيران النسور لها صدى على الحجر، صفعة ثقيلة وبطيئة تضرب الهواء الساخن. والشاب الغاضب ينحني إلى نصفين ويتقيأ. والرجال المسلسلون معه مضطرون أن ينحنوا أيضًا وكأنهم يسجدون. لقد خسر الشاب الغاضب وتمرده لم ينفع في شيء، وهو يعلم أنه لن يكون فخورًا بنفسه أبدًا بعد اليوم، ويعلم أنه الشخص الذي لن يطلب منه أبدًا مساعدة. "إلى الأمام". يأمر القائد باستئناف المسيرة. وتبكي بَخيتة في أحضان بيناه، فهي لا تستطيع أن تطيع. فقط تنظر إلى السماء. تريد أن تقرأ علامة في مكان ما. وتتمنى لو أنهم يأمرونهم بحفر الأرض لوضع الأم وابنها. تتمنى أن يأمروا

بالغناء. تريد أن يحدث شيء ما هنا، في وسط الحجارة يأتي من الرجال. "إلى الأمام"! وتستأنف المشي. مثلها مثل الآخرين. إنها تطيع. لم تعد تعلم أين المسير، مثلها مثل الآخرين. ولم تعد تعلم أيضًا أين هم الأحياء وأين الموتى. وعلى أي جانب توجد الحياة.

بعد ثلاثمئة كيلو متر من السير، تصل القافلة إلى وسط مدينة السودان، في المركز الكبير للقوافل في العبيد، عاصمة كردفان. وهي مدينة تعيش على تجارة الصمغ العربي الذي يتم جمعه من الأكاسيا. والعبيد الذين يذهبون إلى مصر والبحر الأحمر. وعن هذه المدينة، حيث ستصل إليها منهكة بعد عدة أشهر من المشي، ستحتفظ بَخيتة أولاً بذكرى الضوضاء، الأسواق والدعوة للصلاة، والحشود، والحيوانات، كل ذلك في تباين عنيف. وسوف تتذكر الصوت العميق لتحطم الخردة وأصوات أخرى كما لو أن كل شيء يتم كسره. هي فوضى لا تفهم منها أي شيء، وهي ظمآنة ومتألمة وعضلاتها مضفرة معًا مثل الأوراق المجففة التي تصنع للبواباب، خشنة وتصدر صوت صرير. لم تعد بَخيتة ترى العبيد الذين مشت معهم، تشعر بهم فقط من حولها، ظلال ثقيلة، أنفاس تمشي عندما تمشي وتتوقف عندما تتوقف. أصبحوا حيوانًا واحدًا منحنيًا ومجروحًا. ربع العبيد قد توفوا وهم على الطريق. فقط وجود بيناه هو الشيء الحقيقي.

في سوق الأبيض، تكون الصرخات التي تأتي من الحيوانات وتلك التي تأتي من الرجال واحدة، إثارة وحشية. فلكل يصفر، ويتذمر، وينادي في الهواء الرطب. كل الروائح تمتزج، الجلد والدخان والروث والتوابل وحتى لحم الخروف المشوي، فإنه

يمسك الحلق، ويغم النفس، وهناك غبار في كل مكان، يأتي من الأرض مرفوعًا من الحيوانات والهواء، بينما الرجال يجلسون القرفصاء على هذه الأرض من الغبار الجاف بجانب ما عليهم بيعه، في انتظار أبدي. المدينة تتمدد، ضائعة بين الأرض الرمادية والسحب الموحشة. هذا مكان للمرور، وللريبة والتجارة. وبَخيتة التي قذفت هنا، يخالجها شعور بالراحة بأنها وصلت ولكنها راحة ممزوجة بالقلق من أن يكون ذلك جزءًا من هذا السحق. إنها ظمآنة. كلهم ظمأى. منهكون ومرضى ويتساءلون عن ذلك الذي سيحدث. يقيدونهم وينتظرون لمدة ساعات في الشمس من دون أن يعلموا شيئًا عن الذي ينتظرهم. حراسهم يذهبون لتناول الطعام والتداول مع الـ(Faroucs) ويقدّمون أنفسهم للشيخ وتُنظم الإقامة. بعد عدة ساعات يحضرون لهم شرابًا، وعلى الرغم من أنهم يعلمون أن ذلك ليس من باب الإنسانية ولكنه حرص على عدم فقدان البضاعة، إلا أن كثيراً منهم يشكرون. هناك رجال يمرون فرادى أمامهم ويلاحظونهم ويمعنون النظر. أحدهم قوي المظهر ومليء بالتجاعيد، بطنه منتفخة جدًا تحت جلابيته، يقترب من بَخيتة وهو يُنعم شاربه وتقوم هي بحركة تراجع، لكنه سرعان ما يدير وجهه عنها وقد انجذب نحو صبيين نائمين في حضن بعضهما البعض، ينظر إليهما لحظة بصمت ثم يستدير ببساطة وهو لا يزال يُنعم شاربه ويبتعد.

بَخيتة مثلها مثل الآخرين خائفة، ففي كل نظرة، وكل مقابلة، قدر من التوتر ومن الشيء المعيب. ولكي تستأنس خوفها، فقد أجبرت نفسها على النظر للحياة أمامها. إنها تريد أن تفهم أين هي

بالضبط، هذا العالم من العبودية المنظم بهؤلاء الرجال المسلحين الذين يمرون أمامهم بدون نظرة واحدة، وأولئك النساء المحجبات اللواتي لا يسرن أبدًا بمفردهن، والأطفال العساكر الذين يمشون ببنادق أعلى منهم، ثم ترى أطفالاً آخرين أصغر سنًا يعودون، تمامًا كما في أولوجوسا، بالقطعان إلى الأكواخ المُسورة. هي لا تريد أن تفكر في قريتها أو تتذكر هروبها الفاشل، فقط تركز قدر استطاعتها على الحاضر،إنها مربوطة بالسلاسل مع بيناه ضمن العبيد المنسيين تحت الشمس. لقد استمدت من فكرة عائلتها القوة الفعلية للهروب، ولكن الآن هذه الفكرة بالذات تسبب لها حزنًا ثقيلاً جدًا.

منذ تاويشا، تعرف أن هذه المدينة ليست مكانًا مسالماً. هنا الجميع إما تجار أو حراس عبيد، أو رجال عبيد أو نساء عبدات أو أطفال للعبيد وعبيد للعبيد، إنها حياة هرمية، تحت القيادة العليا للشيخ. وهو نفسه تحت حكم أوامر التجار الكبار. يذهب الاحترام دومًا لهؤلاء الأغنياء ورجال الدين. وهنا الرجال ليسوا مزينين فقط بما أخذوه من القرى المداهمة، ولكن أيضًا بما انتزعوه من الأفيال والحيوانات المفترسة وبغالهم وجمالهم ذات الأسنام الصفراء تحمل كنوزًا من الحجارة والذهب. لقد كشطوا الأشجار وشقوا بطن الأرض، وسوف يبيعون الرجال والقرون والجلود والملح والصمغ والنحاس، وعن طريقهم تم نهب العالم. وبَخيتة تسمع صوت البشر الذين يدقون الخشب لبناء أماكن مسورة للحيوانات وللرجال، للمسجونين والأبرياء على حد سواء.

بعد ساعات لا تحصى، يأتون لأخذهم. والليل يهبط والبرد يستقر مع الظلام حليفه الدائم، كما لو أن خنقة اليوم لا يمكن إلا أن تتبعها زيادة البرد، ففي كل شيء هنا عنف لا يستسلم أبدًا. يبدأ التاجر والحراس والفاروق faroucs في الفرز، النساء على جانب. والرجال على جانب آخر. الأصحاء على جانب والذين يشتكون من علل ما على جانب آخر. والعبيد يخشون التشتت، فها هي حياتهم يتم اللعب بها من جديد. شرب الحراس ودخنوا وجاءت أوامرهم وحشية غير مفهومة ومتناقضة. إنهم في عجلة من أمرهم ولم يعد لديهم قدرة التحمل على التعامل مع هؤلاء العبيد مرة أخرى، وكأنهم يحملونهم كل هذه الكيلومترات التي قاسوها، هم يكرهونهم بسبب هذا العناء الذي ليس له آخر، هنا تسري في هذا الهواء المعتم لفحات من الغل والإحباط.

هناك بعض المتفرجين يشاهدون الفرز، محدثين ضوضاء أكبر، وفوضى أشد. وتتعرف بَخيتة بينهم على الرجل ذي الشارب الرفيع والبطن الضخمة.

إنه يقترب، ويتحدث بعض الوقت مع فاروق faroucs، الذي يبدو أنه الضابط الأعلى. وبعد قليل يعطي هذا الأخير أمرًا، صوته رصين وكلماته مقتضبة، سريعًا ما يطاع فيأتون بالصبيين الصغيرين اللذين كانا ينامان في حضن بعضهما البعض منذ بضع ساعات. وهما عمومًا، يشعران بالخوف. فإن يقع عليك الاختيار فهذا يعني دائمًا أنك مهدد. هناك دومًا خوف غريزي من أن تضرب بعنف شديد وأن تنفصل عن المجموعة، كما لو كان الوجود معًا هو بحد ذاته نوع من الحماية. من بين الرجال يظهر

مقاول صغير من الباطن يريد الاثنين. يخرج المال. لكن "الفاروق" farouc يدفعه بعيدًا بغضب. يعود الرجل ويبدأ الشجار واللعبة المعتادة، طقس متكرر. يتأوه الصبيان وهما ينظران وراءهما نحو العبيد، ولا يجدان بينهما قريبًا لهم، ورغم هذا لا يريدان أن يفترقا عنهم. يحكان أرجلهما وذراعيهما ويتشنجان، ويستولي عليهما الذعر. أخيراً، وبينما الليل هبط تمامًا الآن، يقبض الفاروق farouc عمولته ويعطي الرجل صبيًا واحدًا من الاثنين. وهو ما يعد تهريب صغير عادي، فسوف يشطب الصبي من قائمته، ولن يرى التاجر الكبير أي فرق. لقد شاهدت بَخيتة المشهد، وفهمت أن الصغيرين أخوان. هي تنتظر صرخات وبكاء ومقاومة، ولكن الصبي الذي لم يبع لا ينبس بكلمة، إنه فقط يخفي وجهه بساعده، وببطء شديد يميل جسده، ويقع على الأرض منحنيًا على نفسه. ومن دون أي صوت يرتعش جسده على الأرض الناعمة ولم يزل ذراعه أمام وجهه، هو يرتعش ويهز الغبار. والحارس بحركة واحدة، يرفع الصبي الذي لا يزن كثيراً ويضم أرجله ويقذفه في وسط الرجال، مجموعة الأصحاء، ليلقفه عبد في صدره، مثل كرة قذفت يستقبلها بيديه الاثنتين المفتوحتين. يبدو لبَخيتة أن الصرخة التي سمعتها بعيدًا ليست صرخة حيوان، ولا رجل، ولا الشقيق الآخر، ولكنها صرخة الألم الصافي الذي ينادي شيئًا متجاوزاً البشر. إنها صرخة الكائنات المنفصلة، لكن ما تريد أن تحتفظ به من كل هذا المشهد، هو ذلك الطفل الملتقط بأيدي العبد.

هي الآن فقدت كل الاتجاهات، تمسك يد بيناه التي تجرها معها، وينضمان إلى مجموعة النساء الأصحاء. وسوف يقمن

بتنظيفهن بدلاء كبيرة من الماء وإطعامهن ويسمحوا لهن باستعادة قواهن. أما المجموعة الثانية، مجموعة المرضى، فسيعالجونهم، قبل بيعهم إلى بعض البدو، وأما المجموعة الثالثة، مجموعة الطاعنين في السن، الضعفاء جدًا، فسوف يقذفونهم في حفرة. وفي هذه المجموعة الأخيرة سيكون الشاب الغاضب، الصبي صاحب النظرة المشتعلة.

عندما سافروا إلى التل، بعد أن تركوا الأم وطفلها، تقيأ الصبي الشاب ثم أخذ يبكي، مثل طفل صغير جدًا. ولم يعد لديه غضب وليس لديه كبرياء وليس لديه أي عمر. إنه بات بؤسًا شديدًا يجلب العار للرجال الذين كان مقيدًا معهم. قالوا له إن عليه أن يستعيد قواه؛ إذ أصبح إنسانًا كبيراً، وقد درّب منذ فترة وبالتأكيد فترة طويلة، على ألا ينام في كوخ والدته. لكنه لم يكن يسمعهم. كان يبكي وأسنانه تصطك، وربما كان مصابًا بالحمى، حمى كبيرة جمدته من البرد في داخله. كان الحراس يتناوبون على جلده كل واحد بدوره، جلدة بعد أخرى طوال المسيرة. وكان هو يتقدم وهو محني وركبتاه مطويتان، وذراعاه متروكتان بامتداد جسده المكسور. بعد كيلومترات من المشي، بينما القافلة تنزل إلى الجانب الآخر من التل، وبعد أن جردوا عظمه من كتفه ومزقوا جلد ظهره، أخذ السوط عيني الشاب الغاضب، الذي منذ وقت طويل لم يعد يعاني من الغضب.

في الأُبيض لمدة أيام، تم إعطاؤهم الطعام والشراب، وتم غسلهم، وتم جز أو تضفير شعرهم، قتل نملهم، قطع أظفارهم، قاموا بإلباسهم التنورة، ووضعوا المراهم على جروحهم وزيت النخيل تحت أقدامهم وشربوهم أعشابًا مرة، وسمحوا لهم بالنوم. الآن يمكن بيعهم.

وفي صباح أحد الأيام، تم عرضهم في السوق الكبير، إنه يوم ينتظرونه ويخشون منه، هم مكدسون في عنبر، على أرض بور، ينتظرون، وهم مقيدون وصامتون، مستكينون من الخارج، مرعوبون في أعماقهم. بيناه بجانب بَخيتة، لم يكونا فقط الفتاتين الصغيرتين، ولكنهما يقفان مقتربتين من بعضهما إلى حد الالتصاق، ولا أحد يعلق على هذا، فهما معًا دوما كحصة واحدة. ضجيج الحيوانات والرجال الذين كانوا يصرخون في الهواء والطبول والنداء إلى الصلاة كل ذلك بالنسبة لبَخيتة قد توقف. وروائح الجلود المدبوغة والقهوة، والنعناع والحديد المحروق قد اختفت. فهي واقفة، نصف عارية وللبيع، إنها لا تسمع ولا تشعر بشيء من هذا العالم الذي يحيط بها. ففي الصباح الباكر طارت روحها عالية، مثل عصفور حر، غريب على الأبيض. وضعته في كفها ثم أطلقته فوق السوق. هي تراه الآن يرقص في السماء مثل شراع تتبعه بفضول. إنها تمتلك تلك

المقدرة على أن تتخيل نفسها في مكان آخر، أن تهرب من جسد هو ملك للجميع، لكي تعيش حياتها السرية. هي في العنبر وهي مع هذا العصفور. بالطبع هي أحيانًا، تستمع إلى الرجال، وإلى كلمة *جميلة*، ويشار إليها، ويفك قيدها وهي تتقدم وتفعل ما يطلب منها القيام به. كالعادة. من الوجه... من الظهر... بسرعة... ببطء... العيون إلى أسفل الرأس إلى الوراء. بهدوء وبدون أي تعبير. صبورة ومطيعة. وأحيانًا تكون الأيادي سميكة ورطبة، وأحيانًا فقط أصبع واحد، ينقر ويفحص نقطة بعد الأخرى، مثل منقار. وتفكر بَخيتة في السماء الصافية، وتضيف غيومًا بيضاء من أجل عصفورها، إنها ترسم وتزيد الخطوط. يُطلب منها الكلام. فتتكلم. الأمر مضحك. تبتسم. بعض الذباب يستقر على شفتيها. تغلق فمها. عصا تفتح أماكنها الحميمة. فتضيف عصفورًا آخر في السماء يأتي لمقابلة عصفورها، وتتساءل ماذا سيحدث. و*"هذا هو أفضل شيء يباع"*، *"هذا من سوء حظك"*. وتعود إلى حيث مكانها ويقومون باعتراض طريقها من جديد. العصفور الثاني لا تستطيع أن تركز فيه؛ إذ يختفي بسرعة كبيرة.

بعد عرضها، عقلها مشتت وتسمع ما يقال:

- بكم هذه الزنجية؟

من بين الحشد، يظهر رجل يشير إلى فتاة جميلة، ذات جسم ممتلئ وسخي، سيقان بعضلات. والرجل الذي يسأل عن سعرها هو أيضًا عبد، هو عسكري مقتدر. جاء هذا الصباح لشراء امرأة له، ستسافر إلى الريف معه وستقوم بمهام الخادمة

وتنجب له أطفال. لديه بالفعل، أحد عشر طفلًا من امرأتين سابقتين وهو رجل يُحترم. تمشي العبدة المشار إليها أمام العسكري المجند في الجيش المؤقت (المليشيا)، بينما التاجر يشيد بقوتها وخضوعها. وهي تعرف أنها إذا أصبحت امرأة هذا الرجل، سيكون لديها أطفال سيخدمون في جيشه وأطفال لن يقوم أحد بأخذهم منها، وقليل من العبدات لديهن هذا الحظ. العسكري متقدم في السن، وينظر إليها وعيناه شبه مغلقة وفمه ممرر، هو يقترب وهي تشم رائحة التبغ البارد والجعة، ويتردد، ويصطك لسانه على أسنانه، ويلمسها قليلًا وفجأة يطلب رؤية واحدة أخرى، أكثر شبابًا، اثنتا عشرة سنة على الأكثر، ويكاد أن يكون جسدها مكتملًا.

- هذه واحدة من الحبشة، يقول التاجر، وهذا بالضرورة أغلى!

عادت العبدة الأولى مع الأخريات، وهي أقل جمالًا من الحبشيات وهن الأكثر رواجًا والأكثر شهرة، ولم تعد صغيرة جدًا لتدريبها للحرملك، وهي أيضًا جميلة جدًا بحيث لا تنفع للعمل كخادمة فقط، تعمل في المطابخ أو تقوم بتنظيف المنزل. هي هشة للغاية للعمل في المناجم. إنها لا تزال جزءًا من العبدات المرتفعات القيمة، وهناك احتمال أن يأتي عسكري آخر يشتريها، وربما سيكون لديها أطفال، وسيكونون طوال حياتها لها، وبجانبها، وهو الشيء الوحيد الذي تفكر فيه، هذا الأمر الذي اخترعته لنفسها، لأنه من المهم أن يكون هناك أمل، أن تحكي لنفسها عن احتمال حياة. لكن تفاوض العسكري مع التاجر

أنهى الصفقة بسرعة، وسريعًا ما جعلها تمشي وتنحني ثم دفع مقابل الحبشية، فهي ليست فقط أكثر جمالًا ولكنها أكثر صحة أيضًا والرجل سعيد ببضاعته هذه، ومنذ الليلة سيضعها في سريره. اثنا عشر عامًا... يبتسم رغمًا عنه. يقترب صاحب أرض شاب وينظر على ما اشتراه العسكري وتعرف على عِرق الفتاة، يشعر ببعض الغثيان والإحباط، فحتى لو أن الأثمان انخفضت، فليس لديه الكثير من المال لدفعه. فلو لم يكن مخنوقًا بالضرائب لكان اشترى أيضًا فتاة صغيرة، ولكن كل شيء يمر من الحقول، فإن كل مدخراته، إذا كان لديه قرش على جنب، فإنه يجدد العبيد أصحاب السن المتقدمة الذين سيموتون بعد عدة سنوات فقط. ومنذ أن جاء الحاكم البريطاني جوردون باشا، رغم أنه في خدمة مصر، يحاول القضاء على الاتجار، فإن الأشياء في أوجها، حركة التجارة كبيرة، ولم تعد تتبع النيل لأخذ العبيد والعاج حول النهر، ولكنهم يذهبون أبعد من هنا للبحث عن السلع، في أوغندا وجنوب السودان وجنوب دارفور، الأرض خصبة وجيدة في دارفور، ولكن يجب الذهاب إلى هناك لعبور الصحاري والأنهار غير السالكة، والنتيجة هي الموت في الطريق في الذهاب والإياب. ومع هذا فالبلد مكتظ بأناس للبيع، وهو لا يملك حتى طفلة في سريره. إنه يغادر كما جاء بضجر وغيرة. يقوم التاجر بفك قيود بيناه، لأن هناك تاجرًا ثريًّا ينظم حفلة، ويأتي لأخذ بعض الهدايا من أجل ضيوفه. وتنظر بيناه إلى بَخيتة، "ما الفعل للبقاء معًا"؟ تطلب بَخيتة من عصفورها الخيالي حماية صديقتها وتتحدث بكلمات بسيطة يفهمها العصفور، هي متأكدة

من ذلك، ويطير العصفور فوقهما وجناحاه مفتوحان. التاجر الكبير ينظر إلى بيناه ويلمسها بعض الشيء، هي متعبة مقدمًا، هي جميلة نعم، ولكنها صغيرة أكثر من اللازم، وأكيد لا تعي شيئًا ولن تكون فعّالة... ليس فقط لأن ضيوفه لا يحبون الأطفال، ولكن حفلته المقبلة يريدها أن تكون مخمورة، وبدون لجام، الرقص والغناء والألعاب الحسية، وهذه الصبية يبدو أنها على شفا الدموع. يقوم التاجر بحركة تشي بانزعاجه، فيأخذ الحارس الطفلة من جديد. تبدو بَخيتة وكأنها على وشك الوقوع، والحركة السريعة من يد بيناه ليدها تتصورها منقار عصفورها ورأسه الحنون جدًا، فتقوم بشكره، وتؤمي برأسها بدورها. وبيناه تتأوه بهدوء من الارتياح والتعب. "*أنا لن أترك يدك*".

يستمر البيع لساعات لا تنتهي في ظل حرارة غير مبالية، وتعب يدفع للوقوع. والهواء محمل بالقلق، والاسم الحقيقي للأبيض هو القلق. إن عبء التعب الإنساني يشعل المدينة والمدينة ملعونة. البيع مستمر طوال اليوم، بعبيد يُشترون وعبيد يباعون وعبيد يفصلون عن بعضهما البعض ويترجون في رثاء كبير عديم الفائدة، لم يكن يقدم شيئًا. سوف تقول بَخيتة فيما بعد. أنه لم يكن مفيدًا في شيء سواء الصراخ أو البكاء. وكانت هذه بمثابة أغنية لا يسمعها أحد "أغنية المعزولين". إن كراهية الذات لا تبرح العبيد، الغربة في جسد آخر وجلد آخر ومصير آخر وبعض من الأمل، ولكن في ماذا؟

الليل يهبط على سوق الأبيض والعصفور لم يعد إلا نقطة في السماء المكتومة، وبَخيتة تفقده الآن وإذا أرادت أن تظل على

قيد الحياة عليها أن تجده وأن تعود إلى عالمها الهامشي. ولكن تركيزها يزداد إرهاقًا وخاصة أنها عاجزة لشعورها بالعطش والعرق الذي يسيل على صدرها وبطنها وصوت المشترين الذين تقترب أصابعهم. والمزاد يعلو والقروش تمر من يد لأخرى، والعالم يصرخ ويضحك أيضًا، نوبخ البعض ونسخر أيضًا ونفخر ونتملق، وبَخيتة تستمع دومًا إلى كلمة "جميلة"، هي جميلة، ولكن ما فائدة جمال فتاة صغيرة إلا لفخر والديها، هي لا تفهم هذا. الخوف يملؤها مع الإرهاق والكل يقف بدون حركة مذلولًا وكأنه في مواجهة بنادق مدججة.

فجأة، تسمع بَخيتة ضحكة بيناه، ضحكة فرحة محمومة وتقريبًا مذعورة. هي لا تفهم هذا في الحال. إنهم يقومون بسحب قيودهم. لقد قام رجل بشرائهما في الحال، وبدون أي مظاهر خارجية. لقد اشتراهما. إنه رجل مدني، عربي، طويل القامة، عريض الأكتاف، مربع تقريبًا، ونظرته فيها وميض، هو ينظر إليهما معًا، وكأنه أمام اكتشاف ظريف وتشعر خلسة بيد بيناه في يديها والفتاة الصغيرة تضحك بهذه الضحكة العبيطة والعصبية! وهي تكرر: "نحن الاثنتان؟ وهنا ينتهي اليوم. الذين لم يباعوا يعودون إلى العنبر مع الحراس، بَخيتة وبيناه لا يتبعانهما.

بَخيتة لا تفهم في الحال ماذا يعني هذا. ماذا ستفعلان مع هذا الرجل؟ ولماذا اشتراهما معًا؟ أين يأخذهما؟ لا يوجد أي جواب، وهذا موقف غير معروف وتقول لنفسها إن بيناه على حق. هما الآن معًا ولا يجب التفكير في غير ذلك. بطريقة خاطفة، تمر بيدها على ظهر صديقتها. والظهر الصغير يتقعر

تحت تأثير المفاجأة، وبيناه تبتسم. ثم تشهق بطريقة مختصرة، وصاخبة. تنظر إليها بَخيتة بحب. وتعرف أن هذا شيء خطر. ولكنها تحبها حقًا. وتنظر إلى السماء وتشكر العصفور، الذي يحوم على ارتفاع كبير الآن وقد استوعبه الليل.

يتركان السوق وهما ممسوكتان عن طريق حارس. منذ متى لم يسيرا خارج قافلة؟ الساحة مختلفة، إنهما يطوفان تقريبًا في هذا الفضاء المتناثر. إنها حياة أخرى تلك التي تبدأ. وبَخيتة تتساءل لو أن في حياتها الأخرى هذه تنتظرها أختها.إنها ترتعش بسبب هذا الأمل الذي انبثق.

يعبران ممرًا صغيراً من الأرض محاطًا بأشجار الأوكالبتوس النحيلة وبشجر النخيل الذي يهزه رياح الليل. ويريا جدرانًا عالية وحمراء لمنزل نوافذه بدون زجاج يتسلل منها أضواء شموع. ينظران إلى الأسطح الخالية العميقة والساحرة. يدركان أنهما يتجهان إلى هذا المكان القابع هناك الذي ليس بكوخ، وليس بحظيرة، إنه البيت، ماذا سيفعلان في كل هذه الضخامة؟

هناك رائحة للإسطبلات وعشش الفراخ ودوار زهور وقط يتضور جوعًا يجري على سطح مبني في عمق الحديقة. هناك منزلان صغيران في عمق الحديقة إذًا هي شبه قرية! رجال ونساء يمرون بطريقة خاطفة، لونهم الأسود في المساء مثل ظلال عميقة. هل سيعيشان مع هؤلاء الناس؟

عند باب الدخول رجل أسود يسرع لاستقبال الرجل، ويسجد قائلًا: "يا سيدي" وصوته بشع، حاد وصبياني. يفتح باب البيت على مصراعيه، وبعد سيده يدخلان. في الجبل العميق.

هما يتبعانه إلى الدور العلوي، في الجزء المخصص للنساء. وعندما يضعان أرجلهما العارية على الأرض المسطحة الباردة الملساء، يمسكان أياد بعضهما البعض. فمن الصعب المشي على هذه الأرض الغريبة، وعندما يجب عليهما صعود السلم فالأرض تدور بهما، إنه يشبه صعود سيل، ويتصوران أنهما على وشك الوقوع، ويرفعان رؤوسهما حتى لا ينظرا إلى انعكاسهما على الأرض. وعلى بسطة السلم تواجههما امرأة محجبة، تندفع إلى السيد، وتقبل يديه وتختفي. يتقدم هو دون نظرة أو كلمة، يتقدم، فهو سيد المكان، مالك المنزل. بَخيتة وبيناه لا زالتا يتبعانه على طول ممرات لا تنتهي. وبَخيتة تفكر في الثعبان إنه "البيت الثعبان" سوف تتحدث بهذه الطريقة دومًا عن البيت ودائمًا ستخشاه. يمران من ممرات تتناثر فيها الحصير وغرف بدون أبواب حيث تركت أمامها أحذية خفيفة (شباشب) مصنوعة من الحرير. وهناك نساء ينتظرن أمام الغرف ونساء أخريات يمررن وهن حاملات صوان وشمعدانات، عاريات من النصف المرتفع من جسدهن ويرفعن فجأة تنوراتهن أمام السيد ويغطين وجوههن على طريقه. واللواتي يرتدين أحجبة يخفضن عيونهن. العالم ينفتح ويفزع أمام السيد. بَخيتة وبيناه تكتشفان أشياء مجهولة قيمة في الظلام، أرائك وفوتيلات ومقاعد ومفروشات ومرايا، وبيناه تصرخ عندما تضطر للمرور أمام ثعلب الصحراء المرفوع من الأمام. فعيونه حمراء وخشمه مفتوح على مصراعيه ومليء بالأسنان المدرفلة مثل خناجر صغيرة. ولن تمر أبدًا أمام الثعلب المحشو دون أن تفكر أنه يمكن أن يستيقظ ويمزقه إربًا.

وأنها إذ لم تتحاشاه يومًا فسوف يستيقظ كما تفعل الأرواح المهانة.

ثم، يدخلان غرفة بنات السيد، "ثريا" و"راضية"، ليستا أكبر سنًا بكثير. مستلقيتان على أريكة عثمانية يقضمان بأطراف أسنانهما ثمار فاكهة، الغرفة فيهما نوافذ واسعة بدون زجاج أو شيش، واحدة تطل على التل وأخرى على رقعة السوق حيث تأتي آخر أصوات الجمال وصهيل الخيول. هذا عالم آخر بالفعل العالم الأسفل، القلب البعيد للمرور، هنا أضواء شمعدانات ناعمة ترتعش والناموس يرقص من حولها، ويمكن أن نشم رائحة الليمون المألوفة، ومن النافذة الأخرى يمكن أن نرى بعض الأضواء الوردية من الشمس التي ترحل، وفي لحظة تفكر بَخيتة في كل الذين مازالوا مقيدين، هي نجت، ولكن لا تدري من ماذا.

عند وصول والدهما، نهضت ثريا وراضية، وبضحكاتهما الممزوجة بأصوات أساورهما يهرعان نحوه، ويبدو هو أخيراً على طبيعته وصوته سعيد وحنون. إنه يشير إلى بَخيتة وبيناه:

- "انظرا ماذا أحضرت لكما من السوق"!

دائمًا ضربة صغيرة في القلب. عنف مفاجئ، تلك الطريقة في الحديث عنهما، وهذه النغمة في الصوت التي تشي بأكثر من الكلام. هذا الازدراء وهذه الشهية، وكأنهما فتاتان، بلهاءتان تمامًا. هل سيقولان عنهما "*جميلة*"، من جديد، تلك الكلمة المرتبطة بالمال؟

- "*شكرًا بابا*"!

بَخيتة تفهم هذه الكلمة" بابا" تعرفها وتجدها جميلة . يتمنى المرء أن يقولها. أن يكررها، كلمة تليق بطريقة رائعة بالمساء. إنها ترفع عينيها بعض الشيء وترى عبر النافذة الجبل المظلم، وربع قمر شاحب يرقد فوقه. هدوء كبير يتناقض مع إثارة الغرفة. الفتاتان يتحدثان بصوت عال، ويقفزان ويصفقان:

- هما سوداوات ! سوداوات جدًا!

تطلبان منهما أن تمشيا وأن تستديرا وتمرران أصبعًا على بشرتيهما، تنبشان بعض الشيء وتلمسان شعرهما الأكرت، وتطلقان صيحات قصيرة من الخوف، إنهما تريدان أن تكونا لهما على الفور، ولكن والدهما يهدئ من صخبهما:

- "يجب تحضيرهما! أتيا لتوهما من السوق!" ولن تنسى بَخيتة أبدًا أنه في الوقت الذي تبدأ فيه الفتاتان نزواتهما: "بابا اتركنا نلعب قليلًا"! "بابا من فضلك". ففي هذا الوقت تحديدًا يدخل. يدخل فيتجمد كل شيء، ويتوقف الهواء عن التدفق وكأن النوافذ سدت. عندما يرى السيد ابنه سمير داخلًا يتوقف عن الضحك. ونظرته تصبح رمادية وعلى شفتيه امتعاض الاحتقار. سمير يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، لم يعد لديه الحق في الوجود بجانب النساء، رغم أنه ينام في بعض الأحيان في سرير أخواته وأمه، وبنات عمته. هو تقريبًا رجل. وقريبًا سوف يترك "الحرملك" وينزل المندرة. عيناه مستديرتان، كبيرتان تتجاوزان جفنيه، وجهه مليء بالبقع البنية وندبات للجدري المائي، ووجه بالفعل معركة. وجه لم يبرح أبدًا ذكريات بَخيتة، ولن تبرحها

رائحته تلك التي ستخيفها دومًا حتى وهي متقدمة في السن، حتى وهي في مكان آخر، في قارة أخرى. فهي رائحة كما لو كانوا قد أحرقوا حيوانًا ميتًا مع فاكهة مرة. هي رائحة تنبعث من البشرة وكأنها تأتي من داخل البطن، نسيت وفسدت. فجأة كلهم يصمتون، صمت يقول شيئًا. وثريا -الكبرى- تمعن النظر بإصرار نحو والدها. بَخيتة وبيناه يتراجعان بحركة غريزية ثم يتسمران ونظرهما يتجه نحو الأرض. سمير يقترب، يدور حولهما دون أن ينبس بكلمة، فقط ببعض التنهدات المتأففة. الوضع يبدو وكأنهما معروضتان للبيع مرة أخرى. إنه الخوف من التقييم. "سمير لديه أيضًا هدية.. أليس كذلك يا بابا؟ تقولها ثريا، وبَخيتة لا تستوعب كل هذه الجرأة . فالمرء لا يتحدث هكذا مع والده. لا يأمر بشيء. تشعر بخوف من أن معركة ستدب . وتشعر بالخجل لأنها شبه عارية ومليئة بالعرق وغبار السوق، وتشعر بالخجل لأن هذه العائلة تظهر تنافسها أمام اثنتين من الغريبات. الصمت وحشي. وفجأة، تمسكها ثريا من ذراعها وترميها في أحضان سمير، تصطدم ببطنه الثخين ورائحته الثقيلة وتقول:

- هذه هي الأكثر جمالًا!

ثم تجعلها تدور حول نفسها، وتقول بسرعة جملًا طويلة لا تفهمها بَخيتة بالكامل. لكنها تستدير مثل الناموس في الضوء، وترى الليل وقد علق بالنوافذ، كل هذا السواد يرقص حولها، وهذا الألم في عقلها يمنحها الرغبة في التقيؤ، وعندما ثريا تتوقف عن دورانها، تشعر بدوخة كما لو أنها رقصت لفترة

طويلة، رقصة لا تحررها من أي شيء، ولا تنادي شيء أو أحد، هي رقصة قسرية للأسياد. رائحة اللحم الميت والفاكهة المرة تنبعث في تموجات على جبين سمير. وتلحظ شريطًا من عرق يسيل على هذا الوجه التالف، ومجددًا تخفض عينيها. وثريا سوف تقوم بتكوينها. هي شعرت بذلك دون أن تعي تمامًا ماذا الذي يعنيه تمامًا. ثم ستعطيها لسمير، لياليه، قبل زفافه، وقد فهمت هذا. وما الذي تعنيه . فهي تعرفه.

وهكذا بدأت الحياة في خدمة الأسياد. وكان هذا هو الأول. كان زعيمًا عربيًّا، رجلًا ثريًّا يحب أن يشتري ويتاجر، وكان يعرف الجميع ويعرف كل الحيل، فقد تعامل طويلًا مع الحكومة المصرية في أزمنة الغارات عندما اعتادوا أن يدفعوا له الضرائب والآن هو يتاجر مع الحكام الفاسدين، الذين كانوا يساهمون في وقف تجارة العبيد. وكان قد اغتنى بداية عن طريق تجارة العاج، وكان فخورًا لأنه جمع الصبية الصغار الذين اختطفوا من قراهم والذين عندما أصبحوا بالغين كانوا ضمن الصيادين المحظورين الأكثر همجية. هو لم يشارك أبدًا في أية مجزرة، وكان لديه ملازمان من أجل هذا، رجال متحمسون، كانوا يأمرون عبيده أن يأخذوا العاج والأطفال، والقطيع والطعام، وكل شيء يستطيعون سرقته. كانوا يسرقون بقوة البنادق، والسيد يعرف ثمن كرة بلياردو، ومقبض سكين، وقلادة. هو يمكن أن يحول كوخ، أو بيت صغير أو قرية، أو مقاطعة إلى (كيلوهات) من العاج، وهو يفعل ذلك عندما يطلبه منه ضيوفه، ولكن مع التفاصيل، كل التفاصيل، زمن الروعة والمغامرة.

سكنت بَخيتة وبيناه في بناية مخصصة للعبيد النساء، في عمق الحديقة. وكانت تخفي بناية بالغة الصغر يعيش فيها العبيد المتزوجون. ولم تنس بَخيتة أبدًا هذين الزوجين اللذين شهدت

ميلاد ابنهما الثالث، ابن العبد إدريس والعبدة مينا. وكان السيد قد صرح بهذا الزواج وفقًا للشريعة الإسلامية، وأصبح الأطفال ملكه. وكانت مينا دميمة وكانت تخدم في المطابخ، وكان اختيار إدريس لها كزوجة موضوعًا للسخرية، فقد كانوا يغمغمون بأنه سوف يكون هناك سريعًا امرأة أخرى. لكن إدريس لم يرتبط بزوجة ثانية، كان الذي يربط بينهما بالنسبة للجميع لغزاً مثيراً للسخرية. كانت بَخيتة تراهما يعيشان وكأنهما يستنشقان هواء المكان الذي كانت الحياة فيه على أعلى مستوى من الإنسانية وإن ظل هناك دائماً ذلك الخوف من أن يأتي اليوم الذي يرسل فيه السيد طالبًا أحد الصغار فلا يرونه مرة أخرى. كانا يلتقيان أحيانًا في المساء، يتقاسمان العشاء ويطعمان أبناءهما، وكانت مينا بالتأكيد تشدو ببعض الهدهدات للصغار كي يناموا. كان كل ذلك يحدث. وتتذكر أنها عرفته. كانت البناية الثالثة، بجانب بناية النساء، مخصصة للعبيد الرجال. ولم تقترب بَخيتة أبدًا منها. كانت تسمع في بعض الأحيان، أصوات عراك عنيف، وكان هناك دائماً معارك بالأيادي، وتصفية حسابات، تستمر لليال كثيرة متتالية ثم لا شيء لأسابيع. وكانت المعارك كثيراً ما تحدث أثناء فترات شهر رمضان الذي كان صعبًا للغاية. وتتذكر بَخيتة تلك الصرخة التي كان يطلقها رجل مرة أو اثنتين كل ليلة، كان يصرخ أثناء نومه، صرخة شديدة وكأنها تأتي من مكان آخر، وكأنه كان ينادي. ولا أحد يجيبه أو يؤنبه. كان يصرخ ثم من جديد، يخيم هدوء الليل.

في الليلة الأولى لدخولهما بناية العبيد، المظلمة ذات الرائحة الرطبة المنبعثة من الأوساخ، ومن خضار مسلوقة

ودخان، بحثت بَخيتة على الفور عن "كيشمت". كان الدخول في هذا العالم الصامت المليء بالنساء، هو بمثابة السباحة في قاع النهر. عالم سري وصامت، مليء بالسلالات المختلفة. وقبل رؤية الفتاتين، كانت العبدات تعرفن أن السيد كان قد اختارهما من السوق، من أجل بناته. وبدون أوهام كثيرة ولكن مع هذا الأمل الدائم والعنيد، كان لديهن فضول لرؤيتهما. فربما كانتا، أختيهن أو بنتيهن أو حفيدتيهن. وإذا لم تكنا أيّا من ذلك، فإنهما ربما قد عرفناهما أو سمعنا عنهما. هن يقتربن منهن ويلمسنهن، يحاولن التعرف عليهما، وسماع لهجتهما، ورؤية العلامات على بشرتيهما، يسألنهما من أين جاءتا، وما القرى التي مرتا فيها؟ ومن هم أسيادهما؟ وفي أي zeribas، وهل رأتا awut، التي لديها علامات النسر على خديها، وآمال الصغيرة للغاية مع شقيقتها التي تغني مثل القبرة الصاخبة، أوكول، الطفل الذي يأتي من بلاد zande، والذي أُخذ بالتأكيد مع أمه الصغيرة جدًا، والعجوز أنيه Aneh الذي يأتي من مابا وهو، الرجل الحكيم، ذو الذراعين الطويلتين والأيد المعقوفة، هل رأتاه؟ كلمات باللهجات، وكلمات بالعربية، والأسماء مجهولة، وتهافت النساء لا يُمكنهما من فهم أي شيء، ويخلط كل الأشياء. من المحتمل أن تكونا رأتا awut وamel والطفل والرجل المسن، ولكنهما لا يتذكران، هذه الأسئلة كلها، بدون فهمها تمامًا، سبق وأن سمعاها أثناء سيرهما مع القوافل وفي مخيم تاوشا، وفي كل قرية مرتا عليها، لم تعد مجرد أسئلة ولكن سلسلة من الأمل واليأس، حيوات سرقت ثم تلاشت، أطفال لم يبق لديهم شيء من الطفولة، انهيار لكل تسلسل

زمني ولكل حياة عادية، فكيف لهم التعرف على بعضهم البعض، طالما كلهم يضيعون لمجرد أنهم ينتمون إلى آخرين؟ لم يكن لدى بَخيتة أية إجابة للنساء، هي فقط تكرر اسم أختها، وتحاول بلهجة لا يفهمنها، أن تقول لهن إن أختها تبلغ من العمر السادسة عشرة، وإنها تأتي من أولوجوسا، في دارفور، وإنها Dajou وأن اسمها، كيشمت. وكانت النساء يرفعن أكتافهن ويبتعدن. إنها تأتي من بعيد ولا شيء آخر معها إلا جهلها. تفكر بَخيتة في الأم وصبيها المسحوق على الحجارة. هل كان اسمه كول kuol؟ من أي بلد أتى؟ هذه القصة بالذات لن تخبر بها أحدًا أبدًا. وكذلك لن تحكي عن الشاب الغاضب الذي فقد غضبه، فهي لن تجعل أي امرأة تعتقد أنه ربما كان ابنها.

كانت بيناه خائفة جدًا لدرجة أنها جلست في ركن من الغرفة منكسة الرأس، لا تريد أن ترى أحدًا أو أن يلمسها أحدًا ويعتقد أنه يمكن العثور على طفله الحبيب. تنضم إليها بَخيتة، والصغيرة تضع رأسها على ركبتيها، بينما بَخيتة تلامس بلطف شعرها وتفكر في شيء آخر. إنها تفكر أن كيشمت في هذه المدينة. هي تعرف هذا، تشعر به شعورًا يملأ أحشاءها. لا توجد أسئلة لطرحها، لا شك في هذا، إنه واضح وضوح الشمس. ووجود أختها الكبيرة يعطي معنى لوجودها هنا، في بيت أسيادها الأوائل. فكل هذا الطريق كان من أجل التقرب من كيشمت. لم يكن هناك شي عديم الفائدة أو مصادفة. لقد مشت كثيراً، وأطاعت كثيراً وها هي قد وصلت إلى المكان الصحيح. وسوف تجد أختها وتعود معها إلى أولوجوسا . سقطت بيناه نائمة

على حجرها، ترفعها ببطء وتمددها على الحصيرة التي جلبتها امرأة لهما. تتمدد على حصيرتها وتغلق عينيها وتردد بداخلها أغنيتها "عندما يولد الأطفال من لبوة"، ترددها بكلمات وإيقاع لغتها الأم كي لا تنسى، وكي تظل بعيدة بقدر الإمكان عن ما رأته الليلة وما فهمته، سمير ووجهه الغاضب، سمير الذي دفعته ثريا في أحضانها، "*جميلة*"، الجمال، تلك اللعنة.

وقد ظلت بَخيتة لمدة ثلاث سنوات في خدمة سيدتيها الصغيرتين. وبعد العنف الجسدي والمشي والحبس والعطش والجوع، والحياة في الحرملك، كانت تقريبًا سوف تشكر على هذا. كان عالماً مغلقًا، مسكونًا بالمحظيات والعبدات، كلهن يعشن معًا، وكلهن مأسورات. وكان مرفوضًا تمامًا أن أي محظية يراها رجل، ولا تخرج واحدة بمفردها، ولا تخرج أبدًا بعد غروب الشمس. كانت الزوجات يقبلن تعدد الزوجات والمحظيات والأطفال الآخرين *والأم لولد*، هن "أمهات الطفل" العبدات المتوجات اللائي أنجبن من أزواجهن وأصبحن نصف عبدات ونصف أحرار. وكانت الحياة كرنفال ذات أقنعة خادعة وفرح مزيف، وهي حفلة من المرجح أن تتوقف سريعًا جدًا.

كانت بَخيتة تبذل قصارى جهدها لأنها كانت تريد أن يحتفظوا بها، أن يحتفظوا بها لأنهم كانوا سعداء بها، لأنهم كانوا يحبون وجودها، ولكنها لم تأخذ هذا أبدًا كنوع من الحب. فالحب كما عرفته من أهلها، كان اعترافًا وتقاسمًا وقوة. أما حب الأسياد لها، فكان نزوة. كانت تعيش في عدم راحة وخضوع. وكان مشروعها للمرّ الشمل مع كيشمت علاجًا لليأس وهدفًا سريًّا. هناك شيء ما في أعماقها كان يجعلها فريدة من نوعها.

وكانت زينب هي من كانت تعد بيناه وبَخيتة للسيدتين

الصغيرتين، كانت تهذب شعرهما وتعطرهما وتساعدهما على ارتداء ملابسهما. وكانت قد قضت أربعين عامًا في خدمة السيد قبل أن يتم تحررها. وكانت لا تزال تعتبر السيد كالرئيس، وهي من عرضت خدماتها لتحضير الصغيرتين. لم تكن تختلط بالأسر الحرة، التي كانت من مكانة اجتماعية أعلى منها، ولم تكن تخرج من البيت، ولا تتحدث مع أحد، وكانت تظل جالسة طيلة اليوم في جانب من الحديقة وهي تسحب من غليون طويل للتدخين، وعيونها البالغات الصغر نصف مغلقة. كانت رائحتها مزيجًا من التبغ البارد والنعناع الذي كانت تمضغه بين سحبتين من الغليون وبول قُط. وعندما كانت تضع اللآلئ في شعر العبدتين الصغيرتين، والأساور النحاسية في كاحليهما ومعصميهما كان ينبعث من كل حركة من حركتها رائحة مظلمة وعدائية. كان وجهها غير منفتح، وإيماءاتها عنيفة، مفاجأة. وبَخيتة وبيناه لم يسمعا صوتها قَط . كانت زينب مليئة بالتجاعيد مثل جدة بَخيتة، وكانت تود لو قصت عليها حكاية تجاعيدها، كما كانت تفعل جدتها، حدث مهم بالنسبة لكل منهما، ولادة، وحداد، وقتال وكانت جدتها تعرف كل قصة عائلتها: "هؤلاء الذين نراهم، أسلافًا، والذين ينتظرون حضورهم إلى العالم" كما كانت تقول. بالنسبة لبَخيتة، كان الماضي يتلاشى والمستقبل ملكًا للآخرين. وكل يوم، هو يوم جديد لمزيد من العناء والجهد. فقد كان من الضروري إرضاء السيدتين الصغيرتين. تحقيق كل ما يريدانه. كل ما يتخيلان. الأوامر، والأوامر المضادة، والنزوات والخيالات. العيش من أجل الطاعة ونيل الإعجاب. والاستيقاظ في كل صباح بهدف واحد: البقاء اليوم على قيد الحياة.

عندما تبدأ بَخيتة في العيش بجانب السيدتين الصغيرتين في هذه الغرفة الكبيرة ذات الآرائك الوثيرة، المليئة بالسجاد، والوسائد والمراتب المحشوة بالحرير وهذه البُسط الموضوعة على الأرض والمناضد المذهبة، والصواني القيشانية والفضية، هذه الغرفة التي كانت ثريا وراضية تنامان، وتأكلان وتلعبان وتستقبلان ضيوفهما فيها. عندما تبدأ الحياة في الحرملك، تتصور بَخيتة أن اسمها الجديد مناسب لها، *بَخيتة المحظوظة*. التي لم تعد تمشي على الحجارة. والتي لم تعد محبوسة مع الأغنام. والتي لم تعد تنام في جوف الشجر. والتي لم تعد تشعر، كما تقول بيناه باندهاش شديد، بجوع أو بعطش. هي تحاول أن تكون حنونةً وطيبة، كما علمتها أمها، ناعمة وطيبة، هذه الخصوصية التي تجعلها تتميز وتبقى. إنها تريد أن تفعل كل شيء بفرحة، لتظهر لسيدتيها الصغيرتين إنها سعيدة، وهي تطيعهن وتتصرف وكأنهما على حق دائماً وهكذا تحتفظان بها. وفي معظم الأوقات، وهما مستلقيتان، وهما تتحدثان، وهما تأكلان وهما تلعبان الدومينو أو (الكوتشينة) وعندما تنامان، هي التي تقوم بتهويتهما. لقد أعطوها المروحة الكبيرة لتحركها ببطء فوقهما. وإنها لفكرة جيدة، لأن الجو حار جدًا، وهي تعرق كثيراً ولكنها لا تعطش أبدًا أو تعطش لفترة قصيرة، ولا يمكن تسمية هذا الإحساس بالعطش، إنه فقط ألم بسيط. وهي تقوم بتهويتهما وتفعل قصارى جهدها لعدم التحرك، وعدم الاهتزاز، وعدم التنفس بقوة، "لا تنفخي مثل الفيل!" تقولان وهما تضحكان.

ورغم أن زينب تعطرها كل صباح، فهي تعرف أن رائحتها كريهة بسبب عرقها الغزير، ولكن ثريا تقول ذلك لأنها سوداء جدًا، وتضيف: "وجميلة جدًا أيضًا"، "جميلة"! هما فخورتان بها، وحين تأتي صاحبتهما للزيارة، تستعرضان أمامها كل ما تعرفه العبدة، أن تكون مثل قردة صغيرة. وهذا ما تفضلانه؛ إذ تقوم بخيتة بإصدار صرخات حادة، وتكحت تحت إبطيها وتتلقف بفمها ما يقذفونه في الهواء. وأحيانًا أخرى، تقوم بتقليد الخيل الذي يرفس ويركض وتتناوبان هما وصديقتهما بالركوب فوق ظهرها. وهي تفعل كل ما يُطلب منها، وكل ما تتمنياه. وعندما لا تكون مطيعة بالقدر الكافي، تقومان بنبذها في زاوية الغرفة. وعندما تريدان إبهار صديقاتهما، تطلبان منها الغناء والرقص كما يفعلون في قبيلتها، وعليها أن تفعل هذا جيدًا ومن كل قلبها. وهي حقًا تفعل هذا من كل قلبها، لكنها لا تغني أبدًا أغنيتها الصغيرة "عندما ولد الأطفال من لبوة". لأنها سرها الخاص ولا تريدهما أن تسخران منها وهما تنقران على فخذيهما أو وهما تزغردان. وعادة حينما تكونان راضيتين عنها، تسمحان لها بالجلوس عند قدميهما وأحيانًا تضربان رأسها خلسة ضربات صغيرة . وعادة ما تخشى من تحول هذه النقرات الصغيرة إلى ضربات قوية كما على جلد الطبول المشدود. وتتخيل نفسها محشورة في الأرض بسبب هذه الضربات المتكررة، فتقع في المندرة، وتصل عند الرجال وتعيش هذه القصص الرهيبة التي تُحكى لها عن ما يحدث للعبدات أيام الأعياد. وما يحدث لهن حين تنتهي الاحتفالات. والتعذيب، وجرائم القتل، والأكياس التي

تقذف في النهر، والنساء المخيطات معًا. فهذه المداعبات الصغيرة على الرأس تهددها.

وفي طابق النساء، يوجد الصبية الصغار جدًا. وسمير. وفي البداية هو لا يطالبها بشيء، إنه فقط يحوم ويصمت، وينظر إليها بالكاد، ويبدو وكأنه منجذب إلى بيناه الذي يفرح عندما تبكي أمامه كل يوم. إنه طقس يجعله يضحك. فلابد أن تبكي كل يوم أمامه. وانتظار هذه اللحظات غالبًا ما يثير التوتر لدى بَخيتة، وأعصابها تصبح مشدودة على أشدها، وتود لو أخذت مكان صديقتها حين يضربها أو يهينها سمير، وهذا بإظهار أسنانها الناقصة أمام الجميع وعيوب صوتها ورعبها من التحنيط. أو وهو ينقر جلدها بنسر محشو ويجبرها على ركوب تمساح. وبيناه تتوسل وأحيانًا تتبول على نفسها. وتبكي. فكيف عرف سمير خوفها؟ هل حدثته زينب عن رعبها كل صباح،عند المرور أمام ثعلب الصحراء؟ هل عرف ذلك عن طريقها أو عن طريق آخر؟ فكل شيء معروف، وكل شيء يُحكى، وكل الناس تتنصت، والكل يتجسس. وهذه الأشياء تسري عنهم. فالعبيد، خصيان أو نساء، خادمات أو محررات وحتى السيدات الصغيرات، كلهم يعيشون جميعًا في عالم مغلق، سجن بدون قضبان. ولا تخلو غرفة السيدات الصغيرات من العبدات، إنهن يقدمن وجبات الطعام ويرتبن المزهريات ويشعلن الشمعدانات. وفي الليل، وعلى الأسطح، في السهرات الطويلة، يرقصن ويغنين من أجل السيدات، ونساء السيد، وأولادهن وعشيقاته اللواتي يشعرن بالملل، ويحكين الحكايات ويحتسين القهوة. فالأيام والليالي طويلة جدًا. وكثير من العبدات تنمن أمام غرف السيدات الغير

مغلقة بالمفاتيح، وتنمن أيضًا على الأرض، في الطرقات، وهن على أهبة الاستعداد، لتلبية الأوامر. وتواجه بَخيتة وبيناه عالماً عدائيًا أيضًا حين يسمح لهما أخيراً، بالنوم في بناية الحديقة . فالنساء العاملات في المطابخ، أو في حقول السيد، لا يحبونهما، بسبب مكانتهما المتميزة إلى جانب الفتاتين وينتظرن أن تنتهي هذه الفترة. وهو ما لا بد أن ينتهي يومًا، وحينئذ، سوف تفهمان معنى أن تكون عبدًا. إنهن يُضربن بالسوط يوميًّا، وأجسادهن ليست إلا جرح مفتوح مشتعل بنار دائمة، وسواء في الليل أو في النهار، فالشعور بالألم يسري تحت جلودهن. والجنون يتربص بهن. وبَخيتة تخشى من هذه العبدة "مريم" التي تنادي على أولادها بدون انقطاع، وتجري وراءهم لتوبخهم بحنان، وتريد إطعامهم طوال الوقت، وإعطائهم شيئًا ليشربوه، ولا تدرك أبدًا أنها لا تتحدث ولا تطارد إلا بطًا. فأولادها تم بيعهم كلهم عندما خسر السيد رهان ما. وبَخيتة تفكر في كيشمت، فهل تفتقد ابنها؟ لقد مرت أكثر من سنتين الآن، هل أنجبت أطفالًا آخرين؟ هل سمحوا بتركهم لها؟ هل توسلت وغنت أغنية الانفصال عديمة الفائدة؟ وحين يصبح القلق قويًّا جدًا، تفكر بَخيتة في الغابة، ليلة الهرب وهذه اليد الدافئة التي تسللت إلى داخلها. ولا تعرف هل جاء هذا من أحد أجدادها، أو روحًا، أو شبحًا. هي لا تعرف كيف تصفها، ومن المستحيل شرحها. ولكنها تترجى عودة هذه اليد. وتعود في بعض الأحيان. وتقوم برفعها في الليل، فوق كل مخاوفها، متجاوزة زمن الحرملك، والأبيض، وربما أيضًا تأخذها إلى خارج السودان، وأفريقيا كلها. إلى مكان فيه رأفة وراحة، فتشعر بنفسها من جديد حنونة وطيبة. كما كانت تراها أمها.

بعد حوالي عامين من وصول بَخيتة عند السيدات الصغيرات، تحدث واقعتان مهمتان، في عصر سوف تطلق عليه "عصر المصيبة الكبرى"، كابوسان متشابهان، وأول هذه الأحداث هو الخروج المخطط له مع السيدات الصغيرات إلى السوق الكبير للعبيد. والثاني هو التجهيز لزفاف سمير.

تبلغ بَخيتة من العمر تسع سنوات، وهي مرعوبة، فالسوق والزفاف يعطيان للسادة نفس الإثارة العنيفة، والكل يبدو خارج طوعه. لقد كبر سمير. وسمير سيترك الحرملك، وسمير سوف يتزوج من عائشة، التي أُتفق عليها منذ ست سنوات والتي لم يرها من قبل. ووالدته تتحسر وتحضن ابنها وعدم حيائها ملفت للنظر. وهو فخور بهذا الزواج، ولكنه أيضًا متعجّل ويشعر بخيبة أمل، ويشكو أحيانًا كطفل صغير، وأحيانًا أخرى يشبه ملكًا عجوزًا في قسوته.

وتتذكر بَخيتة المعارك التي كانت تنشب كل عام في قريتها، عند الاحتفال بالحصاد، الشباب الصغار الذين دخلوا عمر الرجال يتعاركون مع المراهقين من القرى الأخرى، عراكًا أخويًّا، مثل رقصة، وقريتهم كانت تقف إلى جانبهم، بفخر، وكان أخوها يتجاوز نفسه، وكان العالم متكاملًا، كما كانت تقول جدتها "الأسلاف، الذين نراهم وأولئك الذين ينتظرون أن يأتوا إلى هذا

العالم". والنساء كانت تتجمّل وترتدي أحلى الملابس وتجمل أطفالها، وكأن القرية كلها شخص واحد قوي ومرموق تضاعف إلى مئات الآخرين، بنفس الرغبة القوية والتي لا تعرف الكلل. ولكن في البيت الثعبان، والحفلة، وتجهيز زفاف سمير يشبه تجهيز السوق الكبير. هي نفس الفرحة الشرسة، والتنظيم القلق، والأوامر والاتهامات منذ الصباح وحتى المساء. التوتر يسود المكان وكأن الانتقام قادم، والكل يعيش حالة من الذعر والخوف. في السوق الكبير السيد يريد الشراء والبيع، وتحقيق الأرباح، وهو يذهب ليأتي بالبضاعة، والرجال والحيوانات، والعاج والذهب، ويسافر لأيام طويلة، ثم يعود ويعزل نفسه ليقوم بعمل حساباته، ويمر من أعلى مستويات الإثارة إلى أعنف الإحباطات. يعاقب ويؤذي عبيده، ويصعد إلى الحرملك ويتحرش بنسائه. يرغب بالخير إلى أقصى الحدود، من أجل زفاف ابنه، وأيضًا بالثروات الحراقة والجذابة مثل النار. وفي الحالتين هي نفس الحسابات ونفس التقلبات المزاجية، والذهن شارد ومن الصعب السيطرة عليه. إنه السيد المطلق، ولكن لا يعرف في النهاية على ماذا؟ لا يعرف هل يزوج ابنه في أبهى صورة أو يعود من السوق الكبير أكثر ثراءً، وهما نفس الانتصار بالنسبة له، ولكن لكي تنتصر عليك أن تقاتل، وبالتالي لم يعد يعرف الراحة.

ويختلط الحدثان في ذكريات بَخيتة، ولكن ما يبدأ أولًا، هو السوق الكبير، فمن بناية العبيد، وحتى غرفة السيدات الصغيرات وهي تسمع صباحًا ومساءً تجمعات المسافرين الذاهبين إلى الأبيض قبل ذهابهم إلى الخرطوم، مئات من

الجماعات العرقية، رجال بقطعانهم، مشوا الأيام والليالي، بل الشهور بأكملها من أجل التبادل والبيع والشراء. وتعرف بَخيتة أن الرجال يصلون محملين، وتعرف أيضًا أنهم محملين "بالأبنوس" ومن بين ما سيأتون به، أثمن الكائنات، أختها. وهي تعرف ذلك، إنه اليقين الذي يعطيها هذه الرغبة في الصراخ. الانتظار أصبح مجسدًا، والانتظار يغمرها. وفي الليل، وهي مستلقية، تتخيل لمّ الشمل هذا، وتحكي لنفسها لقاءها مع كيشمت، والحب الذي ستستعيده ويعطي معنى لحياتها.

وقبل السوق الكبير، فقد خرجت في الأبيض مع السيدات الصغيرات والخصيان لمرافقتهم. فإن الخروج مع بعض العبيد والعبدات الجميلات مرتبط بالثروة وجمال بَخيتة يؤخذ في الاعتبار. فهي زخرف جميل، وعلى كل حال، فقد راقبت كثيراً من قبل، أختها بين الحشود، وأمام البيوت، وفي الحواري والبزارات، وعلى ناصية الجدران العالية وعلى طريق المقبرة حيث تصطف أشجار السرو، وكانت تأمل بالفعل برؤيتها، لكن لم يكن هذا أبدًا بهذا اليقين. وقد اكتشفت حياة بلدة صغيرة كانت تبدو لها شديدة الكبر. والعالم كان يتشكل، ولكنها لم تكن لديها دائمًا الكلمات اللازمة لفهم ما كانت تراه، البؤس الذي تتباهى بجانبه الثروة، وتشعر بهذه القدرية الغريبة، للمتسولين والعبيد دون أي تمرد، وللفتيات على عتبة الحانات، ولحاملي المياه وللأعداد المتنوعة والفقيرة للتجارات الصغيرة. كانت تمر مع السيدات المحجبات والخصيان، كالعصافير والفراشات الملونة التي ترفرف، وسط القذارة. رأت الأطفال المهجورين، المرضى

والعجزة، الذين سوف يموتون قريبًا ولن يتذكرهم أحد إلا هي. وهي لا تعرف ذلك بعد، لكنها لن تنسى أطفال الشوارع في الأبيض، الذين سوف تجدهم في أماكن أخرى، وفي طفولات أخرى، وفي شوارع أخرى من البؤس العالمي.

وكانت قد خططتا ثريا وراضية أن يأخذاها معهما إلى السوق الكبير للأبيض. سوف يذهبان مع والدتهن، وثلاثة من الخصيان وبعض الخادمات. كانت بَخيتة تنتظر هذا الصباح، مثل لقائها مع كيشمت، هذا اللقاء الذي أعلنته لزينب، في صباح ما، حين غمغمت: "في السوق، توجد أختي". وتبذل جهدًا كبيراً. فالإعلان باللغة العربية يجعل ما تقوله رسميًا، أختي الكبرى. أختي كيشمت ستكون هناك. هل تفهم زينب؟ فإن بَخيتة لها عائلة هي الأخرى. أخت كبرى، ولها طفل عمره سنتان، نعم، ولها أخت توأم أيضًا، ووالدها هو شقيق رئيس القرية، هي عائلة كبيرة وجِدتها تعرف القصة الكاملة لهذه العائلة الكبيرة، وآه! لو كانت تعرف بالقدر الكافي لغة زينب لكانت قالت لها أشياء كثيرة، بينما تجعلها ترتدي ملابسها الجميلة وتعطرها، وسوف تحدثها عن كل شيء، لأن قرب السوق الكبير يلغي من شخصيتها الحرص، والحزن. والأمل الذي تحمله كبير لدرجة أنه يشع منها على الرغم منها، وحتى لو أرادت أن تخفيه فلن تستطع.

وفي اللحظة الأخيرة، يتم إلغاء ذهابها إلى السوق الكبير. بدون تفسير، بطبيعة الحال، وبدون سبب ربما، أو بسبب الطيش أو المكر، لن تعرف أبدًا. تغادر السيدات الصغيرات وتبقى بَخيتة في الحرملك طوال اليوم، وهي تقف على شرفة

غرفتهما، تبقى على السطح وقد سحقتها الحرارة وتنظر إلى أسفل، إلى المدينة حيث لم تذهب، السوق الكبير التي سوف تظهر فيها أختها دون أن تقابلها.

هي تراقب. منذ الشمس الوحشية إلى الشمس المتساقطة، في الحرارة الشديدة وفي الهواء المظلم، إنها تراقب. تنظر إلى الحشد الهائل، أولئك الذين تتقاطع خطواتهم، وهم ملفوفون بألوان شتى، وبصراخ وبغبار، تفرز الحشود، تلاحظ وتفصل كيشمت من أولئك اللواتي ليس هي، وهي على أهبة الاستعداد ومنتبهة طيلة اليوم، في الحرارة، والعطش، والدوار، وبعد ساعات من الصبر والأمل، تراها. في الحشد الذي يتجمهر بصورة منمنة، تجد كيشمت. بضع ثوان من الذهول، اليقظة الوحشية، الضوء ينفجر. هي هناك، أسفل، أمام البيت أو تقريبًا، بين هذه المجموعة من العبدات اللواتي تذهبن إلى السوق. تصرخ باسمها، وفي هذا الصراخ تتعرف على صراخ النساء في أولوجوسا وقد هبت فيها النيران، تسمع صوتها كما لم تسمعه أبدًا، هذا الصراخ هو صوتها الناعس الذي يستيقظ ويمسك بها، في مكان ما خارج الزمان. تلتفت كيشمت. وتستعيد بَخيتة ما اعتقدت أنها نسته. شكلها وعينيها وفمها، والطريقة التي التفتت بها، حيوية، ومتأهبة، هي ذاتها التي كانت أيام طفولتها، وقبيلتها، وحياتها من قبل. استدارت كيشمت ثم ضربها حارس. تقع على ركبتيها، ثم تقوم، وتستدير مرة أخرى، نحو الصوت، ولكن هي مقيدة بالآخرين، مأخوذة ومجرورة من قبل الآخرين، تبتعد، تختفي، لم تعد موجودة. بَخيتة تريد النداء على أحد في

الحشد، أن تقوم بإصدار علامة، طلب مساعدة. وتنظر لكيشمت وهي تختفي وتظـل في مكانها، وقد ملأها الرعب، ثم تتقدم نحو حافة الشـرفــة، تفتح ذراعيها، لم يعد يسكنها أي خوف ولا أي حذر، ترتمي نحو السوق الكبير مثل طائر جبار. ويد تقبض عليها، تصفعها بعنف، تفقد الوعي بين هذه اليد. العبدة التي أنقذتها لا تريد أن تتهمها السيدات بالإهمال أو الكسل، فتنجيها من الخطر، ثم تتركها على الأرض في الغرفة، عديمة الوعي.

غائبة عن نفسها. تبقى على تلك الحال لفترة طويلة. يشعر سمير بذلك فورًا. فقدت العبدة الشابة حيويتها. يريد أن يجعلها تقوم برد فعل، اختبار قوته الذكورية على هذه الفتاة الصغيرة التي من دون حياة. قبل أن يأخذ زوجة، يريد اختبار سلطته، التي سوف تكون سلاحه وقانونه كرجل.

ويبلغ عمر بَخيتة تقريبًا عشر سنوات. وتوشك حياتها في داخل الحرملك على نهايتها، لكنها لا تعرف هذا بعد. في إحدى الأمسيات يطلبها سمير والسيدات الصغيرات يعطينها الإذن بالانضمام له، تضع المروحة الكبيرة وتذهب إلى الغرفة حيث ينتظرها.

يقول لها أن تقترب. من نبرة صوته، تعتقد أنه سيضربها من أجل حماقة ارتكبتها، لا تعرف ما هي هذه الحماقة ولكن بالتأكيد هناك شيء ما، عمومًا يوجد دائمًا ما يجب العقاب عليه. تلقى بنفسها تحت قدميه، وتسجد وتقول آسفة. أرجوك لا تضربني. آسفة. وهذا يضحكه. ويدفعها بعيدًا بركلة من قدمه، وتقع.

يأمرها أن تنهض، وتنهض وتشم رائحته من الفاكهة المرة والحيوان الميت، وتبدأ في البكاء بلطف. يصفعها، حتى تتوقف عن البكاء أو أن تبكي بقوة مضاعفة، لا تعرف. يصفعها لإيقاظها أو لإغمائها. يصفعها كنوع من العادة. أسنانها تصطك، وصدغها يؤلمها، تبقي برأسها مسدلة كما يجب أن تكون، وترى الرسومات على السجادة، حمراء وصفراء، عصافير وأقمار، تجد أنه من الغريب أن توجد أقمار وليست شموسًا، تُصفع مجددًا، وتحاول أن تفكر في هذا، لماذا أقمارًا وليست شموسًا، تقترب أنفاس سمير، ترتد، فالصفعة تصبح من القوة لدرجة أنها تقع على السجادة، والعصافير والأقمار. يصرخ إنها حمقاء، ويقع فوقها. يأخذ رأسها بين يديه ويقذفها على الأرض، كما لو كان يريد أن يجعلها تنفجر، أن تُفتح إلى نصفين، هو فوقها، كما الجبل، بالحجارة والثعابين في الحجارة، تغمره الكراهية، يريد أن يقتلها.

ما يحدث بعد ذلك، هو الدمار، التعرض للضرب في الداخل والخارج، إنها تعرفه بالفعل، هو الهوة التي لا نهاية لها، من دون نجاة، هما الروح والجسد معقودان ومسحوقان معًا. الجريمة التي لا نموت منها.

عندما ينتهي السيد الصغير، يقوم. ويأمرها بأن تقوم أيضًا. لا تستطيع. سيقانها ترتعش. لا تستطيع. يمسكها من ذراعها ويرفعها حتى تتمكن من الوقوف، لكنها لا تزال ترتعش، وكأنها ترقص وهي في وضع القرفصاء، لم تعد في استطاعتها الطاعة ولا تستطيع استعادة أنفاسها، هي مليئة بالهزات، كما لو أن ألقى

عليها تعويذة. السيد الصغير لا يزال يصرخ بكلمات لا تفهمها وبأخرى تفهمها، ويقول إنها نجسة، ويبدأ من جديد في ضربها.

تعتقد أنها جعلت السجادة تتسخ، لأنها وقعت من جديد، ونزفت في عدة أماكن. تتصور أن السيد الشاب سيكسر سوطه ويكسر يديه ويكسر رجليه من شدة ضربها. تعتقد أن البيت سوف ينهار من شدة صراخه، وتتصور أن جسدها سيشق إلى نصفين. تتصور أن الأمر قد انتهى. تعتقد أيضًا أنها تريد أن تعيش. تزحف للخروج من الغرفة. السيد يتبعها وهو لا يكف عن ركلها بقدمه كما لو كان يدفعها، تحتمي في غرفة السيدات الصغيرات، ثريا وراضية مستلقيات على المراتب على الأرض، وهما يأكلان عن ملل، يأكلان طيلة اليوم، يبصقان العنب، وحبات البلح، تحتمي بَخيتة وراءهما وتطلب منهما النجدة، النجدة.. النجدة... يستمر سمير في ضربها. وهما مستمرات في الأكل.

بَخيتة الآن لعبة مكسورة. ونجسة. وسوف تطرد إذًا. وفيما بعد، عندما ستُسأل عن السبب بالضبط، سوف تقول: "لقد كسرت مزهرية". لشخص واحد فقط، ستقول الحقيقة. شخص واحد سيحتفظ بقصة الإهانة .

بعد ضربات سمير، ينقلونها عند العبدات، حيث تمكث شهرًا بأكمله مستلقية على حصيرة، في محاولة للبقاء على قيد الحياة. لا أحد يعالجها أو يتحدث معها. يضعن في صمت طعام وماء بجانبها، بدون الاهتمام إنها تقترب منهما أم لا؟ تنادي على بيناه التي لا تأتي. عندما تفتح عينيها لا تراها. لا تشعر أبدًا بيدها في يدها. لم تعد تسمع صوتها. عندما تستعيد وعيها، يقلن لها أن السيد كان لديه دين في اللعب.

لن تتذكر أبدًا متى رأتها لآخر مرة. اختفاء بيناه هو مثل اختفاء اسمها، قلب يتوقف. كانت بيناه فرصتها في البقاء على قيد الحياة. إنسانيتها. وهي حرة، وبعيدة، ومتقدمة في العمر، ستحتفظ بَخيتة بها معها. طيلة الوقت وحتى آخر يوم. كانت قد حققت معها حلم كل عبدة، ـ فرّتا وعصيتا ـ، كان لديهما هذه الصفة ولديهما هذهْ القوة.

في اليوم الذي تستطيع فيه النهوض بمفردها، يُقدّرون أنه يمكنها العمل من جديد، ولكن لم يعد ممكنًا بالنسبة لها أن تظهر في الحرملك، تعمل في المطابخ، في نهاية الفناء. مكان به قدر من الوسخ لا يمكن تخيله، السيدات لا يعرفن عنه أي شيء، ولا يتخيلن أنفسهن وقد ذهبن إليه. الجدران سوداء من كثرة الأوساخ والدخان الذي ينبثق من الفرن، لا توجد بداخله مدخنة،

وتتجول القطط بين الصراصير والجرذان ويأكل الكلاب من أواني الطبخ. كل يوم، تستيقظ بَخيتة قبل صلاة الفجر لإضاءة الفرن وغلي المياه. تذهب لتأتي بالخشب من المخزن، وأحيانًا ترفع عيونها نحو نوافذ السيدات الصغيرات، والشرفات المهجورة. هذا أصبح بعيدًا بالفعل وربما لم يكن موجودًا أبدًا. تفضّل أن تنظر إلى السماء واليوم الذي سيولد وتتساءل إذا كانت والدتها، في نفس اللحظة، جلست على جذع الباوباب الموضوع على الأرض، وإذا كانت تنظر إلى ولادة النهار، كما كانت تحب أن تفعل. لكنها لا تجرؤ على الحديث معها. لم يعد لديها أي وعد لها. لن تحصل على عفوها، ولا على نهاية آلامها، وتتقدم بمفردها في عالم كل يوم يدفعها بقوة مثل الريح الجائعة. هي ضائعة في هذا العالم. إن رحيل بيناه هو انفصال يحيي الانفصالات الأخرى، وبعض العبدات، لكي يتفادين هذه المعاناة يخترن عدم الحب إطلاقًا، وينسين قلبًا لا يخدم إلا الآلام. تتحدث بَخيتة إلى الدجاج، إلى الكلاب، إلى الشحارير، إلى النجوم الأخيرة التي تتلاشى مع قدوم اليوم الجديد، وتتحدث إلى الأخشاب التي تجمعها، إلى الماء والريح، وتتساءل إذا كان ممكنًا أن يتذكر القمر اسمها، ويبدو لها أن آخر مكان هادئ، وآخر ملجأ هنا، في هذه اللحظة حيث يختفي الليل ليفسح المكان للنهار. ثم تعود إلى العمل، حمار صغير عنيد يخفض رأسه، يعمل ويطيع دائمًا، ويتلقّى الضربات دون محاولة لفهم السبب، من الذي يأمر، ومن الذي يستحق، من يقرّر أن تتوقف، وأن تعود، وتتذكر يد بيناه في يدها، والشجاعة التي

كانت تمنحها لها. *لن أترك يدك*. قد يكون هذا ما زال صحيحًا. تقرر أنه كذلك.

تمر الشهور هكذا، في بيت الثعبان حيث كل واحد يقوم بعمل يومه بنوع من اللامبالاة، وفي ضجة الأوامر والضربات، والبلبلة الكبيرة المليئة بالخوف. وفي يوم، السيد يرسل في طلبها. يقودها أحد الخصيان إلى مكتبه، في طابق الرجال، تمر أمام الثعلب المحشو الذي كان مخيفًا جدًا لبيناه، تدرك أنه في مكتب السيد البؤس ينتظرها بهدوء. تعرف أنه منذ أن صرخ سمير أنها نجسة، يريد السيد بيعها، تعرف ذلك.

في هذا اليوم، هو بصحبة رجل يرتدي الزيّ العسكريّ ويتفحصها، ثم يخرجان في الحديقة كي يراها الرجل بزيه العسكريّ، في وضح النهار، ويراها وهي تجري. بتعب شديد تجري ولا تذهب إلى أي مكان، تجري في الحديقة الشديدة الجمال وهي غير مبالية، وعندما تتوقف، تخفض عينيها وتنتظر. الأموال تتدفق. ثم تسير خلف سيدها الجديد، اليدان مقيدتان بسلسلة، ويمسكها حارس، وهي ذاهبة. تحاول أن تأخذ بيناه معها، أن تحتفظ بقلب العصفور في حضنها، وتترك وراءهما أيام الحزن، أيام الخزي، وكل معاناتهم. تتذكر بابتسامة بيناه التي كانت تقول: لم نعد جائعين حقًا ولم نعد نشعر بالعطش الشديد" وتحمل معها امتنان الطفلة.

تغادر بيت الثعبان دون أن تأخذ أي شيء، لا شيء، ولا حتى حجر، إلا القليل من الأرض، كلمة، إلى اللقاء، نظرة. لا شيء. ماعدا الخوف من المجهول، وهذه النجاسة التي يراها الجميع، على وجه اليقين، وفي نظرتها التي خُفضت، وفي تنفسها الصغير، وفي صوتها الذي تغير، وانخفض جدًا، والذي يغنّي بطريقة نشاز الآن، وانحرف ويُهزي. تتحدث أقل، فهي حذرة وغير واثقة من نفسها، وليست لغتها فقط هي "الخليط"، ولكن هي كلها. تبلغ من العمر عشر سنوات ولا تعرف كيف تنمو. تنمو بطريقة سليمة. تنمو بحنان وطيبة، هي النجسة، التالفة، دون أي براءة. حياتها تشبه رقصة معكوسة، دوامة من الماء القذر. تبحث عن نقطة للاستدلال وهي متعطشة لشيء ما لا تجده. نصيحة. كلمة عاقلة. لا تعرف إلى أين تتجه.

الرجل الذي اشتراها هو جنرال تركي، يقود العديد من جيوش العبيد في خدمة الحكومة التركية / المصرية التي تدير السودان بموجب قانونها. ومليشياته من العبيد/الجنود يسيطرون على النظام ،ويجمعون الضرائب وينهبون الماشية، والرجال.

الجنرال ثريّ ولكنه متقشف، والبيت مبنى ضخم أحمر وذو نوافذ مربعة وسياج الأسلاك، والحديقة عارية، دون ورود أو أشجار، النافورة جفّت، وفي برج الحمام فإن غناء الحمام متعب

مثل شكوى. الفناء مظلم، والشمس لا تنزل فيه. في اليوم الأول، لا تلاحظ بَخيتة ناقوس التنبيه. لكن سريعًا ما ستخشى سماعه، لأنه يعني غضب الأسياد، غضب يطالب لتهدئته دائماً بالشيء نفسه في كل مرة: بعد رنين الجرس، إنزال عبد في هذا الفناء، لكي يتعرض للضرب.

في هذا البيت تسود امرأتان، والدة الجنرال وزوجته. وكلاهما تكره الأخرى، وكراهيتهما المتبادلة هي طعام يسعيان إليه دون توقف، ويبحثان عنه، ويقابلانه مثل الرماد القديم الصالح دائماً للاشتعال، وهذه الكراهية تنهكهما وتنشطهما أيضًا، ويستمتعان بها أحيانًا، واشمئزازهما من بعضهما البعض قوي لدرجة أنه يجمعهما، وهذه الكراهية مثل المنفعة العامة والمرض المشترك. الجنرال يمنح هاتين السيدتين بَخيتة، فهي في خدمة زوجته وسوف تتعلم أن تمشط لها شعرها وأن تقوم بتلبيسها ملابسها دون أن تلمسها أبدًا، وسوف تتعلم كيف تستبق الأوامر، والرغبات وأن ترى الضربات في طريقهم إليها وأن تقبلهما، والسيدات يتحدثن باللغة التركية والعبدات باللغة العربية، وسوف تتعلم بَخيتة مرة أخرى كيف لها أن ترشد نفسها، عن طريق "الأذن"، ونبرة الصوت والحركة والتعبير، وهي تعتبر نفسها سعيدة في كثير من الأحيان بعدم فهم الكلمات التي تتفوه بهما السيدتان، كلمات تبدو عنيفة لدرجة أنها تندهش من عدم إحداث حريق على لسانهما من بذاءة اللغة.

وتقوم "حوى" وهي عبدة أكبر قليلًا منها، وعمرها اثنتا عشرة سنة تقريبًا، بمهمة تدريبها، وتعليمها كيفية التعامل مع السيدة

دون أن تلمسها إطلاقًا، في الصباح خلع ثيابها وقميصها وسروال الليل، وفك الشريط، وربط الحزام الذهبي، وإلباسها الجلابية المصنوعة من نسيج البركال، بحيث أنها تقع بطريقة مثالية، وإزالة منديل الليل حتى تقوم بتسريح وتضفير شعرها الطويل قبل أن تخفيه تحت منديل من القماش الشفاف، وفي كل الحالات *دون لمسها*، ثم وضع قرطيها من الألماس، وخواتمها الضخمة، وقلادتها من اللؤلؤ. وفي الليل، عمل الشيء نفسه، ولكن بطريقة معكوسة، تساعدها بَخيتة على خلع ثوبها وارتداء ثوب نسائي فضفاض من اللون الأبيض فوق سروال من الكتان، بدون لمس وراكها وربطه عن طريق رباط من القنب، وعندما تطلب منها السيدة أن تضغط أكثر فهي تعلم أنها تطيل الاختبار، وتثريه ببعض المتغيرات المتكررة إلى حد كبير، والمنتظرة، ثم تساعدها بَخيتة على ارتداء قميص ثم ثوبين أو ثلاثة فوق بعضهما البعض. وهي تضع منديل الليل حول رأسها وتسقط ضفائرها إلى مكان أكثر انخفاضًا منها. *دون لمسها إطلاقًا*.

كل هذا نوع من المعاناة الشديدة. وهذه الطقوس مستحيلة دون أي ملامسة للجسم أو بشرة السيدة، هذا تعذيب متفنن في القسوة، وهي لعبة تتلذذ بها السيدة وتنتهي دائماً بالناقوس، وظهور الشخص المخصي الذي يقود بَخيتة إلى الفناء حيث عبد عسكري يضربها بضمير حي. السيدة تسمي هذا "تسليم بَخيتة إلى الغربان"، أسود على أسود، لون على لون، العبد يضرب العبد. والعبيد يطيعون الأوامر، وتسمعهم بَخيتة وهم يلعنون هؤلاء الـ *جنجا* (JENGAS)، هؤلاء النيجرو (العبدات السود)،

وهذا هو التسلسل الهرمي للسجن. فهناك عبيد من فوق وعبيد من تحت، بَخيتة هي، وبسبب - أو بفضل - جمالها، ليست في أسوأ حال.

العبيد الخدم والفلاحون ينامون في بنايتين منفصلتين، واحدة للرجال والأخرى للنساء، وهي بنايات مهملة وتفوح منها رائحة القش الرطب والبول، حيث تتكاثر الفئران وتنقل الأمراض، وهناك يسود الخوف. والعبيد يخافون طيلة الوقت. الخوف من النوم بينما يكون الوقت قد حان للاستيقاظ. الخوف من عدم النوم والإحساس بالإرهاق الكبير في الصباح في وقت العمل. الخوف من الضربات التي توقظ ضربات اليوم السابق. الخوف من الضربات التي لا تأتي وستقع على حين غرة. الخوف من العبيد القدامى ومن العبيد الجدد، الذين يعرفون أشياء أكثر مما يجب والذين يأتون وهم في براءة خطرة. الخوف أثناء اليوم والخوف أثناء الليل، لأن زوجة الجنرال تأتي كل صباح قبل غناء الديك لضربهم. والذين اشتغلوا أثناء الليل وقد استلقوا لتوهم على حصيرتهم يُضربون بنفس الطريقة. واللواتي يحملن طفلاً واللواتي يخرجن للتو من أحلامهن، والذين مازالت أرواحهم متحدة بالليل، والذين يعانون من ارتفاع الحرارة، والذين طعنوا في السن وسوف يرمونهم في وقت قريب على كومة السماد، والأطفال الصغار الذين مازالوا يرضعون من الثدي، كلهم، مازالوا مستلقيين، يُضربون بنفس الطريقة. في كل صباح قبل صياح الديك، زوجة الجنرال تصرخ بمتعة ساخطة: "عبيد! جنس حيواني!" ثم بعد ذلك، تشعر بتحسن.

في هذا البيت تكبر بَخيتة. تتحدث قليلاً مع الآخرين الذين لا يتحدثون إلى أي شخص، وهي تخاف أن تكبر مثل هؤلاء العبيد المنهكين، الجائعين، والذين لا تعبر عيونهم عن أي رغبة، ولا الرغبة في الحياة، ولا الرغبة في الموت.

ورغم أنها لا تزال تعيش في الأبيض، فإن بَخيتة تشعر أنها بعيدة عن أي إنسانية، وكيشمت غير موجودة في أي مكان، وبيناه ضائعة في حشد الأسرى، وهي تحاول أن تتذكر حكاياتها، لغتها، أحلام اليقظة، ولكن كل هذا ينتمي إلى شخص آخر، طفلة صغيرة بدون اسم. تحاول إعادة تركيب وجه والدتها ولكنه يتهرب، وهي تحاول أن تسمع من جديد أصوات قريتها ولكن لهجتها تصبح فقيرة، والشجاعة التي تبذلها للبقاء على قيد الحياة كل يوم تنهك روحها، وفي الليل لا توجد أحلام لإعادة الحياة مع حلاوة بعض ما كان في الماضي، عن السبع سنوات من حياتها التي عاشتها في داجو (Dajou)، التوأم، الحنونة والطيبة، والتي كانت تخاف من مسارات الثعابين والتي كانت تضع رأسها في عنق والديها في الليل، عندما كانت الشمس تختفي وراء التل. في يوم من الأيام، تغلق عينيها وترى قلبها، هو عصفور بأجنحة مطوية وينام بهدوء. هذه الصورة تعطيها شعور جيد، إنها جميلة مثل هدية، ولكن الأهم أنها تعني أنها لم تمت. تنام فقط. تنام. وذات يوم سوف تستيقظ.

في منزل الجنرال التركي، ستبقى بَخيتة أربع سنوات، حيث تبلغ من العمر حوالي ثلاثة عشر عامًا، حتى 1882. جسدها يبدأ في الارتفاع، مثل أهل قبيلتها، مرن وأسود عميق، وعيناها على شكل اللوزتين وتحتفظان ببراءة مذهلة، مثل استجواب خجول، ووجهها جماله قوي لدرجة أنها لا تراه وهو مربك لها، بيضاوي بطريقة مثالية، وعظام وجنتيها عالية وخصوصًا هناك نبل يأتي من نعمة ما من خارجها. الوجه يُصقل والجسد ينمو في هذا البيت المليء بالأرواح الغاضبة، يا له من سوء حظ كبير، مثل شجرة في الحقل الخطأ.

وهي تبلغ من العمر اثني عشر عامًا تقريبًا ويبدأ صدرها في الظهور. والأسياد يرتدون ملابس بينما العبيد لا يرتدون إلا وزرة. وتريد بَخيتة أن تكون مختبئة، غير مرئية مثل الأرواح، ومغطاة مثل السيدات، أن تكون عارية في أولوجوسا فهذا كان طبيعيًا كالعشب في الريح، ولكن أن ترتدي وزرة فقط في بيت السيد فهذا عار دائم.

كان الجنرال التركي يطلق على هذا *"لعبة الخرقة"*. كانت الأشياء تسير بسرعة وكانت تضحكه في كل مرة، مثل لعبة سحرية تدهش دائماً. في المرة الأولى، لا تعرف. السيد يناديها، تركض، تسجد، تطلب المغفرة، يأمرها أن تنهض، تنهض، فجأة

يأخذ ثدييها الوليدين في يديه، ويقلبهما كما لو كان يريد "عصر منشفة"، كما لو كان يريد فصلهما عنها، تمزيقهما من لحمها، تذويبهما، هذا ما يقوله، يريد تذويبهما، لا يريد أن يراهما بعد الآن. تصرخ من الألم والرعب، هذا ألم وحشي، وذهول. تعتقد أن السيد اخترع هذا التعذيب لها، بسبب ما فعلته، وما تمثله، لا تعرف أن الأسياد لا يخترعون شيئًا. إن تعذيب المنشفة (الخرقة) مفروض على النساء منذ قرون، وإذا قيل لها فقط إنها لم تكن الوحيدة، ربما كانت حقدت على السيد وليس على نفسها.

أحيانًا يتحدث العبيد بينهم قليلًا. حكايات قصيرة. في لحظات قصيرة، ومضات. لأن حصة الحساء كانت أكثر سخاءً، لأنه كان لديهم وقت لرؤية غروب الشمس، لأنهم رأوا ولادة مهر، لأنهم تذكروا أغنية من بيئتهم. ولأن الحياة لا يمكن أن تكون دائمًا منفصلة عن الحياة، لذلك للحظة، يجرؤن على الشعور بالجَمال والذي يذكرهم أنهم جزء من الذي يحيي. يتحدثون مع بعضهم البعض بكلمات فقيرة، وملموسة ونادرة، وهي لحظات يسرقونها إلى تجاهل الاستغلال. الأشياء تموت كما جاءت، هدنة بين قتاليين، ثم يذهب كل واحد إلى وحدته، وإلى صمته وإلى تاريخه، والجميع لا يتحدثون، من أجل الاستمرار في التحمل.

وفي أمسية خريف حيث تحمل في أحضانها قطًّا صغيراً يبلغ عمره بعض الأسابيع، تشعر بَخيتة بالارتياح. هي مندهشة من استعادة هذا الشعور. هي فرحة مليئة بالانفعال، يكاد يكون حزنًا، من كثرة ذكريات ما كان. هذا الزمن الذي كانت فيه جزءًا

مما يحيا. وحوى جالسة على الأرض، بجانبها، ويجب أن يعودا إلى المبنى، لكنهما يسرقان هذه اللحظة، ويهديان أنفسهما بعضًا من الليل، وبعضًا من السماء ومن الهواء الذي يصبح أكثر خفة، وهما متواطئتان، يشاركان يوميًّا في خدمة السيدات، هذه الممارسة السادية *دون لمسها إطلاقًا*، وهما تضحكان في بعض الأحيان بينهما، من هذا العبث. في هذه الأمسية الخريفية، وهذا القط الصغير بين أيديها، دافئ مثل رقبة أحد الأحباء، تبوح بَخيتة إلى حوى في همسة من الزهو: "لقد هربت بالفعل من قبل. هل تفهمين؟ فرار هل تفهمين؟ هربت مع صديقتي بيناه، لقد هربت". تفهم حوى وبَخيتة تقص. تداعب القط وتستعيد متعة الحكي والاستماع للأخرى، والتبادل البسيط جدًا، "في الشجرة نعم، لقد نمنا في الشجرة! ومر الحيوان المفترس! هنا! تحت الشجرة!" وحوى تضحك قليلًا وتتنهد وتتابع القصة، وبَخيتة تأخذها، وتحكي وهي تهمس هذا الفرار المجنون، وهي تهمس ولكنها مسموعة، مع هذا. ووالدة الجنرال التي تفخر بأنها لا تتحدث ولا تفهم العربية، سمعت وفهمت كل شيء.

الناقوس يدوي، والعقوبة تصبح نافذة.

عاشت بَخيتة لمدة عام كامل وهي مقيدة، السلسلة في قدمها مثل الكلب المسعور في الليل كما في النهار، كانت ساقاها حِمل تئن بسببه من الألم، قضيب من الحديد مشتعل، يتبع وركها وظهرها وذراعيها، متشبثًا بعنقها حيث كان يضرب باستمرار. لم يكن صعبًا عليها فقط أن تمشي، وتصعد درجات الدرج وتنحني أو تنهض، ولكن أيضًا أن تفعل أي شيء مفاجئ.

وهذا هو الهدف من السلسلة. أن يكون الاندفاع مستحيل، سواء من الجسد، وأيضًا من الروح: الحرص والغريزة اللذان بدونهما العبد ليس أكثر من فريسة.

في سن الثانية عشرة، مع هذه القنبلة الحديدية عند قدمها، بَخيتة كانت تترنح وتتنفس بجهد مثل امرأة عجوز. وكان يمكن سماع ورؤية هذا منذ مسافة بعيدة، وإذا كان بعض العبيد ينظرون إلى الأسفل عند قدومها، فإن الآخرين منهم يطلبون منها أن تحدث ضوضاء أقل. وعندما سحبوا السلسلة لبضعة أيام، كنوع من الدماثة أثناء أعياد الله، فإنها كانت تعرج كما لو أن السلسلة قد أفقدتها توازنها، وأن جزءًا من جسدها كان محتاجًا لحملها كي لا تسقط. وحين انتهت أعياد الله ووضعوها من جديد، شعرت أنهم سجنوها داخل نفسها، وكانت هي سجنها الشخصي، منفصلة عن كل شيء، مزدحمة ومعوقة، ووجودها كان مزعجًا، لأنه كان يذكر الجميع بالعذاب الذي كانوا يريدون نسيانه، هذه المسيرات الطويلة وهم مقيدون والتي قادتهم إلى هذا الجحيم. كان كاحلها متورمًا مليئًا بالبثور وملتهبًا. بدأت تتحدث إليه في المساء على حصيرتها، وكانت تداعبه كحيوان صغير، وتهدأ الجزء الذي تعرض للعقوبة والتعذيب، لأن هذا لا يمكن أن يستمر، فإنها لا تريد أن تعرج، وأن تكون عديمة القيمة. والعبد عديم الفائدة، هو عبد يتغذّى من أجل لا شيء، ويُتخلّص منه. حوى كانت تنجح أحيانًا في سرقة جذور الزنجبيل التي كانت بَخيتة تقضمهم، ثم تبسقهم وتطبقهم على كاحلها. وكان يتراجع الالتهاب بعض الشيء. بَخيتة ترى جدتها من جديد

وهي تسحق الأعشاب وتعالج كل واحد وفقًا لدائه، تحاول التذكر ولكنها لم تتذكر، ماذا كانت هذه الأعشاب، ماذا كان ينمو عندها، ماذا كان اسم الورد واسم النباتات؟ لم تكن تعرف ذلك، هل عرفته في يوم ما؟ ماذا تعلمت من حياتها كفتاة صغيرة؟ ماذا تبقّى في داخلها من داجو من دارفور؟ منذ متى وهي عبدة؟ الزمن كان يمضي بدون معالم، كانت تحاول إحصاء أعياد الله، فصول الأمطار، ولكن كان هذا مربكًا ومثبطًا في أغلب الأحيان. لا تريد أن تكون مثبطة. لا تريد أن تظل مقيدة. لم تكن تريد أن تكبر في بيت الجنرال التركي. أن تحمل في يوم من الأيام، مثل الأخريات أبناء السيد. وأن يأخذهم السيد. لم تكن تعرف موضعها من الزمن، ولكن الزمن كان يمر ويسحبها في حركته. كانت مخاوفها تدفعها إلى هوة. ولكي تنسى الخوف كانت تنحني على كاحل هذه المرأة العجوز، تتحدث معه، وتعالجه، ودون علمها، في هذا الاهتمام، تجد وسيلة للبقاء على قيد الحياة.

هي الآن في الثالثة عشرة من عمرها، تقريبًا، وهي فتاة ذات ثديين مشوّهين وعلامات مفزعة تدل على أن الأمومة أصبحت ممكنة، وهي خائفة أن يظهر هذا أيضًا، وأن السيد الذي لا يفلت منه شيء يعرفه، كل ما ينبع منها يستحق اللوم بالنسبة له، ما هي عليه، وما تفعله، وحتى ما تراه وما تسمعه. وهي ليست إطلاقًا في المكان المناسب، وكل شيء يدينها.

وفي صباح أحد الأيام، هي وحوى تشهدان شجارًا بين الجنرال وزوجته. وهما في غرفة السيدة، *التي لم تلمسها* بَخيتة، والمرتدية ملابسها ومصففة شعرها كما تحب، بثراء، بكل الأحجبة والألوان. منحنيات الرأس واليدين في الظهر، دون أي حركة وصامتات، مثل السجاد والوسائد حولهما، إنهما ينتظران الأمر. وفي هذا الصباح، الضوء في الأبيض بارد، والشتاء قريب وكل شيء شاحب بحزن، ويزحف ببطء. وزوجة الجنرال بصفة استثنائية، لا تصرخ. وهي تهدد السيد بحقد مثلج مثل مياه الآبار في الشتاء. والكلمات سيئة للغاية حتى أن الجنرال الذي يقود الجيوش، والجنرال الذي يأمر بالهجمات والذي يراكم النياشين، الجنرال تحت وطأة كلماتها، يحني رأسه. مثل عبد. ثم يرفعها. ويقترب من زوجته، وعندما يصبح قريبًا جدًا منها، يرفع ذراعه لفترة طويلة فوق وجهها، وترتجف ذراعه من الغضب. هناك

صمت وطنين للصمت. وأنفاس تخنق، وريح تصطدم. ثم يسقط الجنرال ذراعه، وينظر لهما، هي وحوى. وهاهما يستمعان إلى الناقوس.

في الفناء، قام جنديان بزجهما على الأرض وبضربهما. وهذا يدوم لمدة طويلة لدرجة أنه سوف يدوم العمر كله. سوف يحتفظ فخذها بهذا التجويف، وبنقص اللحم الذي انتزعه القضيب. يشاهد السيد التعذيب، وعندما يشعر بالهدوء حقًا، يشير إلى الجنود بالتوقف. فيتوقفون.

يتم نقل بَخيتة وحوى، في حالة إغماء ونزيف، إلى مكان إقامتهما حيث تقيمان أكثر من شهر. ومن المستحيل بالنسبة لهما العيش في أي مكان آخر غير الألم، والمعاناة تكتسحهما، وهما على وشك فقدان الوعي ولم تعدا تفكران في أي شيء آخر، ويتألمان. لا توجد أي رأفة أو مساعدة. لا أحد يحنو على أجسادهما المعذبة. أولًا لأن هذا ممنوع، ثم لأن الشفقة يمكن أن تذبذب العبيد الأكثر تحملًا، ولأن التذبذب خطر، والتذبذب يمكن أن يكون مميتًا. وكل الموجودين هنا فعلوها بسبب إرادة رهيبة وقوة تحمل جبارة، وقد صمدوا للبقاء على قيد الحياة، ولن يخسروا هذه المعركة بسبب شيء من الرحمة من أجل عبدتين تعرضتا للضرب. فالتعرض للضرب هو الحياة اليومية، هو الشرط. وكثير منهم يشبهون بَخيتة وهم شباب وخائفون، ولا يجدون مكانهم ولا يعرفون كيف يتعاملون. ولا ينبغي لهم التصرف بهذه الطريقة. كل واحد له مكانه، ولا يتم شراء العبد أو بيعه عن طريق الصدفة، سواء كانوا أحياءً أو أمواتًا، عن طريق

الصدفة، ولا يضربون أو يساء إليهم عن طريق الصدفة، ومن الخطأ أن يشعروا أنهم ضحية لعنف ما بطريقة عشوائية، فالأسياد يهتمون ببيوتهم ويعرفون على وجه الدقة كيفية الاعتناء بهم. ورغم هذا، في هذه السنوات من 1880، أولئك الأسياد لا يستمعون إلى التهديد الذي يقترب. هناك رجل، *(المهدي)*، *المنقذ للإسلام*، والقائد الديني السوداني، يعارض المحتل المصري. وهو يعد الشعب المستغل والمستبعد، بتحرر السودان وتجديد الإسلام. والحكومة التركية/ المصرية تجهل غضب الشعب وقوته، طالما أن القوة كانت دائماً بجانبها، فهي ملك لها كما الرجال، وهي تقود وتقهر كما لو أن العالم سوف يظل دائماً بقبضتها الضيقة، ولكن هذا العالم يتصدع، هذا العالم سوف يشرخ، وغدا سوف ينفجر.

في هذا الشهر من المعاناة، مستلقية على حصيرتها، بَخيتة هي أيضًا، وبطريقتها، تعيش خارج العالم. منغلقة على آلامها، جسدها يعمل على البقاء على قيد الحياة، على الشفاء، وشيئًا في شيئًا يستيقظ وعيها وتسمع، تستمع إلى الأرض من تحتها وهي ترتعش، وقد هزها أجساد العبيد الذين مروا من هنا قبلها، وقد ألقوا على نفس الحصيرة بالضبط، في نفس المكان. وقد احتفظت الأرض بعلامات هذه الأجساد، مع التنفس والحرارة، مع ماء الدموع وسماكة الدم، وتتذكر الكل، بكل اختلافاتهم، وكيف أن عقولهم لا يمكن أن تمزج أبدًا، وكل واحد من بينهم لديه أشياء كثيرة ليخبرها، المناظر الطبيعية التي شاهدها والحيوانات التي أحبها، والوقت الذي كان يفضله أثناء اليوم،

والطعام الذي أعدته له والدته، والشخص الذي أحبه في الخفاء، والهبات التي كانت له، فالأرض تتذكر كل شيء. وهذه الأرض تخبر بَخيتة إن هنا ليس عدلًا. فمكان العبد ليس عادلًا. لا يوجد على وجه الأرض فتاة أخرى مثلها، وهي لا يمكن تعويضها. ربما أنها لا تتذكر على وجه الدقة وجه والدتها، ربما لن تستطيع أن ترسمه على الرمال، ولكن جسدها وهي جالسة على جذع شجرة الباوباب على الأرض، عندما كانت تنتظر شروق الشمس، فهذا لم تنسه، وهذا وحده هو المهم. فإن وجه والدتها قد تغير وسوف يتغير، لكن حبها للصباح الآتي شيء أبدي. ولمدة أيام وليال، تستمع بَخيتة إلى الأرض، وفي صباح ما تستيقظ. تترنح وتستند إلى حيطان المبنى لتخطو خطوات قليلة، وهي تنظر أمامها، ساقها تؤلمها، وتعيد تعليمها، فلا يجب أن تنتمي طويلًا للمرض، فلا يجب أن تصبح جزءًا من العبيد عديمي الجدوى. لا يجب أن تموت. فقد خاطبتها الأرض، الأرض المقدسة التي يبجلها أبناء قبيلتها؛ لذا تستيقظ، وتتقدم، مترنحة وذات إرادة، في عالم على حافة الهاوية. قوات المهدي تنمو في العدد، والعبيد العساكر في خدمة الأسياد ينضمون إلى جيوشه، وسوف يحارب الرجال الآن من أجل بلادهم، والمعارك دامية، والهجمات أكثر، وبطن التمرد يتضخم.

وفي الأبيض، في بيت الجنرال التركي، تقام الحفلات، وتُشتري شركسيتان وخصيّ. في بيت الجنرال التركي، يُدار عالم من الانحطاط والعنجهية.

هكذا في صباح أحد الأيام، تستيقظ زوجة الجنرال بفكرة جديدة. هي سعيدة بهذه الفكرة. وهذه الفكرة لا يمكنها الانتظار. "جميلات! إنهما جميلات جدًا!"

دجميلة! جزل "Guzel" ! تنظر للعبدات الثلاث وتشير إليهن وهي تصرخ كما لو أنها نسيت شيئًا ما موجود هنا، بالقرب منها. *"جزل!!! Guzel!* تقول هذا وهي تصرخ لحماتها، وتشير إلى العبدات الثلاث، بَخيتة وحوى وعبدة أخرى، صغيرة جدًا، ست سنوات على الأكثر، جاءت منذ فترة وجيزة جدًا حتى أن السيد لم يعطها اسما بعد ويسمونها (yebit)، "التي لا تستحق اسمًا". تبدو وكأنها لا تفهم إطلاقًا ما يحدث، ولا ماذا تفعل هنا. وفي الجزء المخصص للنساء تقدّم بعدم المهارات المضحكة، صينيّة الوضوء، وإبريق الشرب، أو تمد الناموسيات حول الأسرة وتأتي بالسحارة والسجائر، والمطفاة، عيناها الكبيرة مندهشة وتنسى تخفيضهما، وهي تبحث عن قبول ولا تجد شيئًا. أتى بها السيد من السوق في ليلة مع ثلاث فتيات أخريات، شاركن في حفلات الرجال.

لا تتحدث الصغيرة (yebit) العربية ولا التركية، ولا تعرف بَخيتة من أين جاءت، ولا شيء في طريقتها يوحي بفهم حكايتها، ولا تشكو وتبقى على عينيها السوداويين الكبيرتين كأنهما سؤالان أبديان وتبدو وكأنها تنتظر شيئًا ما لن يأتي.

[دجميلة! جزل!] تشير إليهما زوجة الجنرال بنفاذ صبر جشع، تشارك فيه حماتها، نعم، لمرة وحيدة، كلاهما متفقات.

وتقتربان من العبدات الثلاثة، وبأيديهن الباردة وأظافرهن عليهن، تقيمهن، وتربتان برفق وتخدشان قليلًا وتشيدان: "لماذا لم تفكرا في ذلك من قبل!" وتتفحصنهن، لتقديمهن بطريقة أفضل، وبَخيتة تعتقد أنهن سوف يبيعهن. الثلاثة معًا. كحصة ويذهبن للخدمة في مكان آخر، للخدمة في شيء آخر، لكنها مخطئة، لن تبيعهن ولكن ستزينهن.

تريدان أن تفخر بهن. تريدان أن يرى أصدقاؤهن أنهن جميلات وملكهن، مع علامات تقول هنا، رسومات، وإشارات، مثل علم أو شعار. إنهن لا يحبذن هذه الموضة الجديدة، بجعل العبدات يرتدين الثياب. وهن يعتقدن أن العبد الذي يرتدي الثياب أسخف من القرد الذي يرتدي النعال. لا. إن عبدتهما، سوف يشعر الجميع بالإعجاب بهن وبعريّهن. وبشرتهن هي التي سَتُرى، بشرتهن كعبدات هي التي ستشير إلى ثراء أسيادهن.

يذهبن في البداية إلى غرفة لا يعرفنها، مظلمة، بأنسجة ثقيلة جدًا على النوافذ، تخفي النهار وتظهر الغبار، كبودرة، وبَخيتة لا تكف عن النظر إلى الغبار طيلة الحدث، الذي يستمر طويلًا، والمرأة الواشمة وهي *الأفضل* في مجالها، جلبت أوراقًا برسومات، وتريهن للسيدات. أمام العيون التي تنظر إلى أسفل بَخيتة، فإن الغبار يشبه الرمال الثابتة، رمادية وثقيلة. تدرس السيدات الرسومات لاختيار الوشم الذي سترسمه الواشمة، ويترددان. فهناك اختيارات شتى، وجميلة جدًا، Djamila.. Guzel حقيقة جميلة جدًا. لم تفهم بَخيتة بعد، ما هي طبيعة الخطر، لكن (التم تم) لا يكف عن الضرب بداخلها وصوته قوي جدًا بينما الغبار

غير مبالٍ والصغيرة يبيت (yebit)، التي عادة ما تكون هادئة ورقيقة، بثقتها الخاضعة، تنوح بهدوء. تلمس بَخيتة أصابعها، والصغيرة تتشبث بها بقدر استطاعتها، وأظافرها رقيقة مثل منقار عصفور صغير جدًا، هذه الأصابع المبللة بسبب الخوف، تعلم بَخيتة أنها تنادي على والدتها، بينما تضغط بقوة أصابعها الصغيرة التي لم تتلف بعد بسبب العبودية، أصابعها الشابة التي تعرف قليلًا جدًا من الأشياء. ثم تفهم بَخيتة، ما الذي سيفعل بهن.

وتتخذ السيدتان، في النهاية، قرارًا موحدًا على الرسومات التي سوف تقوم الواشمة برسمها عليهن. الأمور *ستسير على ما يرام!* وفجأة، لم يعدن متفقات. ترتفع نغمة الصوت، والشتائم تنهمر. وبَخيتة وحوى يخشيان الناقوس، بإحساس مربك، ورغمًا عن أنفسهما، لديهما انطباع أن هذا بسبب غلطة ما منهما. هذه الشِجارات، وهذا التردد. إنهما يتحدثان عنهما. هذا خطأهن. الصغيرة تبكي الآن وترفع وجهها المبلل بالدموع نحو بَخيتة التي تبتسم لها، واليد في اليد تتأرجح ذراعها قليلًا من الأمام إلى الخلف، مثل لعبة. وتتمنى لو استطاعت أن تهددها بكاملها، وتأخذها في حضنها، وتضع وجهها في رقبتها، حتى لا ترى ولا تسمع شيئًا، وتتنفس فقط رائحة بشرتها... القلق يعود . تتساءل بَخيتة على أي منطقة من جسدهما الواشمة سوف ترسم. هذا بالضبط سبب الشجار الذي من المستحيل تهدئته. وتستدعي السيدتان الجنرال. عمّن سيدافع؟ زوجته أم والدته؟ مَنْ مِنْ السيدتين ستفوز؟ وسرعان ما نسمع صوت الحذاء الطويل، والخطوة الذكورية والغاضبة.

وتتمنى بَخيتة لو أصبحت مثل الغبار. تتمنى أن تكون هذا النسيج أمام النافذة. تريد أن تكون في حقيقة الأمر *شيئًا*. ليست عبدة. ولكن شيئًا حقيقيًّا. عندما يدخل الجنرال غرفة ما، فإن الخوف يكون حليفه. وتتمنى بَخيتة ألا يمكث طويلًا، شريطة ألا يمسهما وأن يهدئ من روع والدته وزوجته. تتحدث الأم في البداية، تشرح: تريد شق وجوه العبدات أيضًا، أليست على حق؟ بَخيتة وحوى ينظران إلى بعضهما البعض. الصغيرة لم تفهم الكلمات بالتركية. أن يشق الوجه *أيضًا*. الآن بَخيتة تريد أن يبقى الجنرال. لمدة طويلة. أن يلغي ما سوف يأتي، طالما أن الأمور هكذا، طالما أنه لا توجد أرض مشتركة للتفاهم، وأن تغادر الواشمة وننتقل إلى شيء آخر، إلى نشاط آخر، غناء، رقصات، ألعاب، خروجًا إلى (البازار). ينظر الجنرال إلى زوجته التي تصرخ: "لا مفر! ليس الوجه!". وتتهكم والدته وتقول إن أصدقائها سوف يشرطون وجوه عبداتهن أيضًا، فالأشياء تسير بهذه الطريقة اليوم. "هذا من شأنه إفساد كل شيء!" تقول الزوجة. تضع يدها بإحكام حول صدرها، وتنظر إلى زوجها بشيء من التحدي يشبه تهديدًا عائليًّا. أصابع الصغيرة (yebit) ترتعش في يد بَخيتة مثل حشرات صغيرة تريد أن تجري. آه، يا أخت يا صغيرة، تفكر بَخيتة، لن تجري! تفهم أن ما سيحدث لهن سوف يكون فظيعًا، وقد رأته من قبل على أخريات ودائمًا ما ارتعدت منه. هذه الانتفاخات على كل الجسد مثل الأرض المحروثة، مخدوشة من الوحش، وهذه البشرة المشوهة، والمتورمة والمحروقة. "أنا أوافقك!" يقول الجنرال إلى زوجته وينضم إلى رأيها. لا للوجه أيضًا.

والناقوس يدوي. وينزلن إلى الفناء. تترك بَخيتة أصابع العبدة الصغيرة التي تنظر إليها بعيون مليئة بأسئلة مذعورة، حينئذ تومض بجفونها قليلاً لتقول لها *لا أترك يدك*. وهي تعلم أنها تفهم. تعلم أيضًا أنها تصطحبها للاستشهاد، وتريد أن تعتذر لها. تعتذر عن هذه الحياة.

في الفناء، ينتظرهن اثنان من العبيد العساكر. رجلان، قويا البنية. تطلب زوجة الجنرال من أحدهم أن *يقوم بالعملية*، أن يضع الصغيرة (yebit) على الأرض، على ظهرها، ويمسكها، بينما يأتي (بسلطانيتين) إلى الواشمة، الأولى مليئة بالدقيق والأخرى بالملح.

بَخيتة لم تحم الصغيرة يبيت، لم تأخذ بخاطرها، ونظرت إليها. ترتجف الصغيرة لدرجة أن الواشمة عليها أن تبدأ الرسومات ثلاث مرات من جديد بالدقيق على جسدها. ترفع نحو السيدة نظرة عتاب. والسيدة تقوم بالإشارة لأحد العبيد لتهدئة الصغيرة يبت، بصفعها وهذا ينهكها لبضعة دقائق. وتبدأ من جديد الواشمة رسوماتها، تجتهد، معصميها يرقصان، ويبدو الرسم تقريبًا جميلاً، هذا الأرابيسك، وهذه المعرفة، مثل حرفين، أبيض على أسود، منير، وجميل جدًا. ثم تخرج من مريلتها موسىً للحلاقة، وتتبع رسومات الدقيق، وتحفر اللحم، ثلاث وعشرين مرة، بعمق شديد، بدءًا من البطن حيث الدم ينفجر، كأن السيدة العجوز تحرر جداول حمراء، البطن ثم الذراعين، السيقان النحيلة، والقصيرة جدًا، والطفلة تصرخ مثل حيوان بري، ويدا وذراعا

الواشمة مغمورة بالدم، ولكن لا تبالي، وهي تنهي مهمتها. وعندما تنتهي بعناية فائقة تفتح كل جرح وتملئه بالملح، ثم تضغط عليه بقوة كبيرة، لكي يخترق الملح جيدًا. الصراخ القوي للصغيرة يَضعف ويحدث صرير، ثم تئن وتهدأ، ويهتز جسدها مثل الأرض الغاضبة، ثم مثل الوحش الذي أصبح على الأرض يتوقف جسدها عن الحركة. العسكري يقلل من ضغوطه. الموضوع انتهى. تطلب السيدة بإشارة أن يتم نقل الجسد الصغير. نهضت الواشمة، ويأتون لها بزير، فتشطف ذراعيها وأيديها، وتشرب الشاي بالنعناع، وتستعيد أنفاسها. تركع بَخيتة تحت أقدام السيدة وتتوسل إليها أن تجنبها هذا الأمر. حوى تتوسل إليها أيضًا وتبكي مثلها، والسيدة تنظر إليهما باشمئزاز منزعج، وتلقي بكلماتها الحمضية، ثم تأمر العبدات بضربهما، لتهدئتهما قبل الوشم. يتلقيان الضربات وهما متمنيات فقدان الوعي، وعدم حضور ما سيأتي، ونسيان ما رأياه، وما سيحدث. لكنهما لا تفقدان الوعي، وعندما ينتهي الضرب، تقترب السيدة من بَخيتة وبصوت منخفض هذه المرة، تنظر إليها مباشرة في عينيها وبطريقة هادئة تقول:

- "أنت! سوف تنتظرين حتى النهاية".

والواشمة تبدأ بحوى، وبَخيتة تنظر للنهاية. حتى يأتي دورها.

بَخيتة لم تحم الطفلة الصغيرة، وعندما خرجت من المبنى، بعد شهر، بحثت عنها في كل مكان. كانت تريد أن تعرف ما إذا كان هناك أي شيء منها، شيئًا ما يمكن أن تضعه في الأرض وتقدمه للأرواح، ولكن بالطبع كان الأوان قد فات ولا أحد يريد التحدث عن الصغيرة (يبيت)، التي لا تستحق اسمًا ولا دفنًا. لذلك نظرت بَخيتة إلى السماء قبل ولادة اليوم وسألت النجوم أن تغفر لها. لكن النجوم بقيت باردة، ونظرت بَخيتة إلى أسفل وطلبت من الأرض أن تغفر لها. ولكن الأرض بقيت صامتة. وكانت بَخيتة *تبلغ من العمر ثلاثة عشر تقريبًا*، قضت ستة منهم في العبودية. وهي من جديد عاجزة وخائفة كما في الأيام الأولى، حين قالت لها الصغيرة بيناه: "هذا يعني عبد". *عبد* وتذكرت أختها، قبل أن تفهم أنها هي أيضًا كذلك، *عبدة* مثل الآخرين. لا أفضل ولا أسوأ. جسدها هو الملكية الحصرية للسادة، قلبها متحجر، ولا تعرف أين تعيش روحها. لم تحمي الطفلة الصغيرة، ووجدت كيشمت دون أن تستطيع أن تلتقي بها، وفقدت بيناه، وهي تعيش في عالم غاضب، يلتهم نفسه. لا تعرف شيئًا عن تقدم الجيوش المهدية، واليوم الذي تغادر فيه المبنى، لتجد عالم الأحياء، هي كما لو أنها خُلعت من نفسها. وجروحها منتفخة، على الرغم من الملح وبعضها لا يزال ينزف، والرائحة كريهة. وهي مزينة بمئة وأربعة عشر جرحًا على البطن والصدر وذراعها الأيمن. إن أيام

المعاناة، بجانب حوى، لمحاولة البقاء على قيد الحياة، ستصبح الأيام الأخيرة لعذابها، ولكنها لا تعرف ذلك. لمدة ثلاثين يومًا حاربت وتجاوزت الألم، والالتهابات والعطش الرهيب الذي يسببه الملح في الجروح. في نوم يشبه الغيبوبة، وفي كثير من الأحيان، تصورت نفسها على الطرق الطويلة للقوافل الخالية من المياه، والساعات تحت الشمس والرغبة في عدم الموت. كان الجفاف يعطيها دوارًا حتى مع عدم الحركة، ومخها يترنح، والألم كان لا يطاق، وفمها كان جافًا ولسانها مغطّى بالبثور، وأصيبت بالحمى، وحدث لها هياج وهذيان وتردد جسدها بين الحياة والموت، ثم تكيف مع ما أصبح عليه، هذا اللحم المخترق وهذا الجلد المنتفخ، وهذه الندوب لمدى الحياة، طالما أن هناك حياة. وضعوا كل يوم، وعاء من الماء أمام حصيرتها ولم تجد في نفسها القوة اللازمة لأخذه. كلّف الوشم كثيراً والسيدتان لا يريدان موت بَخيتة وحوى، وتحتفظان بمفاجأة لصديقتها ويعرفان على وجه الدقة المسار الذي سيتخذناه كي يعرضهما في المدينة وإلى أي حرملك سيقودانهما.

سيكون لديهما بالكاد الوقت للقيام بذلك. فإن السيدات مهما استمرتا في حياتهما كأن هذه الحياة مملكتهم، وزوجة الجنرال مهما جلدت العبيد كل صباح قبل صلاة الفجر، فإن هذا النظام سيحدث له تشوش.. ويتوقف، يوم ما.

يأمر الجنرال يومًا، بالتوقف عن ضرب العبيد. ثم يغادر الأبيض. ولا يُعرف إلى أين، لكن هذا الأمر تقشعر له الأبدان ويخيف الأسرى: شيء ما يُستعد له، شيء ما سيحدث، ولا يحدث

أي تغير لصالحهم ،أبدًا. يتوقف الضرب، لكن ماذا سيحدث بعد *ذلك*؟ أجسادهم ليست معتادة على عدم الضرب. يرتعدون في انتظار الضربات. جلدهم مستعد، عقولهم مرتابة، يراقبون الأصوات والخطوات، يتساءلون كل ليلة في المبنى مع بعضهم البعض: من سمع الأسياد وهم يتحدثون؟ من ذهب إلى السوق؟ من رافق السيدات إلى المدينة؟ ماذا يقول الضيوف، الخصيان، حاملي المياه، الخادمات والعساكر؟ من يعرف أي شيء؟ إذا توقفوا عن ضربهم، فهذا بالضرورة لرفع الأسعار. السيد محتاج للمال، ولكن من أجل عمل أي شيء؟ سيباعون ولكن ما الهدف من ذلك؟ سيفصل بينهم، سوف يفرّقون دون أي رحمة. العبدات الحوامل يبكين في نومهن، والمتزوجات ينتظرن ساعات طوال دون كلام، والأمهات ينظرن إلى أبنائهن بحب يملؤه الرعب، وأثناء الليل يكررون كلمات لا تتوقف، دائمًا نفس الكلمات، كلمات حب سوف تنتهي. والمتقدمون في السن صامتون، فقد رأوا كل شيء ولا ينتظرون ولا يخافون شيئًا، ولكن الازدراء يثقل كاهلهم. يتوسل المرضى إلى الطبخات لإعطائهم الأعشاب والمساحيق التي تسرّع الموت، فهؤلاء يعرفون أنهم لن يغادروا بيت الجنرال، سيتركونهم في المبنى حيث سيموتون من الجوع والعطش، ويحاولون اختيار موت ألطف. بَخيتة وحوى يتحدثان قليلًا بالعربية، لغتهما المشتركة، ولكن الذي يربطهما لا يُحكى. لديهما أجساد توأم مشوهة، من الخدمة اليومية للسيدات بالسوط، والإهانات، والتعب والخوف. والصغيرة (يبيت). يتقسماها أيضًا. الصغيرة (يبيت). ماتت مثل كثيرين بسبب

تعذيب واشمة. ضحية دون آلهة ولا طقوس.

بعد ظهر أحد الأيام، نامت السيدة ولثوان توقفت بَخيتة عن تهويتها بالمروحة. وضعت معصمها على جبينها الذي يسيل بالعرق. تنظر إلى يديها، اثنتان من الأجنحة السوداء المفتوحة. تنظر إليهما، وفجأة ترى أصابع بيناه مرة أخرى. وأصابع العبدة الشابة من Taweisha. وتلك للصغيرة (يبيت). تشعر بأصابعها كطفلة من جديد في يدها، بلطف، مثل الريش، ثم تلك الأصابع تُكسى باللحم، تتعانق، تتحرك وترقص تقريبًا. تنظر إلى كف يدها المفتوح، يد توأمها، يد صديقتها، أيادي الصغار في أولوجسا التي كانت تقص عليهم الحكايات، كلهم استقروا على كف يدها، أيادي أولئك الذين أحبتهم وهي حرة. ثم تشعر بيد أخرى تستقر على يدها. كبيرة. ناعمة. وتعرفها. حرارتها العميقة. ضغطها المطمئن. هذه يد والدتها التي تستقر وتغلق يدها بهدوء، بسلطة هادئة. إنها تفهم حينها، أمها تغفر لها. تضغط بَخيتة على قبضتها برفق. وهي لا تعرف ماذا سيكون مصيرها في هذا العالم الذي يفرّق، لكن الآن، وإلى الأبد، يد أمها في يدها تقول لها، *أنا لا أترك يدك*.

يكملون. الجميع. بإمكانهم، بما أنهم لا يضربون الآن، أن يتمردوا، وأن يبتروا أعضاءهم، ينتقمون، يهربون. لكنهم لا يعرفون ما الذي يحدث. فالحروب بين المليشيات موجودة منذ الأزل، والجيوش تتصادم، ويؤخذ الرجال، والقرى والـ(zeribas) تهجم. ولدوا في قلب هذا العنف. هم جائعون خاصة، وخائفون، وليس لديهم أي مكان للذهاب إليه. يتحدثون العربية بركاكة،

هم نصف عرايا ومكسورون تمامًا. لا يزالون يحتفظون ببعضهم البعض قليلًا، خائفون من فقدان بعضهم. يعملون بجودة أقل. يحدث لبَخيتة أن تلمس السيدة وهي تصفف شعرها وعندما تتراجع إلى الوراء، في انتظار الضربات، تسمع ضجيج الأشياء التي ألقيت على الأرض . السيدة تخرج غيظها على كل ما يحيط بها، ما عدا هي. لكن الكلمات التي تتفوه بها هي من أجلها. وهذه الكلمات مليئة بالغضب، وتعتقد بَخيتة أن أحدًا قد ألقى تعويذة على هذه المرأة، لأن هذا الغضب ضد عبدتها يشبه جبلًا تحاول تسلقه دون النجاح أبدًا. لديها سلاسل غير مرئية، لكن تراهم بَخيتة.

يعيش العبيد بضعة أشهر بهذه الطريقة، حياة يغلفها الضباب البطيء والغير صحي للشك. ثم في ليلة، يسمعون فرس السيد، وعَدو أسوأ من الناقوس، وهو يوقظهم ويأتون إلى الفناء جميعًا. هذه هي المرة الأولى التي يجتمعون فيها هكذا، الرجال والنساء، من جميع الأجيال، قبائل لا حصر لها، وهناك الذين ينامون في المبنى والذين لم يغادروا السادة أبدًا، ليلًا ونهارًا، في خدمتهم، الناس البسطاء، الشركسيات والطبخات، المرشدون والحدادون والعبيد القريبون من السيد والأقل من لا شيء، مجتمع ينهار، في ليلة واحدة. الجنود العبيد يساعدون السيد، كما هو الحال دائمًا. الآخرون ينتظرون في الليلة السوداء، في البرد البطيء، والذين يحبون بعضهم يمسكون أيادي بعضهم البعض وهم يصلّون، والذين يعرفون هذا الخوف القديم الذي يذهل، الذين يقفون على أهبة الاستعداد، كلهم ينتظرون الضحية. يبيعهم السيد لملّاك خصوصيين، ويعمل

حصصًا، وقوائم وجمعيات؛ ويزج بهم، ويتناثرون، وضعت بَخيتة في الجزء الخلفي من الفناء، على يمين برج الحمام. حوى لا تنضم إليها. تبحث بَخيتة عنها بنظراتها ولكن لا أحد يستطيع أن يميز الأشخاص. ويُسمع في الليل الصرخات المتناثرة للذين يقولون وداعًا وكلمات بسيطة إلى الذين يحبونهم، والسوط يقرقع، وتختلط الشتائم بالأدعية، والبكاء الحاد للأطفال، وشهقات العجائز بصوت أجش وصرخات الأمهات، وهن على حافة الجنون. يظهر بصيص نور من نافذة السيدة، ترفع بَخيتة عينيها. هي بمفردها الآن في الحرملك الخالي، وتشاهد زوجة الجنرال كل ما يتهرب منها، ولا تفهم ما هو سبب هذا الظلم.

قرر الجنرال العودة إلى تركيا. سوف يغادر هو وعائلته السودان في أقرب وقت ممكن. الاستعدادات تتم في حالة من الذعر الغاضب. يجب على الأسياد ترك كل ما يمتلكون في الأبيض، وتتسرب الثروات من بين أيدهم ويغرقون في حالة من الذعر. لم يبقى لهم إلا عدد قليل من العبيد، عشرة على الأكثر، وإيقاع الأيام هو الفوضى، ويشعرون أنهم يسقطون، يسقطون دون مساعدة وفجأة كل شيء لا يطاق بالنسبة لهم، يدركون أنهم لم يحبّون أبدًا هذا البلد، هذه الرياح المستمرة، الرطوبة اللزجة، الليالي المجمدة من البرودة، وهذه الصحراء المحيطة من كل مكان. إنه مثل الاستيقاظ يرفعون عيونهم، ينظرون على مكانهم، وما يرونه هو العداء والتهديد، عالم لا يتحدث لغتهم ويسيء إلى عادتهم، إنهم يريدون الفرار سريعًا الآن، الرجوع إلى بيوتهم واستعادة مكانتهم.

تبقى بَخيتة مع الأسياد. لم يتم اختيارها هذه المرة من أجل جمالها، ولكن لقدرتها على خدمة زوجة الجنرال، التي صنعت هذه الفتاة، وما تحمله على جسدها، وإلى الأبد، بشرتها المضحّى بها، وجسدها، فقد سيطرت عليه، شكلته، وبَخيتة هي مخلوقاتها. سمح الجنرال أن تحتفظ بها، لكن حوى بيعت لمزارع كبير، وحصل على سعر جيد، وكانت تنتظر طفلها وقام الجنرال بضربة مزدوجة. لم يتم الاحتفاظ بأي امرأة حامل، لأنهم سوف يسافرون على ظهر الإبل إلى الخرطوم، على بعد أكثر من ستمائة وثلاثين من الكيلومترات إلى الشمال. إنهم بحاجة لعبيد أقوياء وفعالين.

دائمًا ما يكون الرحيل بالنسبة لبَخيتة هو الأمل، دائماً. لا تفهم أنها بمغادرة كردفان، والذهاب إلى الشمال، على البحر الأحمر، تبتعد عن دارفور. وعندما تصعد على ظهر الإبل ويرفعونها على هذا الوحش العملاق، تخفي خوفها، وتحاول أن تتماسك بقدر استطاعتها، وتنظر إلى العالم من أعلى. هي قريبة من الرياح التي ترقص في الأشجار، والتي تحرك الأعلام، وتثير الرمال والغبار، قريبة من السماء، تنظر إلى الحقول بقدر ما تستطيع العين أن ترى، الصحاري والتلال، والأبيض أصفر مما كانت تتصور، من أين أتت منذ أربع سنوات، أين دارفور، بالكاد تعرف أنها في الغرب، وبالكاد تعرف أين يقع الغرب. تتذكر مسيرات لا نهاية لها وتغير للمناظر الطبيعية التي مسحت آثار قريتها، ولم تعد تعرف أين ولدت. مع ذلك هي متأثرة كما لو كان ذلك ممكنًا، كما لو أن الفرصة متاحة لها، الآن، للعثور على أفراد عائلتها. إنها خائفة من إضاعة الوقت،

تغمض عينيها نصف إغماضة، تحول رأسها في جميع الجوانب مثل الطيور قبل الرحلة. ولكن ما يمتد بعيدًا خلال هذه الأيام من السفر، هي الصحراء، مع الكثبان الرملية الضخمة، والتلال المقشرة، والثعابين الغير مرئية، والظلال الممتدة، والرمال التي ترقص وتغشى العيون، الفم، وأقل بقعة من الجلد، في السرج وفخذ بَخيتة الذي سيظل دائمًا مجروحًا ويفتح وينزف، وتخفي قدر ما تستطيع هذا الجرح، لأنها تعرف أنه سيتم التخلي عنها عند أول ضعف. هي في حالة من التأهب، والطاعة، ولكن دائمًا مع التعب، والعطش والألم، ترصد أولوجسا.

الحرارة خطرة، وتضغط على القافلة كالاختناق، يسافرون معظم الوقت في الليل، مع الاستدلال بالنجوم. الليالي جليدية، ويتقدمون، ككتل مترنحة على الجمال التي تهتز، وليس هناك مثيل لعصبية الأسياد إلا قلقهم. أوامرهم في الليل لها صدى على الحجارة، كأصداء أوامر قديمة، لقادة الحرب والعبيد، وجميع التسريبات والتراجعات، والتجارة والمقايضة. وترحب الصحراء في ضخامتها الوردية والزرقاء بطوابير الرجال الذين يعيشون دون راحة، هذه الخيالات التي تتأرجح على ظهور الإبل الأنيقة والشريرة، وتحمل على أكتافها سقوط عالم.

ترصد بَخيتة قريتها، والمدينة التي تكتشفها بعد هذه الليالي من السفر، هي الخرطوم التي تظهر في الصباح الباكر، ووهجها الوردي الذي يرقص على إيقاع غثيان الجمل، من خلال عينيه الغارقة بالرمال والمحملة بالنعاس. وهي ترى المدينة من بعيد، وقمم ضوئها في الليل الممتد. ومن التوتر الذي يجتاح الأسياد، تعرف، أن شيئًا ما سيحدث.

وهم لا يدخلون المدينة، لكن توقفوا قبلها، عند الضاحية القريبة، أول فندق مناسب. تتبع بَخيتة السيدات، وسوف تنام أمام باب غرفتهما، على الأرض، وعلى استعداد لإطاعة الأوامر المستمرة، والتي في غير مكانها، التافهة والغير مجدية، فإن الهيمنة العائلية تطمئن، وتضع كل واحد في مكانه، وزوجة الجنرال تصفع بَخيتة لأي سبب تافه، تشد شعرها، تبصق على وجهها، لتهدئ من مجدها الضائع، تهينها، لكي تفهم أفضل وليستمع الكل لها، وتلاحظ بغيظ مقرف إنها متمسكة بهذه الصبية الغبية. إنها تكرها وتريدها. تبكي من الغيظ في سريرها ذات الناموسية المخرومة، في هذا الفندق المتهالك الموبوء بالبعوض والصراصير، وهذا الهواء الرطب الذي يُفضي إلى الجنون وهذا العار لأنها لا تملك إلا حفنة من العبيد في خدمتها. هل حياتها لا تستحق إلا هذا القليل؟

وبَخيتة مجهدة، جسدها متشابك من الآلام وروحها تبحث عن كيشمت. المدينة قريبة جدًا، وتبدو كبيرة جدًا، ويقال أنها مفترق هائل لطرق التجارة، وهنا كل شيء يتجمع، كل شيء يعيش، يقال إن النيل يصبح نهرًا واحدًا يجمع النيل الأزرق والنيل الأبيض، ويقال أن مصر قريبة جدًا والبحر أيضًا، الذي يسمونه أحمر، يقال أشياء كثيرة جدًا، لم يعد هناك ثعلب محشو يفتح فمه، بل الحكومة المصرية. سيدة الأسياد. وبَخيتة عبدة. والاضطراب يهمين عليها كما هو الحال في عاصفة الرمال، تنام على عتبة الغرفة ودموعها تحرقها وتغسل عيونها المليئة بالرمال. وتصرخ زوجة الجنرال في نومها، كلمات تركية وعربية مختلطة. تغلق بَخيتة قبضة يدها لتمسك يد والدتها في يدها، وتضع قبضتها في فمها، لعدم البكاء بشدة، ومرة أخرى، ورغمًا عنها، لا تزال تأمل.

اليوم التالي، يوم عادي تقريبًا. الأوامر، والضربات. والجوع، والعطش والألم. إلا أن السيد يفقد سيطرته وثقته الجامدة، ويصبح عسكريًا عصبيًا، كما لو كان ضائعًا في ساحة المعركة الشاسعة. يقوم بعمل حساباته. ثم يبدأ من جديد. والسيدة، من الغيظ، تشهق من البكاء. فإن زوجها عقرب متنامي الصغر، وتكررها وهي تلاحقه: وتقولها ووجهها محجب وأيضًا وهو مكشوف. وذلك من فقدان عقلها، وشدة جنونها. وتعلم بَخيتة من عبد آخر أنهم سيباعون مرة أخرى . ألن تذهب إلى تركيا؟ لقد مرر السيد الرسالة، *عبيد للبيع*. هل سيبيعهم جميعًا؟ إنه يحتاج إلى المال، والمزيد من المال للعودة إلى أنقرة. السيدة ليست مخطئة. السيد عقرب يعض نفسه، ويخسر اللعبة، وهو في عجلة من أمره، فقد أفلس.

والسيدة لم تعد تتحمل أن تعتني بها بَخيتة، تريد أن تقتلها، تود أن تدخلهم جميعًا تحت الأرض، وحماتها أيضًا، التي تساند ابنها بانتصار يغيظ.

بَخيتة تضع فرش الشعر، والمشابك والأحجبة، وتظل، واقفة، غير مجدية ومتحجرة. وتحسب. إذا كان الجنرال لن يحتفظ بها، وسيشتريها آخر، فسوف يكون هذا سيدها الخامس. هل هذا صحيح؟ وتفكر. وترى الخاطفان بالقرب من شجرة الموز، وترى المسيرات على الأقدام لمدد طويلة، ومراكز الفرز، وهروبها مع بيناه، وترى الراعي والثعبان في حنك كلبه، وترى سمير والسيدات الصغيرات، وترى السكاكين والسياط والهزائم، كانت صغيرة جدًا عندما بدأ كل هذا والآن تعرف الكثير، ولا تعرف شيئًا. لم تعد تعرف عاداتها ومعتقداتها، ولم تعد تعرف كيف تقود قطيعًا إلى النهر، وضرب الذرة، والغناء بلهجتها، وتتساءل: إذا لفظت والدتي اسمي، هل سأتعرف عليه؟ وتسأل نفسها هذا السؤال، وفجأة تسمعهم ينادونها:

- بَخيتة! بَخيتة! اقتربي!

لقد تمت الأشياء بهذه الطريقة، بتلك البساطة. كما تكفي خطوة لعبور حدود، وكما يكفي إمضاء لوقف حرب، وفي دقيقة واحدة، يحدث ما كنا نأمل في حدوثه من سنوات عديدة. وتقترب بَخيتة. وتُشترى للمرة الخامسة، من رجل يُدعى كاليستو لينياني، وهو القنصل الإيطالي لدى الخرطوم. وسيغير هذا الرجل مجرى حياتها.

عندما تُقدم نفسها في اليوم الأول أمام هذا السيد، سنيور ليني‌اني، تركع بَخيتة وتضع جبينها على الأرض، وذراعاها ممدودتان، ويداها إلى الأمام، وتسمع أمرًا لا تفهمه. تُقبل أقدام السيد، الواحد تلو الآخر، ثلاث مرات، ولكن السيد يكرر الأمر، باللغة العربية هذه المرة: *تعالي انهضي*. وتنهض وعيونها تنظر إلى أسفل، وقلبها مذعور، وهي في حيرة من هذا العالم الجديد حيث تتصرف، كالعادة، كما لا يجب. *(جاردامي)*. لا تفهم. وتشعر بيد السيد عليها، وتتراجع، غريزيًّا، إلى الوراء، وعندما يمسك ذقنها ويضطرها لرفع وجهها، تفهم أنها لا يجب أن تتراجع، ويجب أن تطيع كل شيء، ولكنها لا تفهم ما يقوله. ويتكلم من جديد بالعربية (shufi ilai! شوفي إيلاي! انظري إلي إلي!) لا تعرف كيف تفعل ما يطلبه. النظر إلى وجه رجلًا آخر. وإضافة إلى ذلك، إنه السيد. يقتحمها الذعر، وتنظر في عينيه ولا تستطيع قراءة ما يعبران عنهما، تشد على خدودها كي لا تبكي، ولا يطردها بهذه السرعة، وتنظر إليه وهي تعلم أنها مخطئة، ثم يسقط ذقنها ويرفع يده ويبتعد. يهز رأسه عدة مرات، كما لو كان بمفرده، ويأسف لما يحدث. ويطلب من خادمة أن تقترب، ويقول لها، مرة أخرى، كلمات غير مفهومة، وبَخيتة من جديد تطلب الغفران *آسفة! آسفة!* عدة مرات، ولكن بعد فوات الأوان. والخادمة، امرأة ذات بشرة فاتحة، تأخذها معها. وتتبعها بَخيتة

وعيونها إلى أسفل، وهي لا تعرف أين يقيم العبيد في هذا البيت، وفي أي فناء يضربونهم، تَسير في ممرات طويلة وتصل إلى حجرة مظلمة، ورطبة وضبابية. تشير الخادمة إلى حوض كبير من النحاس، طويل جدًا، وفارغ، وتشرح لها أنها يجب أن تدخله، ولا تعرف طريقة التعذيب هذه. ولكنها تطيع.

في ذلك اليوم، تم غسل بَخيتة. أعطتها الخادمة، عائشة، حمامًا. وشعرت بَخيتة برقة الماء على بشرتها وأعطاها ذلك الإحساس بنقاء النهر، واللعب والطفولة ووالدتها. ظلت ساكنة بالرغم من ذلك. مندهشة ومنتبهة. وعندما سالت المياه على شعرها المتشابك، والذي صففته الخادمة، تصورت أن هذا من أجل تحضيرها لحفل مع الرجال، ولكن شيئًا ما في داخلها كان يتناقض مع هذا الإحساس. نظرت الخادمة إلى ندوبها، وفخذها المحفور، وبقايا الجروح على ظهرها، وأقدامها المشوهة، وابتسمت ابتسامة حزينة وقصيرة، وجعلت المياه تسيل برفق على أكتافها، حتى أنها، مرة أخرى، قالت لنفسها هذه العبدة الصغيرة، إنّ، ما يحدث، ليس من أجل تحضيرها للرجال.

بعد ذلك، ساعدتها عائشة على الخروج من الحوض، وسلمتها شرشفًا لكي تجفف نفسها، وأشارت إليها بالانتظار، ثم عادت بسترة طويلة بيضاء تتخللها خيوط حمراء ولآلئ. وظلت هي وبَخيتة، دون أن تنبسا بحرف واحد، وظلت بَخيتة هكذا بدون حركة، بقيتا هكذا لفترة، وهما تنظران للسترة البيضاء الموضوعة بينهما، وظل الماء ينساب من الشعر المبلل لبَخيتة، نقطة نقطة على الشرشف. كانت تظن أنها استنفدت مخزون

دموعها، وأنها لم تبك أبدًا عن امتنان، وحتى وقت الصمت هذا بينها وبين عائشة لم تتصور أبدًا بإمكانية حدوثه. زمن النظرة. من غير تهديد. ومن ثم، مدت يدها لأخذ السترة وساعدتها عائشة. ومرت بالسترة من رأسها، وغطت بالأكمام ذراعيها، ونسيجها غطى أكتافها، وبطنها، وسيقانها، وأخيراً جسدها بأكمله. ولم يظهر من السترة البيضاء إلا سواد وجهها، كأنه منحوت من ضوء، وقد نجا بأعجوبة من الوشم. تم إخفاء جميع علامات العار، والسترة كانت بمثابة حجاب حياء. شعرت ولأول مرة منذ اختطافها، أن لديها شيئًا يخصها بمفردها. هذا الجسد، الذي كان الهدف منه الربح والعنف الكثير، رُد إليها، وهو غير مرئي من الآخرين وأصبح خاصًا بها مثل سر. سرها هي. الأول.

وهكذا، وعن طريق هذا الجسد المستعاد، الذي لن يُضرب أو يعامل كمطمع للآخرين، تتصالح، وببطء، مع عالم البشر. لديها شيء يخصها وحدها، وهذا الشيء هو هي. السيد يمتلكها، ولكن بعضًا من حياتها محمّي. رغم أنها تعرف أن الأشياء يمكن أن تنتهي بين ليلة وضحاها، لسبب لن تفهمه كالعادة، وهو قرار لن يتم تفسيره لها، ووداعًا ليس مخولاً لها. وهي مرتدية الثياب وشعرها مصفف، وفي أياديها تلبس الأساور، وتضع اللآلئ في شعرها. إنه لشيء رقيق ويمكن أن يكون مهدداً.

وتسأل بَخيتة أخبار عن كيشمت من العبيد والخدم الذين يعملون عند القنصل، وحين يسألونها عن علامة مميزة يستدل منها عليها، لا تجد شيئًا لقوله، ما هي ذائقتها؟ صوتها؟ طريقة

ضحكها؟ وندوبها؟ بَخيتة لا تعرف شيئًا. ما هو اسمها الجديد؟ وأسماء أولادها؟ وأسيادها القدامى؟ بَخيتة لا تعلم شيئًا. لذلك هي تجتهد في حساب الزمن الذي مر، وتقول لنفسها إن كيشمت ربما متزوجة من جندي، وتعيش في واحدة من الحاميات التي لا تعد ولا تحصى في الخرطوم، أو عند تاجر ثريّ، في حرملك ضخم، كما يشاع عن وجودهم هنا، أو أنها ترقص من أجل تخفيف السأم عن السيدات، أو أسوأ من هذا... لا تريد التفكير في هذا الجانب. تحاول استعادة حدسها، في الأبيض، عندما شعرت أنها موجودة، وفي نفس المدينة، وقريبة جدًا منها. ولكن هذا الحدس لم يعد موجودًا، ولا تستطيع الجزم الآن عن المكان الذي تعيش فيه أختها. في قلبها، أو في المدينة.

في صباح أحد الأيام، يطلبها القنصل في مكتبه. إنه رجل لطيف، يتحدث بصوت ناعم بحيث يصعب على المرء سماعه، وحضوره... يبدو وكأنه غياب، وهو ظريف، ومتواضع. ويطلب من بَخيتة أن تدله على اسم قريتها، ويطلب هذا باللغة العربية، حتى تستطيع أن تفهمه جيدًا. وهذا السؤال المفاجئ الجاف، بالتأكيد، يخفي فخًا. أو خبراً سيئًا. هل تكلمت أكثر من اللازم عن كيشمت؟ هل حدثت مصيبة في قريتها؟ تنظر، إلى الخارج، والوقت مبكر لكن السماء أصبحت بيضاء، والشمس تطمس الأفق. تسأل بصوت منخفض جدًا : هل حدث حريق؟

-حريق؟ أي حريق؟

حريق. بعد أي اختطاف هناك دائمًا حرائق، لكنها لا تجرؤ على قول هذا للقنصل، وتظل واقفة، برأسها المنخفضة، وقلبها محاصر ويتصارع مع شعور سيئ. ويصر القنصل:

- ما هو اسم قبيلتك؟ وعائلتك؟

إنها تهمس:

- لا أعرف.. لا أدري.

-لا تعلمين؟ ابذلي مجهودًا.. أنا أريد مساعدتك. هل تفهمين؟ مساعدتك.

لقد سمعت عن طيبة قلب السيد، فهو حرر كثير من العبيد، الذين يشتريهم من أجل تحريرهم، وهي تتساءل ماذا يفعلون، في الخرطوم، عندما يصيرون أحرارًا.

- أعطيني أسماء أهلك. قريتك. قبيلتك.

تنظر إليه في ذهول. وتفهم أنه يريد مساعدتها، ولكنها تدرك أيضًا إنها لا تعرف اسم قبيلتها. وتكتشف ذلك، وهي هنا في هذا المكتب الذي تفوح منه رائحة الجلد والتبغ، وهواء تحركه مروحة كبيرة في السقف، وصوت هوائها الراكد. هي لا تعرف اسم قبيلتها! تصورت معرفتها، لم تطرح على نفسها هذا السؤال أبدًا، كانت تبحث عن ذويها فقط، هم موجودون لأنها تحبهم، ينتظرونها في مكان ما لأنها تفتقدهم وسوف تلتقي بهم... ما اسم القرية. واسم عائلتها. ورأسها ممتلئة بالأسماء العربية وأسئلة تتهرب منها، وتقول مرة أخرى:

- لا أعرف...

لا يبدو متفاجئًا. يفتح درجًا وينشر ورقة كبيرة أمامها وهي تأخذ مساحة المكتب كله. ويطلب منها الاقتراب، ويشرح لها إنها السودان، بلدها. وهي تشاهد ضخامة عالم تراه للمرة الأولى.

- لقد مشيت كثيراً. أين مشيتِ؟

تقول نعم، مشيت كثيراً بالفعل، شهور، سنوات، لقد مشيت كثيراً، نعم.

- أين بدأ هذا المشي؟ أين كنت، قبل الأبيض؟ من أي مكان جئت؟ من أي نقطة؟

إنها تهمس:

- نعم.

يعيد السؤال مرة أخرى بطريقة أسرع، وأكثر حزمًا:

- في الأجزاء الصفراء، أو الخضراء، أو الرمادية؟ هل كان هناك جبال؟ تلال؟ النيل الأزرق؟ النيل الأبيض؟ كان ذلك في الغرب أليس كذلك؟

ويقوم بضربات خفيفة بأصبعه على الخريطة وكأنه سيخرج الرمال، أو المياه، ولا تفهم، هي، كيف يكون النهر الكبير بهذا الرفع، وأين النجوم والقمر، ولا تفهم ما يظهر على الخريطة. تتذكر الصورة الأخيرة لقريتها، رجلان بالقرب من شجرة موز، وتنظر إلى الخريطة وتكرر:

- لا أعرف.

لا يُحبط القنصل، وبصوته القصير والمنطفئ تقريبًا، يسأل:

- ما هي أنواع الحيوانات في قريتك؟ البقر أو الجاموس؟ الحمير أو الخيول؟ تحركتم إلى قرى أخرى؟ كنتم تغادرون قريتكم، أليس كذلك؟ كنتم تمشون؟ تأكلون الحيوانات؟ ما هو الإله الذي كنت تتعبدي إليه؟ ما هي أسماء أسلافك؟

وتنفجر بَخيتة في البكاء. تود أن تسقط عند أقدام السيد وتترجاه أن يوقف هذا، تمشي على حافة الفراغ وهو يدفعها إليه بأسئلته، إنها ضائعة وفقدت ذويها. ويعطيها القنصل منديلاً وقليلاً من الماء.. ويطوي خريطة السودان بكل أماكنها والكلمات التي لم تعرف أن تقرأها وهذه الأرض بدون سماء ويعيدها إلى الدرج.

- أريد مساعدتك وليس هناك ما يدعو للبكاء.

تنظر بَخيتة إلى الدرج حيث تم حبس الخريطة مع عائلتها وكل آمالها الميتة. أين هم؟ لكن أين هم جميعًا؟ إنها تشهق، ويدها أمام وجهها، وهي تعاني أكثر من عذابها من الضرب والشتائم، إنها تعاني من نفسها. ويقترب منها القنصل وهو يداعب شاربه بطريقة حالمة.

- إنه شيء بسيط جدًا، ستخبرينني عن شيء واحد، ثم سأعرف إلى من اتجه. صديق يعرف لهجتكم. كثير من لهجاتكم.

لم تمكث بَخيتة أبدًا لهذه الفترة الطويلة في مكتب سيد. لم يطرح عليها أبدًا أسئلة كثيرة، وهي منهكة، وبدون أمل، ومليئة بالعار.

- ما هو اسمك.

- ماذا؟

- Ma smoaki? Tuo nome ما اسمك؟ اسمك؟ اسمك؟

تنظر بَخيتة للمنديل الأبيض، في يدها الغامقة. تطويه إلى نصفين. إلى أربعة. إلى ثمانية. ببطء. لم تعد تبكي. وتسمع تنفسها كحمار صغير منهك. والسيد منزعج الآن، وبالطبع محبط بعض الشيء.

- ما اسمك؟

إنها تنحني ببطء أمامه، ولإثبات حسن نيتها، وعدم جهلها لكل شيء، تقول بصوتها الرصين وهي تفصل كل مقطع بشكل جيد:

- Non lo so.

وتمثل هذه المقابلة بداية حزن طويل. تفهم أنها فقدت لغتها الأم. تتهرب طفولتها منها، كما لو أنها لم تكن أبدًا. لا تستطيع أن تشير إليها. لا تستطيع أن تصفها. وبالرغمِ من هذا تشعر بها في أحشائها، حارة وحية، أكثر من أي وقت مضى. فهي تعلمت العربية بسهولة الأطفال، ولم تسمع، سبع سنوات حرفًا واحدًا، من لهجتها. وتتذكر "كيشمت"، كما التعويذة، والهوس. وهذا الاسم الذي من الأرجح أنه لم يعد اسمها. وتقول هذا للقنصل، باعتباره الأمل الأخير، وأمام عيونه المرهقة، تفهم أن هذا أيضًا لا يعني شيئًا، وهو أيضًا على الأرجح، تشويها، أو وهما.

ترجع إلى الليالي الطويلة اليائسة، وتترصد حلمًا ما، أو حدسًا يأتي. لكن ليس هناك شيئًا ولا أحد يزورها. لا يضربونها الآن، وثيابها تشبه ملابس السادة، ولكنها تشعر بانزلاق لا نهاية له. تحاول أن تغني أغنيتها الصغيرة، تلك التي كانت بيناه تحبها جدًا، "عندما كان يولد الأطفال من اللبوة" والتي قامت بترجمتها، بالرغم منها، ومنذ فترة طويلة، إلى اللغة العربية. تدرك أنها تقول *صديق*، لكلمة *أمي*، و*بابا*، لـ *papa*، وخصوصًا آسفة، آسفة، وآسفة لهذا الفقدان.

تفكر في خريطة السودان، وتود رؤيتها مرة أخرى، وأن تُعلم الكلمات عليها، تسأل عنهم على الأقل، إنها تتذكر جيدًا المناظر الطبيعية التي مرت عليها، والزريبة والطفل الذي حطم على الحجارة، وبيناه في مراكز الفرز، وتحمل في داخلها حيوات كثيرة، لماذا فقدت صور طفولتها؟ تقوم بجهود رهيبة للرجوع إليها. تفكر فيما تحبهم، الأحاديث حول النار، رُكب والدها، وتوأمها، وجدتها. ترى من جديد قريتها، مقتطفات من الاحتفالات، كعلامات بعيدة، رسومات الثعبان، أخاها. ابنتي حنونة وطيبة، والدتها بأطفالها الكثيرين، والدتها كشعلة حمراء. كل ليلة تقوم بعمل هذا التمرين، تتذكر ذويها، على أمل أن تعود أسماؤهم، ولكن يظلون محبوسين في هذا الحب الضخم والمجهول الهوية، وهي تمد يديها نحو أشخاص لا تستطيع الاستحواذ عليهم.

وها هو عالم جديد، تتكيف عليه، مرة أخرى. كل يوم تساعد آنا، مديرة المنزل. هناك الإيطالية أولًا، هذه اللغة الغير مفهومة، ذات الكلمات الراقصة على عكس الكلمات التي تعرفها، لا تأتي

مثل العربي من مؤخرة الحلق، لكن تُنتزع من مكان آخر، مكان ما في الصدر، وسوف تمضي وقتًا طويلًا لمعرفة من أين. أمام بيت القنصل يطفو علم لا تعرفه، من غير الهلال الإسلامي، وفي داخل البيت الرجال والنساء مختلطون. النساء الإيطاليات وجههن مكشوف ويذهبن في وسط الرجال، ويجتمعون جميعًا للأكل في غرفة صنعت خصيصًا لذلك، يطلقون عليها اسم غرفة الطعام، ويغسلون أيديهم في غرفة منفصلة، لا يستعملون أيديهم من أجل الأكل، لكن لديهم شوك ومعالق، وكل فرد لديه كوب خاص به، موضوع أمام صحن (طبق) لهم. ويُتفقد المطبخ كل يوم، ويتم تنظيفه مرات كثيرة. لا يصلون أبدًا إلى الله، والسيد ليس عنده إلا امرأة واحدة لم يرها أحد قط، وينام بمفرده، كل ليلة في سرير ضخم، وغرفته مغلقة بالمفتاح، ولا ينام العبيد في غرفة السيد، أو على عتبتها، ولا ينام العبيد في الممرات. إنه أمر غريب، في البداية، غياب هذه الأجساد التي عادة ما تعمر البيوت. سمعت بَخيتة الأسياد يتذمرون كثيراً من هؤلاء العبيد الذين يتجسسون، ينقلون الإشاعات والأخبار في جميع أنحاء البيت،و يكره الأسياد هذه الأجساد المستعبدة التي لا يستطيعون التخلي عنها، ويحتقرونهم لوجودهم هنا، ولمشاركتهم حياتهم اليومية، هذه المشاركة التي يبحثون عنها ويمقتونها. لا تشعر البلاد بالقلق حقيقة عندما تذكر الصحف المعارك التي انتصر فيها جيش المهدي، القبائل العربية التي تتحمس له، العبيد -العساكر الذين ينضمون إليه، والبلاد تتصرف كما لو أن هذا الجهاد تمرد صغير، فهم أقوياء جدًا. منذ نهاية

الاتجار بالرقيق الذي قرره جوردن باشا، الجيش البريطاني يقبض من وقت لآخر على التجار الكبار ويحاكمهم في الخرطوم، ثم كل شيء يسير مثل الأول. الفساد يتربع. البنية التحتية المصرية متروكة للقوى الغربية، وبالتالي الدَّين يزداد تجاهها إلى درجة أن البريطانيين يتولّون إدارتها الضريبية. رجال البنوك الأوربيون والمقاولون عديمي الضمير يسيطرون على البلاد. أوروبا بأكملها موجودة في الخرطوم، هؤلاء الأفنديون يناقشون ويخرجون الخرائط من الأدراج، سفراء فرنسا وإنجلترا وألمانيا والنمسا الذين يقابلهم سيد بَخيتة، كاليستو ليناني. أوروبا لديها جيوش في الخرطوم وجيش مصر في حالة تعبئة. والمهدي يواصل تقدمه.

تتكيف بَخيتة مع العادات الجديدة، اللغة الجديدة، وتهددها حكايات آنا التي تقول لها إن زوجة السنيور ليناني تكتب لزوجها وتتوسل إليه بالعودة إلى وطنه، في هذا البلد الذي يتحدث الإيطالية، والذي يُسمى إيطاليا. تصف لبَخيتة جمال هذا البلد، الرائع جدًا، والبعيد جدًا، والحُر جدًا. بلد بدون عبيد وبدون صحراء، وبدون زريبة وبدون عنف، حيث كل الرجال يشبهون القنصل وزوجته، زوجته الوحيدة، وهل هي لطيفة مثله؟ آنا تؤكد، بنعم، هي لطيفة جدًا، وسعيدة، لأنه في إيطاليا النساء لا يُطلقن، حتى لو لم ينجبن، ويمكنهن الخروج بمفردهن، بدون حجاب، وحتى بعد حلول الظلام. وبَخيتة لا تصدق ذلك. لكن تغفر لآنا لأنها تحب بلدها وتعرف كيف تتحدث عنه. أما هي، فلا تحمل إلا رماد قبيلة بدون اسم.

في إحدى الليالي، بعد يوم من العمل، تجلس بَخيتة على مقعد في الحديقة. تسمع الطيور الجميلة، هذا الغناء للعصافير في الليل القادم أمر مفاجئ دائماً. تستمع إليها وتغلق عينيها. تخترق العصافير الليل، وتشعر بالطيران السريع للخُطاف، ودائرة الخفافيش، الرياح البطيئة في النخل، ومن حين لآخر أغنية الضفادع. تفتح عينيها من جديد، السماء تتجمع، سوداء ومخنوقة. النجوم الأولى تتلألأ، صغيرة جدًا في البداية، مثل النقاط المنسية. تراقبهم يُكبرون الليل، وفي هذا المساء المتنبه، شيء ما داخلها يستيقظ. هذا البلد جميل. هذه الأرض لأجدادها، هذه السماء للسودان، جُملية جدًا. وتتساءل لماذا العالم جميل لهذه الدرجة. على من تقع المسؤولية. قبح الرجال، هي تعرفه. العنف الذي يأتي من غضبهم الفظيع. لكن الجمال من أين يأتي؟ الليل يقف فوق الرجال، حُر وخالد. وهذا الليل يحدثها. كما فعلت الأرض، التي ذكرت آلام العبيد الذين مروا قبلها. تفهم بَخيتة أنه من الممكن خسارة كل شيء، اللغة، والقرية، والحرية. لكن ليس ما فعلناه لأنفسنا. لا نخسر أمهاتنا. إطلاقًا. إنه حب بقوة جمال العالم، هو جمال العالم. تضع يدها على قلبها، وتبكي، وتذرف الدموع. كانت خائفة جدًا من فقدنها.

عمرها أربعة عشر عامًا وهذه سنتها الثانية في خدمة القنصل. رأت كثيراً من العبيد المحررين يذهبون إلى قرية عثروا عليها. بعثة كاثوليكية. رأت بعضهم سافروا ثم عادوا، منهكين وضعفاء، ورأت آخرين، جالسين على ناصية الشوارع، وتفادت النظر إليهم كي لا يخجلوا، وهي تتساءل إذا كانت حياة أخرى في بعض الأحيان ممكنة. تسمع (آنا) وهي تتحدث عن هذا البلد إيطاليا دون ميلشيات ولا أطفال عساكر، دون غارات وحروب شوارع.

تخشى من الخرطوم. تشعر بالعنف الذي تعرفه جيدًا، الفقر المدقع والربح، هذا الخليط المعدوم من الشفقة. المدينة قذرة، تكتسحها الصراصير والجنادب التي تصطدم بالمارة، القطط هزيلة ومفترسة مثل كلاب الصحراء، الناس يشتغلون ويموتون في الشوارع، يعملون حاجتهم خلف جدران الطين، يدور العبيد العجلة الكبيرة للدخن، والهواء ينبض ذعر، اسم المهدي يسري مثل ضربة سوط، البدرون يتحدث الإنجليزية مع السفراء الآخرين، اجتماعات متأخرة ومليئة بدخان السجائر، وبَخيتة تسمع أصوات الرجال المبحوحة من قلة النوم والغضب، شيء ما يمر أمام أنوفهم، لا يريدون التخلي عنه. البريطانيون تولوا إدارة البلاد، يديروه بعنجهية الذين لم يخسروا أبدًا. انتصاراتهم،

وغرورهم. السيد أقل رقة من ذي قبل، أصبح مدققًا، مهووسًا بالنظام مثل رجل يفقد الثقة. خطابات زوجته كثرت، "راجية"، تقول (آنا)، التي تعرف القراءة ولا تمنع نفسها من الاطلاع على الخطابات وهي تقوم بتنظيف مكتب السيد.

- عد بسرعة، تكتب له! (Subito)

- هل تتحدث مع زوجها هكذا؟ تتسأل بَخيتة.

- طبعًا. إنها إيطالية.

- الأتراك أيضًا هكذا.

- على كل حال، أعتقد أن السيد سوف يغادر. سوف يعود إلى بلده. أشعر بذلك.

- السفر مرة أخرى؟ إلى الأبيض؟

- إلى إيطاليا.

في البداية، بالطبع، تعتقد أن إيطاليا ليست لها. هذه كلمة للآخرين، أولئك الذين لديهم بشرة بيضاء مثل دجاج بدون ريش، الذين يحلمون ويتباهون بسعادتهم. اعتادت على عصبية ونفاذ صبر الأسياد، وهي تعلم أن آنا على حق، السيد سيغادر. كان قد خطط لها هذا، أراد لها العودة إلى المنزل، أن لا تتسول في الأزقة الغير صحية للخرطوم. لكن بما إنها جاهلة، غير قادرة على تذكر أسماء عائلتها، فهي تعرف ماذا ستصبح عندما يغادر القنصل. في حارة أو في قصر، تعرف، تعرف ماذا سوف يريدونه منها. ستعود من حيث أتت، العنف والعار. وبدون سبق إصرار،

تقرر في يوم ما أنه لا أحد يستطيع أن يخلع عنها سترتها البيضاء. أبدًا. هي في المغسلة، وتقوم بغسل الشراشف والمفارش، هذه الأقمشة القطنية السميكة التي يحبها الإيطاليون، الماء جليدي وتنظر إلى يديها وهي تحك وتفرك وتحك. الحركة تدفعها، هي مثل أغنية الآن، تشجي على إيقاع أفكارها. وفجأة تنهض، تقلب الحوض بالرماد، بالكاد تمسح يديها على لباسها وتهرع إلى مكتب السيد، الـ(Padrone). تركع تحت أقدامه، لا يحب هذا لكنها تفعله؛ لأنها لا تجرؤ على التوسل واقفة، وجهًا لوجه.

- خذني... سيد.

لا يفهم، يتصور أنها تريد العودة إلى منزلها، ويفكر أنها غبية بعض الشيء، لأنها تتحدث لغته بشكل سيئ ولأنه رغم طيبته، يعتبر هذه السوداوات حيوانات مسكينات ومستسلمات. وهو يحب الحيوانات. إنه رجل غير عنيف. يكره أن يركع البشر تحت أقدامه، هذا شيء عضوي من أحشائه، فهو لا يطيق ذلك، يضطرها أن تقف ويقول لها إنه لم يعد لديه الوقت الكافي للبحث عن قريتها، إنه يُعدّ لرحيله، عودته إلى إيطاليا. تقف، في مواجهته وتكرر دون أن تنظر إليه:

- خذني، يا سيد Padrone.

هو يحبها لكن باستثناء صبي صغير جدًا وعد به كهدية لأصدقاء أعزاء، لن يربك نفسه بأي عبد، حتى (آنا) سوف تنتظر حتى يرسل المال اللازم لعودتها. بدأ في بيع آخر عبيده إلى ملاك خصوصيين، أو تحريرهم، وبالإضافة إلى تلك المساومات،

يقضي يومه بين التليجراف، والصحف، والاجتماعات والأمتعة. ومع هذا كله مرارة العودة وهو مهزوم. يطلب من بَخيتة أن تحضر له قهوة.

إن الرغبة في مغادرة السودان تقتحمها. تحاول أن تشتغل بشكل أفضل وتعتقد أن السيد سوف يرى هذا، طريقتها في تنظيف الأرضيات، مسح أحذيته، كوي المفارش، وسريعًا ما تدرك أنه لا يدرك شيئًا. إنه في عجلة من أمره.هي تعرف ما يحدث بداخله. أنه رجل لم يعد يرى أي شيء من حوله، إنه يعدّ لسفره ولا يفكر في أي شيء. سوف يسافر إلى سواكن على ظهر الجمال، عدة أيام من السفر في الصحراء، ثم من أجل عبور البحر، سوف يأخذ سفينة ضخمة، وهي الحليف القدير لتجار العبيد، هذه الكائنات الغير مهمة، وتفكر بَخيتة أن لها أهمية. السماء والأرض أخبارها. في ليلة، بينما هي نائمة في بناية العبيد، والقمر ممتلئ جدًا، لدرجة أن ضوءه ينير الحصيرة التي تنام عليها. تمد يديها في هذا اللمعان المضيء، هذا جميل كمفاجأة، كاستثناء، والكل من حولها نائم. هي بمفردها مع ضوء القمر الذي أيقظها، وعندما يأتي الصباح، معبأ بالغيوم، ترى أنه أمر غريب أن يكون أكثر ظلامًا من الليل. تفكر في هذا أثناء يوم عملها، إلى ما رأته ولم يراه الآخرون، تساعد في حمل الحقائب، وترتيب الملابس داخلهـا وتسمـع الصرخـة الثقيلـة للإبل التي اشتراها السيد الـ(Padrone). تسمعه وهو يتحدث مع الجمال، لا تفهم ما يقوله، إنه يتحدث لغة عربية غير مفهومة... تترك البيت وتذهب إلى الفناء. لا تركع .لا تطلب الغفران. بالكاد تنظر إلى أسفل. تتجرأ

على أن تكون عبدة تقف بين رجلين: الجمال والسيد. بلغتها الإيطالية الغير متمكنة تشرح للسيد بأنه يجب تقييد الإبل كل ليلة، لعدم ترك الحيوان حرًا في الليل. وتضيف:

- لقد سافرت بالفعل مع الإبل، أستطيع المساعدة. خذني يا سيد (Padrone).

- هل تعتقدين أنه لا غنى عنك؟

- يمكن أن تموت الإبل، تعرف هذا يا سيدي؟ يسقطون ويموتون. هل تعتقد أنه لا حاجة للمياه. لكنهم يسقطون ويموتون.

- سوف أعتني بالإبل، لا تقلقي.

تشعر بوجهها يحترق من فرط المشاعر وجسدها يرتجف من عنفوان مكبوت.

- خذني يا سيدي.

- لكن ماذا ستفعلين يا بَخيتة المسكينة في سواكن؟ هل تعرفين ما هي سواكن؟

- خذني إلى منزلك، يا سيدي، في إيطاليا.

ينفجر ضاحكًا ويشير بأصبعه أن تذهب بعيدًا ويلتفت للجمال، وعيناه تنظر للسماء كعلامة رحمة. كان يمكنه أن يسخط من هذه الجرأة. لم يفعل هذا. إنه رجل طيب.

بَخيتة سوف تتوسل ثلاث مرات، وهي تستقبل اليد الدافئة والمشعة نورًا التي أنقذتها ليلة هروبها مع بيناه، وتدرك أن ما

يحدث هو نفس الشيء بالضبط، يجب أن تهرب، يجب أن تركض دون الالتفاف للوراء. هذه مسيرة أخرى، معبر آخر، التوسل للسيد وإقناعه. تريد أن تعيش. تشعر بداخلها بقوة كبيرة، هي التي تلبس وتصفف شعرها كفتاة حرة، وتحرر نفسها، تعطي لنفسها ذلك، تلك الكرامة. السيد سوف يغادر في اليوم التالي، عند الغسق، حتى لا يشعر بالحرارة الشديدة، رأت الولد الصغير الذي سيعطيه كهدية، اسمه إندير، وهو خائف مثل حيوان صغير في قفص. لا يسأل شيئًا، ينظر، يمص إبهامه عندما يعتقد أنه لا يراه أحدًا، ويبكي أحيانًا، عندما يسمع رجال يصرخون. إنه ناعم ورشيق، وسوف يكون هدية لطيفة، لا شك أن السيد مدين بالكثير لهذا الصديق الذي ينوي إهداءه إليه.

هي بالفعل أقل ثقة بنفسها عندما تسير على طول الممرات التي تقود إلى مكتب السيد. قلبها ينتفض بصوت مرتفع حتى أذنيها، والدم يتفجر، العالم من حولها أصبح أصمًّا، ترتجف وهي تسير نحوه، وساقها اليمين تعرج قليلًا، كما هو الحال في الأوقات الصعبة وآلام الفخذ تستيقظ وتنفسها متقطع، تمشي بطريقة بطيئة وصعوبة كما سيحدث في شيخوختها رغم رشاقتها وجمالها، كما لو أن السلاسل الغير مرئية تعود للظهور. تلهث عندما تدخل إلى الغرفة، وبدون مقدمات تقول للسيد:

- أعرف كيف اعتني بالصغار. الأحفاد.

يرفع رأسه، باستغراب، ويأخذ بعض الوقت وهو يتطلع إليها، هي جميلة فعلا، جميلة جدًا، المسكينة.

- أعلم بَخيتة، أعلم.

يقول هذا ويعود إلى عمله، يضع أعلاما صغيرة في صندوق من خشب الأبنوس والصدف. يبدو كأنه طفل مليء بالحنين نادم على أنه كبر.

- هدية جميلة.

يلتفت. مازالت هنا! هذا الصوت العميق والأجش الذي يميزها، لم يتعود عليه إطلاقًا، ينتفض في كل مرة وأحيانًا يخفى نوبة من الضحك.

- أندير، هدية جميلة.. هشّ لعبور الصحراء.

في هذه المرة يضحك بقوة، إنها ماكرة مثل ثعلب.

- لا يا بَخيتة! لن آخذك! أنت تعرفين الصحراء والجمال والصبية الصغار، نعم تعرفين أشياء كثيرة. ولكن ليس سعر العبور بالسفن البخارية. إنها مكلفة جدًا، جدًا. أكثر كلفة من عبد أفهمتي؟

تكلم بسرعة كبيرة، لم تفهم كل شيء. ماعدا ضحكته. ونظرته. اللذان يقولان لا. وهي لا تركع، إنها تنهار. تسقط عند قدميه وتشهق دون أن تستطيع التوقف، شهقات تهزها كما لو أن أحدًا يقوم بضربها، بكاء يأتي من سنوات من المعاناة كثيرة تحملتها ولا تستطيع الاحتفاظ بها بعد ذلك، لا تفكر، تبكي فقط، تفقد كل شجاعة، كل قرار، لم تعد صالحة لأحد أو لشيء، تنهك من كثرة البكاء، تود أن تموت.

هو يكره النساء الباكيات، فما بالك بعبدة! يتراجع إلى

الوراء. يبتعد عند النافذة وينظر إليها. جسدها يرتعش وكم السترة يكشف عن كتف. يرى ندبتها الطويلة وهي تهتز من البكاء. هو رسم متعرج ومصنوع جيدًا. هذا التعذيب الجمالي فجأة يجعله يضطرب. ويقول:

- حسنًا.

لا تسمعها، تبكي وتختنق في دموعها. يقترب منها. بحركة خجولة يغطي كتفها، ويضطرها أن ترفع وجهها ويقول وهو ينظر في عينيها:

حسنًا، بالنسبة لإيطاليا!

إنه، مثل كل انقلاب، خلاص ومعاناة. تغير للحياة يحدث في بضع ثوان. سوف تغادر. ستعيش في أرض الحلم الأبيض والشمس الحانية. سوف تعيش حيث القرى لا تشتعل بالنيران. حيث يكبر الأطفال في المكان الذي يولدون فيه. تشعر بنفسها مقطوع. وجود هذا الشيء غير عادل تقريبًا. هنا غير عادل وجيد. لن تنقذ إطلاقًا كيشمت. فات الأوان الآن. لن تعزى والدتها نهائيًّا. يجب أن تقبل هذه الخيانة. تهرب، وتهرب بمفردها. يأخذها عذاب مشاعر متناقضة، ولكن تحمل في داخلها هذا اليقين بأنها على حق. تغادر. تقتلع نفسها من كل ما تعرفه، عن كل الذين كانت تتمنى أن تلقاهم من جديد، تقتلع نفسها من إمكانية استعادة الاسم في يوم ما الذي أهداه والدها للقمر. تخاطب توأمها، تطلب منها حماية ميلادهما، أن تحمل هذا الجزء منها، حُر ومرتبط بالأجداد. عن طريق توأمها، لا تخون نفسها. تغادر السودان. وسوف تبقى فيه. سوف تظل محفورة في أرضه. في عاداته. في لغته. سوف تعيش فيه دائمًا، تطلب من توأمها نطق اسمها، قدر استطاعتها. أن يكون له رنين في مكان ما. في الريح، في الماء، أن يذهب ويضع نفسه على الحجارة، على الحقول والحيوانات الهادئة. تأخذ قليلًا من الأرض الحمراء وتضعها في منديل. لأول مرة في حياتها، تجهز أمتعتها. تعلم أن البدرون لن

يتركها تموت في الصحراء. لن يتركها فريسة للنسور إذا مرضت، هذا الشعور يجعلها لا تقهر. ثم أن مسؤولية أندير تقع على عاتقها. أندير الذي لا يعلم أنها مدينة له بهذا السفر. أندير الذي لا يعرف شيئًا. الذي لا يفهم الإيطالية أو العربية أو التركية، الذي يتبع بَخيتة ككلب صغير يملؤه الحزن. وتتساءل من أين يأتي. هناك الكثير من الأطفال بمفردهم. أين الأمهات الوحيدات، لا نراهم. غنوا أغنية الانفصال التي لا تُفدى إلى شيء، ثم لا نسمع صوتهن، يتحولن إلى الجنون، في صمت. لدى أندير عينان كبيرتان وحنونتان برموش طويلة جدًا، ويثق بحزن الذي لن يتمرد. ترى هذا بَخيتة. هذا طفل صغير لن يصبح شريرًا أو مجنونًا. يحتفظ بداخله بسر العنف ولا ينتظر شيئًا. لا يبدو عليه أنه طفل من سيد، بشرته سوداء غامقة، وشفتاه غليظتان. بَخيتة تمر بيديها على جمجمته، وتشعر ببطحات صغيرة، والطفل يرمش بعينيه بسرعة شديدة عندما تلمسه، فهو يتسمر بعض الشيء ويبتسم حتى يسامحوه. تقول بَخيتة لنفسها إنه إذا اختير للسفر من السيد، فهذا يعني أن سعره مرتفع جدًا، فالخرطوم واحدة من أكبر مراكز الإحصاء. والطفل يحمل بداخله هذه النعومة الغريبة وهذه المعاناة، التي، وهذا تعلمه جيدًا، سوف يكونا دائمًا غير مرئيين للآخرين. سوف يكون رجلًا ذا ذكريات طفولة لا تُحكى. وكائنًا بدون نسل.

كان كاليستو لينياني آخر الأوروبيين الذين عبروا الصحراء قبل سقوط الخرطوم، في 26 يناير 1885. لقد سافر أربعة: هو وبَخيتة وإندير وأوجستو ميكيلي، صديق للقنصل ويعرف

السودان جيدًا، حيث لديه أعمال تجارية منذ سنوات عديدة. وكان من المفروض أن تلحق به زوجته أو لا تلحق به أبدًا. هي هشة، وحزينة، ذات حزن خفي، مدفون. يحمل أوجستو ميكيلي بداخله هزيمة لا تقلل من فرحته بالحياة ولا رغبته في خوض تجارب جديدة. بعيدًا عن زوجته يشعر أنه شاب صغير. بالقرب منها، يخشى المصائب ويقلق من كل شيء، عمره مئة عام.

القنصل يهنئ نفسه لأنه اصطحب بَخيتة. يعتقد أن زوجته سوف تكون مفتونة بوجود خادمة جديدة لخدمتها، وبَخيتة تمتلك روح عملية مدهشة بالنسبة لسنها. على ظهر الإبل والصغير إندير في حضنها، لديها طمأنة الأم. تحميه من البعوض، من الشادن، من الرمال، من العطش، من الشمس، في المساء تسكب حفنة من دقيق الدخن في الماء المغلي وتمزجه بعصا، تطعمهم بشيء بسيط جدًا. الحماران اللذان بصحبتهما محملان بالأمتعة والطعام والهدايا. يتقدمان في الحر، مذعوران من قرص الحشرات، في المساء، بَخيتة تغطي أعناقهما الدامية بالرماد. وفي الليل، ينهقان بقوة حتى أن القنصل يخشى أن ينذرا ابن آوى. تقوم بَخيتة بالنقر بأصابعها على جبهتهما وتلوي آذانهما. يسكتان مباشرة. تشير لإندير الصغير بعمل نفس الشيء. الطفل يلوي أذان الحمير، ويضحك وهو يرجع بوجهه الى الوراء، وهو متفاجئ من فرحته. في الليل الجمال تعض بعضها البعض وتحاول أن تتعارك. تُسمع أفواههم وهي تعلك وتجتر، وكأن الليل يحدث صرير. السيد يطلب من بَخيتة أن تساعده على عرقلتهم حتى لا تهرب الجِمال للبحث عن الطعام. ترتعد وهي

تمرر الجلود بين الأمام والخلف. الصوت المستمر لهذه العوائق يمنعها من النوم. مع ذلك، تحب الليالي المهددة للصحراء. تحب عنف الطبيعة الذي يجمع بين الرجال والحيوانات. تحب هذه العلاقة الخطرة، هذه الهشاشة في الأرواح. هذا بلد يمشي. يهرب. حيث البطء رغم كل شيء هو إيقاع البقاء. بلد لا هوادة فيه، أرض منهوبة. في الواحات التي يعبرونها ترى العبيد وهم يزرعون النخيل، يقطفون البلح، ويحافظون على القنوات. منحنون. هنا أو في أي مكان آخر، في الحقول، ومناجم الملح، ومناجم الذهب أو الأحجار الكريمة، هم منحنون. هم رجال مقطعون إلى نصفين. الصدر بالقرب من الركبتين. والأقدام عارية وصلبة مثل الجلود القديمة. الروح محاصرة. القلب منهوب من كل مشاعره. يُسخر منهم. يقولون إنهم لا يعرفون التمرد ولا الكرامة. يقولون إنهم كسالى ويجب ضربهم لكي يعملوا، وبدون ذلك سوف يستفيدون من السكن والغطاء من غير شكر لأسيادهم. في الليالي الصحراوية، أندير الصغير بينما هو نائم في حضنها، تسمع بَخيتة الرجلان الإيطاليان وهما يشخران مثل حمارهما. تتردد بين الضحك والدموع. يمكن أن تكون سهلة جدًا الحياة معًا. وهذا يشبه دائمًا انتقام ما. إنها تود أن تقول آسفة ولكن لا تعرف لمن.

من الخرطوم إلى سواكن، سافروا أكثر من ثلاثمئة كيلو متراً.

كلما رأت، رأته للمرة الأولى. عبرت النيل وأحبت قوته غير المكترثة، الماء الأحمر لشمس الغروب، أضواء القمر التي تخدش الليل، لعبة الساعات، كل الساعات على الماء التي تسمح

بالحياة.. فهمت أنه ليس هناك رجل أو باشا أو سلطان، أو حاكم، أو قائد عسكري أو ديني، لا يوجد رجل يمسك السودان. هو السيد على الكل. لقد أرادت أن يجمعهم القنصل أولئك الأربعة على النهر ويقولون شيئًا، ولكنه كان سيرفض بالقطع الاقتراب من الشواطئ بسبب التماسيح وفرس النهر التي كان يخاف جدًا من صرخاتهم الممزقة؛ لذا طلبت منه أن يرسم على الرمال المسار من طويشة إلى الأبيض ومن الأبيض إلى الخرطوم، ومن الخرطوم لشواطئ البحر الأحمر، مع رسم النهر أيضًا. كانت كثيراً ما تفكر في الخريطة التي كانت في الدرج، كم كانت تود أن تفهمها. قام القنصل برسم خطوط طويلة على الرمال، كانت لا تنتهي، خطوط دقيقة جدًا لم تقل شيئًا، وأيام المشي التي قاموا بها كانت تبدو مجردة ومختفية.

- هل تفهمين يا بَخيتة؟

- نعم.

- ماذا تفهمين؟

- كنت صغيرة جدًا.

يعتقد أنها بالتأكيد لا تفهم أي شيء ويتساءل إذا كان يقدم لها خدمة بأخذها إلى إيطاليا. ينظر إليها وقد أخذت أندير بين ذراعيها وتهدهده بلطف، هي تجعله لينًا جدًا، وهذا لا يجوز. لديه مشكلة في فهمها، فهي على حد سواء مطيعة ومتأملة، لها حضور لا تخطئه العين لكنه يتهرب مع ذلك. لو لم تكن مفيدة وخدومة، لكان سيعتب عليها مزاجها الحالم. زوجته سوف تقوم بتدريبها بطريقة أفضل منه.

ثم في يوم من الأيام ها هو البحر الأحمر، مثل غزو، راحة عنيفة، غير قابلة للنقاش، تفتح على كل الأشياء المجهولة. تكتشف بَخيتة البحر وهي تمسك أيد أندير، وعمرها نفس عمره. عمر المرة الأولى أمام المحيط.

- سوف نذهب هنا، يقول لها القنصل بحركة كريمة، كأنه يقدم لها البحر، مع السفر.

- نعم يا سيدي... تتمتم بالإيطالية كنوع من الأدب.

- على الأقل لن تخافي؟

إنه يريد أن يضحك. تبقى هنا، مجمدة، عيناها دائماً عالقة بين الانتباه الشديد والوداعة. "غزال الصحراء"، قال لأوجستو في مساء ما. ضحك الآخر ضحكة لا مكان لها.

- هاه؟ ألن تخافي؟

لا تجيب. باستثناء الثعابين، تخاف دائماً من الرجال أكثر من الطبيعة أو الحيوانات. تريد أن تخبره أنها نامت في شجرة مع القرود والطيور، نامت في حظيرة مع الماعز والتيوس، وأنه بدونها كان سيعاني مع الجمال والحمير، والبدو الذين لا يعرف لغتهم، والآبار التي لم يعرف أماكنها، والعواصف الرملية التي لا يعرف كما تفعل هي كيفية التعامل معها، لا يعرف كيف يغطي نفسه ويتنفس في آن واحد.

- لا يا سيدي. أنا لا أخاف.

إنها تعتقد أنها ستثق في البحر. مع البحر لا يوجد شيء آخر

لعمله إلا الاستسلام له. سوف تنظر. وسوف تنتظر. أن تظهر إيطاليا، بالنساء السعيدات. الأطفال السعداء. الأزواج الذين يعودون محملين بالهدايا. وللمرة الأولى، تتساءل ماذا ستفعل وسط هذا الكم من الناس الراضين.

يقيمون لمدة شهر في فندق صغير في شبه جزيرة سواكن الصغيرة، في انتظار الباخرة البخارية. يعلمون بسقوط الخرطوم، بموت جوردن باشا، مقطوع الرأس على سلالم قصره، سرقة العبيد، موت المصريون وعدد كبير من السكان السودانيين للخرطوم، المشتعلة فيها النيران والمنهوبة. بَخيتة تبلغ من العمر السادسة عشرة، وتعرف أنها لو بقيت هناك، هي أيضًا مثل المدينة، كانت ستنهب. تعيش في كابوس بسبب حرق الخرطوم، تسمع أطفال الشوارع، تراهم، يمدون أيديهم نحو أم لا تأتي. تحضن الصغير أندير، الذي لا يعرف من ماذا أنقذ من جديد. معها لا يخاف من شيء، ولا من الأصوات في الفندق الصغير، ولا من أصوات سواكن، صفارات الإنذار للبواخر البخارية، الأوامر التي تقال بالصراخ، طيور النور الجائعة، خوار الثيران البرية مع الروائح الغاضبة للأعشاب والفحم المحروق، وعشب البحر والأسماك الميتة.

المدينة لديها عنف سكانها، كلهم من المارين، وكلهم في أعمال أو من الهاربين. بَخيتة تشعر بكل هذا دون أن يشرحوا لها شيئًا. رأت البحر مثل النهر الغاضب وهي تعلم أن هذه الوحشية تشملهم جميعًا، إنها مدينة ذات أحجار عالية وترتعد على الرغم من ذلك. البواخر محملة بالكامل من ثروات السودان، الهند،

ومصر. إنه عالم بين عالمين. مدينة مستقلة وخارج الزمن. بَخيتة تشعر أنها مدينة يملؤها خوف الإفلاس وعنف الربح. تحتفظ بأندير بجانبها وتحاول تعليمه بعض الكلمات بالإيطالية. يجب أن يعرف كيف يقول Grazie (شكراً) و padroni (سيد) si padrone (نعم يا سيدي) (وأنا آسف يا سيدي) Padrone mi scusi. لكن أندير لا يريد أن يتعلم. يحتفظ بهذا الإحساس الحالم والشارد مثل قط لا يعرف في أي عالم ينام. تحميه من كل شيء، ومن النظرات أيضًا. سمعت أكثر من مرة الأحاديث، أحاديث الرجال الذين يريدون. هذا الصبي المخصي، *يريدونه*. ويستغربون أن القنصل يقول "لا. أنا لا أبيعه. هذه هدية. لقد وعدت. لا. سآخذه معي إلى إيطاليا، أنه لصديق، لا يمكن فعل هذا مع صديق، لا. سأحتفظ به".

وهي... هل سيبقيها أيضًا؟ لديها ثقة بالطبع، السيد رجل طيب وإذا احتفظ بإندير، سوف يحتفظ بها بالضرورة، من سيعتني به في العبور الطويل؟ لقد قال أربعة آلاف كيلو متراً. وهنا أضاف: "إنه كثير، هل تفهمين؟ لن تستطيعي أبدًا اجتياز أربعة آلاف كيلو متراً سيراً على الأقدام". ابتسمت وهي تنظر إلى البحر.. سيراً على الأقدام لا... إن السيد أحيانًا يكون ذهنه شارد.

ثم في يوم السفر. السفر الحقيقي. التضارب الصاخب في الميناء كما هو الحال في الأسواق. هناك رجال ونساء أمامها وخلفها، وهي عالقة بين هذه الأجساد التي تدوس والتي تتنفس بصخب، هذه الأجساد التي تخبط، وتمسك بقوة يد أندير الذي يبكي وهو عالق بسترتها البيضاء، والآن انتهى الأمر. تغادر بلدها. انتهى. تود لو ظهرت. سوف تصرخ: لا تسافري! الإنسانة التي يكون الموضوع

بالنسبة لها غير محتمل. تسمع أشخاصًا يصوتون: إلى اللقاء! بكل اللغات، لكنها لا تسمع أحدًا يتوسل، لا تسافري! تلتفت وتنظر إلى الأمتعة فوق الظهور، الروس والأكتاف، إنه عالم مُحمل، عالم من الحبال والطين، الأوامر والطاعة، البعض يشير ليقول إلى اللقاء! أو أنا هنا! أطلع من جانبي! هناك من يفترقون وآخرون يلتقون. البعض يصفر والبعض الآخر يصوّت. من الشط تسمع الكلاب وهي تنبح حتى فقدان الصوت بالكامل. الماء يضرب الباخرة والطيور تغرد في الهواء الثقيل. لكن المرأة التي كانت ستتوسل كي لا تسافر بَخيتة، المرأة التي سوف تفتح ذراعيها على آخرهما لكي تعود، لا تراها. هذه المرأة تعيش على الجانب الآخر من النهر، لم تر أبدًا البحر، وهذه المرأة لا تعرف بوجود البحر أصلًا. إيطاليا موجودة. وبَخيتة ترحل. تغلق عينيها لتراهم جميعًا، بقدر ما تستطيع تتذكرهم وتأخذهم معها. بعينيها المغلقة تنشر صور الطفولة أمامها، الطفولة البعيدة جدًا، عندما كانت كيشمت الأخت الكبرى التي تعتني بهم، لأن هذا كان نظام العالم المسالم والمحمي.

هي تتذكره.

كان من الضروري أن تكون هذه الرحلة طويلة، بحيث تستوعبها بَخيتة. كان لابد من هذا العبور لمدة أربعين يومًا، الممر البطيء لقناة السويس، ممر مأخوذ من الصحراء بين أفريقيا وآسيا، ويصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط. كان يجب أن تكون هناك أيام وليال غير متشابهة، سموات متصلة بالمحيط ونصبح ونحن فيها لا شيء. وفي كل محطة، حضور مراسم الوداع ومراسم لّم الشمل. أناس بالغي الصغر على الأرصفة، ينتظرون. ويلتقون. نشاهدهم يتعانقون ويختفون. ننظر إلى الشاطئ ولم نعد نراهم . وجوههم في مكان آخر. في تجويف كتف. في رطوبة رقبة. يمسكون بعضهم البعض.

على مدار الأيام، تشرح لإندير أنهم سوف يغادرون قريبًا، سيكون في بيت وهي في بيت آخر، هل يفهم أنهما لن يكونا لهما نفس السيد؟ يأخذ أندير موقف عنيد، يقضم أسنانه، وترى أنه يمكن أن يضربها لو استطاع، لو لم يمتنع لكان ضربها. لا يفعل هذا. لكن كلما اقتربوا من السواحل الإيطالية كلما تحمل أقل الرحلة. يتقيأ، جبهته رطبة، يئن ويرفض الطعام. في الأوقات الأولى، تخاف بَخيتة، كما لو كانوا سوف يرمون في البحر هذا الصغير عديم الفائدة، لكن كاليستو ليني‌اني يعتب عليها فقط على عدم قدرتها على تهدئة الطفل. إنها مندهشة أن رجل

بذكائه، وبمعرفته، لا يفهم عناء صبي صغير. هناك علاج، بالطبع. هي تعرفه. لكن لا تستطيع إعطاءه له. لا تستطيع أن تقول له أنهما لن يفترقان. في الليل، لديه حركات مفاجئة، في نومه يلقي رأسه على صدرها، يقطع نفسها، وتسمعه يبكي وينادي. إنها ترغب في مواساته. لكنها لم تواس أحدًا أبدًا. وتتذكر الصغيرة (yebit) يبيت التي ماتت بين يدي الواشمة. هذه الرؤية تعود كثيراً، أكثر من الندم أو الألم، الوعي بالعجز، بالهزيمة في مواجهة الشر. إنها تربت بلطف على جمجمة إندير، وتضغط على جسده الهزيل جدًا الذي يبدو وكأنه قطع طويلة من الأبانوس تم تجميعها بشكل سيئ، وهو أخرق ومذهول، وتعتقد أن "العملية" أضرت ذهنه.

كلاهما ينامان على الأرض في مقصورة القنصل وصديقه، اللذان لم يخاطرا بتركهما في الدور المخصص للعبيد، والخدم، واللصوص والتجار من جميع الأنواع. أثناء النهار، تبقي على السطح/التراس بالقرب الشديد من الكابينة. إنها لا تغامر في الخوض في متاهات الباخرة. ترى من خلال النوافذ، الصالونات وغرف الأكل، وتسمع في بعض الأحيان عزف البيانو. تنظر إلى المحيط وتفكر في كل ما يوجد تحته. العالم البارد والعميق حيث تتوقف الشمس. تعلم أنهم يبحرون فوق موتى قدماء. عرفت عن عبور العبيد للانضمام إلى عوالم جديدة، وتعلم أنهم ينتزعون أفريقيا من أفريقيا. البنادق هم الأسياد ورغم هذا. توجد سماوات تواسيها، نجوم تعبر الليل مثل أمطار من النور، وأقمار كبيرة وكأن الباخرة اقتربت من السماء. هي، تقترب من قارة

أخرى. من حياة أخرى. ولمرة واحدة، تعرف إلى أين سوف تذهب، تذهب عند البدرون، ستكون في خدمة زوجته، السنيورة لينياني، في مدينة تسمى بادو. تبتسم للقنصل عندما تفكر في ذلك، ولا تعرف أن قريبًا سيختفي من حياتها، وإلى الأبد.

تدخل الباخرة في ميناء جنوى. دخول بطيء وحزين وتوقع هكذا الوداع النهائي للسودان، والضباب يمزق التلال. إنه الربيع، أبريل 1885، الهواء عليل، والسماء لها ضوء شاحب يشبه الفجر. تدفع بَخيتة أيد إندير بعيدًا وهو يتعلق بسترتها، كانت تتمنى أن يتوقف عن حبها بعد الآن، تريد أيضًا أن تحضنه في ذراعيها وتقول له أشياء كثيرة لم يعد لديها الوقت الكافي لقولها. لا تعرف ما إذا كان الأشخاص يموتون بسبب الضرب، هنا في إيطاليا. يأخذ إندير يدها ويصرخ:

Si padrone grazie padrone Mi scusi padrone!

هذه مفاجأته. هدية الوصول. حفظ وتعلم في الخفاء. ويكرر Si padrone grazie padrone

mi scusi padrone!

تبتسم له، لكن العاطفة تضغط على حلقها، وتأمل أن يستمر. تحمل الأمتعة، كاليستو لينياني وأجوستو ميكيلي، يحملون أيضًا، ويمشون في المقدمة، مظهرهم مشرق مثل الذين يعودون من فتح. الرصيف يبدو مزدحمًا مثل رصيف سواكن، أكياس البذور على الأرض، والبضائع في الشباك، وعمال الميناء يلعنون، والمتسولون والأطفال حافو الأقدام. هذه هي الصدمة

الأولى، عدم الفهم: الأطفال حافو الأقدام في ميناء إيطالي. تعتقد بَخيتة أنهم يأتون من مكان آخر، مثلها، ويأملون في البقاء هنا في البلد الذي وصفته لها آنا، البلد المشمس والحر. هناك امرأة على الرصيف. تنظر إليهم وتفتح ذراعيها. هذه هي الصورة الأولى التي ستحتفظ بها لـ ماريا تورينا ميكيلي: امرأة تفتح ذراعيها كأم. أوجستو يقترب من زوجته ويأخذها في ذراعيه بحياء، قبل أن يضع قبلة على جبينها. تعتقد بَخيتة أن إندير هو لها، هو الهدية، ترى هذا في عيونها الكبيرة السعيدة. لكن شجارًا يندلع، وتفهم تقريبًا معناه، حتى لو أن ماريا وأوجستو لا يتحدثان الإيطالية التي تعرفها. تنظر لهما ماريا، هي وإندير، وتنتظر شيء ما لا يأتي، أوجستو يتجاهل الموضوع وهو محرج مثل طفل، لذلك تشير إلى العبدين، وعيونها تبدو ثملة من الدهشة والغضب، وصوتها جاف، حاد جدًا:

- أليس لديك شيء، أوجستو؟ لا شيء لي؟

- الصغير هو لأصدقاء القنصل، ماريا... والفتاة، هي خادمته الخاصة.

- لكن لي أوجستو، لي لم تأت بشيء؟ أي زنجي؟

- ماريا... سافرنا بسرعة شديدة. سقطت الخرطوم، أنت تعرفين، الأخبار فظيعة.

- ما أعرفه أنا إن كاليستو، هو، فكر في الهدايا. لم يفكر فقط إن ينقذ نفسه.

كاليستو لنياني يقترب، ويشرح أن العبور بعبدين كان خطرًا ومكلفًا، معجزة فرارهم في الوقت المناسب من الخرطوم، معجزة إنهم نجوا من عبور الصحراء. ثم يضيف، بصوت منخفض، أنه وعد منذ فترة طويلة خصي لصديق، زوجين من جنوة ينتظرونه في الفندق الصغير. غدًا سوف يسافر إلى بادو مع بَخيتة، هي لزوجته. ماريا تنظر إلى الرجلين كما لو أنهما كانا متفقين، تحقد عليهما لأنهما خذلاها وتحقد على نفسها لأنها أظهرت نفسها كما يرونها دائمًا: امرأة ساخطة ومختجة على كل شيء. كانت سعيدة جدًا، لأنها قامت بهذا السفر لتلقاهما على رصيف جنوى، كانت تنتظر شيئًا آخر، والآن كل شيء فسد. تتتبعهم بَخيتة بالأمتعة، ومشيتها متمايلة مثل الذين ينزلون من باخرة، الحارات في صعود دائم، ضيقة ولها رائحة السمك والأعشاب المسكرة مثل ورود متبلة، هي روائح جديدة، قوية وجافة.

عند وصولها الفندق الصغير، من نظرة على أصدقاء القنصل، السيكا، تعرف أنهم الأسياد الجدد لإندير. هي نظرة تعرفها، تقييم وفرح. حجزوا الغرف لأصدقائهم، وهم، سوف يغادرون في نفس اليوم، يسكنون على مرتفعات المدينة. السنيورة سيكا تدور حول إندير وتصفق وهي تضحك. هنا أيضًا، بَخيتة لا تفهم اللغة جيدًا، لكن إندير لها. تقول إنها تعبده! ما اسمه؟ "إندير" تقول "لا، إنريكو" وتطلب منه أن يغني، تريد أن تدربه: "لا.. لا.. لا!" وتوجهه لكي يتابع بصوته المخصي. لكن إندير يقول فقط "Grazie padrone".

"si padrone mi scusi padrone" ثم ينظر إلى بَخيتة. تشير له بنعم، هذا جيد، لكن تصحح رغم هذا: "padrona". تجده أكثر تعقلًا منها، شعر إن السنيورة سيكا لطيفة وسعيدة بوجوده. الأزواج يودعون بعضهم البعض، تقبيل اليدين وضربات ودية على الكتف، بَخيتة تنظر على هذه الأعراف الغريبة، المرأة تُعدل من قبعتها وتأخذ ذراع زوجها الذي يمده لها. ويغادران. يقومان ببضع خطوات، ثم يستديران. ينظران لإندير وينتظران. لديها ضحكة صغيرة مليئة بالاستغراب. هو يصفر لكي ينضم إليهما الولد. تشعر بَخيتة بهذا الهواء الذي يتنفسونه كلهم معًا وليس مشابه لأي واحد فيهم. ترى الوضع المعروف، الأبدي. هذا الوضع لعبد يذهب عند أسياده الجدد. بدون عنف. بنعومة رهيبة. القنصل يدفع إندير من ظهره، ويضحك بحرج، هديته ليست محكمة تمامًا. الطفل يتعثر، يتصلب، ويبقى هنا. بَخيتة تنحني نحوه، وتأخذه في حضنها وتستقبل رائحة بشرته، وتهمس له، أن يذهب الآن، يركض نحو أسياده. لكنه يبدأ بالصراخ، صرخة لا تحتمل، حادة وتمزق القلب، الأصدقاء ينظرون لبعضهم البعض بذعر، ويتشاورون في صمت، حمر الخدين. وهم مرتبكون. ماريا تورينا ميكيلي تنظر إلى بَخيتة، وترى ما لا يراه الآخرون. هذا الصبي الصغير الذي يخلعوه من هذه الزنجية، هذا الحب بينهما، تنظر إلى هذه الفتاة، وتريدها. الأمر ليس أكثر تعقيدًا من هذا. إنها تريدها. القنصل يأخذ الولد من بين ذراعي بَخيتة، يفك واحدًا تلو الآخر الأصابع التي تمسك السترة، الصغير يتذمر ويلهث، يحمله القنصل مثل حقيبة،

يلتفت من جديد ويمد يده نحو بَخيتة وهو يشهق من البكاء. القنصل يقذفه تقريبًا إلى السنيور سيكا، زوجته لديها حركة صغيرة من الارتداد، ثم يغادرون. تسمع الصرخات المنهكة للصغير، وأحذية السنيورة التي تضرب بعنف الأرض، ثم لا شيء، الصمت المتقاطع مع الطيور الغير مكترثة. انتهى الأمر. ماريا تورينا ميكيلي لا تزال تنظر إلى بَخيتة التي تعرف بالتأكيد الكثير من الأشياء. حمل الأمتعة، أن يحبها الأطفال. والبكاء في صمت.

من نافذة الغرفة، تنظر بَخيتة. هكذا. هذه هي، إيطاليا. بالتأكيد. ترى البحر يتلاشى في الليل الآتي، كما لو كان ينسحب ليختفي. تضيء مصابيح الشوارع في الأزقة، وصحيح ما قالته آنا، هناك نساء في الخارج في هذا الوقت، والبعض يذهبن بمفردهن، لكن كلهن مرتديات الملابس، وكلهن بشرتهن بيضاء، ومهما دققت بَخيتة لا ترى أي وجه أسود أو مهجن، لا توجد امرأة بجلابية، ولا رجل بعمامة، والأصوات التي تتردد صداها بين حيطان البيوت العالية هي أصوات ثاقبة ومندهشة، ينادي السكان على بعضهم البعض بكلمات طويلة ومتعبة، كنوع من الطيش، وبَخيتة تستغرب لعدم فهم ما يقولون. هل يتحدثون لغة أخرى غير الإيطالية؟ ومع ذلك فهي كذلك. إنها إيطاليا. وصلت. في هذا البلد حيث ليس لديها أي أخت، لا أحد لتبحث عنه، لا أحد للتعرف عليه. تركت إندير كما كان مخطط له. وقلبها ممزق. لماذا لا تساعد على الأقل مرة في حياتها، طفلاً؟ العبد الصغير يعتقد أنها خانته. هو ليس على خطأ. لم تتوسل إلى السيد لإبقائه.

إن الوقت أصبح ليلًا تمامًا الآن. بالتأكيد لا يزال هناك رجال في الميناء، يقومون بتحميل وتفريغ الثروات، من أجل متعة الأرباح. سرورها هي أن تكون مع عائلتها. كي تقصّ عليهم هذه

الرحلة، أن تحكيها لأحد. أن تقول عن الأرض التي تُرى من البحر، دائمًا ما تكون بعيدة، حتى عندما نقترب منها. أن تقول على الريح التي ترتفع بعنف المقاتل. الرجال على الجسر الذين يلعبون الورق ويراهنون على المال كأنهم لا يسمعون معركة الرياح. ويشربون. ويتقاتلون. هرج ومرج الغضب دائمًا.

الشيء الوحيد الذي يريحها عندما تذهب للنوم في تلك الليلة، إنها ستسافر في اليوم التالي مع البدرون. تفهم بطريقة أفضل اللغة التي يتحدثها وتعرف كيف تخدمه. أعطاها السترة البيضاء، ولم يلمسها أبدًا، وأنقذها من الخرطوم، قبل أن يلتهب الخرطوم، هي مدينة له بحياتها. هناك في غرفة الفندق الصغير. تفرش الشراشف، وتفردها جيدًا. ثم تتمدد على الأرض. تبحث عن دفء الصغير إندير. تعلم أنه في نفس اللحظة، يمص إبهامه وينادي عليها. يبدو أنها مازالت تعاني من ترنح الباخرة، ولكي تهزم هذا الدوران تسلم تنفسها لهذا الاهتزاز، ومضمومة على نفسها تحاول أن تتبع هذا الدوران. هي المرة الأولى التي تنام بمفردها. منذ السجن من قبل الخاطفين، لم تمض ليلة واحدة بمفردها.. وفجأة تفتقد بيناه. هذا الافتقاد يفاجئها، لم تشعر به من فترة طويلة. إن الجزء المشترك لحياتهم أصبح بعيدًا جدًا الآن، هل حدث فعلًا؟ ألم تخلق ذكريات مع طفلة صغيرة ساعدتها على تحمل كل شيء؟ هل اخترعت لنفسها صديقة؟ أخت؟ طفولة؟ لم تعد تعلم من أين جاءت. تسمع البحر، تسمعه دون أن تراه، يتنفس عزلة طويلة جدًا.

في صباح اليوم التالي عندما يراها، كاليستو لنياني يقترب منها وهو يلامس شاربه، وفي هذه العادة العصبية، يظهر إحراجه. وتتساءل ماذا نسيت أن تفعل. ماذا فعلت خطأ. لكن صوت القنصل يحتفظ بنفس العذوبة المعتادة.

-بَخيتة، لماذا أردت أن تأتي إلى إيطاليا؟

- لرؤيتها.

- هذا جيد... هذا جيد.

- بدرون.

- نعم؟

- هل هي هنا؟ إيطاليا؟

- بالطبع، هنا إيطاليا! لكن ماذا ظننت؟ إنه مهبط؟

- أنا لا أفهم الناس الذين يتحدثون. أصدقاؤك. هل هم إيطاليون؟

- بالطبع هم إيطاليون! يتحدثون لهجتهم. الجميع في إيطاليا يتحدث لهجته.

- سيادتك أيضًا؟

- أنا أعرف اللغتين.

- نعم. بالطبع. بدرون.

تفهم أن إيطاليا كبيرة جدًا، بنفس الحجم، أو ربما أكبر من السودان، يوجد هنا العديد من القبائل والعديد من اللهجات، العديد من قادة الحرب أيضًا. ومدينة البدرون، هل هي بعيدة؟

هل يذهب إليها سيراً على الأقدام؟ لم تعد تجرؤ على السؤال عن أي شيء. إنها خائفة أن يضحك السيد، لكنه هو الذي يصر:

- إذاً، حقًا، تعجبك إيطاليا؟

- شكرًا بدرون.

- ستكوني بخير هنا. انتهت العبودية. هل أنت مبسوطة؟

- نعم بدرون.

ينظر إليها، مترددًا، يبتسم لها، يبتسم لها كما لو أنه يعتذر، ويذهب إلى أوجستو وماريا. يراقبونها الثلاثة، ويبدو كما لو أنها مازالت في السوق. كما لو أنها بدون سترتها. دون أي حماية. هذا لا ينبغي أن يكون، لكن قلبها يبدأ في إيقاع (التم تم)، الخطر الآتي. تنظر إليها ماريا ويوجد شيء في عينيها سعيد ومنتصر. انتقام رائع. ثم تستدير وتضحك. أوجستو يضحك قليلًا أيضًا، من الراحة. بَخيتة لا تفهم، ما الموجود فيها، من المضحك جدًا بالنسبة لهؤلاء الإيطاليين. تخفض رأسها وتضغط على يديها معًا في ظهرها. كاليستو يقترب ويقول:

- ستتبعين أصدقائي، في منزلهم في زيانيجو (zianigo). أنت لهم الآن، أتفهمين؟ سوف تخدمين السنيورة ماريا ميكيلي.

لا تركع أمام قدميه. لا تتوسل إليه. لا تبكي. هي في حالة ذهول. لم تعتقد أبدًا إنه من الممكن أن يكذب عليها. لأنه كذب، لم تنته بعد العبودية. الوضع فقط أبطأ وأقل صخبًا. بعيونها إلى أسفل، تتبع أسيادها الجدد. دون حتى أن تقول وداعًا للقنصل.

مأخوذة في الهرج والمرج الكبير للسفر، الأمتعة، الكلمات التي يقولونها لبعضهم البعض، الإيماءات، وهي، وحدها في صمتها، تتبعهم، بخضوعها المذهول ودون تمرد، هذا الحزن الطويل.

لا تفهم شيئًا مما تقوله السنيورة ميكيلي، أوجستو يترجم اللهجة البندقية لزوجته إلى الإيطالية التي تفهمها بَخيتة قليلاً. تعلم أنهما لم يشترياها، أهداها القنصل للسنيورة. ستصبح جزءًا من الخدم وستكون بخير. تضغط على يديها الواحدة على الأخرى حتى لا تصرخ. تلوم نفسها، لم تتعلم شيئًا، حقيقة : السيد لا يحب أبدًا عبيده. لماذا كان سيحتفظ بها القنصل؟

يصعدون في حيوانًا أسود يبصق نفس الفحم مثل الباخرة، لكن يجتاح الحقول، ويفور تحت الأنفاق ويصفر بصوت عال كما تتنفس. لا تظهر بَخيتة خوفها. لا تسأل عن الاسم. كم من الوقت سيستمر. القطار يتوقف كثيراً. السيدان لا يتحركان. وهي أيضًا. ينزلان ويغيران القطار. بدون كلام، تتبعهما. واليوم يستمر على هذا المنوال ومشاهدة إيطاليا من وراء الزجاج. الحقول على مرمى البصر، مع فلاحين منحنين، نساء، ورجال وأطفال صغار جدًا. هل هم أحرار؟ لا يوجد بينهم شخص أسود. وهنا أيضًا، كلهم يرتدون الملابس. لكن ليس لديهم أحذية. هنا يوجد طعام كثير، كما قالت آنا، لأن الحقول عديدة.

في نهاية فترة بعد الظهيرة، يصلون إلى ميرانو. عربة [حنطور] في انتظارهم. يصعد السيدان بداخلها، لا تعرف إن كان يجب أن تمشي بجانب الحصان أو أن تجلس بجانب السائق،

لكنهما يشيران لها بالجلوس بجانبهما. يغادرون المدينة للدخول في الريف. ترى حُمُرًا صغارًا يمتطيها كبار السن، ماعز وأغنام يرعاها صبية، نساء جالسات على جانب الطريق، رجال متجمعون بالزي العسكري، عساكر، بالتأكيد. إذًا، هنا أيضًا، يوجد جيش؟ تنظر ويبدو لها أنها وضعت على حافة العالم وأن العالم ينزلق ببطء. نظرتها تلتقي بنظرة سيدتها. هذه المرأة لها ابتسامة محفورة في وجهها، مثل شق صنع بسكين.

يعبرون (zianigo)، قرية صغيرة تغزوها كنيسة ضخمة، كبيرة جدًا بالنسبة للمكان، وسرعان ما يسير الحصان على امتداد زقاق محاط بأشجار السرو مع البيت الكبير جدًا في النهاية. شجرة ذات اللون الوردي، مانغوليا مزدهرة تكاد تخفي مدخل البيت البورجوازي. بيت السادة الجدد. بَخيتة تخرج من العربة وتضغط على المنديل في جيبها، جفت الأرض الحمراء للسودان، وأصبحت أقل لينا. هناك حديقة كبيرة وفناء، لكن لا ترى بنايات العبيد، إذًا فذلك يمكن أن يكون صحيحًا، الرجال هنا أحرار. يقول السيد أنه سعيد بالعودة، ينظر إلى زوجته، ينظر إلى بيته، ثم ينفجر ضاحكًا. لقد تحدث باللغة العربية! يعيد العبارة بطريقة أخرى، وزوجته تحني رأسها بنوع من السماحة، وفرحتها تنطفئ على الفور.

على عتبة الباب تأكل امرأة عجوز بوتيرة بطيئة تكشط وعاءها. ترفع وجهها، وتصرخ. الوعاء يقع على الأرض، تهرب وتقوم بحركات مذعورة وسريعة على جبينها، وصدرها، تصرخ

بأشياء غير مفهومة، لكنها فظيعة بالتأكيد. من الحديقة ومن البيت تظهر سيدات، بعض الرجال، يتقدمون بحرص لأخذ أمتعة السيد وينظرون لبَخيتة برعب صامت. امرأة تبصق، أخرى تلوح بأصابعها المضمونة أمامها، الذراعان ممدودتان في اتجاه بَخيتة، تهمس بصلاة غير مسموعة. بَخيتة لا تعرف هذا الطقس. في الحقيقة، إن السيد يعود إلى بيته بعد سفر طويل للغاية. لذلك تبتسم، إذا كانت تستطيع المشاركة، لكانت فعلت، لكن لا تعرف هذا الطقس. ماريا ميكيلي تصفق بيديها وتصرخ ثلاث مرات. لكن كلهم ينتظرون. بلا حراك وهم متخوفون، ينتظرون شيئًا ما. سريعًا أوجستو يدخل بَخيتة في البيت، حيث الخدم لم يعد يجرؤوا على المجيء، ووجوههم الشاحبة تتحطم خلف الزجاج.

- هم أكثر خوفًا منك!

- نعم يا بدرون.

- سوف يعتادون، ويفهمون أنك لست الشيطان.

تعرف الشيطان، ويخشاه جميع المسلمين.

- الشيطان، بدرون؟

- نعم، نعم! الشيطان الأسود! ونادي على ببرون. اجتهدي، تعلمي لهجتهم.

هناك آثار للأصابع ولتنفس الخدم الخائفين على الزجاج. تنظر إلى هذه الآثار، وتقول لنفسها إنها ستقوم بتنظيف النافذة. لقد جاءت من أجل ذلك. لهذا السبب أهدوها إلى البدرونا.. كي

يصبح كل شيء نظيفًا. وتتساءل ما هو أسوأ. أن تكون جميلة أو شيطان.

لديها، لأول مرة في حياتها، غرفة لنفسها بمفردها. هناك سرير، منضدة مجاورة للسرير. مصباح زيت. وخزانة صغيرة. ونافذة في الحائط حيث تتسلق الوستارية. إنها غرفة عالية، فوق الاسطبلات. في الليلة الأولى لا تقوم بتشغيل المصباح، وتكاد لا تضيئه أبدًا. هي تتعامل بشكل أفضل مع الضوء الخارجي. عندما يأتي الليل، من الضروري النوم. أو مشاهدة السماء. عندما يأتي النهار، تستيقظ. حتى لو أن البيت كله لا يزال نائمًا. تعتاد على النوم في السرير، مع الخوف من السقوط وفقدانها للأرض، فقدان للتربة وذبذباتها. تحاول عمل مجهود، كما قال البرون. النوم مثل الآخرين. التحدث مثل الآخرين. التشبه بالآخرين. في هذا الكفاح الدائم، هذه الحياة من أجل التكيف والخزي العظيم، هذه الحياة بدون حب أو رقة، سوف تلتقي برجل، الرجل الأول، بعد والدها الذي سوف يحبها حقًا. هذا الرجل في طريقها، مثل نجم سقط تحت قدميها.

اسمه سنيور إليميناتو ششيني، لكن الجميع ينادونه باسمه المستعار كصحفي محلي، برون ستيفانو مساريوتو. يدير ممتلكات الـ ميكيلي خلال الغيابات الطويلة للسيد، كما هو الحال بالنسبة لممتلكات أخرى. هو رجل عصامي يحب الشعب، الفلاحين، الذي هو مدافعهم الرئيسي في مواجهة أصحاب الأراضي. هو في جميع أسواق فينيثو، يعرف الأسعار الدقيقة، مسارات الفاكهة، والحبوب، والتبغ، والخضار، كما يعرف الصحفيون والمزارعون المستأجرون، والكل يثق فيه. هو أيضًا عازف الأغن لزيانيجو (zianigo)، راجل خارج أي مقارنة، عاطفى، متدين، دافئ ويتميز بروح الفكاهة. ما يمكن للمرء أن يلقبه بكلمة "شخصية"، لو لم يكن أولاً وقبل كل شيء محبًّا للإنسانية.

يقدم نفسه عند الميكيلي في اليوم التالي لعودة السيد. هذا مهني، وهو أيضًا ليس كذلك. سوف يقدم بالطبع الميزانية العمومية للنشاط الزراعي للنطاق، لكنه يأتي أيضًا، مثل الآخرين، بسبب الفضول. في المساء السابق، أخبره اثنان من أولاده الكبار، جيسبيه وليونيه، (Leone) و(Giuseppe) أن في بيت ميكيلي "شيطان أسود". نظرا إليه من الشارع! سألهما، ثم بطريقة لبقة وضعهما في مكانهما: إنها بالتأكيد أفريقية. لا تتحدث القرية إلا عن ذلك. هذه المرأة السوداء كالخشب المحترق، هذه المرأة حرقت ربما، على استعداد أن تتحول إلى رماد، كأنها سقطت في

فحم، ومريضة، والليل يطاردها. هذا شيء غير مفهوم. ومرعب. رأي ستيفانو عند الميكيلي أقنعة أفريقية وأشياء أخرى غريبة جاءت من السودان، لكن هل هذا ممكن؟ امرأة تشبه هذه الأقنعة؟ وعندما، من غرفة الضيوف حيث يتحدث مع أوجستو ميكيلي يراها تمر، يصاب رغمًا عنه بصدمة. يود اخفاء دهشته، لكنه مضطرب. ميكيلي يضحك من ارتباكه.

- إنها بَخيتة. إنها لزوجتي. عمرها ستة عشر عامًا، هي عبدة من السودان، خطفت وهي طفلة صغيرة، لديها ندوب على كل جسدها، لا يمكن تصورها! إنها شجاعة جدًا، بطيئة بعض الشيء لكنها فعالة.

- أتيت بها؟ أنقذتها؟

يتلعثم ميكيلي إنه... نعم.. خدمت في الخرطوم في بيت أحد أصدقاء بادو (Padoue) وأنقذها، نعم.. ستيفانو يخبره أنه مبارك من أجل هذا، ما فعله، إنقاذ إنسان، وميكيلي ينتقل فورًا إلى الحبوب والتبغ. لا يحب المسحة الدينية لمديره، ويأسف لكل هذا الضجيج الذي يصاحب وصول هذه الـ(moretta) كما يناديها الجميع فعلًا، "السوداء"، "السمراء"، ويفاجأ بطلب ستيفانو للحصول على إذن لتتناولها الغذاء عنده في نفس اليوم.

تتبعه. يشرح لها برون ميكيلي أنها ستتناول الغذاء عند صديقه، تسأله إذا كانت ستعود بعد الغذاء، أوضح لها أنها لا تغادر إلا لبضع ساعات، تعتقد أنها سوف تخدم هناك، لكن "بضع ساعات" لا تعرف ما معناها. لا تفهم كلمة واحدة مما

يقوله هذا الرجل. تنظر إلى أسفل، تتبعه دون طرح أسئلة، كالعادة تذهب حيث يطلب منها أن تذهب. في الشارع أطفال يقتربون منها، يمسكونها وهم يصرخون، يتبعونها بنقرات لسان، كما يتم إزعاج الحيوانات. صبي صغير يمص أصابعه ويلتفت وهو يبصق. بسبب صرخات الصبية، تظهر النساء، أياديهن أمام أفواهن، بعضهن يقعن ساجدات على الأرض، أخريات يرسمن علامة الصليب، تجرؤ امرأة على الاقتراب، وتشد على سترة بَخيتة، كما لو أنها تريد خلعها. بَخيتة تصدر صراخًا أجش. الجميع يتجمد، صامتون، وأثناء هذا الصمت يصل فلاحون آخرون، حفيف من الفرحة والرعب الوقح، ثم يرتفع صوت ستيفانو حازمًا ومنخفضًا، يوبخ هؤلاء الكبار كما لو كانوا أطفالًا صغارًا جدًا، سلطته تهدأ الجميع لفترة. يقترب من بَخيتة يطوي ذراعه ويقدمه لها. تتعرف على حركة أصدقاء القنصل، عند مغادرة الفندق الصغير في جنوى. تتساءل ما يجب عليها فعله. هي خادمة وهو سيد. من حولهما من كل جانب، يولد الضحك المموه من جديد، يرمي البعض الحصى. ستيفانو لا يزال ينتظر، بذراعه المطوي في اتجاهها. ولأنها لا تتحرك، فإنه يقترب بلطف بيده من يدها، وتقوم بحركة ارتداد ورعشة من الخوف. يد الرجل خشنة وساخنة. يضع يدها على ذراعه ويقول شيئًا لا تفهمه. تشعر بالخجل من لمس رجل وسط الشارع، ومع ذلك لم يعد أحد يسخر منهما، على العكس، تشعر أن العنف يهدأ. يسيران ويتبعونهما بخطوات حذرة وهمسات مندهشة. يجتازون القرية هكذا، ستيفانو بنظرة فخر، هي، عينيها تنظر إلى أسفل. "كأنه

يذهب بها إلى المذبح في الكنيسة!" تهمس امرأة في طريقهما.

شيء ما من هذا القبيل.

سوف تجلس على المائدة العائلية وسط أطفال ستيفانو وكليمنتينا الخمسة. ثلاث صبية، فتاتان، من سن 11 إلى 5 سنوات. بَخيتــة معلقــة في ذراعه، يعلن الأب بصوته القوى: "هذه هي الـ(moretta)، السوداء! دعوتها لتناول طعام الغذاء!" يقرأ في عيون زوجته الخوف والاحترام. ليس لديها أي شخص في العالم. عانت كثيراً." الأطفال صامتون، لا يريدون استياء والدهم، لكنهم لا يفهمون ما يرونه. ترى هذا الخوف في نظراتهم وتضع يدها برفق على رأس مليا، الأصغر سنًا، التي تبدأ في البكاء. تلتفت نحو كليمنتينا: "آسفة... padrone... برونا..." حتى ستيفانو ينتفض. إنه صوت الرجل يقول: "حسنًا، دعوني أقدم لكم أختكم الصغيرة، sorellina Moretta" ويضحك، والكل يضحك معه. بَخيتة لا تفهم بعد، إنها قُبلت في عائلة، حيث ستسمى من الآن فصاعدًا: "الأخت الصغيرة".

إنها في خدمة ماريا ميكيلي، ولكنها عن طريق ستيفانو سوف تتعرف على العالم الذي تعيش فيه الآن. في منزله، حيث تدعى كثيراً، لا يحدث وجبة، سهرة، دون أن يقرع الباب. يأتي الفلاحون للتوسل من أجل التوسط لدى الأسياد. يجعلهم يجلسون ويقدم لهم دائمًا القليل من الحليب ويعطيهم بعض الخبز للأطفال. يستمع إليهم. لهجتهم، البافنو Pavano أكثر خشونة، أكثر مباشرة، من الفنيثي وغير مفهومة بالنسبة لبَخيتة. لكنها تنظر

إليهم، وتتعرف في نفوسهم، على الإنهاك، الجسم النحيل المجوف والقبيح جدًا لأولئك الذين يعانون من الجوع. النظرة الجامدة، التي تبدو تقريبًا متخلفة. البشرة الحمراء، الممزقة والتي سوف تنتهي بالسقوط. إنها مندهشة لأنها ليست سوى على اليدين، والرقبة، والذراعين والساقين. البلاجرا pellagre، "الجلد الحمضي" يحمل بصماته على الأجزاء المكشوفة للشمس، وهؤلاء العبيد لا يذهبون وهم عرايا. ارتعاشهم أيضًا، تعرفه، البطن المتورمة للأطفال الصغار، الشلل التدريجي، وهنا كما في السودان، جنون الذين لا يأكلون وسوف يموتون. إنهم يتوسلون إلى البرون ستيفانو، يبكون، وفي بعض الأحيان يسقطون على ركابهم. تشعر بهذه الحاجة العنيفة للذهاب إليهم. أن تقول لهم إنها تعرفهم، نعم هي الـ(moretta)، السوداء، تعرفهم منذ أمد بعيد. هم خاضعون ويائسون. يعملون ويموتون، وأطفالهم محكوم عليهم. لأنها فرت من الخرطوم، تعرف أن الرجال يتحملون ما لا يطاق، ثم في يوم ما، شخص ما يناديهم ويتبعونه. حينئذ لا شيء يمكن أن يوقفهم. لكنها لا تقول شيئًا ولا تقترب. فلاحون زياينجو يخافونها، وهي لا تعرف لغتهم. تكبت زخمها، وفي المساء تقص على الليل ما يعذبها. من المستحيل أن تغفو دون أن تبوح بمعاناتها، بعجزها عن مساعدة الناس الفقراء. إنها تخاطب هذه السماء التي تتشابه في كل مكان، ويبدو لها حينها أن العالم ليس كبيراً جدًا. لا يأتي صباح من دون أن تفكر في والدتها، جالسة على جذع شجرة الباوباب. في بعض الأحيان، يبدو لها ذلك كأنه غير واقعي، مثل حياة لإنسانة أخرى، ولكن في

معظم الأحيان هو حضور واضح لدرجة، إنها متأكدة أنه في نفس اللحظة، أمها تفكر فيها وتعرف أنها في مأمن.

البرونا ميكيلي تشعر تجاهها بلطف منزعج، طيبة مفتعلة وهذا أيضًا، شاهدته بَخيتة من قبل وتعرف أن امرأة تصمت على مصيبتها هي امرأة تحمل في داخلها عدوًا كبيراً. هذه المرأة عليها أن ترقص وتصرخ لفترة طويلة، تخرج هذه الروح التي تمتلكها. لكن هذه المرأة تتحدث دائمًا بهدوء، بنبرة استجواب جافة، ولديها دائمًا شيء ما تعتب عليه وتنهداتها تعلن عن حضورها. هي لا تغار من العاطفة التي يحملها ستيفانو للموريتا، هو حليف ثمين للمزرعة، حتى عندما يكون زوجها هنا. لأن زوجها حتى وهو هنا، غائب. يفكر في أمور أخرى، يفكر في المغادرة من جديد، دائمًا. يهرب. يهرب من هذا البيت حيث ليس فيه أحد يشعر بالسعادة. ماريا ميكيلي هي أيضًا غريبة عن zianigo، وعن إيطاليا. تأتي من بطرسبورج حيث كان أوجستو يدير صفقات مع تجار الغراء ووقع في غرامها. هي ليست إيطالية، وخاصة ليست كاثوليكية. إنها تحولت بالطبع لكي تتزوج، في كنيسة في باريس، لكنها أرثوذكسية، تقليديًّا وبدون قناعة. تشارك زوجها شيئًا، وهو الانزعاج من التزيد الديني لستيفانو. لا! لا يوجد صليب عندهم! لا يذهبون إلى القداس! ولا يهم إذا احتقروها لذلك. هو، بالطبع، الصديق الحميم للكاهن، يقود جوقة الكنيسة، ينظم الحج ويساعد في الجمعيات الخيرية. الأوغن، تود أن تستمع إليه، تحب الموسيقى، لكن دخول الكنيسة... وعلى كل، تمنعه من التحدث عن الله مع بَخيتة، حتى لا يستسلم لهذه الموضة

الإيطالية للمبشرين، يحتفظ بمفاهيمه عن الخير والشر لنفسه، وهي قادرة على التعامل مع خدّامها بنفسها.

لكن بَخيتة لا تحتاج أن يتحدثوا معها عن الخير والشر. تعرف هذه المعركة عن ظهر قلب وسرعان ما تفهم أن العالم هو عالم واحد. البحر بين السودان وإيطاليا، ليس تفريقًا. هو لمّ الشمل، كل شيء مشابه. والرجال يعانون. في صباح ما حيث ترافق برونا ميكيلي إلى السوق، ترى مزارع مكبل اليدين ويسير بين اثنين من "الدرك الإيطاليين". إنها مندهشة. السلاسل! هنا أيضًا، السلاسل! ميكيلي تدفعها إلى الأمام وتخبرها وهي تفصل بين الكلمات:

- إنه س.. ر. ق - فاكهة.

- فاكهة. برونا؟

- هل تفهمين لغة البندقية!

وتفهم أيضًا أن هذه الثمرة هو الذي زرعها، بالضرورة. لا تعرف كلمات "الصيد الغير مشروع" و"قانون العقوبات"، لكنها تراقب وتفهم كل شيء. ليس لديها حماية، إنه شيء فوري، الحياة تعبر من خلالها ولا يمكنها منع نفسها من هذا التعاطف. كما كانت تقول والدتها؟ ابنتي الصغيرة... ابنتي الصغيرة، الحنونة والطيبة. ابنتي الصغيرة... تنظر إلى برونا ميكيلي، وفجأة تفهم هذه المرأة، شرها ومصيبتها.

تفتح قلبها مع كليمنتينا، زوجة ستيفانو. بكلمات قليلة، بكثير من الإيماءات، وبعض نوبات الضحك، يتواصلان كما يستطيعان. في ذلك اليوم، بَخيتة قلبها مقبوض ولا تعرف كيف تفتح

الموضوع. تشير إلى الابنة الصغرى لكليمنتينا، الصغيرة مليا، تتحدث عن الطفلة وعن برونا ميكيلي، وهي تربط بينهما. تسمعها كليمنتنا بانتباه شديد، تضع قبعتها وتشير إليها أن تتبعها. إنهما يعبران زيانيجو، يخرجان من القرية، الطرق الصغيرة المليئة بالأدغال مع خرير المياه الغير مرئي بين الحجارة، الجدران المنخفضة الثقيلة، كتل المزارع العميقة مثل zeribas، البيوت الضخمة الارستقراطية لنبلاء البندقية. بَخيتة تحب هذه المتنزهات، روائح التوت والبيقة، الطيور التي تكتشفها والتي تعرفهم من قبل، الشحارير، والنسور بعيدة المنال في الجبل. إنها دائماً تخشى من أن يخفيها شخص ما، أن تتلقى حجرًا، لكن تقول لنفسها أنه من كثرة ما يرونها، السكان سيعتادون على وجودها، وربما يسمحوا لها، في يوم ما، من الاقتراب منهم. بفضل برونا ميكيلي، تلبس على الطريقة الأوربية، وتضع كماشات جميلة في شعرها الأكرت ومن أجل الخروجات المهمة في العربات (الحنطور) مع عائلة ميكيلي، ترتدي زيها الأحمر القرمزي، وحتى أولئك الذين يخشونها يقولون: هي جميلة. بطريقة مذهلة. مخيفة. هي جميلة. وهي لا تعرف ذلك.

يذهبان إلى أعلى التل، تسمع بَخيتة الأبقار قبل أن تراها وفجأة... الفتاة الصغيرة التي تحرس القطيع بالقرب من النهر. فتاة صغيرة جدًا ضائعة في وحدتها، تلوح بعصاها النحيفة مثل ساقيها العرايا وتصدر بين الحين والآخر صرخات قصيرة وصفارات. بَخيتة تريها إلى كلمنتينا، ثم تضرب على صدرها. هذه الفتاة الصغيرة، إنها هي. هذا تتذكره وهو كما لو أنها رأت

نفسها، قابلتها. كان ذلك منذ زمن بعيد وهذا الآن أيضًا. تستطيع أن تفعل ذلك مرة أخرى، تقود القطيع إلى النهر الصباح وتعيده إلى القرية في المساء. كليمنتينا تفهمِ وتهنئها، وسوف تقول لستيفانو، في المساء نفسه: "بَخيتة تعرف كيفية رعاية الأبقار".. يبتعدان وبَخيتة تلتفت، تنظر إلى ماضيها الذي ينبت في إيطاليا، الزمن الذي يندفع بقوة.

عندما تدفع كلمنتينا الباب الحديدي للمقابر، بَخيتة تخفض عينيها بطريقة غريزية. إنها تعرف أين هي. رأت في الخرطوم مقابر صغيرة للبعثات الكاثوليكية. إنها ليست لها، وليست على سجيتها هنا، إنه مثل مكان ممنوع، الوجود في حديقة ليس من حقها الدخول فيه. تقودها كليمنتينا أمام مقبرة بالغة الصغر. بَخيتة تفهم قبل أن تشير لها بالكلمات التي لا تعرف قراءتها:

- كارلو ميكيلي. جيوفاني ميكيلي.

مصيبة برونا ميكيلي تكمن هنا. كانت تعرف هذا.

في المساء، تخدم بَخيتة أسيادها، يتناولون الطعام في الغرفة الكبيرة الخالية، دون النظر إلى بعضهما البعض، يأكلون الخروف، الخضروات، الأرز، الفاكهة، الخبز، يشربون النبيذ والقهوة، كل ما يزرعه الفلاحون والذي لن يأكلوه ولن يشربوه أبدًا. تراقب بَخيتة البرونا. تود أن تقول لها أن لا تقلق. تعلم أن بداخلها طفلًا آخر. لا يجب انتظار الطفل في الخوف. تراقب وتظل مزروعة هنا.

- إنها بطيئة، بطيئة جدًا! تقول ماريا إلى زوجها، وهي على حافة فقدان الصبر، تنفجر: ماذا؟

فيجرؤ الصوت الرخيم للموريتا أن يقول بخجل:

- أنا هنا، برونا.

يخفي أوجستو ضحكته في منديل السفرة. البرونا تحمر من الخجل وتنظر إلى أسفل. حتى لا يرى أحد دموعها.

هذا الطفل، سوف ينتظرانه معًا. السيدة والخادمة. لم تنس ماريا جنوى وبؤس الصغير إنديرالذي لم يرد أن يترك الموريتا. تعرف إنه عبر الصحراء والبحور معها وبفضلها، تعرف أنه ليس زوجها أو صديقه اللذان اعتنيا بالطفل! القنصل أعطاها بَخيتة كنوع من العزاء، لكن هي، كانت تريدها، هذه الزنجية. ولم تكن نزوة.

أوجستو لا يخمن، إنه منذ عدة أسابيع، ماريا حامل من جديد. يعتقد أن شحوبها وغثيانها جزء من المنظومة، فزوجته هستيرية، ولا يمكن عمل شيء حيال هذا. تعلم أنه سوف يتهرب منها إذا أخبرته أنها تنتظر، مرة أخرى، طفلاً. كما لو أنه ليس منه، فقط منها، طفل مولود من قبل الأم وليس ملك إلا لها. يعتقد أن الطفلين اللذين توفيا، هما عارها هي. معها، الأطفال لا يعيشون. أن يموت أطفال الفلاحين، فهذا طبيعي ومنطقي، فهم ينشؤون من قبل شاربي المشروبات الروحية والمتاجرة بها، أشخاص أميون وغير أخلاقيين وغير نظفاء، يأكلون عصيدة من دقيق الذرة. لكن هي! *لا تعرف* كيف تجعل طفلاً يعيش. في المرة الأولى، يمكن فهم ذلك، لا أحد يستطيع شيئًا حيال الحصبة، ولكن الثانية؟ لم تكن حتى قادرة على أن يعيش بداخلها، لقد ولدت طفلاً ميتًا. لم خرج منها، كان الموت." الله تذكره، هو أيضًا" قال الكاهن الكبير. وعندئذ قررت ماريا أن الموضوع

انتهى، لم تعد تريد أن تسمع عن هذا الإله الذي يحتاج لأولاده أكثر منها. الطفل الثاني، قبل تلقى الصلاة الأخيرة، كانت أعطته اسم والد زوجها، (حيوفاني)، وبعد ذلك وضعوا ضمادات على ثدييها، على أي حال، لم يكن في استطاعتها أن ترضعه رضاعة طبيعية، لكن ثدييها المضمّدين آلماها بطريقة رهيبة، أكثر بكثير من ولادة كارلو، التي كانت تراه يرضع من الثخينة أليسيا بعيونها الغير مبالية وثدييها المفرطين في الكبر. كرهتهم جميعًا، والله معهم. الله هنا، الله هناك، وهو معبود يتسلل في كل مكان ويتدخل في كل شيء والذي "كان عليها تقديم أبنائها له"، كما لو كانوا له.

الآن، هذا الحمل الذي خمّنته فقط الموريتا، سوف تخفيه عنهم. لا أحد، لاستيفانو ولا عائلته، ولا الكاهن، ولا الأصدقاء، يعرفون عنه شيئًا. تعرف ما يفكرون فيه، هي غريبة ومن الأفضل على الزوج أن يتركها من أجل إيطالية صلبة، (مّامة) يرونها في القداس يوم الأحد، تحيك ملابس الفقراء وتتبع مواكب العذراء. مثل الآخرين. كما الآخرين سوف تحني رأسها عند حدوث مصيبة، الحجاب الأسود والقرابين للرب الذي يأكل الأطفال.

هذه الموريتا، لا تعرف أي شيء عن كل هذا، هي صامتة ولا تستطيع أن تنشغل بالتوافه ولا تستطيع أن تنقل النميمة. ولا حتى أي حقيقة. هكذا، ذات ليلة، تطلب منها فتح خزينة الملابس في غرفتها، تشير عليها بإخراج العلبة الزرقاء الكبيرة، ووضعها هنا، على المنضدة، سوف تريها شيئًا. وإلى هذه الخادمة التي

ستتحدث إليها بالروسية، تحكي. الحياة، القصيرة جدًا والجميلة، لكارلو الصغير. تخرج الملابس التي كانت تحتفظ بها للطفل الثاني، لأنه حتى قبل أن تجف عينيها من البكاء، حماتها أمرتها أن تفعل، على الفور "طفل آخر"، كما لو أنها فقط فشلت في طبخ أكلة. لم تكن تريد الحمل من جديد، وهذا بالتأكيد السبب في ولادة الثاني ميتًا. بديل تعبان. غير قادر على فتح عينيه. وبدا لها وهي تمسكه بين ذراعيها لاختيار اسم له، إنها كانت تمسك روحها في حضنها، روح مطفئة، تتمنى فقط وببساطة أن ينسوها. لكن كارلو! كارليتو كبر، عاش وكبر أربع سنوات! تحكي بلغتها حياتها كأم والتي عاشتها معه. لأنها كانت والدته، رغم ما يقولونه. تحكي عن الخطوات الأولى، الكلمات الأولى، الجروح الصغيرة الأولى والأمراض الصغيرة التي عالجتها، نعم، عرفت القيام بذلك! ثم تظهر الملابس كدليل، تطلب من بَخيتة أن تلمسهم، كم هم جمال، وخاصة كم هم حقيقيون. كان ممنوعًا الحديث عن هذا الطفل، كما لو كان يذكرها "بذكريات سيئة"، لكنها تريد التحدث عنه، وتقول لهذه الموريتا التي تسمعها وهي تتحدث بالروسية والتي لا تخفي دموعها، كيف كان ابنا بارًا وهي، كم كانت أما جيدة. تحب أن تبكي بَخيتة، لأنه إذا كان شخص غريب يعاني من الألم، فمن الطبيعي، أن تعاني، هي، من الحزن، أليس كذلك؟ إنه ليس مرض؟ هي ليست مجنونة؟ إنها تتحمس، تتحدث بشكل أسرع وأسرع، وأكثر قوة، تمزج الفنيثي والروسي، والفرنسية والإنجليزية، التي تحدثها أيضًا، Guarda! المسيهم، لا تخافي!" تموج بالرسومات، باللعب اللينة للأطفال،

والقبعات، والجوارب الصغيرة، "so small!"، ويدها أمام فمها، تضحك الآن، لأن هذه الجوارب بالغة الصغر! إنها لا تستطيع التوقف عن الضحك، جسدها يتأرجح وهو يضحك "Amore mio! sertse maiyo! Mio cuore so small!"، بكل اللغات تقول ذلك وينفجر بؤسها.

تسمع بَخيتة من طويشة، صرخات الأم التي كانت لمست طفلها، القدم البالغ الصغر، الجميل جدًا. تتذكر أنهم ضربوها لذلك، وأن الطفل بكى أيضًا. تقترب، برفق من البرونا وتأخذها في حضنها، إنها حركة غير متوقعة وممنوعة، تعني ببساطة: استريحي. تلجأ البرونا إلى أحضان الموريتا وتجهش في البكاء. أخيراً، لها الحق في الحزن.

ولد الطفل في 3 فبراير 1836. غادر السيد إيطاليا قبل ذلك بثلاثة أشهر، عاد إلى سواكن، حيث كتب لزوجته بعض الكلمات الآسفة التي من هدفها توقع هزيمته في المستقبل، وطلب منها أن تعتني بنفسها.

عندما بدأ العمل طلبت برونا ميكيلي من الموريتا البقاء بجانبها، ومرت ثلاثة أيام، تنام فيهم بَخيتة على الأريكة، دون أن تجرؤ على إخبارها أنها ستكون أفضل حالًا على الأرض، حواسها متيقظة، تنهض عشر مرات في الليل، تضع يديها على بطنها الذي يعاني، ولكنها تعلم أن كل شيء على ما يرام. برونا ميكيلي تشعر ببطنها يسترخي، تحت أيدي الموريتا، الحجر يصبح سائلًا، والقلق يقل، انها تستطيع حتى أن تنام قليلًا.

بَخيتة منفعلة كما لو كانت المرة الأولى التي تشاهد ذلك، تحضر ذلك. مع أنها شهدت الكثير من الولادات، المحتفى بها أو المرعوب منها، نساء سعيدات أو فتيات ممزقات من الألم، بين الأطفال الذين يحتفظ بهم، والأطفال الذين يردون، أيادي أمهات فارغات وأخريات من أمثال والدتها، شجرة وفروعها، رأت الكثير من أعياد الميلاد، والعديد من العوالم. تبلغ من العمر السابعة عشر، تعرف أنه لن يكون لها أبدًا طفل، جسد العبدة يقول لها ذلك، انكمش بسبب العنف. البرونا سوف تولد وهي مستلقية،

وتستغرب هي من عدم حركة امرأة سوف تقوم بالنشاط الأكثر حدة في العالم، تفكر في غزالة يعوقونها قبل إجبارها على الركض. لكنها لا تقول شيئًا وعندما تأتي الداية في اليوم الثالث، تشير إلى الموريتا بالخروج. الأشياء الجادة سوف تبدأ.

هي فتاة صغيرة، البرونا تسميها أليس، ألسندرينا، أوجستا. تبرق للأب بالولادة، والقرية كلها تعلم بالحدث. لقد نجحت ماريا ميكيلي أخيراً! هي بنت، لكنها سعيدة على كل حال، وربما سيكون أوجستو سعيدًا أيضًا، من يعرف، ربما تعمل زوجته بشكل أفضل المرة القادمة، ويكون له ابن. ثم، بعد ذلك، ببضع ساعات، يبدأ الليل، ويدعى الكاهن. يجب إعطاء سريعًا الأسرار المقدسة، دون انتظار المعمودية في الكنيسة. الصغيرة لن تعيش. على طرف سرير ماريا ميكيلي، يغمغم الكاهن بكلمات لاتينية، ويقوم بعلامات لا تفهمها بَخيتة. صوته حنون وأسف، يود أن يتحدث قليلًا مع الأم، لكن ماريا تتلو الصلوات دون اقتناع، وتنظر أمامها إلى هذا المستقبل الذي لا وجود له. لا تبكي، إنها غبية ومنهكة. لا تريد رؤية المولودة الصغيرة بعد الآن، ولا لمسها، لا تحبها منذ الآن، تكرهها. تعود الداية وتضمد ثدييها في صمت مستسلم، تضغط بقوة الشرائط البيضاء الملطخة بالفعل، ثم تغادر البيت بشيء من الراحة. الموريتا لها الحق في البقاء. تنتظر مع الأم أن الطفلة، وهي مباركة الآن، تطلق إلى السماء روحها المطهرة.

الليل يزيد ثقله، عميق وصامت، هناك ضباب على النوافذ

والضوء المتردد للمصابيح، رائحة الدم والعرق، هذا التعب الشديد. الغرفة مغلقة، منفصلة عن العالم، فروا جميعًا من المصيبة، والزمن يمر فقط بالنسبة لهذه الكائنات الثلاثة: الأم والطفلة والخادمة، مع الموت القادم مثل سحابة قدرية.

لا تنظر الامرأتان إلى بعضهما البعض، الطفلة التي ستموت وحيدة في مهدها، ومعاناتها تكتسح الغرفة. إنه كائن صغير جدًا، حاضر بقوة دون أدنى معونة. تقترب بَخيتة من المهد الذي أرادت برونا ميكيلي أن يكون بعيدًا عنها، في الطرف الآخر من الغرفة. تنظر إلى الوجه الذي يتحول إلى اللون الأزرق للصغيرة أليس، التنفس القصير، والخشن، تفكر في نهر تعوقه الصخور، تسمع تيار المياه المقيد، وترى أن الحياة تتعارك مع سلطة موت مقبول سلفًا.

لذا، فهي تفعل شيئًا لم تفعله إلا مرة واحدة فقط، منذ فترة طويلة جدًا، عندما هربت من طويشة. *لا تطلب الأذن*، تأخذ الطفلة، تخلع لها ملابسها، تجلس وتمددها على ركبتيها، تبصق في يديها وتدلك الصدر، ببطء، وتنطق بكلمات غير متماسكة وناعمة، وجهها بالقرب جدًا من الجسد الصغير، حتى إن البرونا لم تعد ترى إلا هذه الكتلة من الشعر الأكرت ورقبتها منحنية. الصغيرة تصدر بكاء محشور وضعيف، بَخيتة مأخوذة في هذا التتابع من الحركة والكلمة، صوتها العميق ممزوج بالتنفس الشحيح للطفلة، تُسمع طقطقة الخشب في المدخنة، يفرقع وينفجر، وتسعل الصغيرة بأعلى صوت، وهذه اللغة، تفهمها بَخيتة، هي لغة الألم والتمرد. ثم تبصق مرة أخرى في يديها،

وتدلك، وتتكلم، ووجهها بالقرب من وجه الطفلة، تتلقّى سعالها ودموعها مثل هدية مقدرة لها.

تظل البرونا صامتة، متفرجة لا تملك شيئًا، تشعر بالأمل يولد من جديد، مع رفضها للأمل. بَخيتة ترفع الصغيرة، تمسكها من تحت الذراعين، تكاد تختنق وتفقد تنفسها في مخاطها، بَخيتة تمددها مرة أخرى، تأخذ رأسها في يدها، تضع فمها على أنفها، تأخذ نفسًا عميقًا وتبصق، على الأرض. عدة مرات تباعًا، بسرعة فائقة، تقريبًا دون أن تأخذ نفسًا، تمتص وتبصق المخاط. أنه صاخب وقذر مثل الحياة. متكرر، غريزي واستبدادي. وفي النهاية، عندما لا تبكي الصغيرة من الألم، لكن من الجوع، تضع بَخيتة ملابس الطفلة وتحملها إلى والدتها. برونا تتراجع إلى الوراء، عيناها تسأل الموريتا هل جنت، لتتجرأ بفعل هذا، لكن بَخيتة بحركة بطيئة، تزيل الشريط الأبيض وتحرر ثديي البرونا. تقول الكلمة التي تحبها، بصوتها المنخفض تقول: madre. وتبين لها كيفية القيام بذلك. لأن هي التي يجب أن تفعل ذلك. يجب أن تطعم ابنتها.

سيطلق عليها اسم "Mimmina ميمينا". لقب مثل قبلة، شيء لذيذ، رقة عميقة. وماريا ميكيلي تعهد بابنتها لبَخيتة. وافقت على الرضاعة، لكن يجب على الموريتا الوقوف بجانبها، تخشى من خطأ ما للطفلة الصغيرة، أن لا "تأخذ" ما يكفيها، أو أكثر من اللازم، ثم لا تعرف كيف تجعلها تتجشأ، أن تغير لها، تغسلها، فبالكاد تجرؤ على لمسها، هذا الشيء الصغير القوي والغامض.

تطلب بوضع مهد الطفلة في غرفة الخادمة، هناك، فوق الإسطبلات، وليلًا ونهارًا، تنزلها عندها من أجل الرضاعة. الأدوار تنعكس، الموريتا تصبح الأم والأم المربية. لا يهم. منذ زمن بعيد، لا تبالي ماريا ميكيلي بما تفكر فيه البرجوازية في زيانيجو، زوجها بعيد، وعائلته، غبية. تراقب ابنتها تنمو كمتفرجة قلقة ومنبهرة، وكبريائها ينمو مع ازدرائها في نفس الوقت لهذا العالم الذي رفضها دائمًا.

بَخيتة لا تترك الطفلة تنام في مهدها. تحملها في حضنها، تحت الشراشف . أيامها، لياليها، لم تعد إلا لذلك، اللقاء الدائم مع الطفلة. في المساء حيث القمر كبير مثل الشمس، العنيفة والحمراء، تمد الصغيرة نحوه وتلفظ ثلاث مرات اسمها. هذا لا يقول كيف كان العالم اليوم الذي ولدت فيه ميمينا، يقول كيف تغير العالم اليوم الذي ولدت فيه.

إنه في آن واحد، فرحة عميقة واحتياج مؤجج. تبكي بَخيتة أمها والطفلة في حضنها، والحاجة إلى ظهورها فيما هو جيد كما نبتت من قبل في الجحيم، إنه غياب لا شيء يملؤه وكل شيء يُذكره. ترغب في مشاركتها هذه الأمومة المستبدلة، لكن تريد أن تصبح مرة أخرى هذه الحياة القوية والبالغة الصغر بين أيادي التي كانت تنادي عليها بماما في لغة منسية. أن تكون الأم والطفل. هذا الحب، لكنها مقسومة إلى نصفين ومندهشة من قوة هذا النقص، هل سيعترض حياتها دائمًا هذا الحب المتعذر استبداله؟ إنها تهدهد ميمينا وتشكرها لبقائها على قيد الحياة. في الحب الذي تعطيه للطفلة، هناك كل من أحبتهم وكل الذين

انتزعوا منها، حيوات متشابكة وضائعة، جروح غير ظاهرة وحراقة. عيناها في عيون بَخيتة، النظرة الضبابية لميمينا تُركز وتستجيب، وما يقلنه في لغتهما المخترعة، وما يعطينهما في مداعبتهما وفي نومهما المشترك مرتبطتان، لا يمكن أن يحذره أحد. هما حياتان، مُنقذتان ولا يمكن فكهما.

بعد ثلاثة أشهر من الولادة، تحت ضغط المحيطين، تحت تأثير البرون ستيفانو، وأيضًا، يجب أن يقال ذلك، بسبب الخوف الخرافي، لماريا ميكيلي وافقت على تعميد ميمينا، معمودية حقيقية هذه المرة، في كنيسة زيانيجو. الموريتا تبقى عند الباب. ماريا تحمل الصغيرة، في زيها من الدانتيلا البيضاء، على خط المعمودية حيث صرخات الصغيرة لها صدى على الحجارة الباردة، ماريا تبكي أيضًا، تحت تأثير العاطفة، كما يظنون، ولكنها تبكي فقط من الغيظ. هذه الطفلة التي تصرخ في رداء المعمودية، هي حريصة على إعادتها سريعًا إلى الموريتا، وهي تلوم هذه الفتاة لأن لها صلاحيات ليست لها، واعترافها بالجميل يلوثه الحقد.

بَخيتة تحب هذا الأوان من الطفولة المبكرة جدًا لـ"ميمينا". عند بلوغها الستة أشهر، تتوقف والدتها من رضاعتها، وهي التي تطعمها، تطهو لها الحساء والخضار المسلوقة، وهي أيضًا التي تحيك لها قبعاتها وشرباتها الصغيرة، تطرز ملابسها، تعالج نوبات الحرارة، الإسهال، اللثة عندما تكون متورمة، تعلمت كل شيء، وهي تعرف كيف تفعل كل شيء، "خبيثة مثل قرد" تقول

مديرة المنزل، تأخذ الصغيرة إلى نزهة كل يوم إلى ريف زيانيجو، وغالبًا ما تتوقف النزهة لبعض الوقت عند ستيفانو. إذا لم يكن هناك، كليمنتينا والصغار يرحبون بها، يهنئون بَخيتة على تقدم الطفلة، وجهها الذي ينبض حياة، وزنها وابتساماتها، إذا كان ستيفانو هنا، يحضر لها دائمًا وجبة خفيفة، إنه رجل لا يستطيع رؤية أحد، جائع أو شبعان، دون إطعامه. يحاول دائمًا ولا يستطيع أن يمنع نفسه من التحدث في الدين مع بَخيتة. يشير إلى ميدالية ميمينا: "سانتا ماريا"، هل تفهمين أيتها الشقيقة الصغرى؟ "السنتا ماريا"! تبتسم بَخيتة، بهذه الابتسامة الناعمة والمنزوعة السلاح. يمنع نفسه أيضًا من إدخالها الكنيسة ليريها التماثيل، الصليب، واللوحات. كان سيعزف على جهاز الأغن أثناء اكتشافها للعذراء، المسيح، القديسين والوجود الحقيقي، بَخيتة تفهم كل شيء بدون الكلمات، يعرف ذلك، لكن ماريا ميكيلي منعت خادمتها من دخول الكنيسة. هذا يعذبه. لم يعد ينام الليل. يشعر أنه مذنب، كما لو كان يرى بَخيتة تغرق ويبقى مكتوف اليدين. سوف تضيع روحها، ولم يفعل أي شيء لمنع ذلك. ورغم ذلك، فتنطلق منها قوة حقيقية، مثل سر محتفظ به جيدًا. يعرف، من كلامه مع الناس الفقراء في زيانيجو وأيضًا مع البورجوازيين، إنه ليس فقط لون بشرتها الذي يخيفهم، ليس فقط بسبب الجهل، الخرافات أو الغباء، يهربون منها. إنها جميلة، إنها حنونة ومستسلمة. لكن هي أيضًا غير قابلة للكسر. مثل كائن نجا، تحمل في داخلها عالماً من الصعب التواصل معه.

وهذا هو ما يخيفهم، تلك القوة التي لا يفهمونها.

كيف جاءت لستيفانو يومًا هذه الفكرة؟ كيف صدق أنها ممكنة؟ قرر تبني بَخيتة التي تنادي عليه بابو، كما يفعل أولاده؟ إنه بالفعل أب لها تقريبًا، وإذا تبناها، سيكون لها اسم، عائلة، وارث، وسوف يستطيع تعميدها، محو الخطيئة الأولى وإنقاذ روحها. يشرع في معركة عمياء من أجل مستندات غير موجودة، شهادات ميلاد وإعادة شراء، قرية منسية، جنسية ضائعة، يكتب، يرسل تلغرافات، يستعمل علاقاته، يطلب مساعدة الكاهن الكبير، عمدة زيانيجو، دوق فينسيا، يسافر إلى بادو عند القنصل لنياني، الذي غادر منذ ستة أشهر إلى مصر، يكتب إلى أوجستو ميكيلي، يتوسل إليه، من سواكن، أن يبحث عن أصول بَخيتة، لديه إيمان قادر على رفع الجبال، جبال بلد يجهل عنه كل شيء، وكلما كانت أبحاثه بدون جدوى، كلما ازداد عنادًا، مأخوذًا في ذعر سخي، لكن ربما... ربما أيضًا، كان لديه حدس بأهمية سرعة التحرك، لأنه قريب هذه الحياة الناعمة، هذا الركود، لن يكونوا بالنسبة لبَخيتة إلا ذكرى بعيدة.

تركض بَخيتة بمفردها في شوارع زيانيجو. تجري كما يهرب المرء. كما فعلت ذلك ويد الصغيرة بيناه في يدها، تهرب. هي تركض والأطفال الذين يرونها تمر، يلبسون في الحوائط الصفراء للبيوت المائلة، المسنون الجالسون أمام الأبواب يرفعون قبعاتهم ويصمتون، النساء يعتقدن أن مصيبة وقعت لميمينا، لأن المصائب هي التي تركض مع الموريتا، أي امرأة شعبية تعرف ذلك.

تشعر بالسلسلة في قدمها، هذه السلسلة التي ارتدتها عند السيدة التركية والتي تضغط وتجعلها تعرج، تستعيد مشيتها كعبدة، والخوف الذي يصاحبها. حذاؤها الضيق يؤلمها، ثوبها يلتصق بجسدها الذي يفوح منه العرق، وتحت قبعتها شعرها المبلل. على الطريق الترابي الصغير الذي يؤدي إلى منزل ستيفانو تتعثر في عش طيور، والطين يغطي وجهها مثل بقع من الجلد. ستيفانو يعلم بالفعل بمجيئها، طلب من كليمنتينا الذهاب لإحضار الطبيب وإرساله عند ماريا ميكيلي، مصيبة حدثت لميمينا، يقابل بَخيتة على الطريق الترابي الصغير، يذهب ليأخذها بين ذراعيه، لكنها ترمي بنفسها تحت قدميه، مثل المزارعين الفقراء. يساعدها على النهوض ولا يتعرف على وجهها، هو أصغر سنًا. وعجوز جدًا. عيناها هما لفتاة صغيرة جدًا وبالرغم من هذا ينبعث منهما شيء مرعب وقديم.

- ميمينا؟

- لا.

- ماريا؟

- لا.

-Il paron ?

تشير بأنه ليس كذلك، وتلتفت إلى نفسها وتقرع صدرها، قلبها، تريه أنه هنا في الداخل، مصيبة كبرى. بغريزته، ينظر إليها، ركضت ولا تبدو مريضة، في لحظة يتساءل إذا تلقت أي أوراق للتبني، أخبار سيئة من عائلتها، من قريتها، وعلى الفور يدرك أنه غير ممكن، في جميع الخطوات التي يجريها لا يُعطي إطلاقا إلا عنوانه الخاص. يجعلها تجلس على مقعد حجري. أمامهم أشجار السرو تتمايل برائحتها المسكرة والحزينة. أمطرت طوال اليوم والجو مشبع برطوبة ثقيلة، العصافير تغرد في الأشجار المبللة، ويُسمع في الجبل بعيدًا الرعد الأخير. شيء ما في سبيله للانتهاء. وفجأة يفهم ستيفانو. الصدمة تقطع أنفاسه. ومع ذلك، فهذا شيء بدهي. يلوم نفسه لعدم توقعه، لم يتحدث أبدًا مع الأخت الصغيرة موريتا، هذا خطؤه، كان يجب أن يعلمها... لكن قول هذه الأشياء في لهجة لا تفهمها جيدًا كان سيكون أكثر رعبًا، وأكثر إرباكًا ومثيراً للقلق... سوف تسافر إلى سواكن، مع الميكيلي. تغادر إيطاليا. يضع يده على يدها، تبكى الآن، وهي المرة الأولى التي تبكي أمامه. لذلك هو يبكي معها، يجهش في البكاء وهاهما الاثنان على المقعد، في الهواء الرطب لمطر منهك، مع هذا الحزن الذي لا يستطيعان شيئًا تجاهه، لأن

ما يحدث ليس له عزاء على الإطلاق. يود أن يطلب منها العفو، إذا كان فقط فكر في التبني في وقت سابق، إذا كان قال لها فقط أن هذا يمكن حدوثه. منذ عام أوجستو ميكيلي يترك له إدارة الضيعة بمفرده، لا يعرف ابنته الصغيرة، لم يبتعد عن زيانيجو لهذه الفترة الطويلة... سيتفانو يخلع نظارته المستديرة، يمسح عينيه ويسأل:

- سواكن؟

- نعم، بابو، نعم، Aiutu... انجدني.

ينظر إلى السماء، لكن السماء لا تستجيب.

يعود بها عند ماريا ميكيلي، تأمرها البرونا بالذهاب لتغير ملابسها وأن تريح مديرة المنزل من حراسة ميمينا. تضيف بالنسبة لهذا العمل الطائش، سوف يتفاهمان فيما بعد، بمفردهما. بَخيتة تصعد إلى الغرفة التي أعطتها وَهْمَ الحرية، وَهْمَ الأمومة، حياة لنفسها.

في غرفة المعيشة، ماريا تُجلس ستيفانو وتقدم له كوبًا من مشروب الـ (Grappa).

- سأحتاج لك ستيفانو أكثر من أي وقت مضى.

- أعرف.

- الضيعة ستكون كلها بين يديك. بالطبع سيكون هناك تعويض مالي.

لا يلمس كوبه. ينظر إلى الحديقة الرطبة، المانيولا ثقيلة

والورود مخلوعة بسبب المطر. يفكر أنه شيء غريب حقًا، أن يتلاءم مع المناخ، أحيانًا، مع قلبك. الأمطار سوف تسقط مرة أخرى، السماء عديمة اللون، يسأل:

- سوف تسافرون إلى سواكن؟ يكره تلك الكلمة القصيرة.

- ميمينا عمرها تسعة أشهر، ووالدها لا يعرفها.

- طبعًا.

- هو لا يستطيع العودة، يمكنك أن تتخيل، هذا ليس الوقت المناسب لترك الفندق.

- آه... اشتراه في النهاية.

- يكتب لي أن في سواكن المنازل مصنوعة من الأحجار المرجانية، هل تستطيع أن تتصور هذا، ستيفانو؟

- لا بد أن هذا جميل جدًا.

- يكتب لي أن سواكن هي شبه جزيرة مستديرة بالكامل، كما ترى، بالكامل، مثل... مثل لؤلؤة موضوعة على البحر الأحمر. هل تستطيع...

- تخيّل هذا، نعم، نعم أستطيع سنيورة. لا بد أن هذا جميل جدًا.

- أوروبا كلها لها أعمال تجارية هناك! الإنجليز، الألمان، الفرنسيون، الإيطاليون، ثروات الساحل السوداني، لو أقول لك...

- أستطيع تصور هذا سنيورة.

- أفريقيا، منذ قناة السويس، أفريقيا هي... آه ستيفانو، هذا مفترق طرق، إنها خلية.

- طبعًا، طبعًا سنيورة لكن قولي لي، الموريتا، ألا تخافين..

- من ماذا؟ بأن تهرب عند وصولها هناك؟.

- آه.. لا.. ما أريد أن أقوله...

- تهرب لتذهب إلى أي مكان؟ لا تعرف حتى اسمها!

- ما أريد أن أقوله، هو...

- عندما أراد القنصل مساعدتها للعثور على عائلتها، لم تعرف حتى اسم قريتها، ليس لديها أي حِس عائلي.

- فكرتي في الألم الذي تشعر به لاضطرارها العودة إلى السودان.

- السودان أو هنا... هو نفس الشيء، سوف تعتني بالصغيرة!

- سنيورة، يمكنني أن أسألك شيئًا واحدًا... سأكون آسفًا إن لم أسأله... قولي لي... ألا تريدين تعميدها؟

- أُعمد الموريتا؟ قبل السفر؟ أنا أحبك ستيفانو... أنت مؤمن بالخرافات، لكني أحبك. سوف تكون الشخص الوحيد الذي سأندم عليه في هذا البلد من الأميين التعساء.

يصدر المطر صوتًا مكتومًا على أوراق المجنوليا وزجاج الصالون، وسريعًا ما تصبح الحديقة ضبابية ولا يوجد أفق. يعود الرعد من الجبل مثل وحش كسول. واكتسح الظلام المكان فجأة.

ستيفانو يسمع بَخيتة وهي تسير في الممر، وفي يدها الصغيرة ميمينا وأصواتهما متداخلة، واحدة صوتها منخفض جدًا والأخرى هش، مثل غناء حميم. يشعر كأنه والد جُرد من أبوته. يشعر أنه جبان ودون حقوق. وحزين جدًا. أخرجت ماريا دفاتر الحسابات، وخطابات ستيفانو، والنشافة، والحبر والريشة. ينظر إلى الأعمدة والكتابة الرفيعة التي تُقرأ بصعوبة، والتواريخ والأرقام، وبصوت باهت، يقول:

- سنيورة، يجب أن أقول لكي، جيوسبي، ابني، يحاول تعليم الموريتا القراءة. بعض الحروف. ليس أكثر. هذا مهم.

- بعض الحروف من كتاب الدين؟

- لا. من الأبجدية.

- أنا ألاعبك!

أراد أن يضع في المحفظة الجلدية الصغيرة ميدالية للعذراء، لكنه لم يفعل. بدلًا من ذلك، يضع حفنة من تراب أرض إيطاليا، عميقة وغامقة، هذه الأرض الكريمة والملعونة. كان بودّه أن يكتب لها رسالة يخبرها فيها أنه يحبها كابنته. هذه الكلمات فقط، ثم ربما بعضًا من ذكرياتهم، في منزله، حول المائدة العائلية، الأطباق التي تكتشفها، والتي تُحضرها، ضحكتها التي تقدمها لهم، وهذه الليلة عندما عزف على البيانو وصفقت بقوة وهي تتبع الموسيقي. انفجرت شيارا في الضحك، وإذا بأختهم الصغيرة الموريتا تتوقف فورًا عن التصفيق، وهي مليئة بالخجل. فلعب

بشكل أسرع وبنظرة إلى كليمنتينا، فهمت وصفقت هي الأخرى، ودفعت أولادها على عمل الشيء نفسه، والكل ضحك على عدم اللياقة هذه. لم يصفقوا أبدًا، من قبل، بهذه الطريقة. المارش التركي لموزارت. كان سيكتب لها عن الفرحة التي جلبتها إلى بيته، والاحترام الذي كان يكنّه لها، كل ما رآه وما كان يتهرب منه: عندما كانت تسحب يدها من سروالها لإخفاء ندوبها، وتعرج بطريقة مفاجئة، وعندما كانت نظراتها البطيئة والرصينة تتوقف على أطفال الشوارع، القذرين والعنيدين، وعندما كانت تهمس لميمينا بكلمات غير مفهومة، وعندما كانت تلتقط الحجارة التي كانوا يرمونها بها، وتنظر إليها، ثم تضعها من جديد على الأرض... لديه الكثير ليقوله وليكتبه. لكنها لا تعرف الكتابة ولا القراءة. فيضع المحفظة الجلدية في يده، ويأخذها في حضنه مع عدم كفاءته المباغتة، ولا تهتم البرونا ميكيلي، ويهمس في أذنها: "سأصلي من أجلك كل يوم"، ويعمل هذه الإشارة السريعة على جبينها. ليباركها. ثم يذهب وهو تعيس مثل كلب.

هو المتحمس السعيد، والوجه المعروف محليًا، ويعود إلى منزله ويعرج دون قصد مثلها، قَدَم هنا، وقَدَم هناك. ويفكر في هذه القارة الأفريقية التي على عتبتها يُداس الكل مثل الأطفال أمام شجرة الكريسماس، وفي الأغلب كلهم تجار أكثر منهم مبشرين، بينما سيظل هو مع فلاحيه فاقدي الأمل. ثم فجأة، يأخذ طريقًا آخر، ولا يعود إلى منزله. يصعد على الدرجات الخشب الضيقة والمتربة، ويجلس وراء الأرغن، ومن أجلها،

لأخته الصغيرة، ابنته تقريبًا، يعزف الـ (Ave Maria) (السلام لك يا مريم). يعزف هكذا لمدة ساعة، ساعة بطيئة ورصينة حتى لا يسمع صوت العربة التي تأخذها إلى المحطة، ولا يفكر في القرية التي تنظر إليها وهي راحلة. هذه الحياة التي تنتهي. يعزف، دون التفكير في شيء، وفجأة، يعرف. أنه سيظل يعامل كشخص غريب الأطوار وشاذ السلوك، وهذه ليست مشكلة كبيرة، وسيعتبر حالماً ومثاليًا. وقد يكون هذا صحيحًا. كل يوم سيأتي إلى الكنيسة لعزف الـ (Ave Maria). كل يوم. وسوف يكون هذا نداؤه، لكي تعود. لأنه الآن يعرف. أنها سوف تعود.

إنه السودان. مقدمة السودان، إنها أرض منفصلة عن الأرض، تَتابع بين الصحراء والبحر. باب أفريقيا، جزيرة يتوقف فيها الحجاج الذاهبون إلى مكة، من الناحية الأخرى للبحر الأحمر، البحر الذي يُخلع منه المرجان بشواطئه التي غزتها المراكب الشراعية البائسة والسفن العملاقة. فأنت تسافر إلى الهند أو الأمريكتين، تتحدث العربية والتركية، والمصرية والإنجليزية، تتحدث كل اللغات ولكن الأهم أنك تتحدث عن المال، فهناك مدنيون وعسكريون، حكام، ولصوص، رجال عصابات وبيوت دعارة، ومقاهى، وعلى امتداد الشوارع وامتداد اليوم، الأسواق. والجميع يبيع، وكل شيء يباع، الرجال، والصمغ العربي، وريش النعام، والفحم، وقرون الفيلة، والكوبال والبخور، والثروات التي تُكتشف، والتي تُصدر. يمكننا الاعتقاد أن العالم ينفتح، يتلاقى ويكبر. لكنه ينكمش، يُشرذم ويُجوف.

تصل بَخيتة إلى السودان في سبتمبر 1886، بعد عام ونصف من تركها له، ويتم إحياء جميع الجروح، إنها أرض الأجداد، وأرض أمها، وأرض لونها، ولغتها واسمها. إنه البلد الذي عبرَته ولا تتعرف عليه على أي خريطة. البلد التي نجت منه ولكنها لا تستطيع العثور فيه على أي شخص. ومن نوافذ الفندق في سواكن، تنظر إليه، ها هو، بلدها، قابع أمامها، بعيد وقريب بشكل رهيب. أثناء النهار، تضيع شواطئ الساحل في الضباب،

والرطوبة تحوم والسماء الثابتة لا تظهر أي شيء. بلدها عميق ومُطوق. بلدها صامت. في الليل تحجب المدينة المضيئة النجوم أكثر من اللازم. سواكن، لا تستريح أبدًا، الجزيرة صاخبة ومشغولة دائمًا، مخمورة وخطيرة، وتختلط صرخات القرود بصرخات الرجال، ويبدو وكأن الجميع يضحكون. النجوم غائبة، فقط القمر يبقى ويضيء، وضوؤه أقوى من بريق المدينة. وتتكلم بَخيتة معه.

وهي في هذا الفندق الضخم وكأنها في بلد يغيب عنه القانون، وهي تعرف فراغ هذه الحياة التي تحيا على الربح، هذه الحياة دون روابط، ودون مرسى ماعدا دفاتر الحسابات وخزينة الفندق. هي لا تعرف ما يجب فعله "بالإكرامية" التي يُعطيها لها الرجال الذين تقدم لهم الكحول والقهوة التركية. إنها لم تعرف أبدًا ماذا تفعل بالمال. تركت في زيانيجو "الإكراميات" التي أعطوها إياها ضيوف ميكيلي التي كانت تخدمهم في ليالي حفلات الاستقبال. كانت تشكرهم وهي تخفض عينيها، وتضع القطع المعدنية مع الملابس، في خزانتها، ثم تنساها. سمعت ضيفًا يسأل أوجستو كم من المال دفع للحصول على هذه الزنجية، وشعر، هو، بإحراج وحياء. لا، لن يتحدث عن هذا الإنقاذ، لا يمكنه التحدث... وساد الصالون هذا الاتفاق الضمني والإعجاب الذي يشعر به المجتمع الراقي تجاه الرجال الأثرياء والقليلين الكلام عن أنفسهم.

لا تغادر الفندق، كما يريد برون ميكيلي، ولا ترى شيئًا من الجزيرة. يقال إن جمالها يعادل قذارتها، وخطورتها تعادل قوتها،

وهي لا تزال متوحشة رغم المساكن العالية للتجار الأغنياء، ويقال أيضًا إن الشمس تغيب على البحر كما لو أن يد الله تغوص في الأمواج، وتظهر ألوان لا يمكن وصفها. ويتحدثون عن سواكن كما لو كانت حيوانًا حيًّا، يُخشى منه ويروض. يتحدثون عن الحجاج بالخرق، وعن البنادق المهربة، والسيوف الحادة والوحوش البرية التي تدخل إلى البيوت ليلًا. يتحدثون عن الأشباح، والأربعين عذراء، والعبدات الحبشيات اللواتي حملن من الجن، وبناتهن الأربعين اللواتي أسسن المدينة، ويطاردن القصور. يتحدثون عن أساطير مفقودة ومستقبل مثمر. الشر والبؤس يسودان.

تتذكر الجزيرة، والصغير إنديرا في حضنها، في هذا الفندق الصغير المؤقت، ورائحة الإبل والجلد، والبول وعشب البحر، وهذه الرمال التي أحضرتها معها، إلى جنوى بعد أيام الصحراء. تتذكر الكلاب البرية ومعاركها على الشواطئ الموحلة للميناء. الفتيات دون الأحجبة أمام الفنادق الصغيرة، بعيونهم الفارغة مثل سموات انقضت. النساء اللواتي يبعن السمك القديم إلى الوحدة، والمجذومين الجالسين تحت أشجار النخيل، بالقرب من سلال التوابل والشُعب المرجانية المجففة. تتذكر كل السودانيين الذين أُقلعوا من أرضهم.

عندما لا تخدم في الحانة، تأخذ ميمينًا في نزهة إلى الحديقة، وهذا يذكرها بالحرملك، هذه المدن المغلقة، أبراج الحمائم، ومداجن الدجاج، والجدران والشرفات، وبنايات

العبيد. هنا أيضًا، يذهب الخدم إلى الفراش في الليل في هذه المنازل الصغيرة المنخفضة والغير مختلطة، حيث الأطفال عيونهم كالعجزة ولديهم رغبة في الراحة. تنظر إلى الفتيات السمينات، والصبية الصغار جدًا، المستسلمون والحزانى، والذين قيل لهم إنهم محظوظون، لأن لديهم أسياد. وسقف. ووعاء يأكلون فيه. ومياه. والذين قيل لهم أن يتصرفوا بشكل لائق وخاضع. وهي تعرف، بدون النظر إليهم، ما فقدوه جميعًا، والشعور بالوحدة الذي سيعانون منه إلى الأبد. لأنها مازالت معها، موجودة، وسليمة، وأبدية. هذه الوحدة. بَخيتة لم تعد تُضرب. لم تعد تذهب للنوم في بناية العبيد. ولكن في داخلها مثل الوتد، زُرعت حاجتها لشيء آخر، ضوء آخر، قليل من هذا الحب الذي تلقته من ستيفانو وكلمنتينا، والذي رغم اختلافه عن طفولتها، كان له نفس الإيقاع الموسيقي. إنها تضع أيديها في جيوب مريلتها، بينما تود أن تمدهما بسخاء وبكل قوة شبابها. الليل عائق، بالرغم من أنها تعلم أن هناك ضوءًا قريبًا، ولكنها لا تستطيع أن تستدير إليه. لم تنس أبدًا صوت تعزية الأرض التي أخبرتها أن ذلك لم يكن عدلًا. أن تكون عبدة هذا لم يكن عدلًا ولم يكن بسبب خطيئتها. إذًا، فهناك بالتأكيد شيء آخر ينتظرها.

من عند النافورة الصغيرة في وسط الحديقة، ميمينا تنادي عليها. تصرخ "ماما!" وبَخيتة ليس لديها وقت لتوبخها "يجب قول بَخيتة!! لا ماما!" فالفتاة الصغيرة اندفعت بالفعل في حضنها. كلتاهما تضحكان، من السعادة والمفاجأة. تمشي ميمينا للمرة

الأولى! قامت بخطواتها الأولى للالتقاء بمربيتها. وتتخلص الطفلة من ذراعيها. تريد أن تبدأ من جديد. وتبدأ مرة أخرى، تقع وتنهض، تبكي وتضحك، تتسخ، تدوس على الزهور وتخيف القطط. إنها لا تخاف من أي شيء، ترى العالم وهي منتصبة. تبتسم لها بَخيتة وهي تعلم، أن اليوم صغيرتها ميمينا تعلمت المشي. وقريبًا، سيكون عليها أن تناديها "بأليس". ولن ترتكب أليس هذا الخطأ أبدًا وتسميها "ماما." صوت المؤذن له صدى في السماء مثل أمر أجش وراقص، وتنظر بَخيتة إلى الصغيرة وتعرف أنها لن تكبر هنا. "أليس" سوف تذهب إلى المدرسة مثل كل الأطفال البيض. سوف تخرج من الحديقة وستغادر سواكن. وهي؟ أين ستعيش؟ من سيمتلكها؟ تنظر إلى هذه الطفلة الصغيرة التي أنقذتها من الموت والتي تُغرق يديها في ماء النافورة، منتصبة وفخورة على ساقيها الصغيرتين. إنها مليئة بالنشاط وبالسلطة التي تمنحهما اكتشاف الحرية لأول مرة.

تعيش هكذا تسعة أشهر، في هذا الزمن الغير مؤكد، وهذا الفندق العابر. وعلى الرغم من جمال سنواتها الثماني عشرة، ولون بشرتها، لا يلمسها الرجال الذين تخدمهم. إنها تُخفض عينيها أقل. وعندما تكتشف نبرة الإهانة في صوتهم، تنظر إليهم فقط لفترة قصيرة. تجرؤ أن تفعل هذا، لبضع ثوان، ولا يوجد في عينيها تحدٍّ أو غضب، ولكن الرجال الذين يحاولون فعل أشياء في غير مكانها تقول لهم فقط بنظرتها: "أعرف هذه الأشياء مقدمًا." وهي تظل لغزًا للجميع. هذا الخضوع الممزوج بالقوة.

هذا ما يثير الفضول، وكأن هذه العبدة، هذه البَخيتة، ليست في مكانها. سيدها مسيحي، وبالتالي لن تكون أبدًا زوجته أو خليلته، ويبدو أنه ليس لديها أطفال منه. تُرى وهي تعتني بصغيرة السيد، وأحيانًا عندما تخدم في الحانة والصبية بين ذراعيها، مثل قرد على فرع شجرة. هذه العبدة لديها مكانة خاصة، تتحدث قليلًا وصوتها عميق مثل الكهوف المظلمة، إنها نادلة في حانة وتتصرف ببطء الذين لديهم ثقة بأنفسهم كبيرة. إنها تتهرب من الرجال وتهتم بالأطفال. وتعطيهم دائمًا قطعة من الخبز، أو ثمرة من الفاكهة مخبأة في جيوبها، وأيضًا، وتعطيهم حنانًا من يد موضوعة على رأسهم، أو تلامس خدودهم. وتنبهها سيدتها، إن هؤلاء الأطفال معدمون، ويأتون في حديقة الفندق بتسولهم وأمراضهم الجلدية، ويلتصقون أمام البوابات مثل الذباب على العرق. يطردهم البستاني، ويعودون، لأنهم جائعون، وإطعامهم هو العبث نفسه، لأنهم يتكاثرون بالسرعة نفسها التي يموتون بيها.

تعيش بَخيتة في وقت غير مؤكد، لكن الزمن يتقدم، ورؤساء العمل مشغولون ويقومون بإجراء الحسابات، وهذه الحسابات، يومًا ما، سوف تتنتج عن نتيجة يعملون من أجلها نهارًا وليلًا. إنه النجاح. لا يخبروها بأى شيء، ولكنها تشعر، وترى، وبفهمها القليل للفينيثي، تتفاجئ بكلام بين ماريا وأوجستو. هناك في الجو تحركات من الذعر والأمل، وتغير للحياة تمهده الفرحة العصبية للقرارات الكبيرة. وتشعر ميمينا بذلك أيضًا، ومهما قالت البرونا إنه فقط لأنها تُسنن، فإن بَخيتة تعلم أنها لا تبكي

لهذا السبب في الليل. إنها الكوابيس. إنها تدرك هذا لأن كوابيسهما واحدة. كوابيس في وسط رمال عالية، وكثبان رملية تحيط بهما مع أوتاد من الخشب مزروعة من حولهما، ولا يمكنهما الخروج أو رؤية الأفق، تقفان هي وميمينا، على الحواف المطوقة، وتبقيان بلا حراك. قلقات وغير متأكدات.

ثم في يوم، يأتي دور الحقائب. هذه الأفواه المفتوحة التي تمتلئ بملابس السيدة وميمينا. تعودان إلى إيطاليا، لبيع الضيعة ثم العودة، والأمر الآن نهائي: عائلة ميكيلي سوف تستقر في سواكن. وبالطبع، كانت بَخيتة قد شكِت في هذا الأمر. فإن الفندق ممتلئ دائمًا، والبرون ميكيلي سيدة الموقف، لم تعد الغريبة التي كانت تسخر منها زيانيجو، فلن تكون غريبة هنا، فالغريب هو الأفريقي، وجميع الآخرين في مكانهم. ويستيقظ قلق بَخيتة. فهي عاجزة ومصممة، إنه صراع بين خوفها وبقائها على قيد الحياة، وكما أنها توسلت للقنصل لتسافر معه، تطلب من برونا ميكيلي أن تصطحبها معها إلى إيطاليا.

- غالي جدًا يا بَخيتة.

وتقدم البقشيش الذي معها. وتنفجر ماريا من الضحك. فتركع. وتصرخ ماريا.

- لا تفعلي هذا!

تنهض، وتقبل يديها. تتلقى صفعة. هي الأولى من برون ميكيلي. من بضع سنوات، كانت لن تشعر بالإهانة من هذه الصفعة، البدايات العادية لضربات السوط والشتائم. ولكن

اليوم، هذا العنف يأتي ليبلبل حياتها ويذكرها بأنها أقل من خادمة، عبدة. وعلى الفور، بعد الصفعة، هي وماريا تقومان بنفس الحركة، تنظران إلى الحديقة حيث تلعب ميمينا. الصغيرة لم ترَ شيئًا، وهي جالسة وتدير ظهرها. لكن هذا هو المحك الحقيقي. الطفلة. تريد ماريا أن تسافر بمفردها مع الطفلة. يمكنها تركها لمربيتها وتفادي عبورين مُرهقين، لكنها تريد أن تعيش ذلك، تريد أن تكون وحدها مع ابنتها. ترى نفسها منتصرة في زيانيجو، وطفلتها على ذراعيها، أو أفضل من ذلك، تمسك يدها وتسير إلى جانبها. هي تحب بَخيتة ولكنها مستاءة منها، مثل الكائنات الضعيفة التي تستاء من الذين يدينون لهم. تنظر بَخيتة إلى ميمينا التي تلعب بطبلتها الصغيرة. تُخفض عينيها وتقول:

- ما تفعلينه أمر جيد، برونا.

تسافر الباخرة إلى جنوى في 21 يونيو 1887. تطلب ماريا من بَخيتة حمل حقائبها وإيصالها إلى الميناء. عندما تخرج من الفندق، تجد عنف المدينة، التي تعج بكثير من الحيوات المخيفة والبؤس العاري المليء بالتهديد والقوة، وضوء السماء الشديد يحرق النظر والبحر يجذب العين مثل قطعة من الفضة تم تسخينها في الشمس. وما وراء الشوارع المزدحمة والقصور العالية، أراض شاغرة وحقول قاحلة، ووحشية الأماكن الغير مستغلة. هناك مقابر منسية وعنابر مهجورة، وهياكل قوارب، وودائع من الفحم، وخاصة ذكرى آلاف العبيد الذين عاشوا في زمن كثافة تجارة الرقيق، وتشعر بَخيتة بالأرض ترتجف من ذلك، ومن حياة الرجال المسروقة. عبيد ذلك غير عادل.. غير عادل.. غير عادل... تسير وراء البرونا التي تحمل ابنتها في حضنها، مرتدية ملابس بيضاء، كما الاحتفال، وهذا مؤسف. هل تتجاهل البرونا أن الفحم سوف يجعل هذه الملابس الغير مناسبة، تتسخ؟ وهي ترتدي أيضًا ملابس بيضاء، كأنها عروس تمسك في ذراعيها طفلة تم تعميدها. وتتحدث ميمينا، من على أكتاف والدتها، إلى بَخيتة، بكلمات وقبلات وحركات بوجهها، وبَخيتة تلوم نفسها لأنها لم تخبر الصغيرة أنهما ستفترقان. من الواضح أنها لم تفهم. وهي تعرف ما سوف يعنيه ذلك. أن تترك الشخص الذي تحبه. لقد أمضت الليل تراقبها وهي نائمة وتتحدث إليها بصوت منخفض.

وعند الوصول إلى الميناء، يحدث الاحتكاك بالفوضى والوحشية كالمعتاد، كما لو أن كل فرد سيفقد مكانه، ليس على الباخرة فقط ولكن أيضًا في العالم، كما لو أن حياتنا تُلعب الآن، وذلك ربما لأننا نقول لبعضنا البعض إلى اللقاء، أو وداعًا، ونواجه هذا التمزق الذي يرتج بسببه رصيف الميناء وسطح الباخرة. بَخيتة لا تعرف إذا كانت البرونا ستسمح لها بأن تقول إلى اللقاء لميمينا، وتترك عبدة تقبل طفلتها على الملأ. تعطي بَخيتة الحقائب للحامل. وتستدير ماريا نحوها بطيبة، فهي تود أن تظهر كسيدة عظيمة ليس عليها أي لوم.

- أنت مسؤولة عن الحانة، هيه، موريتا؟

- نعم، برونا.

تحاول ميمينا، من على ذراع والدتها، التقاط قبعة بَخيتة، وبَخيتة تتراجع قليلًا، بينما تريد التقدم إلى الأمام وحضنها.

- ميمينا، قولي إلى اللقاء لبَخيتة!

ميمينا تفتح وتغلق يديها الصغيرة.

- أرسلي قبلة!

ترسل ميمينا قبلة، وتستدير والدتها وتمشي بعيدًا، لم تعطي لبَخيتة إمكانية تقبيلها. وتراقبهما وهما تختفيان في الحشد، وتظل هنا، مستقيمة وغبية، يدفعها المارة، يشتمونها، لم تعد تميز أي شيء أو أي شخص في حرارة تكاثف هذا الحشد، تُدفع، يُطلب منها التحرك بعيدًا، وهي تشعر فقط أن قلبها سينفجر، وأن جسدها يترنح تحت أشعة الشمس الخام،

وفي وسط هذه الوحشية، تسمع، فجأة، الصرخة التي تعرفها. ميمينا تصرخ. وتتذكر أغاني الانفصال العديمة الفائدة، وجميع النساء اللواتي رأين صغارهن يذهبن، وهي مثلهن، صامتة ودون حق، ولكن صرخة ميمينا تتضخم، وسرعان ما تسمع أيضًا سعالًا، ثم اختناق الغضب، والذعر الذي يجعلها تشهق. وبَخيتة تمسك صدرها وتتألم هي أيضًا.

- نزوة! هذه نزوة.

وكأن البرونا ميكيلي زُرعت فجأة أمامها، وميمينا تلقي بنفسها في أحضانها.

- نعم، برونا، نزوة.

وتضغط بَخيتة على الصغيرة لدرجة أنها تبدو كما لو أنها سوف تستدير وتهرب بها.

- إنها أصبحت متقلبة جدًا!

يُسمع نبرة عتاب في صوت البرونا، وخوف وسؤال لا نهاية له: والآن ماذا أفعل؟

- ليس لدي المال للرحلة.

- نعم. برونا.

- ليس لدي تذكرة لك!

- لا. برونا.

- وليس معك حقيبة.

- لا يهم... برونا.. الحقيقة.

ميمينا، المُنهكة والواثقة، تغفو الآن في حضن بَخيتة. أخيراً، لم تعد تسعل، وانتهى الاختناق. يملؤها العرق وثوبها الأبيض ملطخ بالفعل. تدرك بَخيتة الخوف الرهيب للبرونا، ولكن هي لم تعد تخفض عينيها، بل تتوسل بنظرتها، ويتدفق العرق من شعرها إلى عنقها، ومن عنقها إلى ظهرها. تنظر ماريا إلى ابنتها. ثم، مثل إنسانة مهزومة، تهمس:

- من الصعب إيقاظها.

وهكذا وضعت بَخيتة قدمها على ممشى الباخرة. تمسك في حضنها الفتاة الصغيرة المتقلبة، التي، بدون أن تعي ذلك، فعلت للتو ما فعلته هي من أجلها منذ عام ونصف حين أنقذت حياتها.

في الصباح والمساء، راكعات عند أسفل السرير، تقرأ بَخيتة الصلاة مع ميمينا. أصرت برونا على ذلك. لقد جعلتهما تتعلمان (Ave Maria)، (Pater Noster) (أبانا الذي في السموات) والـ(Gloria). باللغة اللاتينية. بعد عرض البيع للضيعة، والبيت، والأثاث، والحيوانات، تساءلت كيف سوف تكبر ابنتها في أفريقيا. تشاورت، في زحمة البيع والمشاغل، مع الطبيب والكاهن. أوصى الطبيب بجرعة من الكينين في الصباح والكاهن بالثلاث صلوات الأساسية، مرتين في اليوم (Gloria)، (Ave Maria)، (Pater Noster). بالتكرار، ودون فهم كلمة واحدة، تتعلم بَخيتة الصلوات بعناد، وليس فقط الصباح والمساء، ولكن تكررهم أيضًا طوال اليوم لتتذكرهم. يقولون، في زيانيجو، أن الموريتا أصبحت متدينة، وأنها ليست معمدة لكن متدينة، لا يستطيع أحد مقابلتها دون سماع الترنيمات: (Pater noster, qui es caelis)، (Gloria in excelsis Deo) أو (Ave Maria gratia Plena). لم يعد أحد يقذفها بالحجارة، ويرسمون ببطء علامة الصليب على طريقها ويهمسون أنها معجزة، وحتى ماريا ميكيلي، لم يعد ينظر إليها بنفس الطريقة، ويكادون يحبونها، هذه الغريبة، خاصة وهي على وشك السفر ولن يرونها مرة ثانية. لا تعرف بَخيتة لماذا تطلب البرونا قول هذه الكلمات في الصباح والمساء، ولكن على الرغم من صعوبة تذكرهم بدون فهمهم، تحب هذا الطقس

الذي يتفق مع تأملها للنهار القادم ولبوحها لليل. ثم، هناك الصوت الرقيق للصغيرة ميمينا التي تعلمها شيئًا، وتواطئهما الذي يزداد قوة، مع الجهد والضحك الممنوع، الممنوع أي نعم، لأن هذه الكلمات تبدو رصينة، ويجب تكررها أمام البرونا بجدية شديدة، وهي تستمع إليهما بضجر واستياء.

وللغرابة، فإن ستيفانو لم يتأثر بذلك اطلاقًا. فعودة بَخيتة كان بمثابة صدمة مزدوجة، صدمة المفاجأة والإلهام. إنه لم يعزف، كل يوم، عبثًا، في زيانيجو، (Ave Maria)، على أورغن الكنيسة. لقد صلى من أجلها، بطريقة مكثفة، وارتباطهما وحبه لها كوالد لابنته لا يتغير. لكنه صدم لسماعها تكرر دون فهم الكلمات المقدسة للصلوات. فمعنى ذلك أنها من الممكن أن تكرر كل ما نريده، دون أي شرح، مثل كلب علمناه بعض الحيل؟ يعتقد أنها تستحق أفضل من ذلك، ويشعر بالغيظ لأنها لا تفهم من اللغة الفينثية إلا كلمات الحياة اليومية. في ليلة، تحاول كليمنتينا، أن تهدئ من روعه وربما تجد حلًّا لمعاناته:

- ستيفانو يجب أن تكون سعيدًا.

- أفرح؟ وأنا أسمعها تكرر دون فهم؟ تقول "sed libera nosam lo" بدلًا من "nos a malo". A malo, كليمنتينا! A malo (الشر) الشر تعرف ما هو، وهي لا تعرف كيف تنطقه!

- لا يجب أن ترى الأشياء، بهذه الطريقة؟

- يؤلمني سماع هذا! نعم، الشر! A malo! A malo!.

- أهدأ. من الأفضل أن تستغل عدم تواجد الميكيلي كثيراً لتتحدث مع أختنا الصغيرة.

- وما هو المطلوب مني. هاه. اترجم من اللاتينية إلى الفينيثية؟ هل تسخرين؟

تذهب كليمنتينا إلى الخزانة، وتأخذ شيئًا صغيراً للغاية تعطيه لزوجها.

- أعطيه لأختنا الصغيرة موريتا.

ينظر إلى زوجته، مندهشًا، ويهدئ فجأة.

- أنتِ متأكدة.

- أنا متأكدة.

- ألن تفتقدينه.

- لا، بل سأكون سعيدة.

- لكنه هدية من والدك.

- ستيفانو اسمع كلامي. على الأقل مرة.

ينظر إلى بَخيتة، وهي جالسة في الحديقة، تراقب ميمينا، والطفلة تلعب مع مليا وشيارا عند أسفل شجرة البلوط الكبيرة. كبرت كثيراً الصغيرة "أليس"، ولكنها لا تزال نحيلة، وهشة، ولكن في داخلها قوة الحياة، وهي فرحة جدًا لدرجة أنه يتم التعرف عليها من ضحكتها، فضحكة ميمينا مثل خطوتها، تعلنان عنها. لديها فرحة الأطفال الذين لا يخافون، والمحميون دومًا.

بعد ظهر ذلك اليوم، تراقبها بَخيتة، وهي تحيك سترة، لأنها

لا تجلس أبدًا دون أن تشغل نفسها بشيء، ويرى ستيفانو أنها تشبه كل المربيات الصغيرات للعائلات البورجوازية في زيانيجو، لولا لونها، وهدؤوها، الذي تفتقده الإيطاليات الشابات، وأيضًا لكي يكون صادقًا تمامًا، غموضها. نظرتها بطيئة وحزينة مثل النساء اللواتي لا تعرفن اللامبالاة، ابتسامة عميقة، ذات طيبة تأتي من الأعماق. وجمالها لا يجذب الشباب الإيطاليون، وسوادها حاجز طبيعي. ولا تبدو الموريتا في وسطهم فتاة غريبة. هي الغرابة نفسها. ويجلس إلى جانبها، فتترك له مساحة وتشير إلى ميمينا:

- سعيدة!

- نعم. سعيدة الصغيرة ميمينا. سعيدة جدًا...

تلقي عليه نظرة متحفظة ومتسائلة، فقد شعرت بحرجه، ولا يمكن إخفاء شيئًا عنها، هي تعرف دائمًا. بالطريقة التي يجلس بها، وبنبرة صوته، تفهم. لديه شيئًا يريد أن يقوله لها. تنتظر. صبرها يأتي من عصر آخر، ويمكن أن يزعج ستيفانو العارم. ويتردد. يشير بحركة صغيرة من يده لبناته، ويستدير نحو الموريتا ويضحك قليلًا، ويده مفتوحة، وكأنه يقول "يلعبن بشكل جيد مع بعضهن. هه؟"، وهذه الطريقة في الإشارة بالطريقة الإيطالية تعلمتها سريعًا الموريتا. ينظر ستيفانو إلى السماء، تأتي السحب من خلف التلال، الطراوة تستقر في رائحة الأعشاب المقطوعة والورود البرية. تترك بَخيتة ما تحيكه وتذهب لوضع سترة على ميمينا.

عندما تعود للجلوس، يمد ذراعه نحوها، وقبضته مغلقة، تتوقف وتنتظر. وهي تنظر، بعدم اندهاش على هذه القبضة المتوترة. فيفتح يده ويقول لها:

- كلمنتينا أعطتني ذلك فكما ترين هذا صليب إنه ربنا يسوع المسيح على الصليب من أجلنا، ومن أجل خطايانا، هو ابن الأب ابن الله ومن خلاله سننقذ جميعًا. وبالطبع أعلم أن برونا ميكيلي ترفض أن أتحدث معك في الدين لذلك عليك أن تحافظي على هذا السر، ولكني لا أستطيع أن أظل صامتًا. إنك تفهمين أنه إذا بقيت في الجهل من الإيمان، أنا أخشى عليك. إنك لم تتعمدي وماذا ستصبحين في النهاية. لا أقول ذلك لأقلق، هذا هو صليب كليمنتينا الذي أعطاه لها والدها الذي توفي، فليرحمه الله، لكنها سعيدة، نعم، سعيدة جدًا، بتقديمه لك.

ويضع صليبًا صغيراً من الخشب والمعدن في يدها. ثم ينهض بحركة مفاجئة ويصرخ بعنف غير مناسب:

- مليا! قلت لك آلاف المرات، ألا تجعلي أختك تقفز على الشجرة. ماما ميا!

تنظر بَخيتة إلى هذا الرجل المنفعل والذي أخبرها لتوه بشيء غير مفهوم وعلى ما يبدو مهم جدًا. شيء لم يستطع الإبقاء عليه لنفسه. وأعطاه لها. سر. هذا هو ما تفهمه. أعطاها سرًا. تنظر إلى الصليب الموضوع في كفها. قال عدة مرات "كلمنتينا". أنه هدية من كلمنتينا. لقد شهدت بالفعل، في منازل الإيطاليين، في مفترق الطرق الصغيرة، وفي المقبرة حيث دفنوا

أطفال برونا ميكيلي، هذا الصليب، مع هذا الرجل عليه، توقفت مرة واحدة أمام محنة حجرية وكان على سفحها باقة ذابلة مكونة من بقعة من الألوان الحزينة إلى حد ما. نظرت إلى الرجل المُسمّر. لم تكن تعرف أن في إيطاليا أيضًا يتصرفون هكذا مع العبيد، وتتساءل لماذا هذا الرجل أكثر وجوداً من الآخرين، والآن تتساءل لماذا هو بالذات في راحة يدها. هل هذا تحذير؟ شيء لحمايتها؟ تنظر إليه ثم تضع أصبعها عليه، الصليب الصغير من الخشب والجسد من المعدن، نحيل جدًا، ووجهه مقلوب. ترى هؤلاء العبيد الذين كان يتم تسميرهم على الأشجار لمعاقبتهم أو حتى لا يستفيد منهم أحد. هذا الرجل أبيض. إنه إيطالي. تجهش في البكاء. لقد تخلت عن ذويها. كيشمت لن تنقذ أبدًا، وبيناه ماتت ربما من وقع الضربات، أو محبوسة في حرملك. تسيل الدموع على وجهها، وهي الخادمة التي يُغذوها جيدًا. تقسم أنها عند العودة إلى سواكن، بما أنهم سيعودون قريبًا، سوف تساعد شعبها، لا تعرف كيف ستفعل ذلك، ولكن سوف تفعل شيئًا آخر غير أن تحب ميمينا وأن تبادلها الصغيرة الحب. شيء آخر بخلاف خدمة الرجال في الحانة وإعطاء قليل من الخبز للأطفال من بوابة الفندق. تبلغ من العمر التاسعة عشر، وهي راشدة منذ سنوات عديدة! لا تفعل أي شيء لتعيد قليلًا مما أُعطي لها من حياتها المحمية. يعود ستيفانو بجانبها. ينظر إليها ولا يستطيع منع نفسه من تقبيلها. قبلتان تُترقعان من الامتنان على الخدين الرطبين لأخته الصغيرة موريتا.

- "غلفها النور!" سوف يقول في المساء لكليمنتينا.

- النور؟

- أنا أقول لكي هذا! وجدتها غارقة في البكاء، وتمسك صدرها بيد وصليبك باليد الأخرى!

- كل شيء! قلت لها كل شيء!

- وهي ماذا قالت؟

- هي؟

- نعم... هي؟

- هي... بكت، لم تتحدث، بكت وهذا كل شيء! جاءها الوحي.

لم يأتها الوحي. إنه حس باطني، ونذير على الأكثر. وهذا الشعور، من جديد، من أن تكون أمام باب لا تستطيع فتحه. وهذا الشيء الذي لا تعرف ما هي وظيفته، وتخفيه. هذه هي المرة الأولى التي تخفي فيها شيئًا، ويكون لديها هذا الإحساس بالتملك. إنها متأكدة أن البرونا ستأخذه منها، ولا يمكنها شرح هذا الشعور، فقط تعرفه، وهذا يكفي لإخفائه مع شيلانها وإخراجه حين تكون ميمينا نائمة. تُخرج العبد المصلوب وتتحدث إلى الليل، لكن الليل لا يجيبها. ويدوّي في الليل غناء الضفادع، وعراك السكارى وصهيل الخيول في الإسطبل تحت نوافذها. سيتم بيع الخيول قريبًا. مثلهم مثل الممتلكات وكل الأراضي. سوف تترك كل هذا. هذه إيطاليا الفقيرة جدًا، حيث لا يعيش الفلاحون أكثر من خمس وثلاثين سنة وحيث يهرب الشباب بشكل جماعي إلى بلاد أكثر بعدًا من السودان. وقد شرح لها ذلك،

جويسبي، الابن الأكبر لستيفانو. وضع، كما فعل القنصل، ورقة كبيرة بالأراضي والبحار، وحاول تعليمها القراءة، عن طريق الأحــرف المختلفــة للبلاد. اختبار صعب جدًا، فهـي لم تحفظ الـ (A) "الألف" لأستراليا، و"الباء" (B) للبرازيل و"الـسيه" (C) لكندا، وهي أراضي منفى للإيطاليين الذين لا يجدون عمل. وهي سوداء بلون الحبر ولكنها لا تعرف الكتابة. ويتحدث من حولها الجميع لغات جديدة، وكلماتها مثل البلاد على الخريطة، متغيرة وبعيدة، ولا يمكنها الربط بينها وبين المشاعر التي تسكنها، ومن ثم تغلق على نفسها في عدم اليقين هذا.

نحن في شهر أغسطس، والبرونا مزاجها سيئ للغاية، ويأتي ستيفانو تقريبًا كل يوم لإتمام صفقة بيع الضيعة. والمساومات لا تنتهي مع المشتري، وكل شيء يخضع لإعادة نظر بصفة منتظمة. تفقد ماريا أعصابها وترسل تلغرافات إلى أوجستو، الذي ينفذ صبره أيضًا هناك، في سواكن. والحقائب جاهزة، والأثاث مغطى بشراشف بيضاء، واللوحات وأطقم السفرة تم بيعها، والنوافذ خالية من الستائر، والأرض عارية من السجاد الملفوف داخل الغرف. والشهور تمر. ويأتي الخريف، ويعترض المشتري كالعادة على مبلغ أو ورقة، ويطلب التعامل مع صاحب الشأن وليس مع المدير المسؤول أو زوجته. والصفقة مهمة، ومبالغ كبيرة على المحك، والمناخ العام متوتر. ويأتي الشتاء مبكرًا، ويعاد وضع السجاد، وإحضار الخشب للتدفئة، ولا تتقدم المساومات قيد أنملة. وفي نهاية العام، في نوفمبر 1888، تقرر ماريا ميكيلي، بناءً على نصيحة ستيفانو، السفر إلى سواكن

لعرض الأوراق على أوجستو وللحصول على توقيعه على الوثائق المستعجلة. والرحلة مكلفة؛ لذا ستسافر بمفردها مع ميمينا، التي سيبلغ عمرها قريبًا ثلاث سنوات والتي تحملت جيدًا عناء الرحلة الأولى. وهي مترددة في مسألة بيع بَخيتة إلى عائلة ثرّية من ميرانو، المدينة الصغيرة التي تتبعها زيانيجو. وبَخيتة معروفة فيها ومُقدرة من جميع الذين قابلوها كثيراً مع ميمينا، هي جادة ومجتهدة، وجوهرة لا تقدر بثمن، ولا تقبض أي أجر، وتعمل حتى في الليل بدون إجازات، ولأنها لا تتحدث جيدًا الفينيثي، سوف تكون بحصافة بومة محشوة، إضافة إلى قوتها الجسدية ككل الزنجيات. وتصرف ماريا النظر عن بيع الموريتا، تحديدًا بسبب هذا الحماس الصريح من البورجوازيات في ميرانو. ولكن ماذا ستفعل بها أثناء غيابها؟

توجه السؤال إلى ستيفانو، الذي لا يصدق أذنيه. هل هي العناية الإلهية تطرق بابه! فقد تحققت صلواته! أخيراً، ستتحرر بَخيتة من نفوذ الميكيلي. ولديه مساحة من الحركة، ويشعر إنه مثل صبي على وشك الإمساك بفراشة نادرة، ويلزم ذلك كثيراً من الدقة والسرعة، وكثيراً من الهدوء والثقة. ويقترح، في البداية، على ماريا إقامة الموريتا في بيته، وكليمنتينا والأولاد سعداء مقدمًا، وستنام مع أصغر البنات، مليا وشيارة، اللتان تعرفناها جيدًا. ولا يطلب مال من أجل الإقامة، وعندما تعود ماريا لتبيع نهائيًا الضيعة، سوف تأخذ جاريتها من عنده وتغادر معها. تجد ماريا الاقتراح مناسبًا. وهي تثق في ستيفانو ثقة كاملة. وتقبل.

لكن ستيفانو لم يقل الحقيقة. وهو لا ينوي استقبال بَخيتة في بيته. كذب ولم يشعر أنه ارتكب خطيئة. والذي فعله شيء سيئ من أجل شيء آخر جيد، لأن ما يريده هذا الرجل التقي والعنيد في آن واحد، هو خلاص أخته الصغيرة موريتا. والمسألة خطيرة، وما تحتاجه بَخيتة أن يعتني بها متخصصون. أناس تكون هذه مهنتهم. ورغم أن جيويسبي علمها تكرار الـ (A) لأستراليا والـ (B) للبرازيل، لكنها لم تكتب حرفًا واحد، ولم تقرأ كلمة واحدة.

أما بالنسبة للصليب، فمن المستحيل معرفة تأثيره عليها، وحين يَتلون الـصلاة قبل الطعام، تنتظر بصبر، ورأسها منخفضة حتى الانتهاء منها، وعلى الرغم من وشم ستيفانو للصليب، بشكل واضح، فهي لا ترى أي علاقة بينه وبين الصليب الذي أهداه إياها. وهو يفعل أكثر من ذلك، ويسخر الجميع منه ! فقد انفجرت بناته في الضحك، عندما قال آمين عند نهاية الصلاة، رسم علامة الصليب بقوة، حتى أنه أدخل كوعه في عين كليمنتينا. متخصصون، نعم، هذا ما يجب فعله. متخصصون في التعليم عامة وخاصة في التعليم المسيحي. ويفكر، على الفور، في الراهبات الخيريات الكانوسيات canossiennes، المسؤولات عن المعهد التقي للمتنصرين في البندقية، مثل تجمعات أخرى من هذه النوعية في إيطاليا. ويقمن هذه الراهبات بإعداد الكبار للتعميد، ويستقبلن الأطفال اللقطاء. أسست الأخت مادلين دي كانوسا، المؤسسة لهذا النظام الكهنوتي، والمولودة مركيزة في بداية القرن التاسع عشر، في معهد البندقية لرهبانيتها في 1931.

والمعهد قديم من قدم صاحبة السمو، وأُسس ليُعلم ويُعمد في "الحقيقة الكاثوليكية" التجار والعساكر الأجانب الذين ينزلون على شواطئ البندقية.

وهنا، في هذا المعهد في البندقية، يود ستيفانو إدخال بَخيتة مقابل بعض المال، أثناء سفر ماريا ميكيلي في سواكن، وحتى عودتها. وهكذا، حين ستعود بَخيتة إلى السودان، سوف تكون على معرفة بالتعاليم المسيحية ويتم تعميدها، ويستطيع أخيرا النوم في سلام. وتستحوذ فكرة التعميد عند الكانوسيات على تفكيره، مثل فكرة التبني، وخاصة أنه يعلم بعداء ماريا ميكيلي لكل ما له علاقة بالدين. ويقرر الكذب من جديد:

- سنيورة، فكرت في شيء... بخصوص الموريتا.

- ألن تأخذها؟

- نعم. بالطبع، نعم، لكني أفكر فيكِ. إنك امرأة تستحقين كل خير.

- نعم.

- أم مثالية، وشجاعة جدًا...

- ماذا تريد الوصول إليه؟

- الموريتا... تساعدك بطريقة جيدة، في الفندق، هناك، في أفريقيا؟

- أخبرتك أنني لن أحمل عبئها في هذه الرحلة، المكلفة جدًا. سأتركها هنا!

- ما أريد أن أقوله، سنيورة، هو إن الموريتا، عندما تعود إلى أفريقيا، سوف تساعدك مجدداً في الفندق. أليس كذلك؟

- نعم! نعم!

- سوف تكبر ميمينا. وستكون الموريتا أكثر فائدة في الحانة.

- بالتأكيد!

- إذاً. صدقيني، إن تزود ببعض التعليم سيكون أكثر من ضروري.

- تعليم؟ أي تعليم؟

- آه... معرفة القراءة والكتابة والعد.

- ما الذي تحتاجه نادلة من معرفة القراءة؟

- في تلقي البريد، والطلبات، والصناديق. فلو أن الموريتا تعرف القراءة، ستساعدك أكثر مما تتصورين.

- اسمع ستيفانو، إنني أعرفك منذ عشر سنوات، فقل لي ما الذي تفكر فيه، لأنه عندي أشغال كثيرة. وأكثر أهمية من معرفة إذا كانت بَخيتة ستعرف يومًا ما قراءة مظروف أو صندوق من الويسكي.

ثم يتحدث ستيفانو عن معهد مريدي التنصر حيث سيعلمون الموريتا، بالإضافة إلى مراقبتها طيلة اليوم، فهي تبلغ من العمر التاسعة عشر ومن المجازفة تركها، ويعلم الله وحده ما يمكن أن يدور في ذهنها، من أفكار الحرية. من يعرف؟ فالشعب ليس خاضعًا إلى هذه الدرجة، والموريتا أيضًا، يمكن أن

تخضع لتأثيرات شتى. وهو يلوم نفسه على هذه الحجة الأخيرة. سمح لنفسه أن يحتد، من جديد. على كل، إذا أصابت الضربة، فهذا هو المهم... لكن ماريا ميكيلي لا تنخدع. فإن كانت حجج ستيفانو صحيحة، فهذا لا ينفي أنه في معهد البندقية، سيتحدث الأخوات عن الدين إلى الموريتا من الصباح إلى المساء، وهي تعرف أيضًا، أن بخلاف الأمور الأساسية للحياة اليومية، فإن الموريتا لا تزال لا تفهم الفينيثي، ويمكنها بالكاد القيام بمشوار وترتيل الصلوات مثل قائمة من الخضروات عليها طاهيها. ومع ذلك، فبقاؤها محبوسة أثناء غيابها، شيء مُغرٍ. تطلب بعض الوقت للتفكير، وسوف ترسل تلغرافًا إلى أوجستو.

وهي توافق، بالرغم من كل الاحتمالات. وستيفانو يفقد صوته ويطلب منها تكرار كلامها. وتكرر. وتوافق على إدخال الموريتا عند الكانانوسيات في البندقية، أثناء سفرها إلى سواكن. لكن هناك شرط وهو أن يقوم هو بكل الإجراءات. والإجراءات كثيرة. فبَخيتة راشدة، ولكن كعبدة ليس لها أي وضع، وليس هناك أي ورقة، ولا حتى عقد شراء، لأنها قدمت كهدية إلى ماريا ميكيلي. ولا يوجد أي دليل على وجودها، بالنسبة للإدارة. وسوف يلجأ ستيفانو إلى أعلى المستويات، ويقوم باستغلال علاقاته المؤثرة، ليدافع عن قضيتها. يتحدث عن ضرورة إهداء الغير مؤمنين، من أفريقيا التي أنقذتها أفريقيا، وهو شعار رائج في هذه الآونة. يتحدث عن الابن الضال، وعن العذراء السوداء. يراسل الأغنياء من علماء الكنيسة وكبار المسؤولين في الإدارة، ويعاود الاتصال بقريبة انضمت أختها إلى الرهبانية، وأخيراً

يحصل على موافقة مُصلي المعهد ويقابل الرئيسة، الأم ليوجيا بوتيتشللا.

لا يشرح أي شيء لبَخيتة. وتكرر مليا وشيارا أنهما سوف يرافقنها إلى الكولجيو (المعهد)، وهي لا تعرف ماذا يعني هذا الاسم. لكنها تعرف أنها ليست ضمن المسافرين إلى سواكن، وستعيش هناك في القريب العاجل، وإلى الأبد. ستنضم إلى الميكيلي. تعرف أيضًا أن ميمينا ستكبر وعندئذ بالتأكيد ستذهب إلى سيد آخر. وإن العيش في زمن مجرد من العنف ليس إلا هدنة في حياتها كعبدة. وتطيع وهي لا تعرف إلى أين يقودونها، وتشعر بشيء من الضياع حتى مع الذين تحبهم. تعيش في زمن عدم اليقين الممتد، والبطيء جدًا والمُختصر جدًا، زمن يتقدم بقفزات متتالية، مثل طريق مليء بالمطبات، ثم يطول في رتابة، بدون مرجعية. وترى ستيفانو سعيدًا، إنه سعيد من أجلها، يحبها ويحميها. ولكن لا تعرف من ماذا.

يذهبون إلى البندقية هم الستة: ماريا ميكيلي، وستيفانو، وبناته مليا وشيارا وميمينا على ذراعي بَخيتة. والبندقية ليست ببعيدة عن زيانيجو، حوالي ثلاثين كيلو متراً، ويستقلون قطارًا بطيئًا يتوقف عند طلب المسافرين، وكله صخب، حتى أنه ليس هناك جدوى من الكلام، والكل يتبع هذا الموقف المنضبط، والمتعالي قليلًا، الذي يتخذه الناس في الخروجات الكبيرة. ويعبرون الريف مثل ستة أشخاص، بملابس الخروج، لم يسافروا من قبل. استسلمت ميمينا للنوم، على ركب بَخيتة، التي تحمي رأسها من هزات القطار، ويدها الطويلة موضوعة على جسدها،

وتفكر إنها ستفارق الصغيرة قريبًا، التي ستسافر مع والدتها إلى سواكن. "بضعة أيام، هذا وقت قصير جدًا، لن يكون من بينهم أيام أحد وأنتما معًا"، هذا ما شرحه لها ستيفانو، فيوم الأحد هو المرجعية التي وجدها. ميمينا تتنفس بالقرب من صدرها، وتنفسها العميق، واستسلامها في حضنها، هو الإيقاع الحقيقي لحياة بَخيتة. هذا الحب المنصهر والواثق. علمتها كل ما تُعلمه أم لابنتها، وتقاسمت معها تأمل الجمال، وشهدا معًا اليوم الآتي واليوم المنتهي، تأملا السماء، هذا الكائن الذي يهيمن فوق الجميع، وحضرا من غرفتهما غضب العاصفة الذي يحول المنظر كليًّا، وفتحا النافذة عند عودة الشمس حين تصبح الروائح مشرقة مثل فاكهة فتحت بالسكين. بَخيتة عَلَّمت ميمينا أن تنادي على الحيوانات بأصوات مختصرة وحركات من لسانها، وحين يأتي الحمير والخيول إليها، تضع يدها على رأس الحيوانات الخاضعة وتقول "Grazie" "شكرًا"، كما تفعل بَخيتة، لأنه يجب أن نشكر دومًا الحيوانات التي تعمل في خدمة الرجال.

في القطار إلى البندقية، لم تفهم أيًّا منهما، إنهما ستودعان بعضهما البعض. هذه، ليست إلا نزهة معًا، إلى فينسيا، حيث جاءت بَخيتة من وقت طويل، لم يتعد حينئذ عمر ميمينا الستة أشهر، وتتذكر القطار فوق البحر، والشوارع الفقيرة جدًا، ومواكب الصيادين، والنساء وهن يسحبن مياه الآبار على قطع الأرض التي يباع فوقها الأعشاب والخبز. الفقر واحد، في كل مكان. وهي تتعرف عليه سريعًا. ونظرتها لا يمكن أن تخطئها العين، تعب شديد، أطفال حفاة، نساء محملات بأشياء كثيرة، ورجال ذووا

غضب مكبوت. وترتعد الناس منها في البندقية، كما في زياينيجو. وفي الحوارى النتنة حيث لا تظهر الشمس، كانت تحتضن الصغيرة ميمينا وهي تستنشق رائحتها اللطيفة كطفلة رضيعة.

يهز ستيفانو جرس المعهد، وهو عبارة عن بناية طويلة، ذات طابقين، يميل لونها للاصفرار، وذات نوافذ منخفضة، وهي كامنة في نهاية البندقية، في 108 دورسودورو، على الضفة اليسرى للقنال الكبير. تمسك بَخيتة ميمينا من يدها، وقد استيقظت لتوها من النوم عند وصول القطار، وكانتا عبرتا (الكباري) الخشبية لهذه المدينة المستكينة على البحر، مثل سواكن، بسمائها الممزقة بالقباب وصواري القوارب.

يُفتح باب المعهد، ويُقدم ستيفانو نفسه إلى الأخت المسؤولة عن البوابة، التي تدعوهم للدخول. ولا تعرف بَخيتة هذه الأخوات حيث لا يشبه زيهن ما ترتديه الراهبات اللواتي تراهن في الشوارع، ويسرن في مجموعات وهن محجبات مثل نساء الشرق، وترتدين الشالات على ثيابهن وغطاء رأس النساء الشعبيات.

ويدخلون في غرفة طويلة وباردة وذات جدران وسقف مغطى بالخشب الغامق، والمدفأة الضخمة فارغة، وتوجد منضدة كبيرة، وكنبة، وعدد قليل من المقاعد مصففة إلى جانب الجدار، ولكنهم يظلون واقفين وصامتين. ترى بَخيتة الصليب المعلق على الحائط، مسيح شاحب ووجهه ملطخ بالدماء. وهي لا تعلم أنها في غرفة الاستقبال. ولا تعرف أن حياتها تغيرت للتو بشكل جذري كما تغيرت عندما خلعها الخاطفان من قريتها.

في غرفة الاستقبال هذه، تتحدث ماريا ميكيلي بإسهاب مع مادريه لوجيا بوتيتشلا، الرئيسة، وسرعان ما ينضم لهما أخوات أخريات يقظات، جميعهن يدعين مادريه ويخفين الصدمة التي تسببها لهن بَخيتة، هذه الفتاة المدهشة السواد. يتكلمن بصوت منخفض ورصين، مع إيماءات قصيرة للرأس، ويجتهدن لفهم ما تقوله ماريا ميكيلي. ويتدخل ستيفانو قليلًا، وهو يمسك قبعته في يده،، ويترك للسنيورة ميكيلي عناء الشرح، وتقديم المستندات، وجهاز الثياب الصغير لبَخيتة، وكل شيء يسير كما خُطط له. وتقف بَخيتة بعيدة قليلًا، مع الأطفال، كما يجب أن تتعامل خادمة. يعرف ستيفانو أنها لم تفهم شيئًا، ويشعر بالخيانة بشدة. يريد الاقتراب منها والتحدث إليها، ولكنه يعلم أنه لا يجب أن يتدخل، وقد أخبرته كلمنتينا في اليوم السابق: "اترك لميكيلي إدارة العمليات، تمامًا كما لو أن هذا قرارها. لمرة واحدة فقط، اصمت يا ستيفانو!" ويبقى صامتًا وقلقًا أيضًا، ما الذي ستفهمه من هذا التغير؟ هل ستتصور أنه لا يريدها في بيته؟ إذا استطاع فقط أخبرها بالمعركة التي خاضها، من أجل وجودها هنا، اليوم، في ذلك المعهد، أخيراً. وتقترب ماريا من بَخيتة:

- ابقي هنا. إنه بيتك.

يعمّ الصمت. ثم تنظر بَخيتة لستيفانو، الذي لم يتصور أن

تقال الأمور بهذه الطريقة الفجة للغاية. ويُدرك أنها لم تفهم. تشعر أنها معزولة. يسيطر الذعر على نظراتها. تحضن ميمينا بقوة مضاعفة. ويقترب ستيفانو منها وهو مبتسم، وببطء، يتحدث بكلمات مثل سواكن والرحيل والبيت. يجب أن تفهم أنه عليها إما الذهاب إلى السودان، وإما البقاء هنا. الآن. ومع الأمهات Madri اللواتي ترعن بالفعل فتيات أخريات مثلها. وتتذكر بَخيتة كلمة مادريه. وتكرر:

- Madre؟ مادريه؟ ماما؟

تقترب الرئيسة منها، وتبتسم لها وهي ترحب بها. وتقرأ بَخيتة، على الفور، من نظرتها حقيقة هذه المرأة العجوز. إنها طيبة وتعرف أشياء كثيرة. وتبتسم بدورها وتميل بوجهها. ولكنها لا تضع ميمينا على الأرض، ويرى ستيفانو الشيء نفسه الذي تتظاهر الميكيلي بعدم رؤيته. تتنفس ماريا الصعداء، وتشكر الأخوات، وتُعدل من وضع قبعتها، وتطلب من الصغيرات الثلاث بإلقاء التحية. تدفن ميمينا برفق وجهها في عنق بَخيتة. وتقترب ماريا، ومن نظرة عينيها إلى المربية تصدر أمرها.

كانت تعلم بَخيتة أنها ستترك ميمينا في هذه الرحلة إلى سواكن، لكنها لم تكن تعلم أنه سيكون الآن. هذا الشعور بالسقوط مرة أخرى، وبالالتقاء بالوحدة من جديد، مثل ثوب مثلج. تضع الآمها في داخلها مثل خنجر في بطنها وتضع الصغيرة برفق على الأرض. وتدفعها قليلاً نحو والدتها، التي تنتظر. وتلجأ ميمينا، من جديد، إلى ذراعيها لتحتمي. وتسحبها

ماريا نحوها بحدّة. هذه المرة لن تتحرك مشاعرها بسبب نزوة، ليس هنا، أمام كل هذه الراهبات التي ستريهن كيف تكون الأم. هناك صوت صفير يسمع من بين أسنانها: "تعالي!" وتسحب الصغيرة من يدها. تصرخ الطفلة وتعبر عن الألم الذي تحدثه لها، فتأخذها ماريا بين ذراعيها، بحركة قوية، وقهرية. "اسكتي، هيه!" وتصرخ الطفلة وتجهش في البكاء. تتراجع بَخيتة إلى الوراء دون التوقف عن النظر إليها. وهي بالفعل لم يعد في إمكانها عمل شيء لها. ولا حتى مواستها.

وستيفانو مرعوب، ومليا وشيارا تبكيان أيضًا، بينما ميمينا تمد ذراعيها نحو بَخيتة وهي تصرخ. ويدوي صراخها في قاعة الاستقبال، وماريا مترددة بين الغضب والشعور بالذل. تنظر الأخوات إلى بعضهن البعض بذهول وتحاولن التدخل، تذهب البعض منهن لإحضار ماء وحلوى للصغيرة، ويأتي البعض الآخر بالمقاعد، التي يجلس عليها بعض الحضور، ولكن ماريا لم تعد قادرة على الإمساك بميمينا التي تضرب وتحرث ركبها بأقدامها الغاضبة، وكل جسدها متجه إلى بَخيتة، وترى الأخوات عيونها وهي تلمع من الدموع، وهن أمام ألم حقيقي. ورغم حديث السنيورة ميكيلي عن النزوة والفعل الطفولي، الكل يرى جيدًا أن هناك شيئًا آخر. ويسود بعض الحرج، مثل خلاف صامت. وتهمس الرئيسة أنها آسفة، لعدم استطاعتها قبول الموريتا. يجب أن ترحل مع سيدتها الصغيرة. وتوافق ماريا على مضض، وهذه هزيمة جديدة، ولكن بالفعل، ستضطر إلى أخذ مربية ابنتها إلى أفريقيا، فالانفصال خطر عليها ويمكن أن يمرضها. دائمًا ما تحيا

مع هذا الخوف من الموت، هذا الابتزاز، وفي النهاية، لم تعد أبدًا تستطيع أن تبقى بمفردها مع ابنتها! وتسمع بَخيتة دون أن تفهم، لكنها ترى خوف وألم الجميع، هل هذا بسببها؟ لم تنبس بكلمة واحدة. لم تفعل شيئًا. وهي على استعداد أن تطيع. لكن لو سمحوا لها فقط بمواساة الطفلة... يقفز ستيفانو من مكانه سريعًا، إنه سيتدخل هذه المرة، فمن المستحيل أن لا تُعمد أختهم الصغيرة موريتا، ومن المستحيل أن يكون قريبًا من الهدف ويفشل كل شيء، إنه سينقذها مهما كان الثمن!

- من المستحيل!

ينظرن إليه، وهو الرجل الوحيد في هذا الجمع وكان على وشك أن يُنسى.

- ترى جيدًا، يا ستيفانو، أن ابنتي في حاجة لمربيتها. ومن القسوة الفصل بينهما.

- نعم سنيورة، سيكون شيئًا قاسيًا أن نفرقهما، أنا متفق معك، سيكون شيئًا قاسيًا.

- إذن فلنرحل ولا نتحدث عن ذلك بعد الآن. لقد أُستنفذت أعصابي. كل هذا الضوضاء من أجل لا شيء!

وتُعدل المعاطف، والقبعات، وتشير ماريا ميكيلي برأسها إلى بَخيتة بما يعني "إلى الأمام!"، لكن لا تتحرك بَخيتة. إنها عاجزة وبدون صوت، تظل هنا، ولا تعرف ما هو الأمر الذي عليها إطاعته، وهاهو ستيفانو يقول من جديد.

- هناك حل! بسيط جدًا و... عملي جدًا. بالنسبة للجميع!

تتنهد ماريا ميكيلي وهي تنظر إلى الراهبات، وكأنها تقول: "لا تعيرن الكلام أهمية"، ويُفتح الباب، ويعترض ستيفانو الطريق.

- يمكن أن تبقى "أليس" الصغيرة هنا، سنيورة، في فترة السفر إلى سواكن.. اتركيها هنا. ستتعلم هي أيضًا، وحين تعودين ستكون تعلمت الكثير من الأشياء، فالأطفال يتعلمون بسرعة.

- أذهب إلى أفريقيا دون ابنتي؟

- لا تكبديها عناء الرحلة.

مندهشة، ماريا. الجميع يتهاونون دائمًا بمشاعرها. ويصورون لها أنه من المستحيل أن تعيش معها طفلتها. أنها أم فارغة الأيادي، ونيتها الطيبة لا قيمة لها. وبينما كانت مذهولة، احتمت ميمينا بين ذراعي بَخيتة. ويعود الصمت. ويُسمع فقط التنفس الصاخب للصغيرة التي تهدأها بَخيتة بكلمات حلوة، ومداعبات في عنقها. تقترب مليا وشيارا منهما وتتشبثان بسترة أختهما الصغيرة، منزعجات مما يحدث، ومن خلافات البالغين وخاصة من مشاعر والدهما، الذي يفقد سلطته المعتادة عندما يخاطب الميكيلي.

بَخيتة لا تعرف هذا، ولكنها في تلك اللحظة تشبه والدتها. شجرة وفروعها. مع هذه البنات المتعلقات بها، إنها جميلة، بجمال منفتح، وإنسانية عميقة. وترى ذلك الرئيسة وتسأل:

- كيف تريد أن تبقى الطفلة هنا، سنيور شيشيني؟ هي لا

يمكنها الذهاب إلى مبنى الأطفال اللقطاء، ولا في مبنى الكبار الغير معمدين.

ولكن حين تطرح هذا السؤال، يأتيها الجواب. فهي تعرف أنه ليس من حقها أن تتصرف لا هي ولا السنيور شيشيني. يجب أن تأتي الإجابة من السنيورة ميكيلي. هذه المرأة المسكينة التي لم تفهم شيئًا. هذه الأم العاجزة.

وماريا ميكيلي، بخوفها الرهيب، الداخلي والمذنب، تترك ابنتها لمربيتها. وسوف تصل بمفردها إلى شواطئ بلد يبدو لها، بدون صغيرتها، حلم مجهض.

في 29 نوفمبر 1888، تدخل بَخيتة وميمينا معًا، في المعهد التَقي للتنصير في البندقية. ويدفع ستيفانو من ماله الخاص مصاريف أليس ميكيلي، أي ليرة في اليوم. واتخذ، كما فعل بالنسبة لأخته الصغيرة موريتا، الخطوات اللازمة وحصل على الأوراق الإدارية، ولم يكن ذلك أمرًا سهلًا، لأنها كانت المرة الأولى التي تعيش فيها طفلة مُعمدة مع مربيتها السوداء عند الكاتشومات.

وفي ذلك اليوم، عندما تغلق المسؤولة عن البوابة، الباب خلف موريتا والطفلة الصغيرة، لا يمكن لأي فرد من بين هؤلاء الثلاثة أن يتخيل أن بَخيتة وصلت أخيراً إلى بيتها.

تنتظر بَخيتة، في اليوم الأول، الأوامر وتتخيل أن هنا كما في أي مكان آخر، ستخدم الأسياد. بينما ميمينا معها، ستقوم بعمل التنظيف والغسل والطهي، والعمل في الحديقة، وتقوم بالحياكة أو التطريز، كما يُطلب منها. ولكن، لم يُطلب منها شيء، في هذا اليوم الأول. وتتساءل إذا ما كانت البرونا ميكيلي قد شرحت الأمور. عبدة. عبدة. هل تعرف هذه الراهبات حقيقة الموضوع؟ أنها تسجد عند أقدام الرئيسة كما تفعل الشرقيات، بالجزء العلوي من الجسم إلى الأمام، والجبهة على الأرض، والأيادي مفرودة تمامًا. لكن الرئيسة تبتسم وتساعدها على النهوض. هناك شيء غير مفهوم.

وتجلس، في فترة ما بعد الظهيرة، في الدير الذي تلعب في وسطه ميمينا، لعبة الحصى والحجلة، والتي تطلب منها بَخيتة أن تلعبها بدون إصدار أصوات عالية، فالأجواء السائدة رقيقة رقة غريبة، وهي تحاول أن تفهمها. والدير نظيف وهادئ بشكل غير عادي. والفجوات الصغيرة في الجدران مزينة باللبلاب والتماثيل المنمنة، وتنمو أشجار الزيتون النحيلة إلى جانب الغار الوردي دون ورود وأشجار الليمون دون ثمار في هذا الوقت من السنة، وتتدحرج أوراق حمراء على الأرض الحجرية للدير في مهب ريح البندقية. وترى مِسقاة موضوعة بجانب مكنسة ومقص البستاني، كل

شيء يبدو في مكانه، كل شيء واضح ودقيق. لا ينقطع الصمت إلا بسبب الجرس الذي يضبط إيقاع الساعات، وهو صوت هش مقارنة بالأجراس الثقيلة لكنائس المدينة، التي تسمعها بَخيتة تدق وراء جدران المعهد. والمدينة القريبة جدًا تبدو بعيدة جدًا. تشعر بَخيتة أن هذا المكان مأوى أو ملجأ. تأخذ بعض الوقت لتدرك أنه لا يوجد صوت رجل واحد. صرخة واحدة. وبالرغم من القطط الشاردة على السطح، لا يوجد حيوان واحد.

توجد فوق الدير القصير، شرفة حجرية، وعلى الواجهة، وعلى الدورين، نوافذ صغيرة جدًا ذات مصاريع زرقاء، مصطفة، ومتشابهة ومتماثلة. لكن النوافذ تظل صامتة، ويظل بعد الظهر ناعمًا وصحراويًّا. ومن وقت لآخر، تمر أخت في الدير وتقوم بإيماءة من وجهها في اتجاههما، وترى بَخيتة كيف تخبئ كل واحدة منهن، كما تستطيع، الصدمة التي تسببها لهن، لذلك تبتسم بخجل، ويديها منبسطة، بهذه الحركة التي تعني بقدرية: "نعم، أنا سوداء. سوداء جدًا. هكذا. معذرة". وترى إحراجهن والحمرة التي تكسي الخدود الشاحبة جدًا. وتجرأت واحدة فقط أن تضحك ضحكة لطيفة أمام هذه الحركة الإيطالية الآتية من زنجية أغمق من الجحيم.

في وقت متأخر من بعد الظهيرة، يصبح الهواء جافًا، والشمس نادرة، وتشعر بَخيتة بالبرودة، وهي جالسة بلا حركة على هذا المقعد، لكنها لا تعرف إلى أين تذهب. إنها لا تزال تنتظر، مع هذا الصبر الخاضع، ثم فجأة، تسمع. الموكب والضجة. وتتعرف

عليه ويتجمد قلبها، وتنهض لكي تسمع بطريقة أفضل، وعندما ترى مرور الفتيات الصغيرات في طابور بقيادة اثنتان من الأخوات، تأخذ فجأة ميمينا في حضنها، والطفلة تصرخ لكن بَخيتة تضغط وتخفيها بقدر ما تستطيع بين ذراعيها، ووجهها يضغط على وجه الصغيرة، وتجبرها أن تصمت، وتكاد أن تخنقها وهي تحاول إنقاذها. يمر الموكب، خمس عشرة فتاة صغيرة بالمرايل الرمادية، والقباقيب في أقدامهن، دون سلاسل، وبيضاء مثل العبدات الشركسيات الأغلى سعراً في أفريقيا. إلى أين يأخذونهن؟ لماذا اشترتهن الراهبات؟ هذه الفتيات الصغيرات آتيات من مكان آخر، ترى هذا في عيونهم اللواتي تبحثن عن دعم، وترصدن مساعدة. هؤلاء الأطفال هنا بدون عائلتهم. هل الأخوات اشترتهن من أجل تحريرهن، كما كان يفعل القنصل؟ لقد مررن، ويبتعد صوت فرقعة القباقيب، وتضع بَخيتة ميمينا على الأرض، وتضربها الطفلة وتقول لها إنها شريرة وإنها لم تعد تحبها.

- إنك لا تحبيني؟

- أنا لازلت أحبك.

- لا أريد.

- مستحيل. مازلت أحبك.

تنظر ميمينا إليها من أسفل بعيون طفلة غاضبة ومتطلبة. ثم تعود، مطمئنة إلى ألعابها بالأرض والحصى، ألعاب الخيال وأحلام اليقظة، وتغلفها هذه النظرة الحانية والبطيئة لتلك المرأة التي تحاول أن لا تناديها ماما.

لقد مرّ اليوم ولم تفعلا شيئًا سوى أن تكونا معًا، لا تأكلان بعد في قاعة الطعام مع الفتيات الـكاتشومات الأخريات، وتتناولان العشاء في المطبخ، حيث لا يمكن لبَخيتة ابتلاع أي شيء. ويُعطى لها طبق من الحساء وهي في غاية الخجل، بجلوسها هنا وهي لا تفعل أي شيء، وتملأ الدموع عينيها من شدة الإحراج، ومن الذي يستطيع أن يشرح لها عن العمل المقدر لها؟ تعتقد الأخوات أنها عديمة القيمة؟ إنها لا تستطيع فعل شيء ولا يمكن طلب أي شيء منها؟ أين ذهبت الأخوات اللواتي مرت من هنا؟ والفتيات الصغيرات؟ هذا هم كبير، تود أن تفهم لماذا الطاهية رقيقة لهذه الدرجة معها؟ ولماذا تشعر أنها وحيدة جدًا في هذا العالم العائم والغير مؤكد المعالم.

في المساء، تنام مع ميمينا في غرفة مخصصة لهما بمفردهما، في الطابق الثاني، وتطل النافذة على جدار المبنى المقابل؛ على الجانب الآخر للقناة، والجزء الخلفي لكنيسة سانتا ماريا ديللا سالوت. الصيادون الذين يمرون بالقوارب تحت نافذتهما يصرخون بالفينيثي، ولهجتهم مختلفة عن لهجة فلاحي زيانيجو، لكن تتعرف من لهجتهم الخشنة على الشجارات أو السلامات للرجال الذين يجتمعون مرة أخرى. ليل نوفمبر بارد ومبكر، وتمر طيور النورس في السماء المظلم كبقع سريعة، وتُذكر تجمعات الضباب على وجود البحر. تشعر بَخيتة بالحماية بينما تلاصق جبهتها الزجاج، وميمينا الصغيرة بين ذراعيها. معًا، كما اعتادا، تراقبان هبوط الليل، وتكسب أول من ترى القمر أو نجمة. لكن هنا، على عكس زينانيجو، لا يوجد إلا القليل من

السماء. تدندن بَخيتة وتضع ميمينا يدها على حلقها، تحب أن يهتز حلقها في كفها، تضحك، وتنزل بَخيتة بطريقة أعمق في الباس، لأن ما تريده، كل يوم، هو سماع ضحكة الطفلة. حياتهما مليئة بالطقوس، ومنذ عدة أشهر، هناك الصلوات الثلاث اللاتينية التي تسمعاها وهما راكعات أسفل السرير ويداهما مضمومتان، وتكونا أحيانًا شاردات، وفجأة، وفي بعض الأحيان، متيقظات، وتقود بَخيتة الطفلة التي نادرًا ما تريد الذهاب لنهاية الصلاة وتقول "آمين" بعد الجمل الأولى: "أمين، لا" تقول بَخيتة. "أمين، نعم" تجيب الصغيرة. وتستمر بَخيتة، مهما كان الأمر. وفي هذا المساء، بعد الصلاة، تذهب ميمينا إلى بَخيتة في سريرها، هذه هي ليلتها الأولى بعيدًا عن البيت وهي حزينة، الشراشف خشنة، وتنبعث من الوسادة رائحة النفتالين، وتقترب بشدة من مربيتها، ولكي تنام، تداعب بيدها وببطء الوشم الموجود في يدها، مثل طريق صغير على الرمال، ومن اليد الأخرى، تمص إبهامها. هذه هي الطريقة التي تغفو بها، في هذا المشهد المألوف، مع رائحة مربيتها، وشعرها الذي يدغدغ رقبتها، ولا شيء على الإطلاق يمكن أن يحدث لها.

عند الفجر، يوقظ الجرس بَخيتة. يبدو أن الوقت مبكر جدًا، والنهار لم يطلع بعد، لكنها لا تزال تسمع الأصوات المخنوقة والحركات الخاطفة جدًا. تنهض ببطء حتى لا توقظ الصغيرة، وتوارب الباب وتراهن. الوجوه تنظر إلى أسفل، والأيادي في الأكمام، وتسير الأخوات في الليل، على امتداد الممر، وكأنهن تنزلقن في النور الخفيف البارد، وتختفين وراء ستار كبير من

القطيفة السوداء. تعود بَخيتة إلى غرفتها وتتساءل عن الذي تبحثن عنه وراء هذا الستار. لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير في الفتيات الصغيرات ذوات البلوزات الرمادية والقباقيب الخشبية. وتتفجر أمامها صور "للزريبة" والأسواق، والقوافل والحرملك مثل سكاكين. ذكريات اعتقدت أنها لم تعد موجودة. ويعود القلق، كما هو، كما لو كانت في السابعة من عمرها. وهي موجودة في هذه الغرفة في قلب اللامكان، ومن سيستجيب لها إذا طلبت المساعدة؟ تنظر إلى ميمينا. وجه مألوف ويذكرها بنفسها، تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، واسمها بَخيتة، وهي مربية هذه الفتاة الصغيرة التي تدعى أليس ميكيلي وتعيش في زيانيجو. تكرر هذه الحقيقة، لكن الذكريات مستلقية هنا، في أسفل سريرها، فالماضي كلب أمين. قرية تلتهمها النيران. حزمة وراء شجرة موز. الوحدة. والخوف. الخوف الذي ينمو يومًا بعد يوم، مثل منظر طبيعي عار.

ثم تسمع أنه رقيق وغامض بطيء مع قليل من الحزن. تخرج مرة أخرى على قرص الدَرج، حافية الأقدام، مرهفة السمع. إنه غناء الأخوات صلاة الأعالي صلاة شبه خجولة. تلك النساء قمن للغناء في الليل. تستمع إليهن، ويُخفف قلقها الامتزاج بأغانيهن. ويرتاح جسدها. وينطلق تنفسها. غناء الأخوات واضح، والستائر المخملية خفيفة، مثل جدار من الرمال والريح. وفوق الدير، هناك هذا المربع من السماء مع أول ضوء النهار، للذين يعملون في البحر، ويخرجون الحيوانات أو يزرعون الأرض. الذين يتحدثون قليلًا ويعملون كثيراً، لدرجة أنهم يموتون من التعب

دون اندهاش. تنظر إلى السماء، هل هذا موعد الصباح في أولوجسا؟ هل هناك امرأة عجوز جالسة على جذع شجرة باوباب، على الأرض، في انتظار اليوم، والمهام التي يجب أن تقوم بها، والذين لن يعودوا أبدًا؟

سرعان ما تدرك الأخوات أن الموريتا تتلو الصلوات باللغة اللاتينية بدون فهم اللاتينية، وهي لا تعرف اسم الله ولا اسم الرجل المصلوب، وإنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولا العد، وتتطلب لغتها المصنوعة من الخيوط القوية والمتفرقة، أن نستمع إليه. "إنها مثل فرز العدس أو عزق الأرض"، كما تقول مادريه أجوستينا، وهي امرأة بسيطة وعاقلة." إنها مسألة وقت واهتمام" تجيب الرئيسة. وهو نفس الشيء.

بدأ هذا، في الصباح الذي اقتربت فيه مادريه تريزا من الموريتا وميمنا وهما راكعات أسفل سريرهما وتتلوان "أبانا الذي في السموات" بكلمات غير مفهومة، وتتخللها "آمين نعم"، وعدم موافقة الصغيرة و"آمين لا" من مربيتها. كانت هذه أغرب صلاة يمكن سماعها، أكثر من إساءة، مزيج مشوش، الجهل إلى درجة السباب.واقتربت الأخت، بهدوء، وشرحت للموريتا:

- Pater. الأب. أتفهمين؟ الأب، قولي، من جديد، بلطف.

- Pater nosterqui

- لا. فقط باتر. الأب. أعيديه.

- بادريه.

- جيد جدًا. الأب، تتكلمين مع الأب.

- أنا؟

- أنت. كل صباح وكل مساء، بَخيتة، تتكلمين مع الأب.

- إلى الأب؟

- نعم. هو الذي في in cielo. in Caelis . في السماء!

- في السماء؟

- هذا هو! في السماء وعلى الأرض!

- الأرض... نعم...

- بَخيتة، هل تفهمين؟ والدك في السماء وعلى الأرض. وأنت أيضًا، ميمينا، والدك في السماء وعلى الأرض.

- لا! إنه في سواكن!

- لا. إنه في السماء وعلى الأرض. ووالدي أيضًا. ووالد والدتك أيضًا. وبَخيتة أيضًا. ووالد الأم...

- أمين نعم! تقاطع ميمينا.

يتبع هذا صمت موحش. وشعور عميق بالعجز. وتتوجه مادريه تريزا لتخرج، خائبة الأمل. لقد فشلت. ثم فجأة، على عتبة الباب، تستدير، وثوبها يحدث صوت صفير لطائر في السماء، وبصوت تود أن يكون أقل بأسًا، تصرخ:

- ديو! ديو! الله!

وتنتظر رد فعل لا يأتي. ديو هي كلمة تعرفها بَخيتة. فهي موجودة في إيطاليا في جميع العبارات، كما كان الله في أفريقيا.

هذه إذًا الترجمة. ولمواساة هذه الأخت التي تبدو حزينة جدًا، تقول لها بصوت عميق وتريده مطمئن:

- الله أكبر.

تطلب الرئيسة من مادريه ماريتا فبريتي أن ترعى الموريتا شخصيًا. هذه الأخت البالغة من العمر أربعة وخمسين عامًا، والمساعدة العليا للكاتشومات، هي امرأة ذات طبيعة فرحة وموهوبة بصبرها الكبير. وأول شيء تفعله، هو أن لا توجه إطلاقًا أي سؤال. لا تتلو شيئًا أو تعلم شيئًا. تبدأ من البداية. من وراء الستار الأسود المخملي. من وراء الباب. عند الكنيسة الصغيرة التابعة للمعهد.

هي كنيسة صغيرة من الطراز الرومانيسك، بجدران عالية من الطوب الأمغر، ذات الصحن المظلم، والمضاءة بالشمعدانات المحفورة في الجدار، ومباخر من الصُغر معلقة في نهاية سلاسل طويلة، وزهور باهتة موضوعة على مذابح جانبية ووراء المذبح الرئيسي لوحة تمثل المسيح على جبل الزيتون. في الجزء الأسفل من الجانب الأيسر، بالقرب من البوابة الخشبية التي تفتح على ساحة صغيرة، مشكاة تضم جُرْن المعمودية في بساطة متقشفة. تملأ رائحة البخور والزهور الذابلة الهواء البارد الذي لا يلاحظ في البداية، لأن ما يلاحظ، هو الصمت. صمت حقيقي يُخفي كل الخارج، ويغلف كل شيء، كترحيب. تجلس مادريه فبريتي وتدعو بَخيتة لعمل الشيء نفسه. ميمينا تجلس على حجرها، والمقعد في مواجهة الصليب، وعلى الصليب الخشبي، الذي لا تزال بَخيتة

تطلق عليه *العبد*، يغلق المسيح عينيه، والدماء تسيل من قلبه المخترق.

- مات، تقول بَخيتة.

مادريه فبريتي لا تجيب. إنها تتيح لها فرصة النظر للجسد الممتد، والأيد المسمرة، والوجه المُدمر.

- أعرفه.

- تعرفينه؟

تخرج بَخيتة من جيبها الصليب الذي أخفته في ملابسها عندما جهزت برونا ميكيلي ثيابها للرحيل.

- نعم. إنه هو، اسمه يسوع. أتفهمين؟ يسوع المسيح. هذا هو.

- إنه اسم جميل.

- إذا أردت... فلنخرج الآن. هل ميمينا مغطاة بطريقة كافية؟

تفتح مادريه فبريتي البوابة الخشبية ويستقبلهن نور نهاية بعد الظهيرة، هش ورصين. تترك ميمينا يد بَخيتة وتركض في الساحة الصغيرة. يمشين في صمت حتى "الجراند قنال"، ويحمل هواء البحر المختلط بالريح، شيئًا جامحًا، وعنفًا متحفظًا، وراء هذا الجمال الظاهر.

- مات يسوع منذ زمن طويل. طويل جدًا.. تقول مادريه فبريتي، وهي تأخذ ذراع بَخيتة.

تتراجع بَخيتة إلى الوراء، ثم تقبل، وهي ليست مطمئنة، مثل اليوم الذي قدم لها ستيفانو ذراعه لعبور زيانيجو.

- إنه بعيد جدًا؟

- بعيد جدًا، نعم، يسوع، بعيد جدًا.

- الجد.

- إذا أردت. الجد. والده هو أب لباتر نوستر. واسمه الله، ديو. وليس Allah، لا.

- لا.

- ديو.

- نعم.

وهذه هي المرة الأولى التي لا تلاحظ فيها بَخيتة النظرات الخائفة التي تثيرها، وأول مرة تمشي وهي تمسك ذراع امرأة، مع هذه الفتاة الصغيرة التي تركض أمامهما لتخويف الحمام وطيور النورس. هناك شيء مألوف على هذا الرصيف، وعلى شاطئ الجراند قنال، هذه الحميمية الهادئة التي تتناغم مع الليل القادم. ليس عدم اكتراث، ولكن ثقة. تقول بَخيتة:

- أنا عبدة.

- أعرف.

- والفتيات الصغيرات، هن أيضًا عبدات؟

- لا. الفتيات ليست عبدات. الفتيات الصغيرات وحدهن في العالم. أتفهمين؟

- كثيراً.

يأتي الهواء فجأة، بسحب زرقاء تغطي الأفق وتتحد مع القنال. ميمينا، خائفة من كلب، وتندفع نحو بَخيتة التي تأخذها في ذراعيها. والصغيرة ثقيلة وتعرج بَخيتة قليلًا الآن، وهي تحملها. وفي مواجهتهن، يتلاشى في الليل، ببطء، بياض جزيرة سان جيورجيو مجيور، وتشتعل نيران الصيادين على البحيرة. بمجرد اختفاء شيء، يظهر شيء آخر.

- "هذا جميل"، تقول بَخيتة.

مادريه فبريتي متفاجئة. لم تكن تعلم أن الجمال يلمس هذه الروح البسيطة.

- القمر! القمر! رأته، بَخيتة أولًا! لقد ربحت!

تشير ميمينا إلى قمر غير مؤكد، يخفيه الضباب البارد.

- أنتِ لا ترين شيئًا الليلة.

- أتظنين؟

- بالتأكيد!

وتضع يدها على عينها لتلعب لعبة المكفوفين التي اخترعتاها. لكن بَخيتة تضع الفتاة على الأرض. لا تريد أن تلعب بعد. لقد تكلمت كثيراً. مادريه فبريتي تأخذ ميمينا من يدها وتبتعد معها. ويتحد الوجه المظلم للموريتا مع الليل ويبرز بهاء نظرتها.

لمدة عام، سوف تتعلم بَخيتة لغة جديدة، وطقوسًا جديدة، وحكايات جديدة، وصلوات، وكلمات وأغاني، وسوف تبذل مجهودًا للوصول إلى اللواتي تعيش معهن واللواتي تتحدثن إلى الله وإلى يسوع كما نتحدث مع والدينا، والدينا اللذين لم نبتعد عنهما أبدًا، أبديّان وفي كل مكان. وتجعلها عبارة "في كل مكان" مضطربة. تقول لها مادريه فبريتي إن الله يراها، ويسمعها، طوال الوقت. من أول يوم في حياتها حتى آخر يوم، وهو معنا. وهي تشعر بالخجل من جديد وتفكر في المشاهد العنيفة لاختطافها. هل رأى الله ذلك؟ هل كان هناك، الليلة الأولى مع الخاطفين، والليالي الأخرى في الحبس والألم، وأيام الصحراء، التعذيب والإذلال، ومع سمير، والأسياد وأولاد الأسياد، هل كان هناك؟

- نعم بَخيتة. كان هناك.

- عار... مادريه... عار.

- كان هناك حتى لا يتركك بمفردك.

إنه عنف كبير. ومعركة كبرى بين الرغبة في الحياة والرغبة في ترك كل شيء. وهي لا تفهم هذه الكلمة التي تكررها مادريه فبريتي باستمرار. "إنه يحبك". وتعتقد أن مادريه فبريتي مخطئة،

فإنه لا يرى كل شيء. إنه ليس دائمًا هنا. وهو لا يعرف. هي عبدة، ولا أحد، ولا أي سيد، حتى الأفضل، لا أحد، أبدًا، يحب عبدته. وتقول لنفسها إن يومًا ما، المادريه، بطريقة أو بأخرى، ستعلم ما هي العبودية، وفي هذا اليوم، ستعاقبها لإخفاء الحياة الوحشية التي عاشتها، حياة لا يعيشها ما هو أدنى من حيوان. حياة تُسرق، حياة يتم شراؤها واستبدالها، حياة تتخلى عن نفسها في الصحراء، حياة لا تعرف فيها حتى اسمها. ويجتاحها القلق في أي مكان، وفي أي زمان، في المطابخ حيث تتعلم الطهو، وفي فصول محو الأمية أو التعاليم الدينية، وحينئذ تغادر سريعًا دون أن تطلب الأذن، ودون أن تأخذ ميمينا معها. ولا أحد يعرف ما الذي تفكر فيه، وهي منكبة على عملها، ثم تختفي فجأة. ولا يُعرف إلى أين تركض هكذا. ودائمًا ما يحدث نفس الشيء، فهي تركض مثل الضالة وتذهب للقاء مادريه فبريتي، المتاحة دائمًا بالنسبة لها، وصبورة، وهادئة، ومهمومة بسبب المنحنى الذي تأخذه الأشياء. فإن هذه الروح البسيطة والحساسة جدًا، تشعر بعدم اتزان بسبب صدمة الوحى التي هزتها، وتتردد أكثر من مرة في طلب من الرئيسة حضور الطبيب ليساعدها. وتهدئ زيارات ستيفانو وعائلته من روع الموريتا، لكن السكون لا يستمر طويلًا. وتستولي عليها الكوابيس في الليل وتوقظها من النوم. وتمر أثناء اليوم، بأوقات من النشوة، ثم تبكي من دون سبب، وتذهب لتركع تحت الصليب، لتطلب المغفرة، وهي تسجد بالطريقة الشرقية، ومن المستحيل إيقاف هذه العادة، ولا من تسميتها بالبرون الله، أو السيد المسؤول.

وتفهم بَخيتة بشكل صحيح أن يسوع هو ابن الرب، الذي خلق الليل والذي تشاهده كل مساء، مع النجوم والقمر. والذي خلق الأرض، مع كل خيراتها. والذي خلق الرجال والحيوانات، والأنهار والجداول. وتعلم أن الكون حي وأنها يجب أن تقدم له الشكر، وقد فعلت ذلك دائماً. وتعلم أن الأحياء والموتى يبقون معًا. واحترمت دائمًا أجدادها. وأن الله هو سيد الكون وجميع المخلوقات. لقد فهمت أكثر مما يتصورون. ولكنها مليئة بالخجل. تخجل من نفسها. وتخجل من آمالها. وتخجل من حزنها. ويتحدثون معها عن المعمودية. ويقولون لها، إنه مع المعمودية ستكون ابنة برون. هذا الحب الذي تنتظره منذ زمن بعيد (يقولون "ثلاثة عشر، خطفوك منذ ثلاث عشر سنة"، حسنًا)، هذا الحب موجود. وقريب جدًا منك. ويقولون إنها إذا تلقت المعمودية سوف تكون محبوبة وإلى الأبد، مهما فعلت ومهما فعلوا بها، هل هذا ممكن؟ يغمرها أحيانًا الفرح، وترغب في الغناء والشكر. وتتوقف من كونها هذه الزنجية التي تزعج عشرات المرات في اليوم التي تسميها ببساطة "مادريه"، والتي طلبت منها، في أحد الأمسيات، أن تتبعها في الكنيسة الصغيرة حيث تضيء شمعة، وببطء شديد، وهي تفصل تقريبًا الكلمات، تفتح الكتاب وتقرأ بصوت ناعم:

- "طُوبىَ لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وطُوبىَ لِلْحَزَانىَ، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. طُوبىَ لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ.....زززز ".

ثم تترك الصمت يتنفس. وتغلق الكتاب وتنتظر. وتنظر بعيدًا بينما تأخذ مادريه فبريتي ذقنها بين يدها وتفرض عليها أن تنظر إليها.

- لا يهمني إذا كنت تبكين، حبيبتي. ولكنك فهمت التطويبات.

- نعم، مادريه. لكن هل هذا صحيح؟

تود مادريه فبريتي ضربها على رأسها بالإنجيل، لو أن الكتاب لم يكن مقدسًا. هذه البَخيتة عنيدة، وسجنها هو نفسها. وتقول وهي تفتح ذراعيها:

- بالطبع هذا صحيح. وأنت تعرفين هذا، هيا؟ قولي لي أنك تعرفين هذا.

- نعم. أنا أعرف ذلك.

- *Ecco!*

وقد أُتفق على أن المعمودية ستكون في شهر يناير. ولكن بعدها بيومين، أي يوم 15 نوفمبر، تأتي برقية من سواكن لتعلن عن الوصول الوشيك لماريا تورينا ميكيلي.

سوف تبلغ ميمينا الرابعة من عمرها، وقد مرت سنة دون أن ترى والدتها. تنادي على بَخيتة بماما بدون أي تحفظ، وتتعلم معها الحساب بالعداوة، والقراءة بالأبجديات، وحياة القدسيين. القديسة بلاندين، العبدة الرومانية التي أكلتها الأسود، والقديس مارك، الذي مات بالقرب من سواكن، في مصر، وكُسرت أطرافه وحُرق جسده، ثم أعادوه إلى البندقية، والقديسة أليس، الجميلة

جدًا، زوجة ملك إيطاليا، والإمبراطورة التي كانت تحب الفقراء. إنه عالم نسائي محمي، وطقسي ومُطمئن. وميمينا لديها صديقة، جوليا ديللا فونتيه الصغيرة، التي تسكن في مواجهة المعهد وتلعب معها بعد ظهر كل الأيام، في الساحة الصغيرة، تحت رعاية بَخيتة. والعالم بالنسبة لها، ليس إيطاليا، ولا أفريقيا، العالم هو بَخيتة. تعيش في حاضر أبدي، حيث لا شيء يهددها. أعلنوا أن والدتها ستعود، إنها سعيدة بدون معرفة السبب، إنها فرحة لا تأمل ولا تتوقع أي شيء.

وفي إحدى الأمسيات بينما يسقط المطر على العذراء بأذرعها المفتوحة، في القمة الأعلى من الكنيسة الكبيرة، تنظر بَخيتة وميمينا إلى الليل وهو يختلط بالمطر. وتهدهد بَخيتة الصغيرة على إيقاع لحن رتيب، كل شيء، سوف ينتهي قريبًا. عالم المعهد. إيطاليا سيتفانو ومادريه فبريتي. إيطاليا الطفولة الهادئة لميمينا واللقاء مع الله، الذي كانت على وشك أن تصبح ابنته. لكن في قرارة نفسها، كانت تعرف جيدًا، أنه لن يحدث هذا التعميد. هذا ليس عدلًا، عبدة، لم يحدث ذلك أبدًا، لكن هذا ما هي عليه. ومن الصعب عليها أن تتخيل أنها في سن ميمينا كانت لا تزال تعيش في قريتها. محمية وسعيدة بنفس الطريقة، سعادة لا تشي عن نفسها. وبإحساس بعيد جدًا، ترى والدها من جديد، صوته، وخياله، ورقبته التي تضع عليها رأسها، وفي مواجهتها، توأمها، هذه الصورة الأخرى لنفسها. لن يكونوا هم الذين سوف تلتقي بهم في أفريقيا. هم سيكونون دائمًا على الجانب الآخر من

الجزيرة. هي ستكون في حانة الفندق، في خدمة رجال، يجمعهم الكحول والرذيلة، من كل البلاد ومن كل الديانات، وسوف تمر أيامها وهي في خدمتهم، وتقول لهم لا. وهي تحاول الحفاظ على ميمينا... "هذا مستحيل" تقول ذلك لنفسها. "هذا مستحيل". لا تعرف لماذا لكن هذا مستحيل. تنظر إلى العذراء في أعلى القبة، التي يقولون إنها أنقذت البندقية من الطاعون. تتلو وجبهتها ملتصقة بالنافذة (أفيه ماريا Ave Maria) (السلام عليك يا مريم) بصوت منخفض وتكون كلماتها ضبابًا على الزجاج ويبدو وكأن المطر في الداخل أيضًا.

تأتي ماريا ميكيلي، في اليوم التالي، إلى المعهد. تجتمع مع ميمينا وبَخيتة في قاعة الاستقبال، بحضور الرئيسة والمدربة فبريتي. ميمينا سعيدة بلقاء والدتها، التي تجدها جميلة جدًا، وتنبهر من تقدمها، وهي تتحدث جيدًا الآن، وتقبلان بعضهما البعض، ولا يكفان عن التقبيل. وتبهج هذه الصورة الساحرة الأخوات، وهو حدث مغاير عن حياة الفتيات اليتيمات والصغيرات اللقيطات، ويعتبر هذا المشهد العائلي نوعًا من الترفيه المليء بالهناء، وماريا التي غادرت وهي مهزومة، ومضطرة لترك ابنتها مع المربية، تستعيد حقوقها. تقف بَخيتة بعيدة ومنزوية، كخادمة مدربة جيدًا، ثم تقترب منها سيدتها وتأخذ يدها.

- اعتني جيدًا بميمينا. وأنتن أيضًا يا أخوات! بلدك روعة يا موريتا! بالفعل! هذه الجزيرة الصغيرة، المستديرة تمامًا... تعرفن يا أخواتي، إنها باختصار لؤلؤة وضعت على البحر...! يجب أن

أبلغك بشيء موريتا، لقد قمنا بأعمال مهمة في الفندق، والحانة كلها لكي، وسوف تحصلين، ولأول مرة في حياتك مرتبًا صغيراً، لا شيء يُلزمني، أعرف، ولكني متمسكة بذلك.

تتراجع بَخيتة قليلاً. وفي قاعة الاستقبال المظلمة والحزينة لم يُعد يسمع إلا "أليس" الصغيرة وهي تلعب بدميتها، كما لو كانت تعيش في عالم آخر، خفيف وشخصي. ثم فجأة، يُسمع صوت بَخيتة العميق:

- لا.

مثل الاقتحام، شيء ما في الغرفة لا علاقة له بأى شيء، كلمة في غير مكانها. تلاحظ مادريه فبريتي قبضة بَخيتة المغلقة، وتخمن أنها تمسك الصليب.

- معذرة؟

- لا.

هناك وقت قصير، معلق، وتطرده ماريا بالتلويح بيدها أمام وجهها.

- حسنًا، لا أو نعم، لا يهمني، سوف أعود لأخذكما معي بعد خمسة أيام.

وتقترب من ابنتها لتقول لها إلى اللقاء، وتشرح لها أنها سوف تعود قريبًا، ولكن من جديد يدوّي الصوت في قاعة الاستقبال:

- لا !

أسوأ من خنجر في الظهر. إهانة عامة. وبدون حتى أن تلتفت، تصرخ ماريا بصوت حاد أكثر من اللازم:

- اذهبي لحزم الحقائب!

وتنفجر ميمينا في البكاء، وبَخيتة لا تتحرك. ترتعش شفاهها ونظرتها خائفة وثابتة بإصرار مزعج، في آن واحد. تأخذ ماريا ابنتها في حضنها، وترفعها إلى فوق، حتى تلامس وجهها، وتهزها لمواساتها.

- موريتا، عليك طاعتي وتحركي أسرع من ذلك!

- مستحيل.

- لماذا؟

- مستحيل، برونا.

- ولماذا؟

يجتاح وجه بَخيتة تشنج صغير، وخدها يرتعش وتأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن تقول:

- أنا لن أخرج. أنا باقية هنا.

كان يمكن أن تندهش ماريا، لولا أنها غاضبة بعنف وعمق شديدين.

- هل أنتِ مجنونة أو ماذا؟ إنه هواء البندقية الذي دفعك إلى الجنون؟ هل تتذكرين إنك عبدة لي وأني سيّدتك؟ أهذا يعني شيئًا بالنسبة لك؟

تنفجر، بالرغم منها، بطريقة مبتذلة وكانت ترغب في شيء

آخر، أكثر رباطة جأش وسلطة، ولكن لا تعرف كيف تتصرف. ترغب في أن تصفع هذه الفتاة، وهي تفهم الآن أولئك الذين يضربون عبيدهم، ويحرقونهم، ويقتلونهم.

- أنت لي. لقد أهدوك لي، لم نرى عبدة تقول لا لسيدها؟ وهذا، بالضبط، ما سيحدث. سأغادر إلى سواكن وتتبعيني! في الحياة، نحن لا نفعل دائمًا ما نريده، أليس كذلك مادريه فبريتي؟ اذهبي، سريعًا! اذهبي لحزم الحقائب.

- مستحيل.

تقترب مادريه فبريتي من بَخيتة، تذهب للجلوس على الأريكة معها، تحاول أن تجعلها تفكر بطريقة عاقلة، يجب أن تطيع سيدتها، وتغادر معها. هذا ما كان متفق عليه ولا يمكن عصيان سيدتها.

تهمس بَخيتة:

- هناك، أنا لست ابنته.

- الله، تريد أن تقولي؟ ابنة الله.

- نعم.

- لا تقلقي بشأن التعميد، لا تقلقي، يا حبيبتي، سوف نُقدم التاريخ. بالتأكيد سوف تكوني ابنة الله، أعدك بهذا.

- لا. مستحيل! هناك أنا لست ابنته! مستحيل!

- نحن في كل مكان بنات الله، تذكري، شرحت لك من قبل،

هو في كل مكان! في أفريقيا، في إيطاليا في كل مكان!

- مادريه... Aiuto

- ساعدني.

يدوّي بكاء بَخيتة كصدى في الغرفة وفجأة كل شيء يتغير. لم تعد المسألة عصيانًا أو نزوة. يلمس الموضوع شيء خطير، لا تفهمه أي واحدة من الأخوات! تصرخ ميمينا بكل طاقتها وتنادي على بَخيتة "ماما، ماما!"، تشير الأم الرئيسة إلى السنيورة ميكيلي وتطلب أن تخرجها لثوان. وتطلب مادريه فبريتي منها أن تقول كل ما تريد قوله. لا يجب أن تكون خائفة، يجب أن تقول ما يجري. إنهن على استعداد لاكتشاف ما يجري في هذا عالم.

لكن لن يعرفن أبدًا ما باحت به الموريتا، لأنها لم تتحدث أبدًا بهذه السرعة وبكلمات كثيرة عربية وتركية، ولهجات أفريقية، وإيماءات، وتوسلات ودموع، مثل رؤية أنقاض تقترب دون إمكانية الحماية منها، ويستمعن في ذهول الكشف، على كل ما تعرفه هذه المرأة الشابة من كلمات غريبة، وآلام عميقة. لا تعرفن أنها المرة الأولى التي تحكي فيها رجال سواكن. الغرباء الذين تخدمهم والآخرين، إنها تخشى أن يأخذها الجلادون الذين هم في بعض الأحيان، عبيد قدماء، والذين يسألون أوجستو ميكيلي إذا كانت للبيع والذي يجيب عليهم: "ليس بعد". وتقبع ميمينا في حضنها كدرع. والأولاد، فتيان أو صبيان، الذين يطلبونهم الرجال في غرفهم. وأختها، كيشمت، التي تخشى أن تتعرف عليها كل عاهرة. وتقول إنها شابة وهي عجوز، وتقول إن

عمرها عشرون سنة وحدث لها كل شيء. وتقول إنها رأت الشيطان وإنها الآن تريد أن ترى الله. ولكن ليس في سواكن، لا يمكن رؤية الله في سواكن. وتتحدث عن هذا الرجل الذي كان يصرخ كل ليلة في الفندق، صرخة واحدة، مرة واحدة فقط، لكن في كل الليالي، وهي، لا تريد أن تكون خائفة بعد الآن.

وهي الطفلة التي سُرقت، الطفلة التي تُباع في الأسواق، والتي دائماً ما أطاعت *كل* ما طُلب منها، ودائماً ما شكرت أسيادها لأنهم تركوها على قيد الحياة. لقد أطاعت وحوش رهيبة وهي الآن تريد إطاعة الله. عبدة، إنه ليس خطؤها وهذا ليس عدلاً. "لا". وتُكرر كلمة "لا". هذه هي المرة الأولى. "لا". كلمتها الوحيدة. "لا".

تتحدث بهذا *الخليط* المشوش أكثر من أي وقت مضى وعندما تتوقف وهي منهكة ومستعدة أن تستسلم أو تموت، يأتيها الصوت:

- سوف أدافع عنك.

تَعلم أن هذا حقيقي. لأنها لم تخدعها أبدًا الأم الرئيسة. تأخذ مادريه فبريتي يدها ويستمر الوضع على هذا الحال، مع التي عاشت ما لن يستطيعا تخيّله، والتي عن طريق مسارات غير مفهومة، وصلت إليهما بخوفها وقوتها، بشبابها وماضيها. لم يعطهما الله علامة أكثر وضوحًا وتأثيراً لوجوده من هذه الفتاة. هما متأثرات داخليًّا. ولا يتخليان إلى أي مدى سوف يأخذهما الدفاع عن الموريتا.

ولمدة ثلاثة أيام، تأتي ماريا ميكيلي إلى المعهد وتطلب الموريتا في قاعة الاستقبال، وبالطبع مع وجود ابنتها، وهي قطعة رئيسية من استراتجيتها. وتأتي بمفردها، ثم برفقة أميرة روسية، وأخيراً، مع ابن عم لها، ضابط في الجيش. إنها تقاتل، كما تقول، "بدعم من أشخاص رفيعي المستوى" والذين نصحوها بمهاجمة أخوات هذا المعهد، اللواتي تجاوزن حقوقهن، ولذلك كتبت أيضًا إلى رئيس مجمع الأعمال الخيرية للتنديد بهن. إما أن تأخذ عبدتها من هذا المعهد، وإما أن تغلقه. وكما هو الحال في كل المعارك، فالأشخاص الذين لجأت إليهم بدلًا من مساعدتها على إعلاء صوت العقل، نفخوا في الجمر، ودفعوها إلى معركة لم تكن لتجرؤ على خوضها بدونهم. وأمام العديد من الأصدقاء المتحمسين لهذه القضية والفضوليين أيضًا والذين يريدون معرفة كيف ستحل المشكلة، تضطر ماريا أن تهاجم، فالقضية لم تعد استعادة عبدتها فقط، ولكن أيضًا كرامتها المفقودة، وبالتالي فكل الضربات مباحة، وتمر هذه الضربات بالضرورة عبر الطفلة. تشرح لميمينا أن بَخيتة ستتخلى عنها، وأمام الصغيرة، تتوسل إلى الموريتا بدموع الغيظ التي تبدو وكأنها دموع اليأس المطلق. تحمل الطفلة وتصرخ:

- أرجوكِ اعطفي عليها! أتوسل إليكِ! أنت تعرفين أنها بدونك سوف تموت. لماذا تتصرفين هكذا؟

والطفلة منغمسة في قلق سحيق، بينما تتحول بَخيتة من عبدة إلى جلاد، ومن مربية إلى قاتلة أطفال. تود بَخيتة أن تقول

إن ميمينا أعطتها الكثير من القوة والحنان والثقة، وأنها ستعيش، حتى بدونها، وإنها كبرت، ولن تمرض بعد الآن. ولكن لا تقول شيئًا. إنها تصمت وتضغط بقوة على الصليب في يدها حتى ينزف كفها. وفي المساء، وحين تجد نفسها في الغرفة مع الطفلة الصغيرة، منهكات ويكتسحهما الألم وعدم الفهم، تقول ميمينا إنها لا تريد أن تموت. وتقسم لها بَخيتة أنه لن يحدث ذلك. "أبدًا؟" وتتردد بَخيتة..." أبدًا". وتَعدها الفتاة الصغيرة أنها ستكون لطيفة في كل الأوقات، ولن تكون متقلبة ولديها نزوات وسوف تأكل ما لا يعجبها، وتلعب مع الأطفال الفقراء الذين يخيفونها، وتساعد الأخوات في غسيل الأواني، وتعتذر وهي تبكي:

- آسفة، مّامّا! آسفة!

- أنت تعرفين هذه الكلمة؟

- آسفة! تقوليها أثناء الليل.

تنظر بَخيتة إلى هذه الفتاة الصغيرة التي ستنسها بالقطع، ولكن لن تنسى هيجان تلك الأيام الملعونة.

- أريد منك أن تحبيني من جديد.

- مازلت أحبك، ميمينا.

- أنت سوداء جدًا.

- نعم.

- مثل الشيطان.

لم تتصور بَخيتة أن الأمور ستتطور بهذه السرعة. منذ متى، عادت ماريا ميكيلي؟ هل تتغير فتاة صغيرة ويصبح حبها كحب الأسياد؟ وكلتاهما تبكيان، لأنه لا ليس امامهما إلا جعل هذا الألم الغير إنساني ينساب، هذا الفراق الذي يضع نهاية لحياتهما معًا، لعبهما، طقوسهما، أغانيهما، لغتهما الخاصة بهما، أمانيهما في المساء الآتي، وكل ما يتركونه بفراقهما. لقد أعطيا لبعضهما البعض الحياة، الطفلة التي دلكتها بَخيتة واستنشقت مخاطها، والعبدة التي طالبت ميمينا بوجودها على الباخرة، ولكن لن يريا بعضهما البعض مرة أخرى. والألم لن يمحى وسيعاد تأجيجه عن طريق آلام أخرى، وبواسطة الأفراح التي ستذكرهما بالأشياء التي تبادلاها. الفرح، هذا البريق الملتهب، والذي تبدل فجأة إلى الشعور بالوحدة.

- آسفة... ميمينا... آسفة حبيبتي.

هذه هي المرة الأولى التي تملك فيها بَخيتة الخيار، ومهما كان الثمن الذي سيدفع، فهي تقرر البقاء في إيطاليا. إنها تريد أن تُعمّد وأن تصبح ابنة لأب الذي لن يتخلى عنها أبدًا.

قيل لها فقط أنه سيكون هناك ناس، كثير من الناس في قاعة الاستقبال. رجال مهمون سيسمعونها، ويسمعون السنيورة ميكيلي قبل الفصل في بقائها في المعهد أو في الذهاب مع سيدتها. لم ينطق بكلمة "دعوة قضائية". ولكنها كذلك. تجعلها مادريه فابريتي تكرر جملة قصيرة، سهلة الحفظ وتعبر عن إرادتها:

- أحب السنيورة وأحب ميمينا وأحب الله. ولكني "اخترت الله". هل تتفقين مع ذلك؟ الرجال الذين سيأتون حبيبتي، طيبون جدًا، وسترين أنهم لطيفون، ولا يتحدثون العربية ولا اللهجات السودانية. أتعرفين ذلك؟

- نعم. أطيعهم، هم؟

- لقد فهمتِ. تطيعيهم. والسنيورة ميكيلي، هي أيضًا، تطيعهم.

- الرجال. هل أعرفهم؟

- لا.

- آه... وأنت هل ستتحدثين؟

- لا. أنا أصلي. أنا أصلي كثيراً لك.

- دائماً؟

- عندما سيكون الرجال هنا. دائماً.

- متى؟

- غدًا في قاعة الاستقبال.

تحميها مادريه فابريتي من إشاعات البندقية حيث يحتل إعلان قضية العبدة عند الـكانونسيات جميع النقاشات، في الأحياء الفقيرة كما في الصالونات، في الأديرة كما في الشوارع، هناك من يطالب بالإفراج الفوري عن هذه المرأة الأفريقية التي عذبتها رئيسة طاغية، وأولئك، الأقل عدداً، الذين يتحدثون عن مربية تنقصها الإنسانية، ومستعدة أن تترك طفلة صغيرة تموت بدون أي ندم. لم تعد تسمح لها بمغادرة الدير، وبالتنزه ليلاً على شاطئ البحيرة، وبمراقبة ميمينا وجيوليا وهما تلعبان، بعد الظهيرة أو الذهاب إلى السوق لشراء الطلبات مع الأخت الطاهية، وتمنع حتى الفتيات الأخريات الكانونسيات من الذهاب إلى صالون الاستقبال منذ أن شرحت لها المسؤولة عن البوابة إن إناسًا كثيرون يأتون فقط لرؤية الموريتا وإبلاغ البندقية بأكملها. ويقال إن الفتاة الصغيرة تحتضر، ويتحدثون عن السحرة، وعن مشاريع الهروب للموريتا، فتؤكد امرأة أنها رأتها أثناء الليل في البندقية، وهي ترفرف بأذرعتها السوداء في الهواء بينما تلفظ صيغ سحرية أمام تمثال العذراء. ويُسخر أيضًا منها. ولكن لا يصدقون ما يقال تماماً.

تحترم الرئيسة وعدها، وتدافع عنها. تتوجه إلى "سلطة العمل التقي" الذي يحيل الموقف إلى بطريرك البندقية،

الكاردينال أَجستيني، الذي يحيله بدوره إلى وكيل الملك، ويُعلمه أن السنيورة ميكيليي تريد بقاء الموريتا في العبودية وهذا يتماشى مع القوانين الأفريقية التي لا تجبرها على تحريرها. وفي اليوم التالي، يأتي الجواب: "نيافتكم، بفضل الله، إن القانون الغير إنساني للعبودية، غير موجود في إيطاليا، وبالتالي العبد الذي يضع قدمه على الأرض الإيطالية يكسر قيوده تلقائيًّا". وتقابل الرئيسة ومادريه فبريتي رئيس الرهبانية الخيرية، بحضور رئيس الدير الرئيسي. وهم أيضًا، مثل الكهنة البسطاء والأسقف، ومثل الناس العاديين من الشعب والبورجوازية، ومثل رجال القانون والمعاونين المرؤوسين، فهم مهتمون وشغوفون بهذه القضية.

لم ترن الأجراس. وهذا ما يشغل بال سكان حي دورسودورو في هذا الصباح، عندما ترسو الجندول البيضاء المزينة بالأحمر والذهبي للكاردينال البطريرك على ضفاف الجراند قنال. إن الحدث غير عادي ورغم هذا لم ترن الأجراس، ولا يبدو أن هناك أي تجمع أو احتفال رسمي. يعبر المطران الساحة، ويتبعه حشد يزداد نموًا، نساء من الشعب وبرجوازيات ينحنين أمامه، ويحاولن التقرب منه لتقبيل ذبلته الذهبية، ويباركهن وهو يسير، ويقفز أمينه المحموم بحماس وهو يتابعه. ولكن سرعان ما تشوش الجماهير ولا تعرف الطريق الذي يجب أن تسلكه، بعد الاعلان عن وصول وكيل الملك شخصيًّا! ويسري في الحي مشاعر من الخوف الممزوجة بالإعجاب. ويتكرر اسم الموريتا في الأزقة وعلى الجسور، في الساحات والقصور، في محلات الحرفيين،

والمستودعات. ويرتبط اسم العبدة بأعلى الشخصيات الإيطالية، والكنيسة والملك. هل نفوذها كبير لهذه الدرجة، هذه العبدة المسكينة التي تعرفت على الله. وتُضاء الشموع في الكنيسة الكبيرة وأيضًا في أكثر الكنائس تواضعًا، وأسفل التماثيل، وفي المصليات. والبندقية تُضاء في وسط النهار وتصلي في ساعات العمل.

ويُطلب منها، هي، البقاء في الكنيسة الصغيرة حتى تأتي مادريه فبريتي لأخذها. وقد أخذوا منها ميمينا بالفعل، وهي لا تعرف حتى الآن أن ذلك سوف يكون للأبد. وهي تحمي نفسها من هذا التمزق. ويجلس وراء باب الكنيسة الصغيرة، الأقوياء أصحاب النفوذ الذين سيقررون إذا ما كانت ستبقى أو ستغادر. وتعرف إنها سوف تقول لهم هذه الجملة: "أحب السنيورة، أحب ميمينا، أحب الله، ولكن اختار الله". وقد كررت مادريه فبريتي هذه العبارة كثيراً. وطلبت منها أن لا تتفوه بكلمات أفريقية ولا تقوم بحركات كبيرة وتنتبه لصوتها العميق جدًا، وأن لا تنظر إطلاقًا لميمينا. وإذا بكت لا تذهب لمواساتها. وتتركها مع والدتها *دائمًا*. ويجب أن تظل هادئة *مهما كان الموقف*.

وتبدو قاعة الاستقبال وكأنها ساحة محكمة جنايات. ويجلس نيافة البطريرك الكاردينال على الأريكة، التي فوقها الصليب العاري الذي يتناقض مع ملابسه المخملية الحمراء، ومعاونه إلى جانبه وقد وضع مكتب وكراسة كبيرة. والكل متواجد، وكيل الملك، ورئيس وأعضاء الرهبانية الخيرية، والمستشارون، والنبلاء،

والسنيورة ميكيلي مع حلفائها، والراهبة الرئيسة، ومادريه فبريتي، وبعض الأخوات. وتجلس، ميمينا التي تكره هذه القاعة، على ركب ماريا ميكيلي، وبَخيتة ليست هنا، وتطلب منها والدتها التوقف عن التحرك، لكنها تبحث عنها، وتعتقد أنها *تراها* عند دخول أي شخص، وهي تريد أن تتبول "لقد ذهبت إلى الحمام بالفعل ثلاث مرات، توقفي". نعم، ذهبت بها ثلاث مرات، لكنها لم تجد بَخيتة، فأين هي؟ وتقبلها والدتها وتهمس لها أن تتوقف عن الحركة والكلام وسوف تحضر لها هدية إذا ظلت هادئة ومطيعة، وتطلب منها النظر إلى هذه الصلبان الجميلة والكبيرة على ملابس هؤلاء السادة الظرفاء الذين سيتحولون إلى بشر أشرار، إذا ذهبت مرة أخرى لتتبول، *هل فهمتها*؟

وتبدأ في الفهم خاصة عندما يأخذ الكاردينال البطريرك الكلمة. وتتعرف على الكلمات، وهي نفسها دائماً منذ أن عادت والدتها: "الموريتا، عبودية، ميمينا، تموت"، وهي كلمات تتحدث عنها. هذا الحديث طويل ولا يهمها، لكن تتخشب والدتها، وتضغط عليها بقوة وميمينا قلقة، إنها تريد أن تغادر، وعادة لا أحد يتركها مع الكبار، ولا حتى في المناسبات الاحتفالية، ولا يحق لفتاة صغيرة أن تبقى هذا الوقت الطويل مع كل هؤلاء البالغين، ولماذا بَخيتة ليست هنا؟ تنظر إلى الرجال ذو اللون الأحمر والأرجواني والذهبي، وهذه الأوشحة والمعاطف والقبعات المستديرة وأثواب الكهنة، والقبعات المثلثة القرون والطواقي، واللمعان الذي يحدثه المخمل والحرير في القاعة المفرطة التدفئة، حيث كان من الخطأ إضاءة نار كبيرة في المدفئة. وتقول

والدتها بصوت عال جدًا، والدموع تملئ صوتها، إن الموريتا ابنتها، وتحبها مثل ابنتها، وأنهن عائلة واحدة، وأعطتها غرفة وملابس وقبعات وأقراطًا من الذهب، وقبل كل ذلك، أأتمنتها على ابنتها. لم تعد ميمينا تريد سماع والدتها وهي تخبر الجميع أنها ستموت، وتبكي بعد ذلك، لأن على الرغم من وعد بَخيتة لها بأنها لن تموت، فإن هذا الكلام يبكيها دائمًا. تقضي عليها هذه القصة المأساوية التي ترويها والدتها، وتنادي على بَخيتة. وبدلًا من الذهاب لإحضار مربيتها، تشير والدتها عليها وتريها إلى هؤلاء الرجال المتنكرين وجميع هؤلاء الناس الذين يحركون أعناقهم من أجل رؤية أفضل، وتصيح: "هذه هي! هذه هي النتيجة! إنها تبكي منذ الآن". وتجلس وتضع ميمينا على ركبتيها، وأصدقائها يأخذون الكلمة، الضابط، والأميرة، وتتكرر نفس الكلمات: "موريتا، عبودية، ميمينا، تموت"، وتخلط الصغيرة في النهاية كل شيء، وتتساءل هل بَخيتة مريضة، هل ستموت، وأين هي؟ ويبدو الأمر في غاية الخطورة. يقوم هؤلاء الناس بحركات وإيماءات كثيرة. هؤلاء الناس بشكلهم القبيح وسنهم المتقدم. أين ذهبت (مّامّا) التي لا ينبغي أن تناديها (مّامّا)؟ أين هي؟ وتصنع دموعها أنغامًا ناعمة في هذه الحجرة المزدحمة.

- فلنستمع إلى الطرف المعني.

وكأننا لم نعد ننتظره، وكما لو أننا نسينا "الطرف المعنى" بسبب هذه الأحاديث الكثيرة. ويُعدل الكل من جلسته، ويُحسن وضعه لكي يسمع أفضل، ويتنحنح كما في الأوبرا قبل بداية

العرض. الجو حار جدًا وخانق. وسوف تبدأ هذه الجلسة المهمة. والزنجية التي لا تجيد الكلام (وقد حذروهم من ذلك) سوف تصل. ويقولون إنها تصلي في الكنيسة الصغيرة، وهي تصلي دون توقف إلى الرب. ويقولون إنها سوداء جدًا، وعليهم إخفاء دهشتهم وأن يتحصنوا بكثير من الصبر.

تدخل مادريه فابريتي في الكنيسة الصغيرة حيث تجلس بَخيتة، ووجهها محني على كفها، والصليب مثل يد أخرى في يدها. تراها بَخيتة وتفهم. تأتي لأخذها. إنها ستأخذها إلى الرجال الأغنياء الذين ستتلو أمامهم ببطء العبارة المحفوظة. بالنظر إلى الوجه الرصين لمادريه فبريتي، وإلى ابتسامتها الحزينة والمُشجعة، تستشعر بَخيتة أن الأمور لن تكون سهلة، ويتضخم قلبها في صدرها، وترتعش يداها، وعندما تنهض، تشعر بقدمها اليمنى تتخشب. وبخطواتها المترددة، وبارتباكها وتصميمها، تدخل إلى قاعة الاستقبال التي لم تعد لها أي صلة بالقاعة التي تعرفها، وهي مكتظة بالبشر. إنه سوق. ساحة عامة يغلفها ضباب الحرارة. وتسمع ميمينا دون أن تراها. "بَخيتة!" وهو الشيء الوحيد الذي تتعرف عليه. نداء الطفلة. حتى الأخوات لم تعد تعرفهن في هذا الحشد، أصبحن أكثر طولاً، وأكثر عددًا، وهن متصلبات مثل التماثيل الأخرى. وتشعر بكل الآخرين، وهم يعانون من الحر ومن العطش. إنهم خائفون أيضًا. تعرف منذ البداية أين يجلس الأكثر نفوذًا، وتتعرف عليهم مباشرة. إنهم جالسون على الأريكة. ومن حولهم، هذه الوحشية، وهذا الفضول اللذان ينظران به في اتجاهها. وتسمع همسات، وفي عيونهم ترى تقييمهم لها.

تأخذها مادريه فبريتي أمام البطريرك ووكيل الملك، ثم ترجع إلى الوراء وتبتعد وتتركها بمفردها. يبتسم الكاردينال ويتوجه إلى الجميع وهو ينظر إلى العبدة:

- آه! ها هي الموريتا التي تخصنا!

وبإحساس بالرضا، يتابع:

- أعطى الله للجميع الإرادة الحرة! مهما كان عرقنا أو ديننا.

سيتحدث هذا الرجل لفترة طويلة، وهذا واضح. لا يبدو قاسيًا. يبدو سعيدًا، ومُتعب بعض الشيء، لقد أكل كثيراً ولا ينام بشكل جيد. ويشعر بالحرارة أيضًا، وصوته له صدى، وهو يتحدث إلى الجميع وليس لأحد. يتحدث إلى نفسه. تنتظر بَخيتة اللحظة المناسبة لتُدخل جملتها ولكن الكاردينال يترافع. طويلًا. يتحدث عن الحب المطلق والمستقبل غير المؤكد، وعن مصيرها عند الخروج من المعهد، وهل هي مدركة بالمخاطر التي تتربص بالآنسات في هذا البلد، وهي أجنبية في إيطاليا. أليس من الأفضل، بعد تعميدها، أن تتبع إلى أفريقيا الجميلة، السنيورة ميكيلي التي وعدت بالاعتناء بها دائماً، هذه الفريسة السهلة والمجردة من الإمكانيات، المتواضعة بين المتواضعات، الفقيرة بين الفقراء...؟ لا تفهم بَخيتة أي شيء. وحين ينتهي، تستدير وتبحث بنظرتها عن مادريه فابريتي، التي تدفع بالحشد الصغير من أجل الوصول إليها، وتهمس في أذنها، محاولة ترجمة الحديث بإيجاز، وتبلغها أنها يجب أن تقول جملتها الآن، هل تتذكرها؟

- أنا أحب...

تشير مادريه فابريتي إلى حنجرتها، مما يعني أن تتكلم برصانة أقل، وبصوت أكثر نعومة.

- أنا أحب...

وفجأة لم تعد قادرة على ذلك. كلهم من حولها على جمر المعرفة. لديها مشكلة في التنفس مع نفاذ الصبر هذا، وتود أن تهرب وتختبئ، ولكن لا تفعل هذا، هي ناعمة ولطيفة، وهم ينتظرون بصبر وبقوة. إذًا؟ يجب أن تعبر عن حبها. في جملة. كل ما يسكنها. جملة واحدة. الآن.

- أنا أحب...

من الذي يستطيع فهم ذلك؟ أنها ستؤذي الشخص الوحيد الذي تحبه :

- ميمينا...

لا تكفي هذه الحقيقة. يجب أن تذهب إلى أبعد من ذلك. يجب الاستمرار. قليل من الوقت وكل شيء سينتهي.

- وأريد الله.

إنها تنهار وتقع على الأرض، متكوّرة على نفسها. وتسمع حدة الصرخة الغير إنسانية، صرخة الحيوان الذي يعلن الموت والتي لا تفيد في شيء، "ماما! ماما! Aiuto! ماما!" وتشتعل قاعة الاستقبال وهي لا تنقذ ميمينا، وتتركها وحيدة في وسط النيران والدمار، ولا تجيب عليها، ولن تجيب عليها أبدًا. "أبدًا". هذه هي

الحقيقة الوحيدة. "أبدًا بعد الآن!" وتضرب جبهتها على الأرض، ويتم إخلاء القاعة، وتؤخذ الفتاة الصغيرة التي تصرخ، وتُحمل بعيدًا عن هذه الزنجية التي تصرخ ماريا ميكيلي فيها كلعنة "ناكرة! جاحدة!". لم تعد تسمع بَخيتة شيئًا. لا الحب، ولا الكره، ولا الوداع، ولا الحكم، ولا تسمع هذه الجملة التي تنتظرها منذ ثلاثة عشر عامًا: "أُعلن الموريتا حرة". لا تسمعها.

نطق وكيل الملك بهذه الجملة وهو مليء بمشاعر لم يكن يتصور وجودها. وهو محبط بعض الشيء لأنها لم تشكره، وتُقبل يديه، ولم تنحن عند قدميه. وهو يعتقد أنها تبكي من الفرحة، بينما هي مُدمرة. وفي الحقيقة لن تتعافى أبدًا مما حدث. لقد تخلت عن ابنتها الصغيرة.

ونحن يوم الجمعة 9 نوفمبر 1889. وبَخيتة حرة.

II

من الحرية إلى القداسة

في صباح اليوم التالي، عندما جاءت مادريه فبريتي لأخذها من غرفتها وجدت بَخيتة نائمة، متقوقعة في سرير ميمينا. وهي تنظر إلى هذا الشخص البالغ والأسود في سرير الطفل الأبيض، وترى عبء كل شيء تجهله، ماضي ما قبل العبودية، الطفولة. والوحدة. الحليف الأبدي. وجهها تالف، لا يحمل أي تحرر أو نشوة، يحمل التعب والدموع. هذه أم سُلبت حقوقها. طفلة مُنهكة ومُذنبة.

لم يحضر ستيفانو القضية، ترك السنيورة ميكيلي تُقاتل وتُطالب، وهو المدير المشرف على أموالها ولم يكن يريد أن يراها مثلما رآها الجميع، امرأة قاسية تتصور أنها مالكة لغيرها. وهو يعرفها، ويعلم أن ماريا ميكيلي أم خائفة من البقاء بمفردها مع طفلتها. خائفة من قتلها. خائفة من كونها لا تحمل غير ذلك، موت أولادها. والطفلة تبقى بدون نوم، بدون شهية، وبالتأكيد هي أيضًا لن تتعافى أبدًا من جرحها. هذا الاختطاف في قاعة الاستقبال. سمعت لعنة والدتها "ناكرة! ناكرة!" وصفارات الحشد الذي كان ينتظرهما أمام المعهد وواكبهما في البندقية والذي كان يشتم الأم، ويشفق على الطفلة. وكانوا يصرخون لبعضهم البعض في هذه الشوارع المطلية بالظلال والنور: "الموريتا، حرة"! الموريتا! الموريتا حرة! "يا إلهي" يسوع! مريم،

يوسف! "مريم!". قبل السجود على الأرض على الركبتين، الأيدي مضمومة والعيون إلى السماء. وستحتفظ ميمينا بهذا الخوف الغريزي من الحشود، وهذا الشعور المشوش تجاه والدتها، حب يلوثه القلق. حب والدتها بمثابة تهديد بالموت.

بعد يومين من المحاكمة، ذهب ستيفانو وكليمنتينا وأولادهم الخمسة إلى المعهد، وقرروا أمام المظهر الشاحب لأختهم الصغيرة موريتا، الخروج معها في نزهة على امتداد البحيرة، لكنهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم بعد خطوات قليلة من زاوية المعهد. فالخروج مع بَخيتة في البندقية درب من دروب المستحيل، كابوس كان لابد أن يَعوا بصعوبته. فمن اليوم السابق، يقرع سكان دورسودورو باب المعهد، وهم محملون بالورود، والهدايا الصغيرة. إنهم يريدون إظهار حبهم للعبدة المُحررة، ويريدون رؤيتها، وإذا أمكن لمسها.

الجو بارد جدًا في أوائل شهر ديسمبر، ويتجمعون حول النار المضيئة في قاعة الاستقبال المظلمة، والذي من الصعب التصور أنها، منذ بضعة أيام، ضمت هنا الكم من المشاهير. بإشارة من والدهم شيارا ومليا، لا يتركان الموريتا، ويقفزان على ركبتيها، في محاولة لملء الفراغ الذي تركته ميمينا، لكنهما بذلك السلوك يؤكدان على عكس ذلك، لأنهما لم يعيشا منذ الطفولة في جسد بَخيتة، ولا يعرفان كيف كانتا تمشيان معًا بطريقة طبيعية، دون أي تفكير وحتى بدون معرفة بذلك، متناسيات أنهما متشابكات، كما ننسى أننا نتنفس أو أننا نضع قدمًا أمام الآخر لنمشي. يريد

ستيفانو بشدة أن تستعيد بَخيتة الفرحة، ويأخذ يديها في يده.

- الآن يا أخت يا صغيرة، أنتِ حرة!

- نعم، بابو.

- يجب أن لا تحزني.

- لا.

- سوف تكوني ابنة الله ودائماً ما ستكون فرحتك هائلة.

- هائلة، أعرف.

- وأنتِ ابنتي، أنا أيضًا! أنا لست الله، ولكن...

- وبيتنا سيكون دائماً منزلك، تقول كليمنتينا.

- نعم! أولادنا هم أخواتك وإخوانك، وبعد موتي سيكون ميراثي للجميع، كل ما أملكه هو لك، ولن تكوني أبدًا في احتياج، أبدًا لوحدك. لا تحزني. هاه؟ هل تفهمين ماذا أقول لك.

هي تفهم وهي خائفة. هل ستصبح حقًا ابنة الله؟ هذا الحب "الهائل"، هذا الحب الذي يشكل اليوم الذي يبدأ واليوم الذي يغرب، هذا الحب لكل ما يعيش، لكل ما هو كائن، هذا الحب... الغير محتمل. لقد حفروا صدرها حتى القلب، وانتزعوه والآن ترى، ما يحويه. ما كانت تحميه، وما كانت تحجبه حتى لا تموت، أمها. ليست المادونا (العذراء)، لا، أمها، هذه المرأة الجالسة في الصباح، على جذع شجرة الباوباب، على الأرض. تفتقدها. هذا بسيط إلى أقصى درجة. لا تعلم الكلمات لكن تعرف أن هذا

النقص ليس له اسم. سوف تصبح ابنة الله، وتتساءل إذا كان في داخله، وهو يحتوي على كل شيء، سيكون هناك القليل من أمها. ما يتأجج الآن هو عنف هذا الشعور الوحشي، الذي يُسمرها في الأرض. وهي تعرف أنهم على حق، هي على الأرض بينما كان ينبغي أن تغلفها الفرحة. سوف تصبح ابنة الذي تسميه "البرون" والذي لن يصبح فقط السيد، ولكن أيضًا الغفران. غفران العصيان. الغفران من أمها. الغفران من كيشمت، من بيناه، لكل العبيد. الغفران للحب المفقود. وتبتسم لستيفانو، لأنها لا تفهم كل ما قاله لها، لكنه جميل جدًا بحنانه الذي لا حول ولا قوة له، وبحضوره الأرعن. ولإرضائه، تقول:

- أنا أفهم كل شيء بابو.

- آه، أعرف أنك حقّقت تقدمًا كبيراً في الفنيثي، قلت للأخوات، ستحقق تقدمًا هائلًا، وستعرف العد والقراءة، والكتابة و.....

- هل تراها؟

- من؟

- ميمينا.

يؤخذ ستيفانو على غرة، ويشير إلى شيارا ومليا بالابتعاد.

- ماذا تفعلان هنا؟ تخنقانها بالمداعبة والقبلات، لم تعد تقوى على التنفس، المسكينة. بالطبع، رأيتها. إنها بخير.

- حزينة ؟

- لا. إنها بخير. أقول لك.

- هل تبكي؟

- لا. لا! هي سعيدة من أجلك! إنها تبتهج، مثلنا جميعًا! نحن جميعًا سعداء. أليس كذلك؟

- ستيفانو، توقف.

تنظر كليمنتينا إلى بَخيتة في عينيها وتتحدث معها بهدوء، كما لو أن نبرة الصوت يمكن أن تخفف من وطأة الأخبار:

- سافرت ميمينا. ميمينا في سواكن.

وتفهم بَخيتة. استبدلا بلادهما. أعطيا لبعضهما البعض أراضيهما، وترى كل شيء من جديد. القطار والباخرة ومحطات التوقف والبحر الأحمر وجزيرة سواكن وشواطئ أفريقيا في الضباب والفندق. الرجال. الأطفال عند البوابة، المطردون من البستاني. وميمينا التي تلعب بالقرب من النافورة حيث تعلمت المشي.

- هذا جيد.

إنها تثق في ميمينا وتعرفها. لا تظن أنها تبتسم طوال الوقت، وتعلم أنها تبكي وتنادي عليها، لأنها تسمعها. لكنها تعرف أيضًا أن هذه الفتاة الصغيرة الحُرة والبيضاء، الثرية والتي لديها فضول لكل شيء، والحنونة والتي تحب الضحك، هذه الفتاة الصغيرة سوف تصنع ضوءًا جميلًا على هذه الأرض الشهيدة للسودان. ومن يعلم؟ وربما في يوم ما، بدون أن تعرف، ستقابل أختها. أو بيناه. لا نعرف، فنحن لا نعرف أبدًا أين تقودنا الحياة.

مادريه، ابدئي من جديد. من فضلك ابدئي مرة أخرى.

لم تُعد مادريه فابريتي أبدًا، بهذه المثابرة، إنسانة بالغة للمعمودية. كل يوم، تطلب منها بَخيتة أن تعيد لها الكلمات التي عليها نطقها، تخشى أن تخطئ، كما في المحاكمة، وكل يوم تكرر لنفسها هذه الكلمات "الإيمان، الحياة الأبدية، أتخلي! أريده! عقيدة، قانون الإيمان! الإيمان، الحياة الأبدية، أريده، أتخلي". تخاف مادريه فابريتي أن تخلط بَخيتة الكلمات، ثم ما تلبث وأن تقول لنفسها إنها يجب أن تثق فيها. في الحادية والعشرين من عمرها، لديها هذا الخليط من الضعف والقوة، وطاقتها هائلة، وذكاؤها عميق، وهي أيضًا تحب المزاح، كثيراً ما تتجرأ وتظهر روح الفكاهة التي تتحلى بها، والتي لا تُفهم بشكل جيد، لكنها تبتسم ويظن المستمع إليها أن هذا نوعًا من الحنان، والمزاج الجيد، لإخفاء اضطرابها.

شرحت مادريه فابريتي لبَخيتة من أين ستدخل إلى الكنيسة الصغيرة وأين سيقف الكاردينال، والإيماءات التي سيقوم بها، والكلمات التي سينطقها، وترتيبها والسبب وراء ذلك. لقد لعبت كل الأدوار، دور بَخيتة والكاردينال والكاهن والأشبين، وكانت حريصة أن تُبلغها أن أعداد كبيرة من البشر سوف تحضر. في الكنيسة الصغيرة. في المعهد. وفي الساحة الصغيرة. تعرف أن

نظرة الآخرين عليها مليئة بالعنف المرتبط بالاشتهاء. وتتمنى أن تدخل إلى الكنيسة كما تدخل إلى بيتها، بثقة وسلام. هل سيكون ذلك ممكنًا؟

في 9 يناير 1890، في مدينة البندقية، الصباح صافي، والشمس سخية، واليوم هو تاريخ تعميدها. تعرف بَخيتة أن الأمور ستسير على عكس ما كانت عليه القضية. سيكون هناك رجال أصحاب نفوذ، والأخوات، وعائلة الشيشيني، وجمهور فضولي، ولكن تعرف أنه لن يقال لها ("ناكرة! ناكرة!") وعلى العكس من ذلك سيرحب بها. لكن هل لها الحق في ذلك؟ هي مازالت عبدة. العبودية لا تمُحى. إنها ليست تجربة تنتمي إلى الماضي. ولكن من حقها أن تُحب، لذا فهذا اليوم الآتي هو مكافأتها. لقد مشت كثيراً حتى هذا اليوم. مشت سنوات. مشت حتى آل برون. مشت لكي لا تطيع أي أوامر أخرى على الإطلاق، ولا تسجد أمام أسياد آخرين.

زينت الكنيسة الصغيرة المضاءة وتُجملها الزهور في كل مكان. وقد امتلأت سريعًا بالبشر. لا يكف جرس المعهد عن الرنين، والمسؤولة عن البوابة تواجه كم هائل من الضيوف الذين يتوافدون، من الأقرباء وأيضًا الغرباء، والنبلاء، والمثقفين، وبعض الفنانين، وجميعهم ليسوا إيطاليين، هم جزء من تلك النخبة الفكرية والأوربية التي تعيش في القصور القديمة، والقصور الارستقراطية والفنادق الضخمة. ويتزاحم أيضًا، سكان عاديون من البندقية على الساحة الصغيرة ويفيض عددهم في

كل حي دورسودورو، والذين كانوا خائفين إلى حد الرعب من الموريتا ويسخرون منها يتباهون الآن بمعرفتها.

ويملأ الفضول النساء الشعبيات لرؤية تلك التي تأتي من أفريقيا البعيدة والحيوانية، حيث يأكل الرجال بعضهم البعض، والأطفال يباعون والقرى تُحرق، وهن مطمئنات إنه سيتم نجاتها من قبل *ربهن*، الذي يتقبلن باسمه الكثير من المعاناة الغير مقبولة. واليوم، يحبون الموريتا بحماس مليء بالأمل، فهي أكثر فقراً منهن وها هي أصبحت مشهورة. وترن أجراس المعهد والكنيسة الكبيرة، وتتوالى الأحداث من جديد، الكاردينال البطريريك وحاشيته والمسؤولون، وكلهم يعودون إلى حيهم، ويذهبون إلى هذا المعهد المليء باللقطاء والفتيات الأميات، الذي فقرهم يصبح جزءًا من ألق هذا الحدث، مثل انعكاس الضوء.

ولكن من الذي يراهم؟ من الذي ينظر إليهم، أولئك الذين يتركون عند البوابة؟ تُزاحم امرأة صغيرة في الحجم، ونحيلة ومتلهفة، الجميع وتقف على عتبة باب الكنيسة التي فتحوا أبوابها الخشبية على مصراعيها، وعلى أطراف أصابعها، تنظر إلى الجمال في الداخل. ثم تستدير نحو الجماهير المتجمعة في الساحة الصغيرة، وتصرخ شارحة ما تراه، وتحكي القصة، وماذا يجري. ماما ميا، كم هذا جميل. وكم هو رائع أن نؤمن.

فقدت الكنيسة الصغيرة من تواضعها، وهي تظهر في شكلها الثرى والبراق، ولمعان الشموع والورود والثياب الثقيلة والملونة للمحتفلين بالقداس، والجمع الذي يرتدي أحلى ثيابه.

ويتجه الاهتمام إلى ستيفانو ويسألونه عن شكلها عندما جاءت من بلادها. كيف كانت السوداء؟ ماذا يُعنى بالنسبة لك النجاح في إنقاذها؟ وتجرؤ امرأة على التقدم إلى الجانب المخصص للرجال، لتسأله إذا كان صحيحًا أنها تعرضت للتعذيب؟ هل حرقت مثل القديس جورج أو القديسة جان؟ هل سيسافر للحج إلى العذراء لتقديم الشكر؟ ولكن يظل ستيفانو صامتًا. يخنقه القلق بسبب خوفه على الموريتا. وهو سعيد أيضًا. لقد قاتل خمس سنوات من أجل هذا اليوم، ويتذكرها، في اليوم التالي لوصولها إلى زيانيجو، عندما رآها عند أوجستو ميكيلي. يتساءل إذا كانت الصدمة التي حدثت له كان بسبب لونها، هذا الأسود الغميق، والذي ليس فيه ثغرة، أو بسبب حضورها القوي. إنه أحبها منذ اللحظة الأولى حبًا أبويًّا. هل هذا ممكن؟ ينظر إلى خط المعمودية الذي حفر في الحائط القرميد ويعتقد أنه شيء عادل أن تُعمد بَخيتة حيث يعيش أبناء الشعب الضائعين والذين ينقصهم الحب السوي. ويقف بطريقة مستقيمة. حتى لا ترى إلا هو عند دخولها الكنيسة.

إنها تنتظر في الزاوية الصغيرة التابعة للكنيسة. تركع على ركبتيها وهي مستغرقة في التأمل وتجميع أحداث حياتها. تفكر في توأمها وتقول لها: انظري كيف أنا مرتدية، هذه الثياب يوازي جمالها الطلاء الأحمر على الجسد العاري لأمنا وجمال اللآلئ والأساور التي كنا نرتديها. الرماد الأبيض. الجفون التي يكسوها الوشم. انظري إلى ما ستبْدين عليه إذا كنت تعيشين هنا في

إيطاليا، بعيدًا جدًا بعد النيل. إنك عبرتي الصحاري والبحور معي وأشكرك لأنك كنت، أيضًا، إلى جانب أمنا. لا تتركيها أبدًا.

تسمع مادريه فابريتي وهي تقترب، وتنهض. ويؤلمها فخذها وهو ألم مألوف، وتقريبًا مطمئن.

- جئت لأخذك معي، يا حبيبتي.

ثم تهمس:

- يا إلهي، بَخيتة... كم أنت جميلة.

تستمع بَخيتة إلى هذه الكلمة التي لم تعد مرتبطة بالشهوة، ولكن بالاحترام. وهي بالفعل جميلة في معطفها الأرجواني، ووجهها المُغطّى بطرحة سوداء، طويلة وشفافة. وعودها الطويل، والمهيب، وتشير لها مادريه فابريتي كي ترفع وجهها. وهذا شيء صعب، فهي ليست معتادة عليه. وتعبر الدير الذي تنتظر في وسطه اليتيمات الصغيرات من المعهد لرؤيتها. الجو بارد ويقفن بمعاطفهن الرمادية وجواربهن السميكة البارزة من قباقبهن. وتود أن تقول لهن إنها تحبهن. لكن لا تعرف كيف تقول هذه الجملة بصيغة الجمع. تود أن تقول لهن أنها تعرفهن. انتظارهن المتخوف، والأمل المختلط بكثير من القلق، والذي تعرف ماذا يعنى. وتتمنى لها صغيرة، أكثر إقدامًا من الأخريات، حظًا سعيدًا، والأخريات يسخرن منها لأنها جرؤت على التحدث للموريتا. إنها تضع يدها على وجه كل واحدة من هذه الفتيات الصغيرات اللواتي تصورت عند وصولها أنهن عبدات مثلها.

تقف أمام الباب الجانبي للكنيسة ومادريه فابريتي إلى جانبها. وتقرع الباب ثلاث مرات. بقوة وببطء. ويُفتح لها الباب. وتظل صامتة، على عتبته، وتتذكر أنها يجب أن ترفع رأسها. ينتظرها والدها اليوم وسوف تجده، البرون. الكنيسة مليئة بالناس، ولا ترى ستيفانو لكنها تعرف أنه هنا مع كلمنتينا وأولادهم. وتتذكر ما يجب عليها فعله، إنها في هذه اللحظة المختصرة والقوية التي لن يأتي فيها أي شيء آخر غير الحدث. وتسمع صلاة الكاردينال بطريرك من فنيسيا، دومنيكو أجوسيني، ثم يتقدم في وسط الحشد المنتبه لاصطحابها، وتوصيلها إلى إشبينها، الكونت ماركو سورانزو، فأشبينتها مريضة وهو يمثلها. وتحتفظ بأيديها مضمومة، وهي تشعر بارتعاش ساقيها وأن الخوف عاد، بالرغم منها. أنفاسها تجعل الطرحة الطويلة ترتعش. ويتردد صدى صوت الكاردينال، المرتفع والحاسم في الجدران من الطوب.

- ما اسمك؟

يخترقها السؤال الذي لم تكن تتوقعه. إنه العار الأكبر في حياتها، هذا النسيان لاسمها. هل الله لا يقبل الأطفال المسروقين؟ لم تجعلها مادريه فابريتي تكرر هذا السؤال. تلقي نظرة مرعوبة على الأخت. ويبدو الصمت أبديًا. ما اسمها؟ ما اسمها...؟ لا... مستحيل. آسفة إلى الجميع. وتخفض رأسها. انتهى.

"ليس لها اسم!" تستدير المرأة القصيرة المليئة بالفضول، نحو الجماهير وتتضخم الإشاعة، مع خيبة الأمل والانتظار

الراغب في شيء ما. وتنتشر الهمسات في الكنيسة ويسعل البعض والحضور مذهول. لكن يطرح الكاردينال السؤال الثاني.

- ماذا تطلبين من كنيسة الله ؟

المسألة مستمرة إذاً؟ يجب أن تجمع قواها. يجب أن تنظر إليه وهي تجيب عليه، فهكذا أخبرتها مادريه فابريتي. ترفع وجهها المحجب وتجتهد أن تجيب بثقة:

- الإيمان!.

- ماذا يعطيك الإيمان؟

تعرف الإجابة. قالتها بالفعل. قالتها وكررتها. تتطلع بعينيها إلى السماء لإظهار ما يعطي الإيمان، إنه فوق: "الحب وشفاء الحب." يتنهد الكاردينال ويجيب:

- الحياة الأبدية، نعم، هو كذلك.

يتنفس الجميع الصعداء، والمرأة الصغيرة الحجم الفضولية، تستدير نحو الساحة وتصيح:

- أجابت بشكل جيد! الحياة الأبدية!

وتأتي اللحظة التي ينتظرها الجميع بهيبة ومتعة. القصة المرعبة التي يعرفونها منذ الطفولة. القصة التي تخيف وتريح. أحياناً.

- الرقية! الرقية!! تصرخ المرأة المتلهفة على العتبة، ويَسجد الحشد الصغير ويرسم علامة الصليب. تختفي شمس البندقية.

وتبكي فتيات صغيرات وتُقبل الميداليات والمسابح. الرجال، النساء، الأطفال، المسنون، كلهم متحدون، ومتشابهون ومتواضعون، ويستقر في الكنيسة ظِل الخوف على التجمع. من يدري؟ الشيطان يمكن أن يفوز. ألم يتحدثوا عن الشيطان الأسود بخصوص الموريتا؟ من هي حقًا هذه الأجنبية بدون اسم وبدون لغة، التي بدأنا في حبها فجأة؟ يجد البعض أن هذه اللحظة غريبة ولذيذة، وتجتاحهم منذ الآن الرغبة في حكيها، في كتابتها، أو حتى في رسمها. وستظهر الحقيقة الآن أو لن تظهر أبدًا. وسوف يُعرف في أي جانب تقبع قوى الشر. يقترب الكاردينال من بَخيتة وينفخ ثلاث مرات في وجهها. ترتجف الطرحة وجفونها مغلقة. إنها تنتظر. وتشعر على كتفيها، بوزن أثقل من معطفها، بسبب هذا الجو من الفضول المرتاب والرفض المستعد للظهور.

- أناشدك، أيها الشيطان، يا عدو خلاص الرجال، أن تعترف بعدالة وطيبة الله الأب الذي من خلال حكمه العادل، أدان غرورك وطمعك. أترك خادمة لله، الذي خلقها الرب على صورته، وزينها بهباته، وبرحمته، وتبناها كابنته. أناشدك، أيها الشيطان، أمير هذا العالم، اعترف بقوة وفضيلة يسوع المسيح، الذي هزمك في الصحراء، وانتصر عليك في الحديقة، وجردك على الصليب، وعند قيامه من القبر، نقل النُصب إلى مملكة الضوء. انسحب من هذه المخلوقة، يا إبليس!

ويرسم الكاردينال علامة الصليب على جبين بَخيتة، وعلى آذانها، وعيناها، وفمها، وقلبها، وكتفيها. ترتعش وتطرد صور

الماضي، نظرة الصبية الصغار الذي كان يأخذهم الفقي لإخصائهم، صرخات الأم التي حطموا طفلها على الحجارة، جسد يبيت الصغيرة التي ماتت من تعذيب الوشم، يمكنها أن تصرخ، وإطلاق صرخة وحشية من شأنها طرد هذا الشيطان واعادة لكل هؤلاء الشهداء نعمة حياتهم. لكنها تصمت. تريد أن يقوم الكاردينال بعمل ذلك بالنيابة عنها، أن يطرد الشر بالصيغ المناسبة، إنه يعلم وحده كيف ينبغي أن تقام الطقوس وهي كلها ثقة. تُركز على الموجودين هنا والذين يحبونها، آل شيشيني، الأخوات، وتنسى الجماهير النهمة، قوة هؤلاء الذين، منذ الأزل، يحتشدون في الساحات للنظر إلى هذه الزنجية.

والآن بعد أن أفسح الشيطان المكان للروح القدس، يمكنها دخول معبد الله. ويسألها الكاردينال:

- هل تتخلين عن الشيطان؟

- سأتخلى!

- هل تتخلين عن أعماله وعن غروره؟

- سأتخلى!

ويمسح الكاردينال جبينها بالزيت المقدس.

- هل تؤمنين بالله الآب، في ابنه الوحيد يسوع المسيح وفي الروح القدس؟

- الإيمان! الإيمان!

العقيدة! العقيدة! العقيدة!

- هل تريدين أن تكوني معمدة؟

- أريد ذلك!

وهي مبلبلة ومنهكة، كما لو أنها ركضت طويلًا من أجل الوصول إلى ذلك الوقت. وتسمع اسم معموديتها، الذي يحتوي على الاسم الأول لأشبينتها في المعمودية، واسم أشبنيتها وفي سر المسَيْرون واسمها كعابدة بالإيطالية واسم العذراء واسمها كعابدة بالعربية.

Gioseffa, Margherita, Fortunata, Maria, Bakhita.

- جيوزيفا، مارجاريتا، فورتوناتا، ماريا، بَخيتة، أعمدك باسم الآب، والابن والروح القدس.

يصب الكاردينال ماء المعمودية ثلاث مرات على جبهتها المائلة، ويسقط معطفها الأرجواني على الأرض، وترفع حجابها الطويل، وتظهر، مخلوقة جديدة، ترتدي ثوبًا أبيض. ووجهها يظهر للجميع كحقيقة لا تمحى فوق ثياب النور. كبير. والبعض، ويا للعار، يفكر في الجسد الموجود تحت الثياب، ويقال أنه أسود أيضًا، أسود ويُعلم، هل من الممكن أن يترك آثار على ملابس المعمودية؟ ويتصورون، ليس من دون لذة، أن حكايتها يمكن أن تزعج نومهم وتجمد روحهم.

يعطوها شمعة كبيرة تُضيئها إلى إشبينها. وستنطق بالكلمات الأخيرة. الأمر والترخيص:

- اذهبي في سلام. الرب معك.

- آمين.

"آمين نعم!" وميمينا معها الآن. تسمعها. "آمين نعم!" وكانت ستلعب ميمينا، بكل تأكيد، بالطرحة التي سقطت على الأرض، لتصبح القديسة أليس، الإمبراطورة الجميلة. أصبحت هي وابنتها الصغيرة متشبهات الآن، الاثنتان بنات الله. ويحتويهما نفس الحب وهما منتميات إلى نفس العائلة. ولكن من سيخبر صغيرتها ميمينا، أن لها اسم الآن؟ ومن سيقول لها أن لا تناديها *بمّاما*؟

ويطلق عليها رسميًا جيوزفا، لكن دائماً سيقولون "جيوزبينا"، اسم التصغير. وسيقال بصعوبة، وباجتهاد، لأنها بالنسبة للجميع، لا تزال الموريتا. وفي شهادة المعمودية معلن إنها مولودة مسلمة ومن آباء مجهولين، ومن النوبة. لا أحد يعرف أي شيء عن تاريخها أو جغرافيتها. بلدها ليس له اسم ووالدتها غير موجودة. طفولتها هذه ليست طفولتها، هذا خيال جماعي، وسنوات تلخص في كلمة "المعاناة" وتتجاوزها في إيطاليا التي تصبح "الخلاص". الخلاص... وبالرغم من ذلك ! وهي معمدة منذ عام، وتواصل تعليمها الديني، ويُطلب منها أن تكون مُشرقة، الشاهد الحي على حب المسيح، ولكنها مُدمرة. تُرى بمفردها في الكنيسة الصغيرة، ساجدة تحت أقدام العذراء، تصلي وتبكي. يتحدثون إليها وهي لا تسمع، وهي مبلبلة، ولا يُعرف لماذا. يدعوها ستيفانو لقضاء بضعة أيام في زيانيجو، في هذه العائلة التي أصبحت عائلتها. إنها تعيش هناك أوقات من السعادة، هذه الأوقات التي تضحك فيها أخيراً، وتحكي قصصًا غير مفهومة وتحرك يديها في كل الاتجاهات. وهذا الضحك الذي يشاركونه معها هو مفاجأة ونعمة. يعتز ستيفانو بهذه الأوقات. وقد رأت بَخيتة أولاده وهم يكبرون، وحضرت حفل زفاف ابنه جيوسبي. وشاركت فرحة ستيفانو، وجمال العروس، البيضاء في ثوبها الأبيض، والوعد بالأطفال الذين سيأتون في المستقبل، والذين

سيصبحون أولاد أخيها هي أيضًا. إنه يقول لها هذا وهي تعلم أنه صحيح.

كل ما يقولونه صحيح. إنهم يحبونها. وتود بقوة أن ترد هذا الحب إليهم، أن تكون جيوسبينا التي تجلب الفرح والعرفان للجميع. وهي لا تستطيع أن تفعل ذلك. إنها تريد شيئًا *لا تستطيع* أن تقوله. تعلم أن السنة الخاصة بالتعليم الديني سوف تنتهي. وهي تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، وعليها أن تختار بين الحياة عند ستيفانو، كما يعرض عليها، أو خدمة سيدة وتصبح خادمة. فعندما تتخرجن من العهد، يكون لدى الفتيات مهر صغير، وتصبحن مسيحيات حقيقيات، وربات منازل جيدات ومطرزات رائعات. ويمكنهن أيضًا القراءة والكتابة. وسوف يعملن ويتزوجن، لأن بدون الزواج ليس لهن أي وجود. ولكن بالطبع، في حالة بَخيتة، فإن الزواج أمر مُستبعد. ولون بشرتها هو حاجز طبيعي ومتعذر عبوره. فلا زواج ولا أطفال.

وفي إحدى الليالي، وهما في نزهة على ضفاف رصيف زاتر، Zattere، تسألها مادريه فابريتي عن الذكريات التي تحتفظ بها عن طفولتها.

- أعني... الطفولة التي قبل.

- قبل أن أكون عبدة؟

- نعم. قبل أن تكوني عبدة.

لم تكن بَخيتة تتوقع ذلك. لقد سألوها من قبل بالطبع، القنصل الإيطالي، ستيفانو وأولاده... لماذا يريدون معرفة ما

تشعر به ولا تستطيع النطق به. وما تتذكره بطريقة سيئة جدًا. وبالرغم من ذلك، بحميمية شديدة. كما لو أنهم طالبوها بفهم طبيعة دمائها، أنفاسها، كل ما هي عليه. الهواء ناعم. ويختفي النهار في ضوء وردي شاحب مُلقي بحنان على السماء. عابدة... ما كان قبل ذلك؟ عابدة. حياة بعيدة جدًا، مزروعة في أعماقها، حيث الكلمات لا وجود لها. كيف تحكي عن ذلك الذي لم تعرف أبدًا العودة إليه. وتتحدث عن ذويها الذين لم تتمكن من العثور عليهم. مستحيل. تنظر أمامها إلى البحر والسماء. المنظر الشاسع والحميمي مع هذا، في هذا الليل الآتي. هناك شبكة صيد كبيرة مربوطة بحافة القنال، والأوتاد مغطاة بطحالب. وتبدو قديمة جدًا ومع هذا، فالأوتاد تحمل البندقية على هذا المياه الحية والقوية. امتدت السماء في خطوط زرقاء ورمادية تتقاطع وتختفي. المنظر شاسع لدرجة أنه يجعل الأفق يبتعد. إنه جميل جدًا. أكثر من اللازم. تنظر بَخيتة إلى الجمال الذي يهز كيانها وتقول، كما لو أنها تتحدث إلى نفسها:

- لن أخرج. أنا سأبقى.

لا تفهم مادريه فابريتي. هل تتحدث عن طفولتها؟

لكن تستدير بَخيتة نحوها ووجهها أرجواني بسبب حدة المشاعر التي في داخلها، وهي مندهشة من جرأتها الخاصة.

- لن أغادر المعهد، مادريه. أنا باقية.

مادريه فابريتي مندهشة. لكنها مع ذلك معجبة بتلك القوة. هذه الطريقة التي لديها للذهاب إلى نهاية آلامها والعودة وهي

معصومة. تود، بالطبع، الاحتفاظ بها عامًا إضافيًّا معها... ستعلمها أكثر عن البندقية، واللغة الفينيثية من أجل فهم أكثر للآخرين، وطريقة حياتهم وتفكيرهم. وستحميها أيضًا قليلًا من كل ما ينتظرها في الخارج، وهي تلقي اللوم على نفسها لمحبتها الكبيرة لها، لأن الراهبة لا تتعلق بأحد، سوى الله. ولكن هي، وضع مختلف. بَخيتة شيء آخر.

تكتب إلى مسؤولي الرهبانية، وتطلب سنة إضافية، لأن جيوسبينا تحتاج لوقت أكثر من الأخريات، وهي بطيئة، ولا تزال لا تعرف كيف تكتب بسرعة كبيرة. ويتم قبول طلبها.

وتمر سنة هكذا، سنة من التعليم الصبور، ومن البوح الصعب، ومن الراحة، ولكن أيضًا من الحزن الطويل. لم تنظر بَخيتة، هذه المرة، إلى الثلاثمئة وخمسة وستين شمسًا التي رسمتهم مادريه فابريتي لفهم مرور الوقت ولكنها شاهدت السماء والأيام التي تضيق، مُجمدة وقصيرة، السنة التي تغلق على نفسها وسوف تطردها. يجب أن تغادر، هذه المرة، المعهد وإلى الأبد. دون أي استثناء. أي خطاب وأي طلب. هي لا تعرف الكتابة، ولا يزال هناك مشكلة في فهمها، ولكنها طاهية لا مثيل لها، وتطرز، وتحيك، وتُصلح الثياب أفضل من الآخرين، وتصنع باللؤلؤ ما لا تستطيع أي فتاة أخرى فعله! أكياس نقود، وأحزمة غربية، وباقات من الزهور. سوف تصبح خادمة رائعة. مربية، ربما لا تصلح لهذا العمل، فهي تتعلق أكثر من اللازم. ولكن خادمة، فإن هذا يناسبها تمامًا.

ومن جديد، تريد شيئًا لا تجرؤ على قوله، ويجرها الزمن الذي يسرع، إلى حافة الهاوية. فحياتها مصنوعة من الانفصالات العنيفة، ومن الخطف، ومن الهروب، وقد نجت من كل شيء، ورغم هذا... في تلك اللحظة التي تعترف بها بأعمق رغباتها، تبدو وكأنها مصعوقة. صامتة وحائرة. تحاول مادريه فابريتي مرة أخرى تهدئتها، فهمها ومواساتها. دون جدوى. يجتاحها القلق. يسجنها. وهي منفصلة عن الآخرين بهذه الرغبة التي لا تنجح في الاعتراف بها.

ومن ثم، في صباح، أحد الأيام، تطلب رؤية أب الاعتراف الذي يخصها. فقد حلمت وهذا الحُلم أرجعها، مرة أخرى، إلى زمن العنف، حين لم يكن لديها أي شيء لتخسره، عندما كانت تلقى بنفسها عند أقدام القنصل ليأخذها إلى إيطاليا، وكانت تعاند، رغم رفضه المتكرر، في تحقيق حلمها، وكانت الأرض حمراء وتسمع ضحكات الجِمال، وصرير أسنانهم وأرجلهم المعوقة، تلك الضوضاء التي كانت تطرق في الليل، وهذا الصوت في حلمها الذي أيقظها وهي مذعورة. والخوف ممتد أمامها، دون أي أفق آخر. الخوف الهائل والعاري. وفجأة، قررت التحرر منه.

يستمع إليها أب الاعتراف باهتمام. ولا يرى وراء السياج الخشبي، إلا بياض عينيها، وهو يحب هاتين الشرارتين، ويحب أيضًا صوت الموريتا الذي يحدث صدى في المكان، منخفض وغريب، وحماسها كمؤمنة جديدة.

- بادريه. أريد شيئًا.

- أنا استمع إليك، جيوسبينا.

- كبير جدًا.

- هه.. كبير جدًا. نعم.

- أنا صغيرة.

- هه.

- سوداء.

- استمري. استمري.

- وهكذا.

- لا. تابعي. لا تخافي.

- بادريه.

- لا تخافي – جيوسبينا، استمري.

- أنا لن أخرج. سوف أبقى.

- بعد؟

- لا. ليس بعد.

- لكن جيوسبينا، لقد عمدت منذ عامين وتعيشي هنا منذ ثلاث سنوات.

- بادريه.

- يا جيوسبينا المسكينة.

- بادريه. أريد شيئًا.

- قولي هذا الشيء، قولي ببطء وسوف أفهم.

- أنا... أريد... أن أكون... مثل.. الأخريات.

- بيضاء؟

يستمع إلى ضحكتها. الضحك القوي الذي لا يتوقف وهو يريد أن يضحك أيضًا، من الانفراج. لقد أعتقد للحظة، أنها بسيطة التفكير، لكنه هو البسيط التفكير، حقًا.

- لكن ماذا يعني، أن تكوني مثل الأخريات؟

- راهبة.

إنها تمطر على البندقية، قطرات جليدية تسقط على البشر، وتثقب الأسقف وتخترق القنوات الصغيرة. هنا. موسم الأمطار قصير. تتردد. تتذكر تلك الأيام التي تشبه الليالي، والذي يستحوذ عليها المطر أيضًا بالليل. تتذكر المحميات التي كانوا يؤمنوها من المطر، والحيوانات الصابرة والخائفة، وغضب الأنهار، واحترامها الفَزْع لجبروت السماء. تتذكر بإحساس بعيد هذا المطر على قريتها، لون بدون ضوء، رائحة الطين والذرة المشوية. الغريب، أنها رائحة الجلد أيضًا، ربما رائحة والدتها وهي تحضنها، أو رائحة توأمها التي كانت تنام معها. تتذكر هذا المطر عند الأسياد، وغضبهم الذي كان يدهشها في البداية، ثم لم يَعد يُدهشها، عندما فهمت أنهم يكرهون كل من لا يطيعهم. يدق المطر ويتضخم في جداول على الأرصفة، وتستمع إلى قوته، بينما البندقية مستسلمة. أخذت مأوى مع امرأتين أخريات وبعض الأطفال، في سقيفة مفتوحة في الشارع، حيث رجل عجوز يجدل سِلالًا. لا يكاد يشعر بالاندهاش من اقتحام النساء اللواتي لا تنظرن إليه ولا يتجرأن على الكشف عن شعرهن أمامه، ويحتفظن بأوشحتهن المبللة على رؤوسهن. وهن واقفات في مواجهة المطر الذي يتضاعف على الأرض الترابية، وتختلط أيدى أطفالهن الصامتين مع الأرض الرطبة. وتبدو بَخيتة، في الضوء الخافت،

أقل سوادًا، وهي تدرك ذلك. تحافظ على وجهها منحنيًا وتضم إلى صدرها الخبز الذي اشترته من السوق. إنه لمريح أن تبقى في هذا الليل الغير مكتمل وأن تبقى صامتة. لا تخيف أحدًا ولا يتعرف عليها أحد، كما يحدث لها في كثير من الأحيان، مع الوجوه التي تلتصق بها، للدرجة التي تشعر بها بأنفاسهم المثقوبة، والابتسامات المتطفلة، التي تستجيب لها بخجل، كاشفة عن البياض الاستثنائي لأسنانها. وفي بعض الأحيان، يوقفونها المارة الأغنياء.

وفي مرة، حاول رسام من الذين لا يحصي عددهم في البندقية، أن يرسمها. من النادر جدًا أن تخرج بمفردها، وتدفع الأخوات من أجلها الأشخاص الغير مرغوب فيهم. بعيدًا. لكن عندما تمطر مثل اليوم، يمكث الفنانون والنبلاء والتجار الأغنياء في منازلهم، فقد عادوا مع اندلاع السيروكو. تغلق عينيها وتستمع إلى الذباب الغاضب بسبب العاصفة. صوت المطر الأبدي الذي لا حيلة فيه. إنها تشعر بالارتياح. في اليوم السابق، تجرأت وتحدثت مع أب الاعتراف. تجرأت وباحت بالكلمة، وكأنها سُباب. بَخيتة جيوسبينا، هي بنفسها، هي، راهبة! آه! إذا كان يستطيع هذا الكاهن فهم لغتها لكانت أخبرته بمدى مفاجأتها في البداية لهذا الأمر. بقدر مفاجأته. لم تكن تفهم ما يحدث لها. نعم، هذه دهشة كبيرة. إنها دهشة الإيمان. سماع غناء الله وأن تفهم أنه موجّه إليها هي! إنها تتغير، إنها تشعر بذلك، تتغير داخل عالم متشابه. السودان، إيطاليا، إنه نفس الجمال ونفس

الشر. بكت لأن الله يعرف كل شيء، وكل حياتها، وقد رآها. ثم أدركت أن الله هو الحب المستقر. هل كان سيقبل أب الاعتراف ذلك؟ هل كانت ستنجح في إيصال أفكارها؟ الآن لديها قوة حب الآخر. الآن بعد أن أصبحت حياتها بين أيادي عليا.

سوف تغفر لها الأخوات. من الصعب كسر الخبز، لكنها تجتهد، يمكن لأيديها أن تفعل أي شيء، منذ زمن بعيد. إنها تكسر عدة قطع من الخبز وتعطيها للأطفال الذين يلعبون في الطين. هم صامتون ومجتهدون. وفجأة، تتذكر وهي متأكدة، وترى نفسها من جديد، وترى أختها وأطفال قريتها وهم يدوسون على الأرض المختلطة لجعل الطين سميكًا، طين أملس ودهني، إنه نفس الطين، نعم، الطين نفسه الذي تصنع منه منازلهم. وكان أيضًا ذلك في موسم الأمطار. البيوت الجديدة المصنوعة من الطين الذي داس عليها الصغار. تستقبل هذه الذكرى مثل التنفس، أصبحت هذه الانبثقات أكثر توترًا. تتذكر نفسها، أنها بعيدة عن حياتها وقريبة جدًا، تتصارع رياح عنيفة معها وتحيي الجمر الذي كانت عليه. حياتها. في مكان ما طفولتها. عندما لم تكن مختلفة عن أي شخص. عندما كان كونها سوداء هو الشيء الطبيعي لوجودها.

بعد اعترافها، طمأن الكاهن جيوسبينا: "لا يعير يسوع أي اهتمام بالعرق أو لون الجلد". ثم ركض ليُخبر الرئيسة ومادريه فابريتي بأن الموريتا ليست فقط مؤمنة، ولكنها إضافة إلى ذلك، تطلب الدخول في الرهبانية! عندهن! يمكن القول إن معهدهن يعمل المعجزات. أو على الأقل، العجائب. يقدمون الطلب إلى

الرئيسة العامة، بريماريا آنا بريفيتا، في فيرونا، التي تتفحصه مع ابن شقيق مؤسس النظام، الكاردينال لويجي دي ماركيزي دي كانوسا. هل يمكن أن يقبلوا دخول إحدى العبدات القديمات إلى بيت المترهبنين؟ منذ القرن السابع عشر، لدى إيطاليا تقليد طويل في افتداء العبيد. كان المبشرون الفرنسيسكان يعودون من مصر والسودان وأثيوبيا مع عبيد سابقين وكانوا يعلموهم ويحولوهم. ولا يزال يحظى هذا السلوك بشعبية كبيرة في القرن التاسع عشر حيث يذهب المبشرون الإيطاليون إلى السودان. وضع الكاهن دانيال كومبوني خطة من أجل "تجديد أفريقيا" وفَتح في القاهرة "معهد السود"، حيث كان يشكل العبيد السابقون الذين سيساعدوه، بعد تعليمهم، في تبشير السودان. إنها "أفريقيا بأفريقيا"، هذه القارة التي ينظر إليها باعتبارها "الجزء الأكثر تمردًا للحضارة في العالم". والرئيسة والكاردينال يعتقدان أن الدخول في الرهبانية من قبل عبدة سابقة هو جزء من هذا التقليد. ويتم قبول بَخيتة في بيت المترهبنيين. إنه ليس غزوًا، أو انتصارًا لكنه تأكيد لإنقاذ إيطاليا الكاثوليكية للعبيد. وفي 7 ديسمبر 1893، تفتح الكنيسة أبوابها للتي لم تكن لروحها أي بيت.

وهذا الوقت في بيت المترهبنيين، الذي يستمر ما يقرب من عامين، تعيشه بخيته، ليس كاختبار ولكن على عكس ما هو مفترض أن يكون. بالنسبة لها، فهو، أخيراً، وقت الخلاص. تم تعين مادريه فابريتي رئيسة لبيت المترهبنيين، وهي تساعد "بناتها" على الفهم وتعميق دعوة الرب. ولكن مواجهة أي مقاومة

روحية أو جسدية من التي نجت من كل شيء ليس ضروريًّا. لا تطلب بَخيتة إلا شيئًا واحدًا وهو السماح لها بالحب. هذا الشعور الذي كان محظورًا لفترة طويلة، وهو الشعور الخطر والمُحمل بالمعاناة والأقسى من سوء المعاملة، والذي أصبح اليوم من حقها، وهي تعطي نفسها بكل ما تملك، بجسدها وروحها للبرون، إلى هذا السيد الذي بفضل حبه تُحل الذنوب.

إنها تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، وهي تتبع نفس التعليم، وتقول نفس الصلوات، وتتناول، وتعترف وترتدي نفس الزي مثلها مثل الأخريات، ولكنها ليست مثل الأخريات. هي في مكان آخر. وإلى الأبد. بالنسبة لها، دائمًا ما يُعمل استثناء. يطلب الخروج على القاعدة، وعمومًا سيترددون في قبولها أو على العكس، سيهنئون أنفسهم، بصوت عال. وهي التي تضع نفسها في مكان ولا تستقر فيه. والتي تريد أن تقول شيئًا ولا تستطيع. وهي تُدهش، وتُذهل، وكثيراً ما تُزعج. وتعجب بها غالبية زميلاتها، بسبب لطفها، وحماسها في العمل الذي لا ينضب، فهي تستيقظ قبل الجميع وتخلد إلى النوم الأخيرة. وهي ذات إرادة وموهوبة، ولكن البعض لا يرتاح لوجودها. لا تجرأن على النظر إليها ولا يفهمن شيئًا مما تقوله. ويخفن من مقابلتها في الليل في الممرات والنوم معها في نفس العنبر، والغسيل من نفس الماء والأكل وهن في مواجهتها. فالطريقة التي تمسك بها الشوكة، وصوتها الحلقي عندما تقول الـصلاة والندوب التي تتجاوز من ملابسها، تجعلهن يشعرن بالحرج من هذا الاشمئزاز الذي يسيطر عليهن، ويعترفن بذلك، ولكن لا يوجد حل للمشكلة. إنهن

خائفات ويردن شيء أفضل من هذا الاختبار الذي يقتضي أن يعيشن جنبًا إلى جنب هذه السوداء. وتظل بَخيتة سوداء تحت الثوب الموحد، مثل عيب لا يغتفر، خطيئة دون مغفرة.

ترى مادريه فابريتي كل هذا، ذلك الخوف الذي تشعر به بعض "بناتها" وإهانة بَخيتة. وتقرر، في يوم، أن تأخذها إلى كنيسة سانتا ماريا ديللا سالوتيه. ويتسلقان السلم الرخامي الذي يبدو وكأنه وُلد من الماء، والذي يشبه بطن ضخم، أبيض وبارد. هذه الكنيسة المغرورة، المشهورة والمُكرمة. بالقباب والأعمدة، والمصليات الكثيرة، والتماثيل التي لا تُحصى، ولوحات الأساتذة. تنحني بَخيتة، وترسم علامة الصليب بالماء المقدس، وهي مبهورة بهذا الثراء العريق، والفتان السحيق. تتقدم مادريه فابريتي إلى المذبح الرئيسي، وكلتاهما تركعان أمامه في صمت. تغلق بَخيتة عينها. وتشعر من حولها بأصوات الزوار والصلوات الذين يهمسون بها أولئك الذين يضيئون الشموع الطويلة المائلة. يحمل الهواء رطوبة باردة، وتيارات صغيرة من الهواء تعبر الكنيسة الكبيرة وهي لا تبالي بهم وتركز في صلاتها. لكن تربت مادريه فابريتي على ذراعها.

- انظري يا جيوسبينا، هي مثلك.

ولا تفهم بَخيتة. ماذا يجب أن تشاهد؟ مثلك، تظن إنها من "المترهبنات"، أو أنها متأملة، و"راكعة". "مثلك". الكلمات التي لا يقولها أبدًا أحد لها.

- انظري. هنا! الأيقونة!

فوق المذبح الكبير العذراء مغطاة بالذهب، وترتدي تاجًا مُرصعًا بالأحجار الكريمة، بين ذراعيها، الطفل يسوع مزين أيضًا بطريقة ثرية مثلها! وجوههما مُسطحة، وهيئتهما باردة ونظراتهما بعيدة. بَخيتة لم تكن تعلم أن هذه المادونا موجودة. لم تعتقد أن هذا ممكن. لم ترها من قبل، في أي كتاب للتعليم المسيحي، في أي صورة إلهية أو أيضًا في أي حلم. لكن هذه العذراء وابنها، مادريه فابريتي على حق، هما مثلها. كلاهما ذو بشرة سوداء، تنظر إليهما ولا تفهم. من أين جاءا؟ هل هما فعلًا العذراء وابنها يسوع المسيح؟

- يحبهم كثيراً أهل البندقية، منذ قرون، جيبوسينا. أترين؟ هل تفهمين الآن إنك مثل الأخريات؟

- هي العذراء؟

- بالتأكيد، هي المادريه. المادونا السوداء.

- والملائكة أيضًا.

لم تلاحظهم أبدًا المادريه فابريتي، لكن حقيقة، في الخلفية، المالكان الصغيران وجههما أسود.

- أترين، جيوسبينا، أنتن الخمس سوداوات: واحدة، اثنين، ثلاثة، أربعة وخمسة. وأنا... وحيدة. البيضاء الوحيدة.

تبتسم لها بَخيتة.

- إذًا أنا سأحميكِ!

ويحاولان عدم الضحك بصوت مرتفع في هذه البازيلك الفخمة التي تحقق هذه الراحة الغير متوقعة.

لقد جاؤوا، في عجلة من أمرهم وبفضولهم، إلى دير سانتو جويسبي في فيرونا، لمشاهدتها. وهي، تغلق عينيها وتريح آذانها، وفي نفس الوقت، بدقة وسرعة، يتساقط شعرها مع صوت المقص، وتشعر بارتياح عميق وحزن كبير. إنها تفقد قليلًا من نفسها، فضلًا عن الايماءات والصبر الكبيران لوالدتها، حين كانت تضفر لها شعرها وكانت تمزجه مع اللآليء التي كانت موضع فخر كبير لها. كانت تراها جميلة وكانت كذلك. وعندما كانت تحرك رأسها، كانت تصطدم اللآلئ الصغيرة بوجهها، وكانت تحب ذلك. تتذكر وهذه الذكرى واضحة وصحيحة وتخصها هي فقط.

تظل ساكنة، مستقيمة، عيونها مغلقة، ولا ترى ما ينظر إليه الآخرون. وهم ينظرون إلى شعرها المتجعد الذي يطفو قليلًا قبل السقوط، مترددًا، وخفيفًا كالريشة، ينظرون ولا يعرفون. الكهف، والثقب في الأرض في أعلى الجدار الذي كانت تحاول تكبيره وهي تحك شعرها عليه، كان عمرها حينئذ سبع سنوات وذلك كان بداية الأسر، الكابوس الكبير الباقي والدائم. تتذكر هذا الأمل المجنون، وأيضًا ما كان يبدأ للتو. إنهم ينظرون إليها، ويودون لمس هذه الخصلات، وأن يأخذوا واحدة ويضعونها في ميدالية وسوف يجعلون أصدقائهم يرونها، هذه الخرافة التي

تدعى الشجاعة، وهم يضحكون ويقولون "ألمسي التميمة!".

وهي تفكر في ميمينا التي لا تستطيع النوم دون الإمساك بشعرها، ولم تكن تقول شيئًا حين كانت الصغيرة تشد عليه قليلاً حين تتقلب وهي نائمة، فمن الجيد أن تكون محبوبًا إلى هذه الدرجة. لدرجة مرافقة الشخص الذي تحبه حتى نهاية الليل. وتشعر الآن بنصل المقص على جمجمتها. وتفكر في رأسها المصطدمة بالأرض، وعنف سمير، ونجاستها. لكنها اليوم، أصبحت مخطوبة. اليوم 21 يونيه 1895، إنه اليوم الأول للصيف، وهو عيد القلب المقدس. وسوف تتزوج من الذي لن يتخلى عنها أبدًا، والذي سيحبها لدرجة أن حياة واحدة لن تكفي، وستكون هناك حياة أخرى بعدها، أبدية، وبدون نواقص. واليوم سوف ترتدي ثياب الأخوات الكنوسيين، التي تشبه ملابس النساء الشعبيات، الثوب البني، والشال وغطاء الرأس الأسود، لأن هذه الأخوات يعشنا إلى جانب الشعب من أجل "تخفيف آلام وتعليم وعلاج" الأكثر فقرًا. إنها تمر بيدها على جمجمتها العارية من الشعر، ليس لديها مرآة ولا ترى نفسها. لكن الحاضرين ينظرون إليها ويتعرفون عليها. تشبه بشعرها الحليق، العبيد المصورين في الجريدة، أو المرسومين في كتب المستكشفين، وعلماء النبات، والمبشرين، والأطباء. وهم يتخيلونها بالشوكة في الرقبة، والسلسلة في القدم، ويبكون من الشفقة، وأيضًا بقليل من العار الغير مُفسر بالنسبة للبعض منهم. والكل يشعر بنفس الارتياح لأنه لا ينتمي لذلك "العرق".

وسوف ترتدي ثيابًا ويضعون لها غطاء رأس مثل الراهبات الأخريات. ثم، ستنطق بنذورها الأولى، بثياب التوبة. وسيحدث هذا في البيت الرئيسي، الكنيسة الكبيرة المزينة بالذهب والرخام، وهي تفضل الكنيسة الصغيرة للدورسودورو، ولكنها تطيع بحماس مثل انسان مستعد لجميع التضحيات، وتتمناها حتى في سرها، كدليل على التزامها الأكيد والذي لا يتزعزع. وبعد نذورها بالفقر والطاعة والعفة، سيصبح اسمها "الأخت جيوسبينا بَخيتة" وتتسلم الميدالية الرهبانية لبنات الخير الكنوسيات" والذي وضع عليها أحرف الـ Dolorosa Mater . D.M (أم الآلام) وتُقبل في طائفة الذين يؤون الأطفال اللقطاء.

وعند عودتها إلى البندقية، يتوافد السكان على المعهد، ليسجدوا عند قدميها، ويقبلوا ميداليتها ويطلبون منها الصلاة من أجلهم. لا يطلقون عليها الآن "الموريتا" والسوداء ولا يطلقون عليها أيضًا "الأخت جيوسبينا". فبالنسبة لعامة الشعب، ستبقى حتى وفاتها المادريه موريتا. الأم والسوداء. متشابهة ومختلفة. مقبولة ومعزولة.

بعد ثلاث سنوات من ارتدائها ملابس الرهبنة، وعمرها أكثر من ثلاثين سنة، لا تزال لا تعرف كيف تكتب. وتقرأ بمثابرة واجتهاد. وتتحدث أفضل قليلًا الفينيثي. وهي تُطرز. وتصلى. وتطيع الأوامر، وتحب هذا الإطار المُطمئن، وهذه الأيام المتشابهة، التي يتخللها إيقاع الصلوات، البيرْمون (عشية عيد ديني مسيحي)، التسابيح الصباحية، صلاة الساعة السادسة، صلاة العصر، وصلاة النوم، وتحب من بين كل الصلوات

التسابيح الصباحية، صلاة الفجر. ولا تمر أبدًا خلف الستار الأسود المخملي دون أن تتذكر حين كانت واقفة عند عتبة غرفتها وشاهدت الأخوات وهن يمررن أمامها وكيف أصابهن الخوف. وبالرغم من ذلك، كانت سعيدة، فميمينا كانت نائمة في سريرها. لن تعرف بعد الآن سعادة هذه الحياة المشتركة مع طفل يكتشف الحياة، ويدفعك لاكتشافها أيضًا. هذا انتهى. احتضان الصغيرة، والغناء لكي تضع يدها على الحلق الذي يهتز، وانتظار النجم الأول وظهور القمر، والاشتراك في لغة تخصهما، وهذا التواطؤ والحميمية الفريدان. هذا انتهى. الرائحة الدافئة لبشرتها، ويدها في يدك، ونظرتها التي تقول "أنتظر كل شيء منك". هذا انتهى. هي هنا في هذا المكان حيث أرادت أن تكون، وكافحت من أجل أن تصبح هذه الراهبة المتواجدة الآن. لن يكون لها ابن أبدًا، ولن تستبدل ميمينا بأحد.

وتصبح، هي، على مر الأيام، ابنة لمادريه فابريتي. هذه الراهبة المسنة، والتي تزداد بهجة وفرح، كما لو أن هذه الحركة للعالم، المزهو بنفسه والضال الواجهة، يفرج عن أسريرها. لقد احتفظا بعادة نزهتهما الليلية على امتداد الأرصفة، وتمشيان ببطء أكثر، وتتكئ مادريه فابريتي على ذراع بَخيتة، التي تتصور أن توأمها ربما تمشي بهذه الطريقة مع والدتهما التي أصبحت متقدمة في السن. تتحدثان قليلًا، وتشاهدان الغروب، والجزر الصغيرة الغارقة، وحركة المد والجزر، وتتصفحان بعضهما البعض بحنان سريع. وتطلب أحيانًا مادريه فابريتي من بَخيتة أن تتذكر. وتسألها أسئلة فلديها مفردات أكثر، وهدأت حياتها.

والأشياء تعود. ذكريات عنيفة لدرجة أنها من الصعب أن تنتمي إليها، وأخرى تتعرف عليها ولا تجرؤ على النطق بها، من الحياء، ومن الخوف أن تصدم المادريه العزيزة عليها، هذه المرأة الإيطالية والمُسنة الآتية من عائلة ثرية. هذه الراهبة التي منحت حياتها للآخرين، وهي تتردد في قول ما كانوا يفعلونه مع العبيد، ومع ذلك وعلى الرغم من المعاناة فقد استعادة صور محنتها القاسية، فمن الجيد أن تبوح لمن تحب بالذي مرت به. تترك مادريه فابريتي مساحة للصمت وللدموع لكي تأتي، وتفك شفرة الجمل الغير مفهومة، وتستمع بحب مضطرب. وعندما تقول "حبيبتي..." تعرف بَخيتة أن الأمر انتهى. لقد حان وقت العودة إلى المعهد. وسوف تعود، لتصلي وتنام، وستفيق للصلاة مرة أخرى، ولن تنهض للصياح في الليل رعبًا من هذه الذكريات اللاإنسانية.

وهي علاقة أم بابنتها. وهو وقت سعيد. وتعتقد السلطات من علماء الكنائس أن الأشياء سهلة جدًا، في ظل هذه الظروف. يتدفق إيمان الأخت جيوسبينا بيسر وكل شيء يُعطى لها، وحان الوقت لاكتشاف حقيقة قلبها. حان وقت امتحانها. وفي مساء ما، بعد صلاة الغروب، تُبلغ بنهاية هذا العالم. هذا البيت الذي عاشت في جنابته ثلاثة عشر عامًا، من بينها سبعة في الرهبنة، لن يكون بيتها بعد الآن. ولا يعطونها وقتًا لتودع مادريه فابريتي، في اليوم التالي، ولا حتى أن تتمتعان بنزهة Passeggiata. ستسلم عليها في الصباح، في قاعة الاستقبال، أمام كل الطائفة الدينية، دون أي تحيز أو عطف. كلتاهما في حالة ذهول، كما لو أنهما

أصيبتا بدوار، تتركان بعضهما البعض بدون أي مظاهر لضعف أو تعلق. هذا الانتزاع دون دموع أو تمرد سوف يقدمانه إلى الله، السيد الذي يدعو إلى حب كامل، بدون قسمة.

إنه تقريبًا وقت الظهيرة، عندما تصعد الأخت جيوسبينا في الجندول الذي سيقودها إلى المحطة ومنها إلى مدينة لا تعرف اسمها.

تعود إلى حياتها التي عاشتها من قبل وإلى كل أجدادها وجميع المنبوذين من فصيلتها، العبيد الأبديين، والسود حتى الأزل. تحمل في داخلها هذه اللعنة لكل ما يمكن تخيله عنها والذي ليس هي. إنها تُخيف الأطفال، تثير اشمئزاز كبار السن، وتجذب الرجال، مثل وحش يريدون ترويضه لاختبار نفوذهم والكشف عن تفوقهم. إنها جالسة وهي صامتة، قيل لها أن عليها أن تصمت، وسوف يكتشفون صوتها فيما بعد، وسيخافون منها ويقلدونها فيما بينهم، الآن، وإلى الأبد.

هي تجلس منذ ساعات ويشتد الألم على فخذها المصاب، ساقها ذات السلسلة الشبح، وهي نفسها ليست إلا طيفًا سُرقت صورته. إنها لا تنظر إليهم، وعيناها إلى أسفل، إلى الأرض، وتسمعهم. رجل من البندقية ذو لهجة جديدة، أكثر ثقلًا، قصيرة ومغلقة، يعطى للكلمة وزن الإدانة. هي جالسة وهم واقفون، وحتى الأطفال يهيمون عليها. والسيدات المسنات والمنكسرات يضعن وجوههن في مستوى وجهها ويرسمن الصليب وهن مكشرات، وعندما يعدن إلى منازلهم سوف يقمن بأضاحٍ، بدون إعلان، حتى لا يسخر منهن الجيل الجديد ولا يعرقل استرحامهن. هي جالسة وتحمل خوفهم وجهلهم، وتعطيهم فرحة التجمع والمشاركة المستاءة. لمرة واحدة، الجميع، المضطهدون من

العمال منذ الطفولة، والمرضى المقعدون والمستغلون من أرباب عمل لا يرونهم على الإطلاق، ويحملون أطفالاً سوف يموتون في سن مبكرة، أو سوف يهربون إلى الأمريكيتين، وهم أميون في غالبيتهم العظمى، وأولاد غير شرعين وسيرسلونهم قريبًا إلى المدارس الدينية، متمردون ولكن سيُقمعون قريبًا بعد التحاقهم بالخدمة العسكرية، برجوازية صغيرة خائفة دائماً، أصحاب محلات صغيرة مديونة، رعاة أكثر بدائية من قطعانهم، فلاحون أكثر جوعًا من كلابهم، وكل هؤلاء ينظرون إليها ويشعرون بشفقة تجاهها. وما يشاهدونه اليوم، أفضل من الاحتفاء بالحصاد أو بالقديس يوحنا أو بالطواف، أفضل من المسرح، أفضل من رؤية نافخ المزمار والرقصات، أفضل من العذراء المحمولة في الشوارع، بين صرخات وبكاء الصاخبين، هذا دواء مشترك، صلاة بدون كلمات وضحكة تُجمع. ويكتمون هذا الضحك الذي يقتحمهم، هذه المرأة السوداء التي ترتدي ثياب الراهبات، وهذه السوداء هل هي راهبة، ويشعرون أن السباب سيصبح خطيراً إذا أجتاحهم الضحك أمامها، ومن يدري، هل من الممكن أن تلعنهم فيما بعد وتجذب إليهم غضب الشيطان؟ ولكن من أي شيء صنعت هذه المرأة؟ هل تأتي من بطن امرأة وكيف كانت هذه المرأة، هل هي إنسانة بالكامل، من الرأس إلى القدمين أو أن..؟ هناك أفكار من الأفضل طردها، رؤى من الخطأ أن تكون لديك، والبعض يركع وينغمس في الصلاة لكل ما تثيره في أنفسهم، من الخطر والعنف، هذه السيدة السوداء الجالسة في فناء الدير. وهي جالسة مُعرضة لأنظارهم منذ يومين، وقد جاء البعض مرتين، للتعود عليها والشعور بخوف أقل، كما

شرحن لهم الأخوات في المعهد "التعود لتقل حدة الخوف." وهم لا يرون عينيها ولا يرون بشكل جيد وجهها. تقترب أحيانًا الراهبة، رئيسة الدير منها وتحدثها في أذنها، فترفع السوداء رأسها ببطء. ويصرخ الحضور من الرعب الرقيق. فعيونها السوداء مغموسة في بياض نقي وكأنه سرق من طرحة السيدة العذراء. يرمي طفل عليها ببعض الماء ويتلقى في المقابل صفعة. يبكي محدثًا صخبًا، فهو كان يريد فقط أن يعرف إذا كان لونها يمُحى بالماء؟ يصرخون فيه، لكنهم متفهمون. هل هذا يمُحى؟ لا تعرف كيف تتكلم ولكن هل تعرف البكاء؟ وإذا أمطرت الدنيا؟ يا يسوع يا رقيق، هذه المرأة، يمكن للأخوات عرضها أكثر من مرة ولكنهم لن يفهموا شيئًا! وبعد قليل، يشعرون بالحقد تجاهها لأن رؤيتها تثير فيهم ضيق وانزعاج، فقد كانوا أكثر هدوءً من قبل، هل يحتاجون لكل ذلك هنا؟ ويغادرون، محبطون وتملؤهم المرارة، ورغم ذلك، وعلى امتداد عمودهم الفقري، يسري شعور بالرعب كانوا قد نسوه مع ما يتضمنه من إحساس رقيق.

وعندما ينتهي الأمر، تجري قدر طاقتها، الجسد متألم والنفس مصعوقة، وهي تعرج أكثر من العادة، للذهاب إلى غرفتها الصغيرة، حيث بعد انقضاء زمن الذهول، تبكي. بكاء يستمر طالما يهز جسدها هذا الحزن الغاضب، بكاء بشهقات مبحوحة مثل الوحش الذي هي على صورته، وشعرها لو كان موجودًا لكانت اقتلعته بيدها، وخدشت وجهها بأظافرها لو لم تمُنع عن ذلك، وهي تقف على حافة الجنون، لأنها تعرف، أن هؤلاء الناس كلهم، سوف تضطر لمقابلتهم كل يوم، وعليها أن

تتعلم أن تعرفهم وخاصة أن تحبهم. إنها هنا من أجل ذلك. من أجل نسيان مادريه فابريتي والانفتاح على هذه الناس، سكان مدينة لا يمكنها تذكر اسمها، مهما فعلت، اسم مختصر، مثل ثعبان يمر، اسم مثل أمر سريع ولا يرحم.

يُفتح باب صومعتها، وتضع الراهبة المديرة يدها على كتفها. تطلب منها أن تكون عاقلة. كانت مضطرة لعرضها بتلك الطريقة لوضع حد لذلك الكابوس. منذ أن جاءت إلى المعهد، كل شيء تبدل، والحياة المنظمة جدًا للدير انقلبت رأسًا على عقب، ولم يعد بالإمكان العمل، ولا الصلاة، ولا تريد التلميذات حضور الدروس. وهي أظهرت نفسها مرة واحدة، أليس هذا أفضل من سماع صرخة يوميًّا عند الالتقاء بأي شخص؟ هل في استطاعتها أن تتفهم أنها تخيف أيضًا، الأخوات الصغيرات اللواتي لم يرين امرأة سوداء من قبل، واللواتي لم يجرؤن على لمس أي باب بعدها خوفًا من تلطيخ أنفسهن، ولم يجرؤن على القيام في الليل خوفًا من الاصطدام بها. والأخت المسؤولة عن الغسيل، ألم يكن طبيعيًّا أن ترفض الاعتناء بأسرتها؟ كيف كان لها أن تخمن أنها لم تضف بلونها عليهم.

لقد استنفدت وتبغي النوم، وأن تحلم أنها في مكان آخر، حيث لا ينتظر أحدًا شيئًا منها، عبدة مفقودة بين العبيد، السوداء التي تمتزج بقوافل الصحراء، الطفلة الصغيرة التي يسرقونها ثم يلقونها بعيدًا، المحجوبة عن الأنظار، الخفية، المنسية، التي لا قيمة لها، ولا حتى ككيس من الذرة. إنها تخجل من هذا الشعور الذي يشبه الموت، وهي تفكر في العبد يسوع المسيح، ألم

يتحمل أيضًا بصق وسخرية الجماهير، وهي لا تريد مقارنة حياتها بحياته، هي لا تساوي شيئًا وهو كل شيء. تريد فقط أن تستلقي قليلًا وأن يحميها، وبعد ذلك ستصلي له، وتكرمه، ولكن هذه الليلة سيكون الوقت طويلًا جدًا بهذا الشعور، الذي يملؤها بأنه لا أحد يحبها.

تحلم بالنار. وتحلم ببيناه التي تتألم بشدة من أسنانها. وجهها مدفون في الأرض ولا يمكن إخراجه. تنادي عليها بَخيتة وتخبرها أن النار قادمة، وعليها أن تأتي معها، لكن بيناه تقول إنها لن تأتي، وإنها متألمة بشدة من أسنانها. وتنادي عليها بَخيتة مجددًا، وتتحول بيناه بطريقة غريبة إلى يبيت (Yebit) الصغيرة التي توفت من تعذيب الوشم. وهي سجينة الواشمة، وتمسكها عبدة وبَخيتة تركع بجانبها، وتطعمها بمعلقة ضخمة. جسد الصغيرة ينتفض وينزف، ومع ذلك، تأكل بهدوء، تفتح فمها مع كل ملعقة، ولكن رأسها ينفصل عن جسدها وتستمر في الأكل. تصرخ بَخيتة وتستيقظ وهي مبللة بالعرق، وعلى الفور، تنظر إلى الأسرة لتعرف إذا اتسخت بسببها. تأمل أن صراخها لم يوقظ أحدًا، فهم خائفون منها بقدر كبير، فلا تريد لهم مزيدًا من الخوف، وماذا سيفكرون؟ تنهض وتفتح النافذة. الليلة ليلة خريفية، عميقة ومنعشة. و"شيو" (Shio) محمية بالجبال، ويحدها السيل والأنهار. يأتي البرد من الماء، الصافية والسريعة. تسمع أصوات أجراس الحيوانات في المراعي، ومن بعيد جدًا نباح قصير، ثم بعد ذلك الصمت الذي يغلف كل شيء. تبحث عن النجوم والقمر ولكنها ليلة ضبابية، مغطاة بالغيوم البطيئة. تود رؤية

نجمة، واحدة فقط. تهب الرياح بنعومة في أشجار الفناء، وأشجار السرو الثابتة، وتُخرج شجرة الكستناء صوتاً كالذي تحدثه تحرك الأقمشة، وهي تحب هذا الهزيز الذي يشبه أصوات النخيل في رياح السودان الدافئة. تترك سحابة فقدت لونها السماء وحلّ الليل، والنجوم صغيرة مثل رؤوس الدبابيس. تفكر بَخيتة أن البرون خلق السماء من أجل راحة الإنسان والحيوانات، وأيضًا من أجل الأشياء. من أجل الجمال. ترفع كمها، وتمدد ذراعها نحو النافذة، تحركه ببطء وتجبر نفسها على النظر إليه. قد تكون هذه المرة الأولى. جسدها مخفي عنها، لم يعد جسدها، يحمل الندوب العميقة للسياط والأوشام التي اختارتها السيدات التركيات، تورّمات قبيحة مثل ثعابين تتقاطع، وهي تخاف بفظاعة من الثعابين، وهي تشعر بهذه الندوب وهي ممددة وتتمزق عندما تتحرك وهي نائمة، أو تسجد، مخالب تحاول أن تقيدها. ويشبه ذراعها الليل، وتستطيع نجمة أن تهبط على معصمها، مثل عصفور. تريد أن تنسى الكابوس، أن تنسى بيناه والصغيرة يبيت، أن تنسى النار، ولكن بينما تفتح كفها لهواء الليل، تفهم أنها مخطئة. فإن بيناه بعيدة وحرة. لماذا؟

من خلال وأثناء صلوات الفجر التي تحبها إلى درجة كبيرة، تفهم رسالة كابوسها مع بيناه والصغيرة يبيت الجائعة جدًا. تغني نشيد زكريا: "اليمين الذي أقسمنا عليه لوالدنا إبراهيم أن نُسلم أنفسنا دون خشية حتى، إذا تحررنا من خوف الأعداء، أمكننا خدمته..." إنها مضطربة جدًا من هذه الكلمات حتى إنها لا تستطيع الاستمرار في الإنشاد. تظل واقفة، وقد استولى عليها

هذا الوحي. إذا أرادت خدمة البرون، لا يجب أن تخاف بعد الآن. لقد وضعها هنا، في وسط كل الذين نظروا إليها بفضول مرتاب. "يسمناهم عبيد"، قالت بيناه. باسم جميع الذين ترعرعت في وسطهم، كل الذين رأتهم يولدون، يعانون ويختفون، فقد حان الوقت أخيراً، لتذهب، بدون خوف، إلى الناس.

تطلب إشعال النار قبل وصول التلميذات، وهي تقول إنها تحب ذلك، الذهاب للحصول على الأخشاب في النهار الذي يستيقظ، وتود تحضير المواقد في الفصول الدراسية. تعتقد أنها سوف ترى وصول الصباح، والتلميذات من روضة الأطفال وفصول الصغار، بعد ساعات من المشي. سوف تساعدهن في وضع ملابسهن المجمدة من البرد، لتجف حول الموقد، والاستقرار قبل وصول المُعلمة. لكن يُقال لها إن هذا ليس مكانها. فهي معينة في المطابخ الموجودة في الدور الأسفل، وإذا كانت تريد إشعال النار فعليها أن تتعامل مع المطبخ حيث يوجد ثلاثة أفران لحرق الخشب وموقد رئيسي. يجب إعداد كل يوم، أكثر من مئة وجبة للأطفال اليتامى، وأطفال الحضانة والفصول الابتدائية، والمعلمات والأخوات. وهي تعمل تحت إشراف الأخت الطاهية، مع اثنتين من اليتيمان في حوالي الخامسة عشر. إنه عمل لا يتوقف أبدًا، يبدأ الفجر وينتهي عندما ينام الجميع. أنها تضع الكثير من الحماس في إعداد وجبات الطعام. وتعطي نفسها كاملة "لما تفعله بخشوع واهتمام، وسرعان ما يسخرن منها: "مادريه موريتا تبدو وكأنها دائمًا في الكنيسة!" يهزآن منها. ويحسدانها قليلًا. وتبتسم المرأة السوداء، وهي توقد الأفران، وتقشر البطاطس وتحك الطناجر، وتفرك الأرضيات وتحمل القدِر. وهي تعمل وكأن حياتها تعتمد على ذلك. لابد وأنه الابتهاج

الزنجي الذي تتحدث عنه الصحف، إنهم أناس اعتادوا على العمل والطاعة. شعب لا يتمرد.

لا يعرفن. أنها تفهم ما تقلنه. وأن صبرها بقوة صبر الكائنات التي نجت. ولا تقدرن الفرحة التي تملؤها حين تعدّ الأطباق لليتيمات من المعهد والفتيات من بنات المزارعين اللواتي يأتين من بعيد، وليس كل يوم، فقط في الأيام التي لا تساعدن في الحقول. وإذا استطاعت، لكانت تعمل حتى في الليل، وتعطي راحتها، وكل ساعات نومها من أجل طفلة واحدة هدأ جوعها. وتحذرها الطاهية الأولى، التي تراها تدفئ الأطباق للصغار كي يأكلوا وجبة ساخنة دائماً، وتعد أطباق خاصة للمرضى من بينهم وكثيراً ما تضاعف حصصهم، "هذا كثير جدًا، مادريه موريتا! الأطفال لا يحتاجون إلى تناول كل هذا الطعام".

هذا خطأ. يحتاج الأطفال إلى تناول الكثير من الطعام، لكنهم فقط لا يعبرون عن احتياجهم هذا. الأطفال جائعون ولا أحد يعرف. هي تعرف. تعرف أننا نفقد عادة الأكل وعادة الطلب. تعرف أنه يجب بعض الوقت لترويض طفل تعيس. وسوف تجد وسيلة للتقرب منهم. تعمل بسرعة وكفاءة، وتكسب دائماً بضع دقائق لتصعد من الدور الأسفل إلى قاعة الطعام وفي بعض الأحيان إلى غرفة التمريض. تدس قطعة من الخبز أو من الجبن، في جيوب الأطفال، وتنحني للتحدث معهم، والصغار جدًا ينادونها "ماري موريتا"، أو "مادليه موليتا"، أو أيضًا "مواته الجميلة"، وسرعان ما ينتظرونها، ويطلبونها وهم يضربون

بقبضاتهم على الطاولة وهم يرددون اسمها. وتأتي لتوبخهم لهذه الضوضاء، وهي رقيقة وسلطتها هادئة، وسريعًا، ما تصبح أكثر من مساعدة للطاهية، وشخص يحتاجون إليه، يحبونها لنفس الأسباب التي لفظوها بسببها. إن اختلافها يطمئن، لأنه في الحقيقة، من يشعر أنه في مكانه من بين هؤلاء الأطفال والمراهقين في المعهد؟ من هو ذا الغير مُهدد؟ فشيو مدينة مزدهرة بالنسبة للذين يشتغلون في غزل كزولا (Cazzola) وخاصة في الـ (Alta Fabrica) (التا فبريكا) كما يطلق على المبنى الضخم الذي يهيمن ويجعل المدينة تعيش، مصنع الغزل لانروسي (Lanerossi). ولكن الآخرين؟ أن تكون عامل عند لانروسي، فيعني ذلك أنك أُنقذت. أن لك عملًا، ويمكنك الإقامة في القرية العمالية، وإدخال الأطفال في مدرسة المصنع، وتلقى الرعاية الطبية، والذهاب إلى مدرسة البالغين، وإلى المسرح، وأن تلتحق بنادي القراءة. ولكن الآخرين؟ أن تكون "من بين اللنروسي"، هذا فخر لأنك جزء من المصنع النموذجي، وتساهم في إنعاش المدينة، وفينيثي وإيطاليا الموحدة. أن تكون "لنروسي Lanerossi" فهذا هو المثال الحي للذي يمكن أن تعطيه إيطاليا، ما بعد التوحيد، من تعليم وثقافة، إلى الشعب المريض والذي فسد عقله. ويتعلم العمال في لنروسي سواء كانوا رجالًا أو نساءًا أو أطفالًا، القراءة والكتابة، والثقافة، وعملهم يتم تصديره إلى جميع أنحاء أوروبا. أن تكون لنروسي فهذا حظ كبير. يجب بالطبع الالتزام بالمواعيد، واللوائح، وعدم الاعتراض على المرتب، ومن الضروري وقبل كل شيء عدم التعرض للمرض أو للإصابة

البدنية. لأن الخروج من المصنع وترك لنروسي، هو بمثابة ترك البلاد كلها، وإرسال المرتب والأكاذيب إلى عائلة لن تراها مجدداً، وإلى بلد سوف ينساك. وعلى مرتفعات شيو توجد المدينة التي أسسها الـ(ألتا فبريكا)، المزدهرة والفخورة، وفي مكان منخفض، توجد المدينة الأخرى، القديمة، مدينة المزارعين وعمال المنازل، وأصحاب المتاجر الصغيرة، وموظفي البلدية، والنساء الوحيدات والمسنين والمرضى.

وتعرف الأطفال على أنفسهم في المادريه موريتا. ومثلها يحاولون التحدث وجعل الآخرين يفهمونهم بلغة مفرداتها قليلة، ومثلها أيضًا يبحثون عن مكان لهم. وهم يراقبون العالم، والمكان الذي وضُعوا فيه أيًّا كان، المعهد أو الحقول، المراعي الجبلية أو المدرسة، الأسرة، أو غياب الأسرة. وعلى مر الشهور، مويتا بيللا تصعد أكثر فأكثر من الطابق الأسفل، وتخرج من المطبخ لتلتقي بهم في الفناء. تقصّ عليهم قصصًا عن فتاة صغيرة تنام في حضن الأشجار، وعن وحوش برية يريدون التهامها. وهي تحكي قصص تنتهي نهاية سعيدة، حكايات حقيقية، وهي تلوح بأيديها، ولديها هذه الطريقة في النظر، مع فترات صمت هائلة، وعيناها تنظر إلى عينيك، وحينئذ تختلط النظرات مثل القبلات. ويكون الأطفال دائرة من حولها في الفناء المخصص للفسحة، وهم يجلسون معها على الأرض، ولا تريد إطلاقًا الجلوس على الدكة، ومن الغريب رؤية راهبة تتسخ ثيابها من جلوسها على الأرض. وقبل أن تتركهم تطلب منهم دائمًا أن يمسكوا أيادي بعضهم البعض وأن يقولوا بهدوء: "أنا لن أترك يدك". ثم تنهض وهي

تبذل جهدًا يجعلها تكشر لأن فخذها يؤلمها، وتصفق، ويذهب الأطفال إلى اتجاهات شتى، وبعضهم يشعر بشيء من التوهان، وبعضهم ينتابه حالة حالمة، وهناك بعض الأطفال الذين يعودون فجأة إليها، ويندفعون نحو ساقيها، ثم يغادرون، بعد أن تضع يدها على رأسهم، وهذا هو بالضبط ما يحتاجونه. وهي تعرف ما لا يستطيعون البوح به. تعرف الأمراض، والفقر، والخزي من الفقر. وهي تحمل دائمًا خيطًا وإبرة في جيوبها وتحيك بدون إظهار ما تفعله، التمزقات والجيوب المثقوبة، وترى آثار الصدمات التي يخفونها وتخمن بوجود ألم من الطريقة التي يقفون بها، والتي يسيرون بها أو بامتناعهم عن اللعب. وهي ليست شخصًا بالغًا يشبه الآخرين، فهي لا تعلم شيئًا، ولا قواعد النظافة، ولا الدروس الدينية، ولا القراءة أو الحساب. ولكن هي التي يأتون إليها لإطعام مريض لا يريد ابتلاع أي شيء، ولتهدئة طفلة صغيرة آذت نفسها وتطلبها، وهي التي ينادونها عندما تمر في الفناء، وترسل إليهم إشارات صغيرة من يدها وتبتعد بخطواتها السريعة، التي تعرج قليلًا، ويصرخون ويرسلون قبلات تستقبلها دون أن تراهم. يحبها الأطفال كما تحب الذين لن يخونك أبدًا. وهي تُشعر بالدفء وصوتها بطيء ورصين. وهي سوداء كليلة رقيقة، وهي التي يُعثر عليها سريعًا في وسط الآخرين، والتي لا تشبه أحدًا غيرها، الطفلة العملاقة، والتي لا يتحدثون عنها عند عودتهم إلى منازلهم في الليل ويحتفظون لأنفسهم باكتشافهم لحبيبتهم المويتا بيللا، ويضغطون شفاهم حين يسألهم الأهال إذا كانت هذه الزنجية عينها لآمة.

هي تعرف أنه لا يجب أن تتعلق بأي تلميذة من المقبولات منذ سن الخامسة. وتعرف أنها لا يجب أن تتعلق بأي يتيمة من اللواتي يكبرن في المعهد حتى العمل في مكان أو الزواج. ولا يجب أن تتعلق بأحد، سوى بالله. هذا ما يقولونه، ولكنها لا تصدق ذلك. ما تعتقده أن على المرء أن يحب وهو يتجاوز قدراته، وهي لا تخشى الانفصال، فقد تركت الكثير من الناس، وهي مليئة بالغياب وبالوحدة. والذي تفعله الآن هو المساعدة في المطبخ وحكي قصص للأطفال، وهذا هو بالضبط سبب مجيئها إلى العالم. وبمجرد أن تترك صغارها أو المطبخ، تذهب لتصلي في غرفة الكنيسة (السكريستي)، هذا الملاذ وراء الكنيسة الذي يطل على فناء الفسحة. ومن هنا، تسمع أصوات الأطفال وتختلي بنفسها بين هذا التدفق من الأصوات الذي يمتصه صمت الساكريستي، مثل الشمس في مياه صافية. وهي تتحدث مع البرون وهو لا يرفضها أبدًا، فهذا الحب سوف يستمر إلى الأبد، وهو الحقل الكبير الذي ترتاح في حضنه، ويبدو لها أن قلبها سينفجر من الفرحة والألم. كأن كثرة الامتنان يجعلها غير قادرة على الحركة، وهي تجتهد لإعطاء أفضل ما لديها، كل ما يمكنها إعطائه. والحكايات التي تقصها على الأطفال هي حكايا طفولة مُحلاة، والمآسي تتحول إلى مغامرات، ويأسها وقنوطها يتحولان إلى خوف كبير. ولكن عندما تذهب إلى الفراش في الليل، فالأمر يصبح مختلفًا. ومن كثرة اجترار شريط الذكريات، تتوافد الصور، وحشية وحقيقية. وفي بعض الأحيان، ينقطع تنفسها ويزداد القلق داخلها. كحرارة، تغلفها، وتعتصرها بشدة، وعليها أن

تنهض في الليل حتى لا تقع فريسة للذعر. هل ذكرياتها حقيقية؟ ما دفنه عقلها، يشهد به جسدها، ورويدًا، رويدًا تجمع معًا العقل والجسد وتقبل ما حدث لها، والذي لايستطيع أن يكون ملكًا لأي شخص آخر، ولا لحياة أخرى غير حياتها. وهي تعيد تركيب عائلتها ببطء، وقريتها، والزمن السابق، ولكن اسمها لا تجده. فقد ظل هناك، اسم أكيد يصعب النطق به في إيطاليا، ولن يكون إلا مشوهًا ويمكن أن تنطق به والدتها فقط. وتقبل حتى هذا النسيان الذي لا يغتفر، وعارها يصبح سر والدتها.

في عام 1907، خمس سنوات بعد وصولها إلى شيو، حيث عرضوها لمدة يومين كحيوان بري ولكنه مروّض، تصبح الطاهية الأولى للمعهد. وتبلغ بَخيتة من العمر الثامنة والثلاثين عامًا وتعطيها الرئيسة مفاتيح المطبخ وتعين ثلاث يتيمات، آنا وإيلينا وإلفيرا، لمساعدتها، وفي أيديها مفاتيح المطبخ، والمخزن، والقبو، والمستودع، وهي سلسلة من المفاتيح الثقيلة، تعتبر لفتة للاعتراف بمجهوداتها. وتحكي آنا وإيلينا عن القصص التي تنتشر في المعهد بفضول ضاحك.

- لقد أخفت الموريتا بالأمس، دقيق الذرة! لم نستطع أن نطبخ عصيدة potenta، وطلبت ارتجال وجبة أخرى. وقالت لنا: "يا بنات بسرعة فكرة!" وركضنا للبحث عن البستاني وقمنا بتقشير الكثير من الكوسا ولا تزال أيدينا لونها أخضر!

- منذ أيام، كان المطر شديدًا، فطلبت منا إضافة القرنفل والبصل إلى كل الأطباق، وهي تقول "يشعر الصغار بالبرد" ويجب أن نعالجهم قبل حدوث المرض! يا إلهي! وأنا من كثرة البصل، لم أتوقف عن البكاء طيلة الصباح!

- يا يسوع، يا مريم، يا يوسف، كونوا خيرين، لا تسخروا.

ولا تسخر الأخوات واليتيمات كثيراً لأنهن سعيدات، يأكلن أكلًا طيبًا، بدون تبذير أو عدم تبصر، وسيعجب الزائرون، ورجال

الدين والعائلات، بالطريقة التي يدار بها مطبخ معهد شيو.

ولا تحكي ألفيرا عما يحدث في المطبخ. فقد طالبت بالعمل فيه لتبقى مع الموريتا. وهي ليست موهوبة للطهو ولا لديها النية في العمل كخادمة عند الخروج من المعهد. تحب الرسم والتلوين. ولكنها هي هنا في المطبخ مع الموريتا، والتي تعرفها منذ سن العاشرة، وتحبها كثيراً، وهي تعمل في الطابق الأسفل في داخل جدران مغطاة بآثار السخام، في جو من العمل الدؤوب، والعطاء الفريد، وتشعر كل يوم بالحماية. وألفيرا، مراهقة كبيرة القامة وعفية، وجسدها لا يتناسب مع وجهها الناعم والبارز التقاطيع وعيونها المتقدة ذات اللون البني وشفاهها الشاحبة. وكأن هذا الوجه أخطأ في اختياره للجسد الذي يأويه أو بالعكس هذا الجسد الخاص هو حماية لها، فتاة هشة يحملها مصارع. وفي الحضانة، كانت ألفيرا فتاة صغيرة هزيلة البنية، ونصف جسدها الأعلى كان أجوفًا وسيقانها رفيعة مثل البوصة وكانت من كثرة سقوطها لا تستطيع ركبتاها المجروحتان من التئام جروحهما. مع مرور الوقت، ركزت على نفسها حتى تصبح أكثر قوة، وقد مرت بالطفولة كما يعبر المرء حقل ألغام، وتجاوزت هذا الضعف. وهي تعرف منذ سن العاشرة، حكايات الطفلة الصغيرة السوداء التي تُخطف ويقولون لها: "إذا صرخت، سوف نقتلك"، والتي لا تصرخ، الطفلة التي تنام في الشجرة والتي لم تلتهمها الوحوش البرية، العبدة التي تمشي في الصحراء وتصعد إلى السفينة العملاقة بعد أن توسلت إلى القنصل الإيطالي الظريف أن يصطحبها معه إلى البلد الذي

ينقذ الأفارقة. وألفيرا لا عائلة لها، فتاة بلا مأوى مثلها مثل المادريه موريتا، وطفولتها مثل أرض قاحلة، ومن الصعب عليها التفريق بين الأحداث الواقعية والقصص الخيالية التي تخترعها، وطفولتها غارقة في زمن بعيد يرتعش مثل منظر طبيعي بين رموشها ويتذبذب ويختفي. وهي تعرف أن والدتها على قيد الحياة، وليست بعيدة جدًا، على الجانب الآخر من جبال الألب. وتنتظرها دون أن تصدق وربما دون أن ترغب في مجيئها، وترسل والدتها رسائل تقول فيها إنها سوف تأتي ولا تأتي أبدًا، وكل خطاب هو حدث يخيب أملها. لماذا لا تأتي؟ لماذا تكتب؟ هل تتذكر فعلًا ابنتها؟

- وأنت، تسألها بَخيتة، هل تتذكرينها؟

- أتذكر ما قيل لي. بعد فترة وجيزة من الهجرة إلى جنيف، اكتشفت أمي أنها حامل، ولكن في سويسرا، المهاجرون لا يسمح لهم بإنجاب الأطفال. لذلك بعد بضعة أيام من الولادة أعطتني إلى أجدادي الذين ظلوا في القرية. وأعادني جدي إلى posina، بوزينا. لم أكن أزن أكثر من خنزير صغير، وشاحبة مثل الحليب. أتذكر ذلك، إنه كان يقول، الخنزير واللبن، ودائمًا ما كنت أتخيل نفسي خنزيرًا صغيراً في ثياب أطفال رُضع. وتوفي هو وجدتي وأنا في سن الخامسة، وكنت محظوظة جدًا.

- محظوظة؟

- كان لدي أم جديدة. لقد أطعمتني. ولم تضع الزيت على ثدييها مثل الأخريات.

- أي زيت؟

- زيت كافور، حتى لا يرضع الطفل. الكثير من المهاجرات كن يجوعن صغارهن، ولا تتوقفن إلا قبل موتهم. وعندئذ يأخذهن إلى دار الأيتام.

- إنها تحبك.

- مادريه، سوف أعلمك قواعد الصرف.

- ماذا؟

- سوف أعلمك الأزمنة. لا تستطيعي أن تتكلمي دائمًا بصيغة الحاضر، لأنه في هذه الحالة ما تقولينه ليس صحيحًا.

- نعم. ما أقوله صحيحًا. اعتقده.

- لا. أنت تقولين أن أمي تحبني. وهذا خطأ، تمامًا كما لو قلت "أمك قادمة". يجب أن تقولي: "أمك كانت تحبك"، و"أمك سوف تأتي".

- أمك سوف تأتي. وسوف تحبك دائمًا. حسنًا، الآن يجب أن نعمل.

وتُملي بَخيتة إلى الفيرا الطلبات، وتتوقع الكميات، وهي تخطط، وتجد حياتها نقطًا جديدة ترتكز عليها. ومن المعالم الجديدة في حياتها والتي تلمسها بقوة وجود كليمنتينا وأولادها الذين تسميهم "أبناء أخي"، وقد توفي ستيفانو فجأة في العام السابق. بكت بحرارة هذا الرجل الطيب التي بعثتها لها العناية الإلهية، والذي حافظ على وعده، واليوم مثلها مثل الأخوات

الأخريات لديها عائلة، وزيارات وطرود وصور على المنضدة المجاورة لسريرها، بجانب الصور التقية والتمثال الصغير للعذراء. وتتعلم مع ألفيرا الكلام في المستقبل والماضي، وهذا يُعدل من الأحداث، ينظمها ويُصنفها. وفي يوم ما، تريها ألفيرا الرسومات التي رسمتها عن العبدة الصغيرة التي تنام في الأشجار وتفقد بَخيتة صوابها من هول المفاجأة. فإنها ترى نفسها في هذه الرسومات، إنها هي. هي بالغة الصغر، وتبدو ماكرة ومُدبرة، ولكن خصوصا، تبدو رقيقة وطيبة.

- كيف عرفت؟ كيف أبدو؟

- كيف كنت تبدين؟ في الماضي مادري.

- لا. كما أنا. الآن. أتعرف على نفسي من الرسم الآن.

تأخذها ألفيرا من رقبتها وتقبلها على خديها اللذين تفوح منهما رائحة الغسيل، وكانت تود أن تحضنها ولكن هذا لا يصح، لا فيض حنان ولا محسوبية. رغم أنها، عندما تقول "مادريه" فالكلمة مختلفة عن التي تقولها إلى الأخوات الأخريات.

- غدًا سأحضر لك رسومات أخرى. سوف أرسم الطفلة الصغيرة التي ترعى الخراف.

- ليس الخراف. الأبقار.

- الخراف أو الأبقار، لا يهم. ما يهمني هو أنت.

- لكن أنا، كانت الأبقار. إنه أكثر صعوبة. والخراف.. أنا لا أحبهم. وسأقول لكي في يوم من الأيام، لماذا.

وهكذا تتكرر، وتنتشر حكايا الموريتا، وفي نظر الطائفة الدينية، فهي كأنها تكبر، وتخرج عن طوعهم قليلًا، وتأخذ شكلًا لإنسان مُركب. وهي يجب أن تظل إنسانة، بنفس صفاتهم.

والمطبخ مملكتها وفخرها. النهوض كل يوم لغذاء الأطفال يُهدئ من إحساسها بالذنب لشعورها بأنها أنقذت وابتعدت جدًا عن الأخريات.

ولكن في إحدى الصباحات، الرئيسة، مادريه مارجاريتا بونوتو، تُعلمها أن هذا انتهى. لن تعمل في المطابخ بعد الآن. إنه مثل إزاحتها دون وجه حق، سقوط بطيء، وتتساءل أين ستضع الآن حبها وفرحتها.

- مادريه جيوسبينا، ستعملين الآن في الساكريستي (غرفة الكنيسة). هل تفهمين ماذا يعني هذا؟

- نعم، مادريه. أشكرك.

- أن تكوني ساكريستين فهذا أهم من كونك طاهية. كنت تعتنين بغذاء الناس، والآن، أنت التي سوف تحضرين الوجبة في بيت الرب، القربان والنبيذ . القربان المقدس.

- شكرًا لكي يا مادريه.

- أنت لا تُبدين سعيدة.

- أنا سعيدة.

- بالطبع سنتناول طعامًا أقل جودة، وعلينا جميعًا أن نقدم

للرب هذه... التضحية الصغيرة. هل تعطيني المفاتيح، مادريه جيوسبينا؟

ترتعش ويصدر عن المفاتيح هذا الصوت المعدني الصغير الذي لا تحبه. إنها تلوم نفسها لأنها تعيش هذا التغيّر في الوظيفة وكأنه انفصال. أن تكون ساكريستينة فهذا شرف ومسؤولية كبيرة، وهي تعرف ذلك. وتُرجع مفاتيح المطبخ وهي متألمة ومشاعرها متضاربة.

- سوف أعطيهم للطاهية الأولى، سأعود بعد ساعة وسأعطيك المفاتيح الأخرى، الجديدة. ساعة هل تعرفين ماذا ستفعل؟

تنظر من النافذة إلى ظل شجرة الكستناء الكبيرة في الفناء.

- نعم، بعد ساعة، سوف أكون.. سأكون هنا، مادريه.

تنحني وتذهب بخطواتها البطيئة، وهي تحافظ على عادة التمسح بالجدران حتى لا تُرى بوضوح، ولا تخيف أحدًا. وتجلس على مقعد في الممر وتستمع إلى الأولاد وهم يحفظون التعاليم الدينية قبل بداية الفصل الدراسي. يتعلمونها بالإيطالية، اللغة الموجودة في كل الكتب، لأنهم يجب أيضًا أن ينسوا لهجتهم، وهي تعرف مدى صعوبة التفكير بهدوء عندما يتكلم المرء لغة أكثر مراوغة من ماء السيل. تكرر لنفسها أن ما تفعله هو إرادة البرون وتذكر نفسها أنها أنقذت وهي الابنة المباركة لله. وأنه شرف لها، ولا تعرف أين تضع حزنها الغير عقلاني. يقولون إنها ستبلغ سن الأربعين، وهي تبكي أمام الفصل الدراسي، وتنظر

إلى يديها المعقودة وتشعر بوحدة ليست من حقها. لذا تنهض وتذهب إلى صومعتها، محاولة أن تمشي وهي مستقيمة بقدر الإمكان، رأسها مرفوعة وهي تقضم شفتيها، ويُصدر تنفسها صوتًا، وتشعر بالارتياح لعدم مقابلة أي شخص في الممرات ولا في الدرج. سوف تعيش بعيدًا عن الآخرين هذا الحزن الثقيل الذي، وتعرف ذلك، لن يهدأ إلا بدموع عنيفة وغريبة كالعادة. "نحن نعتقد دائمًا عندما نكون تعساء أن هذا سيدوم إلى الأبد، ألا تعتقدين هذا مادريه؟" كانت وجدت صعوبة في فهم معنى هذه الجملة التي قالتها ألفيرا. لقد فكرت طويلًا في معناها وقالت لها إنها غير موافقة. حين تكون تعيسة، تشعر أنها تعود إلى مكان ما، في مكان تركت فيه شخصًا تود أن يعود معها، لكنه لا يأتي. وكانت تود أن تضيف أنها حين تكون سعيدة، تشعر أن هذه السعادة سوف تدوم إلى الأبد. ولكن الأمور اختلطت في ذهنها وقالت فقط "عندما نكون تعساء علينا أن نعمل شيئًا واحدًا فقط، علينا أن نثق".

سيكون من الصعب عليها عدم إطعام الأطفال. التوقف عن الالتقاء بهم في الفناء. عدم علاجهم، ومواستهم، ورواية قصتها لهم. اسمها الذي يغلطون فيه، القبلات والضحك، وهذه الألفة التي ترتاح إليها كثيراً في حياتها هذه كراهبة تعيش بضبط النفس والاحترام الحذر. العمل الذي ينتظرها في السكريستي يبدو غير حقيقي، ضخم لدرجة كبيرة. سوف تُعد غرفة الكنيسة، الملابس الكنائسية، الكتب، والأشياء الطقسية، والأوعية المقدسة،

الكأس وحقُة القربان، مِعرِض القربان المقدس، وجهاز العرض وجُرن الماء المقدس، والصواني، وهي التي ستحرص دائمًا على وجود قرابين، ونبيذ، لكن أيضًا فحم، وبخور، وشموع، وحُراس للهب، وكبريت، وخشب، وسيكون عليها معرفة قلب الطقوس ونظامها، فهي حارسة معبد البرون. الخادمة.

إنها تحب المشي في المدينة، تحب المشي بمفردها وهو شيء استثنائي بالنسبة لواحدة من الكانوسين، ولكن بمفردها تستطيع أن تمشي ببطء، فسيقانها تؤلمانها، وببطء تشاهد بطريقة أفضل، تراقب، بجسدها الطويل متكئة على مظلتها المغلقة، تسير في شيو كما لو أنها في حديقة. وهي لا تتحدث إطلاقًا عن معاناتها الجسدية، وعملها متقن، ولا تشوبه شائبة، وهي ساكرستين مسؤولة عنَ غرفة الكنيسة وتقوم بعملها بولع. لا أحد يشك أن ركبتيها هما شعلتان من النار موضوعتان على سيقانها، إنه يصعب عليها المشي، والركوع، والنهوض، وتستيقظ في الليل لأن الألم يسري تحت جلدها وينقر عظامها. وهي تمشي على الأرض ذات الحصى المنفصلة في شيو، بوجهها المنحني، بينما يصل العالم إليها بغضبه المضطرب، والصاخب بسبب الأطفال الذين يلعبون في وسط البغال والكلاب، والعربات الخشبية والدراجات والبائعين، والمياه الملوثة والقمامة، بهؤلاء الأطفال الذي لا يحصى عددهم والذين كما هو الحال في قريتها، مسؤولون، بمجرد معرفة كيفية المشي، عن الذين ولدوا بعدهم. إنها تنظر إلى الجدران الصفراء والوردية للمنازل الضيقة، وتشعر برطوبة الأفنية المزدحمة، فالحياة تتفجر كأنها في حالة طوارئ محتدة ثم تهدأ في بعض الأحيان، إنه تعب شديد ومُنصاع. تمشي بحرص في العالم الذي يموج.

هناك الذين يخافون منها والبعض سيظل دائماً يخيفها، وسينادونها بالزنجية، الشيطان، القرد، وهي تخشاهم، وتحمي نفسها مقدمًا، بابتسامتها المتُعبة بعض الشيء من هذه المعركة الأبدية. قبل بضعه أيام، سألتها الرئيسة عن هذه القصص التي كانت تقصها للأطفال حين كانت تعمل في المطابخ. لم تعرف كيف تجيب."هل هي حكايات حقيقية؟" - قليلًا - هي حكايات حدثت لك؟ "هل هي قصة حياتك؟" قالت لا، في الأول. ثم محت الكذبة، وقالت نعم، وندمت على الفور! كانت تفضل أن مادريه بونوتو لا تسألها هذا السؤال، وهي تتذكر المحاكمة في البندقية، والحفل الصغير الذي تلا معموديتها، وتتذكر كل الفضوليين الذين كانوا يأتون إلى معهد التعاليم المسيحية، وهي تتذكر أنهم كانوا يسألونها عن سبب عدم تمردها، ولماذا لم تنتقم، المسكينة! يا للمسكينة! كم كانت تثير الشفقة لديهم. وكانت في نظرهم، وكأنها في قفص، مراقبة ومدانة. لكن الرئيسة تريد أن تعرف. وهي يجب أن تطيع. كانت تفضل أن تتلاشى في جدران الدير، الاختفاء في الضوء المائل للكنيسة، أن تهدي عملها للبرون وأن يحافظ عليها دائماً. لكن طلبت مادريه بونوتو منها الذهاب إلى مكتب مادريه تيريزا فابريس، وقد ذهبت. وجلست في مواجهتها وأطاعت عندما سألتها أن تحكي لها بوضوح، وبهدوء، هذه الحكايات من حياتها، التي كانت تحكيها للأطفال.

لم تكن تعلم أن ما ستقوله سيكتب. وكانت تتكلم وترى ما تقوله يتحول إلى كلمات، هذه التتابعات من البقع السوداء، وقد

سألت مادريه فابريس أن تقرأ لها:

- والدتي لديها أطفال كثيرون. والدتي جميلة جدًا. والدتي تشاهد الصباح، دائمًا. أريد أن أقول في الصباح تنظر إلى الشمس عندما تأتي. وأنا أتذكر ذلك

شعرت بالخجل. هل تتكلم بتلك الطريقة؟ مثل طفلة صغيرة؟ تبلغ من العمر الواحدة والأربعين، وحين تكتب هكذا، تشبه حياتها أغنية للأطفال. أغنية أطفال ساذجة وعادية. حياتها عادية، حياتها كعابدة تشبه حياة لملايين آخرين، منذ قرون، لكنها في هذا المكتب بينما تُكتب هذه الكلمات، هي التي لم "تتمرد أو تنتقم". تود أن تُنسى. وهي على حافة البكاء.

- متأسفة مادريه جيوسبينا من إثارة تلك الذكريات.

لكن المادريه لم تكن تثير أي شيء. بالعكس. كانت تكتب عن عدم قدرتها على القول، على الحكي. ما الذي كان يجب أن تفعله؟ أن ترفع كمها، وثيابها وتظهر الندوب؟ أن تمثل الاختطاف، العمل، العنف والخوف؟ ألفيرا هي التي تعرف، تحكي برسوماتها أفضل من الكلمات. أشارت على الورقة المكتوبة وسألت:

- مادريه، لماذا؟

- لكي نعرف. حياتك. أفريقيا.

- أفريقيا؟

- نعم بالتأكيد.

- مادريه! آسفة، لكن... أنا أعرف الخريطة. القنصل يبين لي الخريطة، وجيوسيه شيشيني يبين لي الخريطة وأفريقيا كبيرة جدًا وأنا... ماذا يمكنني أن أقول؟

- يجب أن تحكي، مادريه جيوسبينا، العادات، الطعام، الدين.

- الدين؟

- نعم. نعم. قبل أن تلتقي بالله الحقيقي. ما هي الأصنام التي كنت تعبديها؟

- أفضل الذهاب إلى الحديقة.

- جيوسبينا، هل فهمتي عن ماذا سألتك؟

- أفضل الذهاب إلى الحديقة.

لقد سارا في الحديقة خلف الكنيسة، في بداية فصل الخريف، وكان الضوء صافيًا مترددًا، والرائحة المريرة للبطاطس ولأشجار الورود البرية كانت تذكر بحميمية البيوت، شيء ما من هذه الغرف المزدحمة والقديمة. كان الطقس باردًا بعض الشيء بالنسبة لبَخيتة ووضعت مادري فابريس شالًا على كتفها. كانت مليئة بالحنان والجهل في ذات الوقت، ونيتها السليمة الخرقاء تشي بخبرتها الضئيلة، وتتساءل بَخيتة كيف، وبأي كلمات تحكي لها. تعرف بعض الأسئلة مسبقًا، حول جلاديها، الغفران، والتحول إلى دين آخر، وما تريد أن تجيبه يبدو لها دائمًا شيء آخر غير الذي يتوقعونه منها. مختلفًا، وأكثر بساطة. الجلدون؟ كانت عهدت بهم منذ زمن بعيد إلى البرون ولم تزعج نفسها بهم، ما

عدا بالطبع حين يقررون زيارتها في ليالي الكوابيس الطويلة. لكنها مرتاحة منهم، لأن الله يغفر بالنيابة عنها. هي ابنته وهو يفعل ذلك من أجلها، هل هذه الحكايات حقيقية؟ هل هذه ذكرياتها، هي؟ لكن لا يوجد شيء حقيقي، إلا الطريقة التي نجتاز بها كل ذلك. كيف لها أن تقول لهن ذلك؟ بالفينيثي؟ بالإيطالي؟ ليس لديها لغة من أجل ذلك، ولا حتى خليط من اللهجات الأفريقية والعربية. لأن كل هذا لا يكمن في الكلمات. هناك ما نعيشه وما نحن عليه. في داخلنا. فقط لا غير. يسألونها إذا كانت تفتقد والدتها، والدها وأخواتها، قريتها، وتود أن تقول لهم أنا مثلكم. نعم مثلكم، لأن الجميع يحب شخصًا ما ويفتقده. لكن ليس هذا ما يريدون سماعه. يريدون سماع الاختلاف. يريدون أن تحب بمجهود كبير، والذهاب إليها كما يتم اكتشاف منظراً خطيراً، أفريقيا المغمورة. نعم هم صادقون جدًا. لكنها لا يمكن إلا أن تخيب أملهم، لأن حياتها بسيطة ومعاناتها الماضية بدون كلمات.

في صباح كل الأيام، تفتح أبواب المعهد للتلميذات والمعلمات، والعالم يدخل معهن. في 3 نوفمبر 1911، تحيط الأخوات الصغيرات بآنا، أصغر المعلمات. فالصحيفة التي تمسكها بين يديها يُحتفى فيها ببطل وطني. جيوليو جافوتي. ينظرن إلى الصورة. ولا يفهمن ماذا تمثل، وما الذي يجلس عليه هذا الشاب. هناك قضبان معدنية، وأفريزين، وهو جالس في وسطهم، بحذائه الطويل وقبعته. تقول الرئيسة إنه منذ عامين، في فرنسا، عبر رجل البحر بدون لمسه، وقد أخبرتها بذلك ابنة أختها المهاجرة إلى باريس، وآنا تقول إن هذا الفرنسي، بليريو، طار فوق البحر.

- فوق البحر؟

- نعم في السماء.

- السماء؟

لا يجرؤ أحد من الذهاب إلى أبعد من ذلك. هذا غير مفهوم، ويصبح تقريبًا تجديف. لكن الصورة موجودة، ويطير الرجل الجالس مثل عصفور في ملكوت الله، وتشرح آنا:

- يطير بهذه الآلة "إيتريك تاوب" (Etrich Taube) هذا هو اسمها، وكُتب "Monoplan Etrich Taube".

وعندما يُقال الكلام بهذه الطريقة يصبح أكثر عدوانية. لا يُعرف كيف تنطق هذه الكلمات. ولكن اسم الرجل، البطل، جيليو جافتي، جميل جدًا وإيطالي جدًا، حتى أن جبريللا دانونزيو Gabriella d'Annunzio كتبت قصيدة. لا يمكن إطالة الفترة أكثر من ذلك، لأن الدروس يجب أن تبدأ، وينتشر الجميع. وتظل الصحيفة في المدخل، وقريبًا ماستنسي في زاوية ما. في ذلك اليوم، سوف تتحدث المعلمات قليلًا فيما بينهن عن هذا الحدث. والأخوات أبدًا. وجباتهن صامتة، وأيامهن شاقة، وأوقات الراحة سعيدة، وتقريبًا طفولية، وليالهن تتخللها الصلوات. وتحتفل الكلمات في الجريدة بالذي حدث في 10 نوفمبر 1911. أول قصف جوي في التاريخ. ألقيت أربع قنابل تجزئة بيد الطيار جافوتي فوق ليبيا. وحينئذ لم يشك أحد أن هذه الحرب القصيرة وذات الانتصار السهل، ستوقظ الحركة القومية في البلقان، لأنه لا أحد أبدًا، يرى قدوم الكوارث الإنسانية، التي تأخذ مكانها الواحدة تلو الأخرى في العالم، لإدامة الوحشية والدمار المشترك. تعد السنوات الأولى من القرن العشرين للحرب العظمى، ولكن الصراعات بعيدة والقتلى قليلو الأهمية. والموضوع يخص الصحاري والمستوطنات، الإمبراطوريات المفككة والحلم في التوسع والانتقامات الإقليمية. ولازالت الأخوات الكانوسية تعلم الأطفال بصبر، الصلوات والحروف الأبجدية، والحساب والتطريز. بينما العالم يدوي، والأشياء تقترب منهن مثل انهيار جليدي على الجبل وراء ظهورهن. وسوف ينقلب عالمهن رأسًا على عقب، ويعشن الآن حاضرًا سريع الزوال، لأنه هناك في

مكان ما رجال يحلمون بالنيابة عنهم وبطولاتهم ستصبح جزءًا من استشهادهن.

وتَعلم بَخيتة، في يوم ما، عن طريق الصدفة، بينما تحمل حِلة القداس وكنونة الكاهن إلى غرفة الغسيل، إن هناك قنابل قُذفت في أفريقيا. ولا تحب الأخت المسؤولة عن تنظيف الملابس مادريه جيوسبينا، وعلى الرغم من إدراكها أنها لا تبهت على الملابس، كما كانت تخشى في البداية، فإنها تترك لمساعدتها مهمة غسيل آسرة الأخت جيوسبينا بسبب اشمئزازها الشديد منهم.

- قُذفت قنابل عندك، مادريه جيوسبينا، هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟

- عندي؟

- أفريكا! بوم!

- أي أفريقيا

- التي تأتين منها. بوم!

لن تقول بَخيتة للأخت المسؤولة عن الغسيل عن الذي تعرفه. ولا عن أفريقيا ولا عن القنابل. لقد فهمت، منذ فترة طويلة، إنه لكي تُطمئن الآخر، يجب عليها أن تظل الكائن الذي لا يعرف، وتظل هادئة الأعصاب حين يصرخ البعض وهم يتكلمون معها بلغة متقطعة، وبكلمات لا رابط بينها. وتصمت وتبتسم. وتنتظر. تعرف جيدًا كيف تنتظر. كان لديها كثير من الأسياد، وبُلغت بعديد من الأوامر المجنونة، وتعلمت أن الصمت كثيراً ما

يكون الموقف الأكثر حذرًا. في ذلك اليوم، لم تجب على الأخت، وهي تأتي بالغسيل القذر وتأخذ النظيف، تتصرف كعادتها، ولكن حين تغادر، تسمع قلبها وهو يقرع من الذعر وتنفسها يطلق صفير وحنجرتها تتحشرج، مثل أصوات المياه في حناجر النساء، العبدات ذات الرقبة المصابة. تشعر بالعرق وهو يسيل على خديها وتصل بصعوبة إلى *الساكريستي*، وتضع الغسيل في المكان المناسب لذلك. تقوم بحركات متأنية، وترتب وتطوي ببطء وبسلاسة وتُملس وتربت بلطف على الملابس التي تفصلها بقطعة نسيج نظيفة ولكن نظرتها ضبابية، ومع ذلك تتأكد بتركيز شديد عن عدم وجود أثار لديدان أو عث أو فئران في الأدراج، وأن الملابس لا تلمس الخشب وأنه لا يوجد غبار أو أي تمزق في الثياب المقدسة، ثم تبدأ من جديد، وتخرج كنونة الكاهن (aube)، وردائه، والبطرشِ (قطعة القماش التي يضعها الكاهن على صدره وعنقه أثناء الخدمة الدينية)، وتخرجهم، وتضعهم فوق بعضهم البعض، وتخلطهم. ثم تجلس. فكل الملابس في حالة فوضى الآن ولا تعرف كيف تتصرف. "أفريكا! بوم!" الصوت لا يحدث كل تلك الضوضاء. تنفجر أفريقيا. التهديد صامت والانفجارات تشبه صرخة آتية من الأرض، عميقة ومشوشة، والصدى الذي يأتي من الجبال له إيقاع قلب ينفجر. وتعيد التفكير في تقدم المهدي. وترى بوضوح من جديد الليلة التي جمع فيها السيد التركي العبيد قبل أن يفرقهم، لكي يرحل بأسرع ما يمكن من السودان. تسمع صراخ الذين انفصلوا عن بعضهم البعض وهلع الكائنات التي وصلت إلى ذروة الألم.

لقد ولدت من الحرب. رأت الكثير من الرجال والأطفال المسلحين، العديد من الموتى والجرحى، والنساء اللواتي تعرضن للعنف، وعاشت بالتأكيد حيوات كثيرة. تفكر في قريتها. هل سيبلغها أحدًا حين تقذف بالقنابل؟ لمعرفة ذلك، كان عليها إعطاء اسم ما، أن تفهم الخرائط، وأن تتحدث بشكل صحيح. وتنظر إلى ثياب الكهنة، المجعدين والمختلطين والمكومين بشكل عشوائي، هناك تل من الألوان الزاهية ومن الخيوط الذهبية، وكأنه تل قام برسمه أطفال. يا لها من كارثة. تستجيب لدموعها. يجب أن تنظم الملابس وأن تنظف الشمعدانات، فقد حان وقت صلاة الراهبات، وهي تكتشف ذلك من الضوء الآتي من الفناء. لكنها تبكي ولا تستطيع فعل أي شيء آخر. ترفع عينيها نحو العبد المصلوب الذي يعرف الحرب. "طوبي لمن يبكون، لأنهم سوف يشعرون بالارتياح". تشتاق لمادريه فابريتي. تبكي وتقول لنفسها أن الأمر يستغرق وقتًا طويلًا ودموعًا كثيرة لفهم حياة الدير. تركع وتنحني. كما لا ينبغي لها أن تفعل، بالطريقة الشرقية، لأنه هكذا، بكفيها وجبهتها العاريين على البلاط، وبالنصف الأعلى من جسدها إلى الأمام وبذراعيها الممدودتين، وهي أفضل طريقة للتفكير في أفريقيا.

سُمح لها بمرافقة ألفيرا إلى محطة القطار. لديها جرأة تكفي الشخصين. تحتفظ بالحزن لوقت لاحق، ولا تُظهره، فقط ثقتها وكبرياؤها. تود حمل حقيبتها، ولكن ليس لديها القوة، وجسدها مُتعب، لم تعد لديها المقاومة والتحمل اللذان أنقذوها كثيراً، تمشي بنفس الطريقة التي تتنفس بها، باجتهاد وحذر، وذلك أصبح أكثر ظهوراً. هذه المعاناة المريرة. وألفير قوية البنيان، وتحمل حقائبها وتجبر نفسها على تناغم خطوتها مع خطوة بَخيتة، مع أنها تود أن تركض، وأن تغادر سريعًا، دون أي تفكير أو معاناة.

إنه صباح جاف ومشقق وتُرى الثلوج على قمة الجبال. وتعلن الطرق الكاحلة التي ستهجرها قريبًا القطعان عن قدوم الشتاء، الذي سوف يلتهم النهار، ويجمد الأرض ويبؤس الفلاحون. الشمس لونها أبيض، والظلال باهتة، كأنه لا شيء باق وكل شيء مستعد أن يمُحى ويختفي. إنه خريف 1913، زمن لن يتذكره أحد، رغم أن الجميع كان عليهما الاعتزاز به. المحطة لا تزال مكانًا للمغادرة المختارة ومكانًا للسفر الفردي، ويرحل الناس دون الشعور بتمزق. تتوقف بَخيتة لالتقاط أنفاسها، ورغم برودة طقس اليوم، فجبينها وجفونها مبللة بالعرق. تنظر إلى ألفيرا، وتبدو لها صغيرة جدًا في السن، لكن من الممكن أن تصبح أما الآن. غريب اندفاع الوقت هذا، وكأن الجميع يكبر فجأة.

- أنت على حق، يا ألفيرا. يجب المغادرة عندما نريد ذلك بشدة.

- سوف أكتب إليك كثيراً، مادريه. وسأرسل لكي بطاقات بريدية كل أسبوع وفي كل وقت.

- أُفضل الرسومات.

- أنا لن أرسم في الشوارع، سوف أرسم في ورش العمل. لقد شرحت لك، سوف أرسم صبية جميلة وموديلات رائعة... أصبح غبية حين تكون مشاعري متقدة.

- يجب أن تكوني حذرة، جدًا. الرجال لا يفهمون فرحة البنات.

- الباريسيون رومانسيون جدًا.

- ما هي، "الرومانسية"؟

- هي حلوة... لطيفة... عشاق.

- آه! سوف أصلي من أجلك! بريئة أنت...

وتمشيان من جديد، ولا يسمع إلا النفس اللاإرادي لبَخيتة، وهي متألمة من حذائها الذي كانت بدونه ستمشي أفضل، أقدامها مشوهة وتتضخم كل مدى أكثر. تود ألفيرا أن تركض وتصوت. أن تبكي أيضًا من الانزعاج والسعادة. فها هي تغادر إيطاليا، وتهرب من انتظار والدتها، واحتياجها لها، وهي لا تريد قضاء حياتها وهي منتظرة خطابًا منها، ولا تريد أن تكون في خدمة النساء البرجوازيات في شيو. إنها لا تقول إنها تهاجر إلى فرنسا، لكنها تقول فقط أنها ستدرس الرسم في باريس، مثل كثير من الفنانين الإيطاليين. تعطي لنفسها هوية ما وقليلًا من التعالى.

وصلا إلى المحطة واستنفدا ما يريدان قوله. هما الآن في ذلك الزمن الذي لم يُعد ملكهما، في هذا المكان الصاخب والمختلط حيث كل شيء عديم الفائدة. وكل شيء مُهم.

- معك أيضًا تذكرة ميلانو؟ هل معك كل شيء؟

ألفيرا لا تجيب، وتنظر إلى المادريه، إنهما تعرفان بعضهما البعض منذ إحدى عشرة سنة، وقد رسمت ألفيرا مرات عديدة هذا الوجه العميق، وهي تعرف تعبيراته عن ظهر قلب، التركيز في العمل، الانتفاضة عند سماع أي صوت بسيط، لنداءات الخارج، للخطوات، للصفارات، والسعادة عند أدنى بادرة مودة، واليد الموضوعة أمام الفم قبل ضحكة حقيقية، لعينيها التي ترفعهم إلى السماء وشفتيها اللواتي تقضمهما حين تبحث عن الكلمات المناسبة، وهي تحبها وتحب أن تشاكسها قليلًا وتخرجها من الأنماط التقليدية، أن تنسى الراهبة، وأن تظهر حقيقتها الداخلية، هذه المرأة الغريبة والمثيرة. لكن صورها، حين تضحك بصوت مرتفع جدًا، وحين تغني وهي تغلق عينيها، وتنظر إلى يديها في صمت، لا تريد بَخيتة أن تحتفظ بهم ألفيرا. تتمنى حياة بدون نظرات عليها. تطلب تمزيق الرسومات. لا تنصاع ألفيرا إلى ذلك دائمًا. وهي تحتفظ بهذه البورتريهات كشيء يخصها، هي، وهو امتياز لها. والموريتا معروفة الآن في شيو، التلميذات السابقات للمعهد يقابلونها في المدينة، ويذهبن إليها بحماس متحفظ بسبب هذا الخجل لأنهن لم يعدن تلميذات صغيرات، لا تجرأن على تسميتها موريتا بيللا ولا على قول: "هيا، تعالي"،

وهن يتذكرن بارتباك أنهن لعقن كثيراً يدها لاستنشاق رائحة الشكولاته، ومسحن بالمناديل خديها. وكانت تتركهن وضع الكفوف على وجهها واستنشاق بشرتها، وهي تقول: "لا تخافي" وأيضًا: "هل انت جائعة؟ قولي دائماً إذا كنت جائعة". وتعتقد ألفيرا أنها قد تكون تلميذتها المفضلة، وأن كثيرات يردن ذلك، التلميذة التي أحبتها المادريه موريتا أكثر من الباقيات. والآن ستتركها لهن، وستصبح كل شيء بالنسبة لهن، التلميذات، واليتيمات. وتتساءل إذا كان هناك نساء بشرتهن سوداء مثلها في باريس وإذا كان ينظر إليهن كما ينظر إلى المادريه موريتا، هنا، على هذا الرصيف، بذلك الإحراج المستاء.

ترى بَخيتة قبل الفيرا السحابة الرمادية التي تمر عبر الأشجار بعيدًا، وهي تتضخم وتصبح قاتمة، وأيضًا هذه القوة المزعجة والصاخبة للقاطرة والصفير الذي يمزق طبلة الأذن، هل هذا مقصود حتى نتمكن من الصراخ أخيراً بكل ما كنا حريصين على عدم إظهاره، الخوف من الرحيل، وهذا الشعور الأبدي بالوحدة؟ خرجت خصلة صغيرة من قبعة المادريه. تضعها ألفيرا في مكانها من جديد وهي مبتسمة.

- لم تخبريني أن شعرك رمادي.

- وقريبًا أنا بيضاء.

- سأكون.

- نعم. سأكون.

- لا تفعلي هذا مادريه! أنا لا أريدك مثل الأخريات. أبدًا.

تحتضنها بقوة وتشعر بقلبها ينبض مع قلبها، وعظامها النحيلة جدًا والعرق ينسال على رقبتها. وهي لا تؤمن بالله ولكنها صادقة عندما تقول لها:

- صلِّ من أجلي، مادريه. أنا لست بقدر البراءة التي تعتقدينه، ولكن مع ذلك ادعي لي.

تغلق بَخيتة عينيها، وتهمس بنعم، ناعمة جدًا. وحقيقية جدًا. تبتعد ألفيرا، ولا تترك لها إلا حشد من الناس ودخان، إضافة إلى الذعر العادى للمسافرين وهو يختلط منذ الآن بالأسف والندم، والقبلات التي تُرسل، والدموع التي نحملها معنا إلى المنزل، بشجاعة كبيرة لدرجة أننا نتساءل لماذا الحياة هي هذا الجبل من التنازلات والحزن والأسى.

يمر الزمن ولا يترك بصماته إلا على الأجساد التي تشيخ والأطفال الذين يولدوا. بدأت الحرب في فرنسا، من الجانب الآخر من الجبل، وفي النمسا والمجر من الجانب الآخر من النهر. تتحدث الصحف عن الحلفاء والدول المعادية، وعن دول بعيدة أو أصبحت مطمعًا مثل روسيا وأفريقيا. ويسود جو من العراك والتحدّي. هل يجب القتال أيضًا، وكسر ميثاق الحياد، وشن الحرب أو عدم الدخول فيها، وفي أي معسكر، مع ألمانيا والنمسا، حلفاء إيطاليا، أو مع فرنسا وإنجلترا؟ المتعلمون من الرجال يقرؤون الصحف، والكلام كثير على المقاهي، وفي العائلات وعلى الساحات. والكل يتحدث عن الثورة، وعن الجمهورية، وعن الإمبراطورية، وعن الاشتراكية وعن الاستبداد. يحث الاشتراكيون، بما فيهم موسوليني، الرجل الشعبي جدًا، العمال والفلاحين على الموقف السلمي، ويتمنى النقابيون والمثقفون أن تحارب البروليتريا أخيراً، ويحلم أرباب الأعمال بالإنتاج، على مستوى واسع، ويريد القوميون محو ذُل الهجرة وإعادة بناء الأمة، ويهرب المهاجرون من فرنسا وبلجيكا وألمانيا للعودة إلى بلادهم. وفي الشوارع، لم يعد يعلن فقط المنادي عن ميعاد جنازة أو مرور تاجر، لكنه ينظم أيضًا التجمعات أمام قاعة المدينة حيث سوف يتحدث المحافظ، بصوت أعلى وأقوى من الآخرين، وتدب الحياة في الرجال من خلال الانحياز لجانب

ما، ويتحدثون بدون توقف، وهم ملتصقون بالأحداث ويثارون ويتظاهرون ويتقاتلون بالنسبة لحرب لا يعرفون عنها شيئًا في حقيقة الأمر. فيغيرون معسكرهم وآراءهم. ويقوم موسوليني المستبعد من الحزب الاشتراكي، بإعداد حملة للدخول في الحرب، وينضم إليه الفوضويون والقوميون، ويخلقون "حزمة العمل الثوري"، وتنقسم إيطاليا، وتقاتل بالفعل في الداخل. إنه جنون لم يعد أحد يستطيع أن يحتويه، وسخط وهوس يفيضان في مشفى الدير، تصلي بَخيتة طيلة اليوم دون راحة، والليل دون نوم. يأتي العالم إليها، وهي تتعرف على هذا الموقف، وهو مثل السوق، البازار التجاري للرجال، الشيء نفسه، الصخب المحير والضال الوجهة. إنه شتاء 1915، منذ عدة أسابيع، وهي جالسة في سريرها، ومدعومة بأكوام من الوسائد وتسعل باستمرار، وتتحول بشرتها إلى اللون الأرجواني، أرجواني داكن وممزق، وهي تختنق من سعال يحرق حلقها الذي يطقطق، ويبدو لها أنها تُسلخ من الداخل، رئتها تتقطع، أعماق صدرها، وهي منهكة كأنها كانت في سباق تحت الشمس وجسدها عرقان، وتشعر بالعار لأنهم يغيرون أسرّتها كل يوم. ويمكنها المغادرة الآن، في هدوء الدير، وبالصليب فوق السرير، وبمرور الكاهن كل يوم، لكنها تريد البقاء في هذه الفوضى الإنسانية، وتقاوم مرض التهاب القصبات الهوائية والرئة. تعرف أن الرجال يريدون الحرب، وستحدث. سوف يذهب الآباء والشباب، إلى هذه المجزرة، التي يسمونها "الخبرة الجماعية العظيمة"، وسوف تظل زوجاتهم وأمهاتهم غير قابلات للمواساة، وغير قابلات للإصلاح،

تمامًا مثل والدتها. وتتذكر بعد ضربات سمير، وبعد تعذيب الوشم، هذه الشهور التي عاشتها وهي تحاول إبعاد الموت، مستلقية على الحصيرة على الأرض، تلك الأرض المحتفظة بآثار كل الشهداء، وتدرك أن الأمور متماسكة وتخضع لنفس الدوران، لكل الآلام الإنسانية في خضم وضجيج المعارك. تتنفس بصعوبة ولديها حمى، ولكن عقلها لم يكن أبدًا متيقظًا مثل الآن، يبدو زمن المرض وكأنه زمن غير واقعي، بالرغم من سماعها لما يحدث حولها. وتستنشق الروائح، وترى اليوم وهو يُولد ويختفي وراء النافذة، وتعيش في واقع يخلط بين الكائنات والأزمنة، الحياة التي تم عبورها والكائنات التي عاشت معهن. وتستمع الآن إلى صخب الأقوياء، أغان وقصص الأطفال، تراتيل الأخـوات، وشعارات المتظاهـرين، وأغنية العمال باليومية. "Polenta بولنتا (عصيدة من دقيق الذرة في إيطاليا) من الذرة، ماء من الحفرة، اعمل أنت يا سيد، لأني أنا لا أستطيع"، وتفكر في التلميذات اللواتي أصبحن كبارًا، وفي الأطفال التي رأتهم وهم يولدون، وإلى هذه الأجيال من العساكر.

هل سيختبىء الرجال في التلال أو سوف يخرجون من المنازل، ومن الكهوف ومن الأكواخ، ومن أبعد الزوايا، مثل أوتيكيو، ساحر الذئاب، الذي يعيش في الجبل، وأنجيلو الفحّام الذي يعيش مع ذويه في الغابة، وتانو حارس الماعز الأمي، والفلاحين الذين لا يملكون أرضًا والذين يختبئون في الحقول ويتعايشون من تجارة التبغ المهرب؟ كل هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون أين يمكنهم العيش، وهل سينضمون إلى الحركة الكبيرة

للجيوش؟ يجب الصلاة من أجل الرجال الذين يريدون القتال ولا يريدون الموت، الذين يريدون أن يكونوا فريدين من نوعهم وأن يرتدوا الزي الرسمي (اليونيفرم). تود أن تخبرهم عن مدى سرعة الحياة، التي لا تتعدى سهمًا، ناريًّا ورفيع، فالحياة ليست إلا تجمعًا واحدًا، مندفعًا وإعجازيًّا، ونحن نعيش ونحب ونفقد أولئك الذين نحبهم، لذلك نحب من جديد، وهو دائمًا نفس الشخص الذي نبحث عنه من خلال جميع الآخرين. لا يوجد سوى حب واحد. قربان واحد نتقاسمه. قطعة خبز واحدة تتضاعف. كم تود أن تخبرهم، لكن بهذا الخليط وهذا الخجل، من ذا الذي سيفهمها؟!

الليل قادم والسماء عميقة والقمر المحترق مقطوع إلى نصفين، وتتساءل في أي جزء من العالم يعيش النصف الآخر، الغير مرئي في سماء صافية. وهذا النصف كما تراه الآن، وهي مستلقية في هذه الغرفة التي تنبعث منها رائحة الكافور والأثير والخشب المحترق، والتي تتقاسمها مع العساكر من الجانب الآخر من الجبل ومن الجانب الآخر من النهر، وهذه البلدان التي في حرب والتي لم تحفظ أسمائهم. وهي آمنة مرة أخرى. إنها مريضة ويقومون بعلاجها. وبإعطائها السوائل اللازمة والتغذية المفيدة. إنها واحدة من الذين يعطى لهم كل شيء. تدفع الأَسرّة والأغطية، وتجعل ساقها المتورمة تدور، وهي جالسة على حافة السرير، المرتفع جدًا، وتستعيد تنفسها، ثم تستقيم في مشيتها، وتقترب ببطء من النافذة، تفتحها، كما اعتادت أن تفعل في

الليل، تتلقى البرد القارس لليل، واللمعان الساطع والمباشر للقمر. تمسك بأيديها حواف النافذة، ورويدًا رويدًا، يهدأ تنفسها، وهي تستمع ولكن لا تسمع شيئًا، لا يوجد حيوان واحد، ولا نفحة هواء، وكأن الليل طبع على الدير والمدينة، على الجبال والشوارع، والمصانع، والإسطبلات، احتقاره الملتهب، لا شفقة ولا مساعدة، تود أن تصلّي صلاة "أبانا الذي في السماء" لكن عقلها مشوش. تود أن تركع ولكن سيقانها متخشبة. تبحث عن صليبها، في رقبتها أو في جيبها، ولكن لا تجد شيئًا. فقط هذا الجسد القديم للعبدة، أسود تحت القميص الأبيض وفي المواجهة عالم يصمت. عبدة، نعم، هي بَخيتة. المحظوظة، هي التي أطلق عليا كاهن وهو يسخر "ذبابة يسوع"، لأنها كانت في الساكريستي، سوداء ومنشغلة، سوداء وتطن، كالذبابة. هي ذبابة، ومن المحتمل أن تكون أقل من ذبابة لكن سوف تحمي حياتها، أيًّا كانت ضآلتها، سوف تُشفى لتكمل الحياة بين البشر، الذين يتجمعون كل يوم لصراخ هاتين الكلمتين اللتين لا تتناسبان معًا، هذه الكلمات المحمومة، الأبدية والمجنونة: تحيا الحرب.

تحب أن تكون بالقرب من الأطفال والفتيات، لأنها تحب أن تكون مع الذين يبدؤون. الذين يدخلون الحياة، يقظون، سريعو التصديق ومتوقدون، إنهم يفهمون لغتها المختلطة، ويبحثون عن قوتها وحمايتها، ويضحكون معها لأنها ليست إلا نفسها. وهي تحتاج لذلك. هذا الاعتراف بدون أي اعتبارات أو تسلسل هرمي، هنا الحنان الفوري، هذا التواطؤ السعيد. لكن في هذه الأيام، فصول المعهد خالية من التلميذات وسافرت اليتيمات إلى برجام. في 23 مايو 1915، دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب فرنسا وإنجلترا وروسيا. واصطفت الجيوش على امتداد فينثي جوليان، وفي الألب. وقد استقبلت شيو إيطاليو الشمال. النساء، والأطفال والمسنون. وبدا وكأن الرجال تضاعفوا، عدد كبير من الرجال المنشغلين والخلاقين والاستراتجيين، الذين لا يقف في مواجهتهم شيء، والذين يشيدون جسورًا من الخشب فوق الجروف الجبلية، ودبابات تبتلع المنازل والأشجار، وقوارب تعيش تحت الماء وطائرات لا تشعر بشبع إطلاقًا، فالحرب كانت حريقًا دائمًا وبسبب جبروتها المجنون هرب المدينون وتحولوا فجأة إلى كائنات شاردة، تحت رحمة الآخرين.

في يونيه 1916، مشت الجيوش النمساوية، في اتجاه فينيثي، وكأنه لاسترجاع ممتلكات فقدت بشكل غير عادل، وهرب

سكان شيو من المدينة، ومن أصحاب مكان تحولوا هم أيضًا إلى مهاجرين. ورأتهم بَخيتة وهم يرحلون على الأقدام، وعلى الدراجات، ومع الحيوانات والحمير الصغيرة المحملة، والكلاب التي تتبع العربات الخشبية التي تجرها الثيران الجياع، والتي تغطيهم المراتب الموضوعة فوق آلة للخياطة أو مرآة، دلو، دجاجة أو صورة لمتوفى، هذا التراكم من الأشياء القديمة التي لا تلخص حياة لكن تعترف باستحالة معرفة ما الذي يصنع الحياة. ولم يندهش الأطفال قط، فقد هاجم الجوع عليهم منذ الآن، وعيونهم أصبحت أوسع من وجوههم، ولم يطرحوا أي أسئلة، بل يتبعون فقط مسار الحياة، وهم مسافرون مع الأمهات والأجداد وجميع الآخرين، المستغربين والمليئين بالثقة مثلهم، قطيع من الأطفال الصغار جدًا، والأخوات والأخوة، وأولاد العمومة. وقد ابتعدوا من الحدود النمساوية، هذه الإمبراطورية التي كانوا كسكان لفينيثي ينتمون إليها، ويذهبون الآن للاحتماء في ميلانو وتورنيو وفيرارا وكونيو، ويقيمون في المستشفيات والمدارس، ويرسل المرضى إلى المستشفى المدني في فيسنزا. وبأمر من الأسقف، أشياء العبادة من الثمين والمقدس، ومن رفات القديسين إلى السجلات المختصة بالرعية، تم حمايتها في البندقية. وكأنه حدث إغماءة للحياة، هو نوع من الشفافية والارتداد. بعد بضعه أشهر، سقطت القذائف على المنازل المهجورة، وتحولت الشوارع إلى أطلال متربة حيث ترقد أصلبة مكسورة، وأوانٍ نحاسية، وبعض خطابات الحب المليئة بالأخطاء الإملائية والمضمون المفجع. ومشت بَخيتة في شيو وقد تبدلت،

وما كان يكمن داخلها، هو الموت المنتصر والذي يتحمله جميع من بقي على قيد الحياة، وتجار العبيد الذين كان الإيطاليون يطلقون عليهم"الملوك" و"الأباطرة" و"الوزراء" أو "الرؤساء" يرسلون قوافل بأكملها من الرجال إلى القتال. وقد شاهدت بَخيتة النهار يتلاشى على الجدران الممزقة، والغرف المفتوحة، والمحلات التجارية المشقوقة والجداول المسمومة، ثم أفرغت شوارع شيو حتى من أطلالها، وانفتحت على الشاحنات المليئة بالعساكر، وسيارات الصليب الأحمر والضباط، والبغال المحملة بصناديق الذخيرة، والجرارات التي تسحب المدافع. ورقد الجرحى على النقالات، في عنابر النوم في الدير وفي الفصول الدراسية للمعهد. وكانت الخسارة الكبيرة للذين بقوا في البلد، وهو استيلاء الجيش على فيا روفيروتو، التي خصصت للجنود، وهو المكان الذي يُبتعد عنه ولا يجرؤ السكان على لفظ اسمه. مكان مخصص للمتعة ونسيان الموت. وتحولت شيو إلى ثكنة.

لم تعد مع الأطفال. لم تعد مع الذين يبدؤون. إنها تعتني وتعالج الذين ليس لديهم عمر والمبتورين والمشوّهين والذين يتمسكون بالحياة باستبسالهم وعنادهم. وهي تتعرف على هذه القوة الرهيبة والمهددة، للذين، مثلها، في حياة بعيدة جدًا وقريبة جدًا في الوقت نفسه، يقررون عدم التنازل والتسليم بتاتًا للظلمات.

عندما نكون في حالة ألم، وعندما نكون في حالة جوع. لا نستطيع أن نحب. ليس لدينا القوة، وهي تعلم ذلك. لذلك فهي تطعم الجرحى لكي يعثروا في داخلهم مع طعم الخبز، على

الرغبة في الحياة. وهي تحمل إليهم ما نجحت في طهيه باستبدال الطحين بالبطاطس، والمربى بدون سكر بدبس الكمثري، وتحافظ على البيض في ماء الجير، واللحم في قاع البئر مع الثلج والقش، وهي تخترع، وترتجل، ولا أحد يفكر في معارضتها، فهي تعمل في صمت، وعندما تعود من الطابق الأسفل، تساعد الأخوات في إطعام الجنود. وهي تعرف ما الذي سيحدث مع الذين يرونها للمرة الأولى. سوف تفزعهم. مثل شيء عنيف، وسوف تخيفهم، لأن كل ما يراه المرء للمرة الأولى يخيفه، ولأن كل شيء جديد يُهدد. تتوقع النظرات الفزعة، والوجوه التي تبتعد، والرفض، والذهول الصامت والمصحوب بالشلل. والعنابر مليئة بذلك الخوف والاحتياج للآخر. وترى الأخوات من ذوات الخبرة يعالجن بدون أخطاء، واللواتي أكثر شبابًا، لا يظهرن رغبتهن في التقيؤ، وفي الهروب إلى مكان آخر، واللجوء إلى الكنيسة للصلاة والعيون مغلقة، بعيدًا كل البعد عن ما تقدمه الحياة من لا إنسانية، كل ما يجب أن لا يحدث أبدًا، ولكن يأتي ويفرض نفسه ببساطة، ويستقر ويبقى. تقترب من الجنود ووجهها إلى أسفل، بلطف، حتى تتعود عيونهم عليها.

وتقضي، شيئًا فشيئًا، الوقت نفسه في المطابخ وفي المستوصف، وتنام بالكاد، أو بنوم متقطع على كرسي وُضع في العنبر للراعية. وفي ليلة، وأثناء حلم خاطف وقصير، تعود إليها ذكرى الطفل الذي راعته بعد موت عبدة أثناء الولادة، في البيت (الثعبان) للسيد الأول، وتم فيما بعد، بيع الطفل، أو إعطاؤه، لا تتذكر، ولكن فجأة يمزقها فقدان هذا الطفل، فقد تركته يرحل،

مثل بيناه التي لم تتمسك بها. يجسم الاكتئاب على صدرها، وكيشمت امرأة عجوز في شوارع الخرطوم، وميمينا تركت أفريقيا، ووالدتها تركت جذع الباوباب على الأرض، أين أنتن؟ أين ذهب الجميع؟ وتستيقظ كما يغرق المرء، مختنقة ولاهثة، تكمش بأيديها ذراعي المقعد، وتحيلها رائحة العنبر، الثقيلة والعفِنَة، إلى منامها، فهي رائحة الليالي في بيوت العبيد، وتقوم وتركع، هكذا، هنا في وسط الجرحى. وتتحدث إلى والدها، الأفريقي، الرجل الذي لم يعثر عليها أبدًا، وتطلب من آل برون أن يسامحوه. لقد فهمت للتو الإحساس بالذنب والفزع لهذا الأفريقي، الذي ولدها وخسرها. إلى الأب الأعلى والمعصوم من أي ذنب، تعهد بهذه الروح المقصرة لهذا الرجل، حيًّا أو ميتًا، حبه وهزيمته، وتهدأ. تنهض وتسير ببطء، بخطوات ثقيلة، غير منتظمة ومترنحة، في وسط العساكر النائمين. إنها تفهم أن كل شيء تعلمته كعبدة يخدمها اليوم. وتتقدم في الظلام في وسط الآسرة المصطفة، وتفهم أن داخل كل واحد من هؤلاء الرجال، شيء مرتفع جدًا، وشيء مشرد. البعض سوف يموت قبل الفجر، بدون فهم السبب، والبعض الآخر، سيعيش رغم إصابات، كان يعتقد إنها غير قابلة للشفاء، والكل غير متكافئ أمام الآلام والموت. وتشعر بأنفاسهم كالأطفال المندهشة. وتأتي بلطف، على الرغم منها تقريبًا، أنغام هذه الأغنية التي كانت تتصور عدم معرفتها، والتي تغنيها لأولئك الجنود النائمين، ذو الرائحة الكريهة والذين يعانون، وهي تغني وهي ناسية الكلمات وتخطئ أحيانًا: "نسمة هواء قليلة مرت... الورد البلدي... عطورهم وأنا...

كنت حالمة وروحي أيضًا كانت تحلم، لكن الخيوط..." واستمر جندي في آخر العنبر وأكمل الأغنية بصوت أجش ومتقطع: "وروحي أيضًا كانت حالمة... لكن بينما الخيوط كانت تجري على النول، أسمع، مثل طلقة بندقية في قلبي، رنّ الجرس، حرق آتٍ في روحي، وصرخة وقبضة يدي مضمومة: ملعون المصنع الذي يدخن، ملعونة هي الأنوال، الجري المكوكي، لمدة عشرين عامًا، تستهلك حياتي، هذه الآلات، هذه الوحوش الملعونة". وهي واقفة بجانب هذا الرجل، مندهشة من عنف هذه الأغنية التي لم تعرف إلا بدايتها، الروح ورائحة الورود.

- هل أنت من لنروسي؟

- لا. يا أخت يا صغيرة. أنا من مصنع النسيج الآخر، من الـ"الكازولا".

- والآن، هنا...

- نعم. العودة إلى البلاد. الحياة غريبة.

- نعم.

- لن أعود أبدًا للمصنع... أنا نصف رجل الآن... ويشير إلى ساقه الوحيدة، تتصور أنهم في إيطاليا لا يتركون الرجال العديمي الفائدة، وأنه سيستمد قوته من مكان آخر، في مكان لا يعرفه حتى الآن.

- لا يوجد شيء للقيام به في هذه الأرض المرة. وليس لدي شيء لأفعله بنفسي أيضًا .لا شيء.

تنظر إليه، غضبه، وخاصة الاشمئزاز مما يحدث له واحتقاره لنفسه.

- احمي حياتك.

- حياتي؟ أي حياة؟ نصف حياة، نعم!

- من فضلك. احميها دائمًا.

تبتسم له وتتجرأ على وضع يدها على جبهته، هي أيدي مشققة، طويلة ودافئة جدًا، تهدئ من روعه وهي تعرف ذلك، ويغلق الجندي عينيه، ودموعه رفيعة جدًا وتبدو وكأنها قديمة جدًا، مثل النهاية المنهكة للشهقات، ويسأل:

- لماذا؟

- ماذا؟

- لماذا أنت لطيفة لهذه الدرجة، يا أخت يا صغيرة وسوداء جدًا.

ويخرج تنفس الجندي عن طريق تنهدات عميقة، وهي لا تزال تضع يدها على جبهته التي تفوح منها الآن كثير من العرق، وتشتعل بالحرارة تحت كفها، وتهرب الحمى، وذراعها مؤلمة، وكتفها متصلب، لكنها لم تنتهي بعد، هذا يجب أن يستمر، وهذا يدوم، إلى أن يوجه الجندي رأسه إلى أسفل، وشفتيه نصف مفتوحة، ووجهه هادئ، ويستسلم للنوم. وبخطواتها الغير موفقة، تعود إلى مقعدها، وتود أن لا تصدر أي صوت لكنها

تحدث ضوضاءً، وهي عرجاء ولاهثة، وتنام في الفوتيل لمدة ساعة أو ساعتين، وعندما يستيقظ أحد الجنود في بعض الأحيان، فإن حضور هذه المرأة الجالسة والنائمة، يذكره بأنه لم يكن إلا طفلاً، طفلاً صغيراً جدًا، قبل أن تبدأ هذه الحرب.

تدور شمس سوداء بالغة الصغر، وصوت الرجل بجانبها. هي لا تراه، ولا هو ولا البيانو، فهي لا تفهم ما يغنيه لكن غناءه جميل جدًا لدرجة أنها تستمع إليه وهي جالسة، يقظة، ويداها ذات المفاصل الملتهبة والمعقودة، ترغب في انضمامها من أجل الصلاة لكن لا تجرؤ على ذلك، لأنها ليست أغنية مقدسة، ورغم ذلك، هذه هي أنقى صلاة استمعت إليها. لا تفهم ما تقوله الأغنية التي تسمى: "صيادو اللؤلؤ"، وجميعهم صيادون ولآلئ أيضًا، جميعهم، لكن لا أحد يخبرهم بذلك، لا أحد يقول إلى هؤلاء أنهم آلهة. وقد عادوا من الحرب، بمرارة وصمت، طاعنون في السن والحقد يملؤهم. ورأت بَخيتة عيونهم المرتابة التي كانت تنظر إلى كل شيء وكأنها تقول: "آه! إنها الآن بهذه الطريقة، أليس كذلك؟ هذه هي الطريقة التي تريدون أن تحدث بها الأشياء؟" وهي تعلم أن هذه مجرد بداية، وتستمع إلى غناء كاروسو Caruso التي تأتي من النورة الموضوعة فوق العلبة الصغيرة، وهذا أحلى ما أتى به التقدم. ويغني كاروسو لكل إيطاليا ولكل إيطالي على وجه الخصوص، ويوحى صوته باللوعة والألم، ولغنائه إيقاع الحياة، الطوعية والهشة، ولكنها بوجودها هو انتصار للقلب. لو تجرأت بَخيتة لكانت طلبت من ألفيرا أن تضع الفونوجراف في الكنيسة حتى يستقبل العبد المصلوب والمادونا أسى الرجال الذي يتضمنه غناء التنور. ولكنها لن تأخذ

مثل هذا القرار إطلاقًا، إنها هنا لتطيع وهي تطيع وهي متواضعة وفقيرة، ولكن كيف لها أن تساعد هؤلاء الرجال؟ ماذا تفعل من أجل شفائهم من هذه الآلام الكثيرة؟ وخاصة أن ما سوف يتبع تستشعره منذ الآن. فإن الإذلال الذي تكبدوه، هو بمثابة تطعيم في الشجرة، ويومًا ما سوف تنبت ثمرة جديدة ومن المستحيل حينئذ تجاهل وجودها، لأنه عندما يولد التمرد فهو لا ينتهي أبدًا. أن الجنود العائدون لا يتكلمون لكنها تعرف هذه الوجوه للحيوانات على أهبة الاستعداد للتحرك، وتعلم أنه لن تستمر الأمور كثيراً فعند الصرخة الأولى سوف يجتمعون وينتفضون ويندفعون نحو الأقوياء، لينظروا إليهم جيدًا، في وجوههم، وقد عادت الجيوش.

خلال الحرب، مات سجناء من الألمان والنمساويين، وملايين من العساكر الإيطاليين من البرد والجوع، وتعرف بَخيتة هذا الموت، الجوع الذي يجعل الكائنات مقطوعة السبل من الداخل، والتشنجات، والدوار، والبرد الذي يحدث قشعريرة في القلب، والتوغل في الوحل والاختناق، والعيون العمياء، والفم الدموي، والاختلاجات والهذيان، وهي تتذكر، كم مر عليها في القوافل والزريبة وفي أسواق العبيد، هذا الجوع الذي كان يدمر المخ قبل أن يهوي الجسد. ويحدث لها في بعض الأحيان، في صمت الليل، أن تتساءل عن جدوى صلواتها، وشكوكها أكثر عنفًا من حزنها. يبدو لها أن كل شيء يتأرجح بين عدم اليقين والإيمان، بين الجمال وتدنيس الجمال. اليوم وهي تستمع إلى غناء كاروسو تشعر بعاطفتها الحية وهو نفس الشعور الذي يملؤها حين

تقابل الجنود وعائلاتهم. وتعلم أشياء جديدة، ليست جديدة حقيقة، اللاإنسانية الدائمة، والهدنة لا تعنى فقدان للذاكرة. وتُحكى الحرب بدون كلمات، من خلال الرفض والاضطرابات والفقر المتفاقم والكثير من الظلم. وقد عاد ابن أخ مادريه باتيسيلى من كوبوريتو، حيث هُزم الجيش الإيطالي، بعد محاصرته في الجبال. وقد حكى كيف تراجع العساكر بجانب نهر بيافي piave، متخليين للعدو عن ملايين الرجال... والجزء الأكبر من فينيثي. كان ذلك في خريف 1917، خريف الكارثة. في شيو، الكل كان يعلم أن جميع النمساويين والألمان كانوا على بعد أربعين كيلو متراً من البندقية، وفي السماء، وفي الجبال وعلى حافة الأنهار، كان يتتابع صدى مواكب الموت السارية، غارات أقوى من أعنف مواكب نقل الزنوج.

وعندما عاد من المعسكرات، ابن الأخت الصغيرة، فقد حكى لويجي، بهدوء وبشكل سرّي، كيف خُطط لموت الإيطاليين من قبل القيادة وأُعطيت الأوامر لبقائهم جائعين، وأوامر لإجبارهم على العمل، وأوامر بأن لا يرسل إليهم في هذه المعسكرات النمساوية والمجرية، أي طرود خاصة ولا مساعدات من الصليب الأحمر. لذا كانوا يذهبون حفاة في الثلج ويموتون من الالتهاب الرئوي. ويتناولون أعشاب المعسكر ويموتون من الدسنتاريا. ويفتشون في القمامة ويموتون من الجوع. لكن لماذا يتحدث لويجي بهذا الصوت المنخفض؟ لماذا يحكي وكأنه يبوح بسر؟ لماذا تحمل لويجي هذا العار بدلاً من القادة الذين لم يخفوا أبدًا هذا الواقع، والذين قاموا بحملات من أجل أن يكون

معروفًا وأن "الرعب من الأسر يصبح معروفًا للسجناء"، هؤلاء المتمردون والخونة؟ يروي لوينجي محنته لكنه لا يُعلم أحدًا شيئًا غير معروف. لقد خاضت إيطاليا الحرب. وأنهكت البلاد، واستنزفت الشعب وفرقت الرجال. وربما أن كاروسو يغني ذلك أيضًا، لغة وحيدة بالنسبة لبلد كان يريد أن يكون موحدًا ولكنه تمزق. وقد هربت ألفيرا من فرنسا، هذا البلد المتحالف أثناء الحرب والخائن للهدنة، هذا البلد الذي سرق السلام من الإيطاليين، الذين لم يحصلوا على أراض والتوسع المنشود. فرنسا هي العدو الجديد. يتبدل كل شيء سريعًا من معسكر إلى معسكر.

وفي باريس، لم ترسم ألفيرا، وقد استطاعت البقاء على قيد الحياة بعملها كموديل، الفتاة العارية على المنصة، ولكن لن تخبر بَخيتة بذلك، فلن تفهم، ليس هذا ما تخشاه، لم تكن فقط دجميلة (djamila)، وليست فقط مطمعًا. لكن أن يراها الفنانون هو في حد ذاته فنًا. هذا ما تقوله لنفسها للحفاظ على رغبتها بحياة مغايرة عن حياة المصنع أو العمالة في المنازل، لكن اليوم، هي لا تعرف أن هذا لن يكفي، الرسم، الغناء والجمال لن يلغي هذه الأشياء لإعادة بناء العالم. دخلت في خدمة كاريزيني، البيت الكبير عند مَخرج المدينة. وهو بيت مخفي، ومحمي، وهي لن تستمر طويلًا. هي ليست واحدة من تلك النساء التي ترضى بالاستسلام والخدمة، فقد عادت لترحل من جديد، ولم تتعرف على مدينتها. ليس فقط البيوت المهدمة والحقول البور (فالدمار واحد في كل مكان). ولكن أكثر من المنازل المدمرة، هناك المنازل التي مازالت مستقيمة والمنازل المراقبة الذين، من

خلالهم تعرفت عن العنف الجديد لمدينتها. الجنود المسلحون الإيطاليون المنتشرون بصفة دائمة أمام عائلات أسر الجنود المتهمين بالفرار من الحرب والذي يُطلق النار عليهم، هذه الدورية التي تمنع أي شخص من المجيء لرؤية أهل هذا المنبوذ، ولكن لا تمنع أحدًا من الاستيلاء على ما يملك، وعائلته لم تعد إلا فريسة معروفة، ومسجونة في بيتها وفي عارها.

في نهاية هذا المساء الحنون، مع رائحة التين والوستاريا، تنظر ألفيرا إلى مادريه موريتا، المندهشة قليلًا من اختراع الفنوجراف، ولكن مبلبلة بسبب أغنية لا تفهمها. وإذا كان عليها أن ترسم يديها اليوم، فستلونها مثل الكرمة، خشب صغير يلتوي.

- سأوقف كاروسو، لأنه يجعلك حزينة جدًا. ثم أنك لم تتحدثي معي.

ترفع ذراع القراءة، ويتوقف الغناء، والصمت فجأة يشبه الإهانة.

- هذا جميل، تقول بَخيتة:

- هذا يجعلك حزينة جدًا، انظري لنفسك مادريه، حتى يداك حزينتين.

- يداي؟

- أنت موديل ليد حزينة.

تضحك بَخيتة. وتنظر إلى يديها وتحركهما كما العرائس.

- أنا سعيدة، فالأطفال يعودون والمدرسة ستفتح.

- رائع! تفتح المدرسة، ووعدوا بإعادة الأرض للفلاحين، والمديرون سيجعلوننا نعمل فقط ثماني ساعات!

- يعود الأطفال، ألفيرا.

- والفلاحون يحتلون الأرض، مادريه.

- "يحتلون"؟

- هم على أرضهم ولا يعملون عليها. تغيرت الأشياء. لن يعود شيئًا كما كان من قبل. أرجوك لا. لا تلوي يديك! هيا! فلنرقص! فلنرقص!

تدير ألفيرا ذراع الفنوجراف، وتضع رأس القراءة على القطعة الثانية من القرص.

- "ترانتيل من نابولي!" (رقصة شعبية من نابولي)!

هل تسمحي لي بهذه الرقصة، مويتا بيللا؟

تلقي بَخيتة نظرة سريعة حولها. في هذا الفناء المظلل، بالقرب من الحديقة، لا يوجد أحد. إنها تأخذ اليد التي تمدها ألفيرا وعلى الأرض الجافة، يقومان ببعض الخطوات الراقصة، بدون معرفة كافية وهما سعيدات. وتغلق بَخيتة عينيها وفي ابتسامتها، تقرأ ألفيرا حبها للحياة، حب عميق مثل الأمل. المقاومة.

الأراضي. المصانع. الشركات الصغيرة. ورش العمل المحتلة. الإضرابات. المظاهرات. الفتن. الهياج الشعبي. تستعد البروليتاريا للثورة، كما في روسيا. ويواجه العمال الاشتراكيون الشرطة، ويرمون الضباط، خدّام الرأسمالية، من نوافذ القطارات والترام. ويشتبكون مع أرباب العمل وملّاك الأراضي والبورجوازية ورجال المال. انتهى الخضوع والبؤس والبطالة والنفي. وتنقلب الآية. بعد الحرب، التي لم يريدونها إطلاقًا، سوف تولد بلدهم من جديد، فخورة وساخطة وقوية. ويقاتل محاربون قدامي، بدون عمل، وبدون أي مكان في المجتمع المدني، ضد تحيزهم للسلام، ويواجهون الازدراء.

إنهم قوميون ومستقبليون ونقابيون وجمهوريون وكاثوليكيون وفوضويون وجنود نخبة، وجميعهم يخلق حركة، "حزم القتال الإيطالي". وهم يرحبون بكل من يؤمن بالحرب والذين تملؤهم المرارة وخيبة الأمل واليأس. والغضب والحقد. لقد تم اقتطاع السلام. ولم يعد لديه ما يقدمه لهم. لقد استهزأ الحلفاء بوطنهم وتقاسموا العالم وتركوا لهم الفتات. لم يعد هؤلاء المحاربون القدامى من الجحيم، ليخفضوا رؤوسهم مرة أخرى. والرجل الذي يتّبعونه صحفي، ابن حداد بسيط ومدرسة في روضة الأطفال، إنه بنيتو موسوليني. سوف يعيد الشرف المفقود

لهؤلاء المحاربين القدامى. وسوف يعيد عظمة إيطاليا. لقد وعدهم بذلك.

هكذا بدأت الأحداث. مع رجال يحتاجون إلى إعادة تجميع أنفسهم، وأن يقاتلوا، وأن يكونوا إيطاليين، وفخورين بذلك. رجال حقيقيون. ويرى العديد من الناس أنهم عنيفون وطعم الحرب تحت جلدهم، ويريدون الانتقام من أجل السيادة، على كل شيء، في مجموعتهم وفي معسكرهم وفي قريتهم وفي بلدهم. والتحرر من خلال العراك والتخريب والقتل والكحول والكوكايين والجنس. هذا هو زمانهم. زمن إيطاليا الجديدة. وزمن شبابهم. يغنون "Giovenizza" والأغنية تصبح نشيدًا. ويرتدون الملابس السوداء واللون يصبح علمًا. ويسيرون في الشوارع يحدثون الرعب. ويسمون أنفسهم "يأس"، و"بدون خوف"، و"صاعقة"، و"شيطان". ولديهم هراوات وقبضات أمريكية وخناجر ومسدسات وقنابل. هم في حالة فوران، ويسرعون الخطى مثل الكلاب الغاضبة، ورغبتهم في الحياة تختلط مع رغبتهم في القتل. يريدون التغلب على كل الآخرين، الذين لم يكونوا معهم والذين يغرقون البلاد ويعرقلون قدوم عهدهم. الحُمر. الجمعيات الريفية، التعاونيات الكاثوليكية، النقابات، كل هؤلاء الصغار، عديمي القيمة. وكل الضارين. أما هم فنار تلتهم البلاد، حركة تتسع، تضع ظلالها، وتفرض قانونها. وفي يوم ما، حركتهم لم تعد حركة. تصبح حزبًا. الحزب الوطني الفاشي الذي أنشأه موسوليني مع نوابه وأصوات في البرلمان. الشرعية والقوة. ماتت الثورة البلشفية. وتتحرك الثورة الفاشية. يدخل موسوليني

روما. يُعين موسوليني رئيس وزراء. ينشأ موسوليني الميليشيا. ويُعيد النظام والانضباط والاحترام. خلقت الحرب شهداء وتضحيات، ولكن جاء وقت الهيمنة على البحر الأبيض المتوسط، وأن يصبح له مكان تحت الشمس. التوحيد خلق إيطاليا. وحان الوقت لخلق الإيطاليين.

في المعهد، تعود اليتيمات أكثر عددًا وأصغر سنًا من أي وقت مضى. فتيات صغيرات نحيلات لدرجة أن المرض يُخلّص عليهم قبل أن يتم علاجهن، التوابيت ذات الخشب الأبيض لا تزن كثيراً، ومغطاة بورد قطف من الحديقة، وتتبعهن أخوات يشعرن بالذهول والعجز. تأتي التلميذات متأخرات ولديهن مشكلة في التركيز، وهن جائعات، مثل المُعلمات، ومثل الجميع. كيف نأكل، أين نجد الطعام؟ كيف ندفع ثمنه؟ وبماذا؟ فالحياة زادت بنسبة 50%، ومصانع التسليح فارغة وتضرب البطالة الرجال، وتُيأس العائلات، وتُركع البلد. لكن الدوتشي يشير إلى الشمس.

طلبت الأم الرئيسة بَخيتة في مكتبها. دائمًا ما تكون مشاعرها متقدة حين تشعر أن عليها طاعة أمر ما. إنها تجبر نفسها على الهدوء وهي تصعد الدرج المؤدي إلى المكتب، وتمسك بشدة درابزين الدرج لأنه من الصعب عليها التقدم بمفردها، وعندما تصل عند الأم الرئيسة، تجد هذه الأخيرة وقد أعدت المنديل الذي، حتما، ستمسح به العرق الذي يسيل على جبهتها. تشير الرئيسة إلى المقعد المقابل لها وتشير إليها بالراحة لاستعادة أنفاسها قبل بدء الحديث. وتبتسم بَخيتة، وهي واضعة يدها على قلبها، ومحرجة لأن الأمر يتطلب الكثير من الوقت قبل أن يهدئ تنفسها.

- أثير ضوضاء دائمًا.. معذرة.

- مادريه جيوسبينا، تعرفين بالقطع، أنه منذ الحرب تغيرت الكثير من الأشياء.

- أنا لن أبقى؟

- معذرة؟

- مادريه، سأرسل إلى مكان آخر؟

- بالطبع لا.

- أبقى؟

- مادريه جيوسبينا لا تتحدثين طيلة الوقت وكأنك ستطردين. أريد أن أقول العكس.

- العكس؟

- لقد عملت في المطابخ وفي الساكريستي وحتى في المستوصف، والآن أريدك عند باب المعهد. هل تفهمين؟ تشعر بَخيتة بقلبها يحتدم، كما لو أن أي خبر يصدمها وأي تغيير يؤلمها.

- مادريه، تعني أنني... آسفة... سأكون portinaia؟

- مسؤولة عن البوابة، نعم. إنه كذلك.

- هنا؟ في فيا فوزيناتو؟

- بالطبع هنا في المعهد! في أي مكان آخر تريدين أن يكون؟

- لكن... آسفة. شكرًا مادريه. لكن... سؤال، هل أستطيع؟

- تستطيعين.

- أنا...

- سوداء جدًا، نعم سيعتادون على ذلك، لديك الصبر واللطف. سوف تشرحين لهم، وقد خدمتي قليلًا في الاستقبال، وتعرفين ما يجب عمله.

- قليلًا...

- وكنت دائمًا جيدة جدًا. وأنا أعلم ذلك.

تعض بَخيتة شفتيها وتنفجر الرئيسة في الضحك.

- ما أعنيه هو أن الأشياء انتهت دائمًا على خير، ويراك الناس ويخافون، ثم بعد بضعة أيام كل شيء يستقيم من جديد.

- نعم... نعم..

- سوف تستقبلين التلميذات، واليتيمات، والمعلمات، وعائلات الأخوات، ورجال الدين، ومفتشي المدارس، وحتى السباكين، والرسامين، ومسلمي الطرود، والبستاني! أنها لمسؤولية كبيرة.

تُخفض بَخيتة وجهها كإشارة بالقبول. من الواجب عليها أن تشكر وتُطيع. لكن أن تكون المسؤولة عن البوابة فهذا يعني التعرّض الدائم لكل من يأتي من الخارج. فيجب أن يكون باب الراهبات مفتوحًا للجميع ودائمًا. إنها تعلم ذلك. وتلوم نفسها لذلك الشعور بالخوف أكثر من الامتنان.

- شكرًا مادريه.

وتضيف، لأنها الفكرة الوحيدة التي تطمئنها:

- إنها إرادة البرون...

- بالطبع هذا ما يريده الرب، سيدك، مادريه موريتا !

من المدهش تذكيرها على الفور بأنها الموريتا حين تستحضر البرون. وذلك بالرغم من أن الكنيسة تستخدم كلمات السيد والخادمة بدون أي إحالة للعبودية أو إلى لون البشرة.

- متى أبدأ؟

- الأسبوع المقبل. بعد سبعة أيام.

- جيد.

تستند إلى ذراعي المقعد لتنهض، لكن تطلب الرئيسة منها البقاء.

- هل تتذكرين، عندما بدأت مادريه فابريس في كتابة قصتك.

- قصتي؟

- ذكرياتك عن أفريقيا.

- آه... بالتأكيد.

- وفي العام الماضي، حين واصلت معك مادريه ماريا توركو، وذلك ساعدك على استعادة ذاكرتك، أليس كذلك؟

- ... نعم...

- نود أن تستأنف معك.

- آه.. شكرا مادريه. ولكن... الذاكرة عادت. شكراً.

- جيد، لكن مادريه ماريا سيبولا، رئيستنا العامة، مهتمة جدًا بـ... مسيرتك. كل ما يتعلق بك، وطلبت إرسال كتابات مادريه فابريسي إلى البندقية، إلى إيدا زانوليني التي تكتب في مجلتنا "الحياة الكانونسية". أتفهمين.

- نعم.

- وجدت السيدة زانوليني أن ذكرياتك... حقًا... حقًا... مؤثرة، ومع ذلك تعتقد أنك يمكن أن تذهبي إلى أبعد من ذلك. أبعد من ذلك بكثير.

- أبعد؟

- في الذكريات. خاصة العبودية.

هذه الكلمة تشبه صفعة. الكلمة التي تُعرفها دائماً، ولكن لا تفهم ماذا يمكنها أن تقوله أكثر من ذلك، ما يحتاجون سماعه. وربما أن قصتها ينقصها الكثير وفقيرة بالنسبة لهذه السيدة التي تكتب في مجلة.

- لماذا مادريه؟ لماذا الكلام مرة أخرى؟

- لأن السيدة زانوليني وهي امرأة مثقفة جدًا، ومعلمة ذات صيت ومسيحية جيدة، ستكتب قصتك في حلقات. أتعرفين ما تعني قصة على حلقات؟

- قصة. مرات عديدة القصة.

- بالضبط. وهذا شرف لك مادريه جيوسبينا. لكن لا يجب أن يصيبك ذلك بالغرور. سوف تسافرين غدًا إلى البندقية. وعند عودتك سوف تستلمين وظيفتك، عند البوابة.

- البندقية.

- عند الراهبات الكانوسيات في معهد سان ألفيز (saint' Alvise). هذا هو المكان الذي سوف تنتظرك فيه السيدة زانوليني. مادريه جيوسبينا... يتبع معهد دورسودورو الآن الأخوات الساليزين. لا يوجد أحد من الكانوسيات في معهد التعاليم الدينية، هل تعلمين ذلك؟ لا تنتظري لقاء أي شخص في البندقية.

- أين هن؟ الأخوات، أين ذهبن الآن؟

- لا تشغلي بالك بذلك. اذهبي الآن.

إلى من غيرها يُطلب منه سرد قصته على الفور؟ إلى من غيرها سوف يُفرض البوح بأسرارها الحميمة لتصبح مادة مكتوبة تنشر على الملأ؟ إلى من غير عابدة قديمة أنقذتها إيطاليا؟ زنجية تحولت إلى الكاثوليكية؟ ونحن في عام 1930. لقد اشتدت العمليات العسكرية في ليبيا. ووُضعت النساء والأطفال وكبار السن في مخيمات حول بنغازي. وماتوا من الأمراض وسوء التغذية. أطلق جيش موسوليني على البلاد غازات الخردل. هذا هو "المكان تحت الشمس"، "غزو البحر الأبيض المتوسط". إنها أفريقيا التي تُثير أحلام الدوتشى وتجعل سكانها يركعون، أفريقيا البرابرة فيها المتسولون القذرون، والتي سوف يستعيد بسببها الإيطاليون الشرف والقوة المفقودة. أفريقيا التي أصبحت موضوعًا للبطاقات البريدية، والأفلام، والروايات، والأغاني وحتى للإعلانات التجارية عن البن أو الجعة (البيرة)، والتأمينات على الحياة. لماذا إذن لا تكتب القصة على حلقات عن الحياة الفظيعة للمادريه جيوسبيني، بَخيتة سابقًا؟ لِمَ إخفاء هذه الشهادة الحية لأفضل ما يمكن أن تنتجه إيطاليا؟

تلتقي من جديد بالبندقية. وتفتقد ميمينا، على الفور، هذه الطفلة الرضيعة التي احتضنتها في الشوارع المعرضة للهواء والتي تتخللها الشمس، وهي مأخوذة بجمال مفاجئ لقصر ما، وبشرفة مزدهرة وبشجرة تبلغ من العمر مئة عام في ساحة صغيرة. العودة إلى البندقية هي الرجوع إلى نفسها وكأنها المرة الأولى. إنها تبلغ من العمر أكثر من ستين عامًا ولكنها تشعر أنها في العشرين من عمرها، مع هذه الطفلة المتكورة في أحضانها التي كانت تعطيها الفرحة والرغبة في الحياة. الواحدة في حضن الأخرى. كان هذا هو مكانها. قوي وسعيد. منذ ذلك الحين، لم يمر يومًا دون الصلاة من أجل ميمينا، حتى يحميها البرون، وخاصة يخبرها بمدى حبها آنذاك وحبها حتى اليوم، حب لا يَفنى، مرتبط بحياتها. تصل إلى الساحة الصغيرة للدير في قلب حي كناريجيو، وتبدو الكنيسة ذات الطوب الأحمر، مهيمنة وثقيلة مثل قصر بدون نوافذ. تصدر خطواتها الغير مستوية صدى على البلاط وتصطدم بالبيوت التي تلتهمها الشمس، وتستعيد الرائحة المالحة واللزجة للمدينة، وهذا الشعور بالحماية، في المدينة كما في راحة الكف، آمنة، لأن الضوء جميل جدًا، ويذهب الرجال على الجندول كما على الزوارق الجذعية، وحيدين ومتكبرين. في مواجهة البحيرة، القريبة جدًا، تستعيد

هذه الحياة المفتوحة تحت السماء، الأفق الذي لا يحده شيء، وتبتسم لأنها تجد في البندقية بعضًا من هذه المساحات الغير محددة بشيء لأفريقيا، لقد صلّت كثيراً في اليوم السابق، ولم تنم، وتعرف أن البرون يطلب منها الكلام عن كل هؤلاء البشر الذين لم تساعدهم، وتركتهم يموتون على أرض مُخربة.

تلتقي في رواق دير سان ألفيز بإيدا زانوليني. وتتفاجأ هذه المرأة الشابة... تعتبر بَخيتة أول سوداء تقابلها، وهي مبلبلة لدرجة أنها لا تعرف كيف تسلم عليها. تنحني، تقبل *الماتر دولوروزا* على سلسة الكانوسيات في رقبتها، وتبتسم لها بإحراج متأثر. إنها امرأة ملتزمة ومبتهجة ومعلمة مدنية تكرس نفسها لمهنتها وللعمل الكاثوليكي. تجلس مع بَخيتة في قاعة الاستقبال الصغيرة للدير، وسريعًا ما تفهم بَخيتة أنها تستطيع الحديث بإيقاعها الخاص مع هذه المرأة، وتتحدث كما تراه مناسبًا، وتعتقد أنها ستبوح لها عن الذي تعنيه العودة . بدون الآخرين. وتعتقد أنها تحدثت بما فيه الكفاية عن القرية المحترقة، والأخت المخطوفة وخنجر الخاطفين على رقبتها. وتستمع إليها إيدا دون أن تكتب شيئًا ودون أن تجعلها تكرر أو تحدد كلمة، ودون أن تطلب منها استعادة وتنظيم ما تقوله. لأنها لا تستمع إلى مادريه جيوسبينا. ولكن تستمع إلى المرأة التي لا تتذكر اسمها، والتي تسرد ماضيها كما لم تحكيه لأحد من قبل. الألم. الهزائم والعار. هذا النقص، الذي لم يستطع أي ورع ملأه.

في المساء، في الغرفة، تدوّن إيدا كل ما استمعت إليه،

بسرعة شديدة لدرجة أن لديها صعوبة في إعادة قراءة ما كتبته، تكتب مثل تيار، يرشدها هذا الصوت الذي يأتي من الحلق، والحييي والمخلوع من القلب للصغيرة داجو. لم تعش ذلك من قبل. لم تقابل أبدًا إنسانة مثلها. متذبذبة وقوية قوة تفوق أي إنسان. متوهجة ومن الصعب تصنيفها. ذكية ومنضبطة. لازالت لا تعرف أين ستقودهما، هما الاثنتان، هذه الكتابة، وربما لو أنها عرفت ما جرأت على خوض هذه التجربة. لو أدركت مدى الانتشار والشغف وتقريبًا الجنون الذي من شأنه أن تثيره هذه الحلقات في المجلة الكانوسية، لكانت طلبت المغفرة من هذه المرأة، التي على مدى ثلاثة أيام، كشفت عن نفسها، وهي تختنق أحيانًا من البكاء، وتتماسك من جديد كما لو أنها تتشبث بآخر صخرة لآخر جبل، لتحكي العذاب، وخاصة عذاب الأطفال، "أنت تفهمين، الأطفال، الأطفال العبيد، الأطفال الجنود، هل تفهمين، لم أفعل شيئًا وأنت أيضًا، ومن ذا الذي سيستطيع في يوم ما أن يفعل؟" هذا ما كانت تقوله "*بخليطها*"، الذي تفهمه بومضاته بسهولة كبيرة.

في اليوم الأخير، تأخذ إيدا بَخيتة إلى 108 شارع دورسودورو، حيث يوجد المعهد القديم للراهبات الكاتيشومان. وهي تجد المكان بعد ثمانية وعشرين عامًا من مغادرته. تم إخطار الراهبات الأخوات السليسيين بقدومها، ومع ذلك، حاولن بقدر الإمكان تخبئة دهشتهن عند رؤية الموريتا الأكثر سوادًا من الصور أو الرسومات المتداولة عن الأفريقيات. ويفتحن باب الدير على مصراعيه. الرواق الصغير، وهذه الحديقة الملمومة، مربع من

الصمت تحت سماء هادئة، وهذا الشعور العنيف بأنها في بيتها. هذا المعهد هو المكان الأول الذي قالت فيه "لا". تدخل في قاعة الاستقبال، الواسعة والفارغة، والذي يتردد فيها صدى بكاء ميمينا ولعنة والدتها، "جاحدة! جاحدة!". والمكان مظلم جدًا ولا يعيش في داخله إلا الظلال والأصداء التي يحتفظ بها، وتجد بَخيتة، في بريق الأزمنة المختلطة، هذا القرب العنيف من الماضي. ترى ستيفانو، بتلهفه والتزامه، فقد فهمت في وقت لاحق الاستبسال الذي كافح به من أجلها، وكل هذا مكتوب الآن. ومن العدل إرجاع الحق إليه. وربما أولاده سيقرأون الحلقات. وميمينا؟ لا تعطي أي أخبار. فمن السهل جدًا أن تعرف أين تعيش مربيتها القديمة، وربما تعرف ذلك، وهي لا تأتي.

تدخل بَخيتة في الكنيسة الصغيرة، الفقيرة، والشبه عارية. وتقترب من خط المعمودية وتريه لإيدا.

- أصبحت ابنة الله .هنا.

تلوم إيدا نفسها لأنها تعرف أن هذه الكلمات، الحميمية جدًا، سوف تكتبها أيضًا. تجلس بَخيتة في مواجهة العبد المصلوب، التي كانت تعرفه قبل علمها بمن يكون. تسمع مادريه فابريتي: "طوبى للذين يبكون، لأنهم سوف يشعرون بالارتياح"، وتشعر وكأنها تعود إلى ينابيع روحها، كما لو أن هذا المكان يحتفظ أيضًا بطفولتها في عائلتها، يحتفظ بالارتباك والحب الذي تكنه لها. تفهم أن البندقية أنقذتها لأنها تنتمي إلى البحر، هي أرض المد والجزر، أرض اللاجئين والتجار، و"المخلطين"

والحالمين، مدينة أحست فيها أنها في بيتها، منجذبة إليها وفي حيرة من أغاني الفجر التي كانت ترتلها الأخوات وراء الستار المخملي.

وهي منزوية عنها بعض الشيء، إيدا لا تستطيع أن تمنع نفسها من النظر إليها وتتساءل بأي لغة تتحدث إلى نفسها؟ هل توجد لغة مخصصة لأفريقيا وأخرى لإيطاليا؟ لغة للبرون وأخرى للنجوم، التي، باحت لها، إنها تشاهدهم كل ليلة منذ الطفولة؟ هل نسيت فعلًا اسمها، أم أن ذلك هو سرها الأخير؟ إنها تخاف من خيانتها. تخاف من جرحها وهي تكتب عن هذه الطفولة من قرن آخر، وبالرغم من ذلك غير قابلة للتغير، بسبب الدمار الذي أحدثته. تنظر إلى بَخيتة وهي تشعر بالسرقة. هي تأخذ كل شيء. حتى وحدتها في الكنيسة تأخذها. وأيضًا الذي لم تره، والذي تخمنه، وكل الأسئلة التي لم تسألها. عنف الأسياد. سلطتهم الأبدية على الفتيات الصغيرات والنساء. وهي تشك. ولن تقول شيئًا. فتلك هي الأشياء المسكوت عنها. العار. الموت الداخلي. الجزء المحروق. وتنظر إلى بَخيتة، التي تنحني أبدًا من التعب، وهي محرجة وهي تعرف أن ظهرها عليه علامات السوط، وبشرتها يغطيها الوشم، ومحرجة أكثر، لأن قراء الحلقات سيقرؤون كل ذلك قريبًا. وهي ترى هذه الكلمات، هذه الجمل المصفوفة مثل حبال صلبة كالسلاسل، التي تمسك وتنتزع الأسرار. لم تقل لها. يجب أن تخبرها. فعلًا. "الناس سوف تقرأ مادريه جيوسبينا، هل تفهمين؟ سوف يعرفون كل شيء. هم ليسوا أعدادًا كبيرة، هم منا. لكن سيعرفون كل شيء." فإن "Vita Canossiana"،

"الحياة الكانوسية" ليست مجلة للجمهور العريض. ولكنها تعرف في قرارة نفسها أنها ترفض، لكنها تعرف، عدم أمانة الشيء المكتوب، الاعتراف الشفوي المدون، المنشور والمضاعف عند الانتشار. إنها تقول لنفسها: "يمكن أن يقع بين كل الأيادي". هذا حدس تطرده مباشرة وتغلفه بمفاجأة، اليوم ستقدم مفاجأة لمادريه جيوسبينا، لتتبرأ مقدمًا من الذي يمكن أن يحدث حين تنشر الحلقات، التي تعرف إنها مسؤولة عنها.

يأخذان معًا المركب البخارية وتغلفهما الرياح بعنفوان يُضحك بَخيتة، وهي تحب هذا السفر القصير مع صوت (الموتور) والانزعاج الذي يحدثه التمايل واليد المفتوحة الواسعة للعذراء على قبة الكنيسة الكبيرة، كما لو أن السماء تهديها، هذا اليوم السعيد، مغادرة البندقية ورؤيتها وهي تتوسع على البعد. "هذا جميل!" تصرخ بَخيتة، وإيدا تؤيد بإيماءة من رأسها ممسكة بوشاحها الذي يتهرب فوق شعرها.

تصلان إلى جزيرة جيوديكا، في المعهد الجديد للقطاء. إنها مفاجأة بالنسبة لبَخيتة. وسوف تكون مفاجأة أيضًا للتي جاءت لتراها مرة أخرى، مادريه فابريتي. الأخت البورتينيا (البوابة) التي تفتح لهما الباب شابة، تبدو لبَخيتة وكأنها طفلة، لكنها تخبرها أنها هنا منذ خمسة عشر عامًا، كما لو كان ذلك نوعًا من الأمانة، ووجهها يحمر عندما تتحدث إليها بَخيتة، وفي نظراتها يُقرأ الفخر لأنها ترى بعيونها العبدة القديمة التي يُحكى عن تحولها إلى جميع المبتدئات. تقول إن مادريه فابريتي لم تعد تبرح مكانها، وتنادي على أخت لتصطحبهما إلى غرفتها. تجلس بَخيتة وتنتظر.

هل أم عجوزة إلى هذا الحد يمكن أن تتعرف على طفلتها؟ هل يمكن أن يتعرفا على بعضهما البعض "بعد ما يقرب من ثلاثين عامًا من الغياب؟ عشرة. زائد عشرة. وكمان عشرة" شرحت إيدا بكلتا يديها المفتوحتين. أنها لا تعرف. لم يحدث لها أن التقت بأحد بعد كل هذه الأعوام.

تتبع مع إيدا، الأخت التي توجههما في الممرات الطويلة المدهونة بالشمع، التي يسمع من خلالها صرخات الأطفال وهم يلعبون، صرخات تقرع على النوافذ التي لا تُعد. تأخذ إيدا ذراع بَخيتة، وتساعدها على المشي دون أن تلفت الأنظار، وتفاجأ بوزن هذا الجسد الذي يسير وكأنه ينتزع نفسه من الأرض، وتعرف وهي تفكر بالضرورة، في عدد الكيلو مترات التي اجتازها هذا الجسد في الصحاري وعلى التلال. وأمام النظرات الفزعة لأولئك الذين يلتقون مع بَخيتة في الممرات، تتساءل إذا كان المرء يستطيع أن يصبح حرًا، يوم ما، بجسد أسود.

تذهب بَخيتة إلى الفوتيل الذي تجلس عليه مادريه فابريتي، متقوقعة على نفسها وهشة. تركع لتكون على مستواها، وفي الألم الذي تشعر به من هذه الحركة، تبدو وكأنها تلتحق بشيخوخة المرأة التي تلتقي بها. وجوههما قريبة جدًا، وجها لوجه، تنفس في مواجهة التنفس الآخر. لا تتحدثان. تنظران إلى بعضهما البعض. طويلًا. ثم بحركة بطيئة وناعمة، تنحني بَخيتة وتضع وجهها على ركب مادريه فابريتي. اليد المشوهة للمرأة المسنة تداعب غطاء رأسها. ثم يصعد ببطء، نفس مكشوط وصعب أولًا، ثم سعال، شيء ما مغلق عليه في الحلق، وينفجر

من الوجه المدفون لبَخيتة، بكاء قوي ليس له نهاية.

تخرج إيدا من الغرفة على أطراف أصابعها، وتترك السيدة العجوز والمرأة التي حمتها ليكونا معتمدات على بعضهما البعض مرة أخرى، في شعور محظور وفي تعلق، وهي تعرف، أنه لا يؤخذ شيئًا من الله، ولكن يُعيد للبشر قليلًا من هذا الحب المختار والمتفق عليه والذاتي، والذي يجعلك كائنًا فريدًا من نوعه.

- يجب وضع صورة لك، مادريه جيوسبينا، صورة لك على غلاف الكتاب.

- أي كتاب؟

- بعد الحلقات سيصدر كتاب، قالوا لك هذا. ألم يقولوا لك هذا الكلام؟

- وجهي القبيح؟ على كتاب؟

- لكن لا! أصبح الإيطاليون معتادين أكثر فأكثر على وجوه الزنوج. إيدا أريها البطاقات البريدية، بعضها جميل جدًا الآن، هل تعرفين بطاقة الشباب الإيطاليين الراكعين أمام زنجية صغيرة؟ نعم، نعم، التي مع المطرقة! الإيطالي الصغير راكع ويكسر سلاسل العبدة الشابة. لقد أتى بها أولاد أخي، شيء مؤثر جدًا!

ومن جزيرة جيوديكا، تعود أخت مع بَخيتة وإيدا إلى البندقية وصوتها الحاد يغطي بصعوبة على صوت المركب

البخارية، وبَخيتة تنظر إليها وهي تغلق عيونها بعض الشيء:

- لكن أنت أيضًا مادريه سوف تكونين على غلاف الكتاب.

- أنا؟ لماذا؟

- الكانوسيات يمشيان دائمًا وهما اثنتان معًا. لذلك لا أستطيع أن أكون بمفردي على الغلاف.

تضحك الأخت برفض فتحه. لقد حدثوها كثيراً عن روح الدعابة للمادريه موريتا. وتوصلهما إلى رصيف الكناريجيو وتعود مباشرة إلى المعهد، وهي سعيدة بلقائها مع هذه المادريه السوداء ذات القصة، كما تعلم، الرومانسية جدًا. وتبتعد وتصرخ إلى إيدا وهي واضعة يديها أمام وجهها:

- اكتب لنا حلقات جميلة!

تؤخذ لبَخيتة صور وهي بمفردها. واقفة. راكعة. ممسكة بكتاب أو بيديها المضمومات. وهي تصلي. بابتسامة متحفظة. وتنظر بعيدًا. وتحتفظ بهيئتها مستقيمة، طالما أنه يجب رفع الرأس وعدم الحركة. أن لديها هذا الوقار وهذه الأناقة الطبيعيين اللذين يربكان وهمن يجب أن يختاروا بين الكليشهات، ويهمسون إنه ربما لأن والدها كان أخًا لرئيس القرية، كما أخبرت إيدا زانوليني. من يدري؟ وهل هي أميرة أفريقية؟ آه... لا يوجد شيء يضحك، فإن حياتها... حياتها! كيف نقول؟ هي... حسنًا! كعنوان الحلقات: رائعة. حياتها رائعة، نعم، حقًا إنها storia meravigliosa. يجب أن يعرفها جميع الإيطاليين الصغار، وسوف يرون ما يحدث للأطفال في أفريقيا، وسيسعدهم أكثر خدمة الدوتشي.

في يناير 1931، الحلقة الأولى من القصة الرائعة لمادريه جيوسبينا بَخيتة تظهر في المجلة الكانويسية. وفي ديسمبر، يصدرالكتاب في المكتبات. يحكي عن جحيم العبودية، والمقابلة المُنقذة مع القنصل الإيطالي، وحياتها في إيطاليا حتى الترهبن. لا يخيف الغلاف أحدًا. إنه رسم لبَخيتة بوجه أسلس وعاقل وبغطاء رأس الكانوسيات ووراءه خريطة واسعة لأفريقيا. وجهها فاتح وكأنه مُهجن. في داخل الكتاب، تبين الصورة السواد العميق لبشرتها، وكأنه ترك للقارئ الإيطالي برهة من الوقت ليتعود. وفي المقدمة، بعد أن تحدثت إيدا زانوليني عن البلبلة التي حدثت لها عند مقابلتها، يضيف الناشر بعض السطور عن الطرق البديعة لله، الذي أراد في طيبة "توصيل بَخيتة من الصحراء البعيدة والمظلمة والمليئة بالخرافات والهمجية إلى ضياء المسيح وروعة النعمة، في الكمال الديني"، والكلمات الأخيرة هي من أجل العمل التبشيري.

والكتاب لا يعتبر نجاحًا فقط إنه ظاهرة. يتخطفونه ولسنوات عديدة، حتى عام 1937، نهاية الحرب في أثيوبيا، يتم إعادة طبعه. وهي لا تفهم شيئًا في البداية. لا تفهم لماذا يرن جرس الباب في المعهد طوال اليوم، وفي بعض الأحيان في الليل، ولكنها تفتح، فهي الـ بورتينيا. يأتون من كل مكان. ليس فقط من القرى المجاورة، وليس فقط من المدن الصغيرة لفينيثي، لكن يأتون من تريستي وفيوم والبندقية وتورينو، يأتون لرؤيتها، للمسها، ولتلمسهم وتباركهم وتعتني بهم وتواسيهم.

والبعض يلقون بأنفسهم عند قدميها وهم يشهقون من البكاء. والبعض الآخر، ينظرون إليها بذهول، ويلمسون الميدالية في رقبتها، ويقبلون أسفل ثوبها ويطلبون منها أن تصلي من أجلهم. هناك أيضًا التائهون. والذين يؤمنون بالخرافات. وجرحى الروح. والفضوليون. والأذلاء والمُهتاجون. وبالقرب من المادريه، السوداء جدًا، والموريتا جدًا، وضعت الأخوات صندوق للصداقات. ومن المستحسن بعد مقابلة مادريه جيوسبينا، إعطاء المال إلى المبشرين من الكانوسيات، يمكن أن تسترد عبدة بهبة منهم، ومن ثم، يشعر أفقر واحد من بينهم أنه يشارك في عظمة الوطن. لم يعد الإيطاليون هؤلاء المنفيون الذين يعزفون على المندولين ولم يعودوا هذا الشعب من الفلاحين الأميين والسكارى، ولكنهم هذه الكائنات السخية التي تعمل لإنقاذ الشعوب التي لا تعرف الحضارة بعد.

"هذا ما يريده البرون..." عندما يأتي المساء وهي وحدها في صومعتها، والشباك مفتوح على الليل، تكرر لنفسها إن هذه هي إرادة الله. وتتوسل إليه لكي يشرح لها عن الشيء الذي يبحثون عنه؟ فقد ضحكت رئيسة الدير عندما سألتها لماذا هذا العدد الكبير من الناس يريد أن يراها بينما لديهم صورة لها على غلاف الكتاب. ضحكت ولم تجيب بشيء. ومنذ الحلقات، وقبل الكتاب بقليل، فإن الأشياء تغيرت في قلب الدير. في يوم من الأيام، أثناء وقت راحتهن، طلبت منها الأخوات أن تغني لهن أغنية أفريقية. لا تتذكر أي أغنية. وأصرت الأخوات فإنها تستطيع أن تجتهد. أغنية أفريقية. أغنية واحدة. أغلقت عينيها، وكان ذلك في

صباح يوم في نيسان/أبريل مع ضوء شاحب، صباح نقي لا يلفت النظر، ولم تستطع التذكر. ذلك أحبط الأخوات وشعرت بالخجل والأسف، وكأنها كذبت عليهن، ولا تأتي في الحقيقة من "هناك"، فماعدا بشرتها الشيطانية، لم تأتي بشيء من أفريقيا. ورأت الشك والارتياب في عيون البعض، فقد قصت حياتها ولا تتذكر أغنية واحدة؟ ظلت معذبة عدة أيام، وكانت تسير وهي تقطب جبينها، تدندن أحيانًا بداية لحن لا يُفضي إلى شيء، وتحاول أن تصفر، وتستعيد لحن من الطفولة، من والدتها، التي لم تعد تزورها في الأحلام منذ أن وصفتها في الكتاب. لم تعد بَخيتة تجد والدتها وكأنها تركت إلى الأبد جذع الباوباب على الأرض (هذه الخاصية احتفظت بها لنفسها) وكأنها تلاشت في مكان آخر لا يمكن الوصول إليه، ولكن ربما روحها وروح والدها يلومونها لأنها قصت هزيمتهما؟ الفتاة الصغيرة العبدة. هي الفتاة الصغيرة التي لم يجدوها. وهي تصلي من أجل ذلك أيضًا. من أجل أن يسامحها ذويها. وعندما تستمع إلى المال وهو يقع في صندوق الحسنات للرهبانية الكانوسية، لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير في بيناه وفي كيشمت وفي كل الأخريات. وعندئذ تقبل أن تكون "هذا الحيوان النادر" كما تقول، ولكن في بعض الأحيان التعب كبير جدًا، والانزعاج والقلق يشلانها فتسأل: "اثنتان من الليرات لشراء الكتاب وكم ليرة من أجل رؤيتي؟" كم تساوي؟ كم كان ثمنها دائمًا؟ بعد الستين، في السودان، عند الأسياد، ليس لها أي قيمة، وتتخيل نفسها في الشوارع المُتربة والحارة جدًا للخرطوم، جالسة وهي مستندة على جدار عار، متسولة

مثل الأخريات، كما رأت في إيطاليا، والفاشيون يبحثون عنهن ويضربونهن ويعثر عليهن وهن موتى تقريبًا، بابتسامتهن المجنونة وارتباكهن لأنهن لا تزلن في هذا العالم. وهي تشعر أنها قريبة من تلك الكائنات. ولكن يريد البرون شيئًا آخر. وفي اليوم الذي تجد أغنيتها "عندما يولد الأطفال من اللبوة" تعلن ذلك للأخوات مع شعور بالراحة لفتاة صغيرة عندها ضمير. وهن سعيدات وفضوليات لدرجة طلبهن بأن تغنيها الآن وهنا، حتى لو كان وقت الترفيه ليس الآن، في قاعة الطعام حيث أُبعدت المناضد قبل الجلوس للاستماع والنظر أيضًا: "يجب أن تصفقين مادريه جيوسبينا! وترقصين أيضًا!" لقد رأين الأفلام ويعرفن كيف تحدث الأشياء. تغني بَخيتة أغنيتها كطفلة صغيرة. هي التي تشعر أنها عجوزة جدًا. هذه الأغنية للأطفال الجالسين حولها، الغير مبالين والسُذج. وهو خليط من اللهجات، من العربية والتركية، وتفعل ما تستطيعه، فهي لم تعد تعرف لغتها الأم منذ زمن بعيد. في البداية، تشعر الأخوات بالارتباك، هذا الصوت السمين، هذه الكلمات الثقيلة، هذه الأيدي التي تضرب، هذا الجسد الذي يتحرك، لا يجرآن على النظر لبعضهن ويلومن أنفسهن لارتجافهن. وعندما تغلق بَخيتة عينيها لإنهاء الأغنية، ويديها ممدودة بامتداد جسدها، بلا حراك ورصينة، يخفن من دخول أحد يمكن أن يرى ذلك المشهد، هذا الألم الذي لا يفهمن منه شيئًا.

فيما بعد، لإصلاح هذا الإحراج، يقررن الضحك. وتصبح العادة في وقت الترفيه أن يطلبن من المادريه أن تغني أغنيتها. لكن دون إغلاق عينيها "على الطريقة الأفريقية"، حتى النهاية،

وهي ترقص وتصفق. الفرحة. دائماً الفرحة! بعد ذلك، تشعر بَخيتة بألم شديد في سيقانها وفي ظهرها وحتى في ذراعيها، فتقول لنفسها أنها لو بقيت في الخرطوم، اليوم، كانت ستصبح متسولة. لن تنفع للخدمة في أي بيت. لن تطلب منها أي سيدة صغيرة أن تغني أو أن تقلد القرود لتسلية ضيوفها.

بالطبع، اليوم، كل هؤلاء الناس الذين يأتون لرؤيتها، يعرفون ماذا ينتظرهم، لقد قرؤوا الكتاب، وهم فضوليون، وفي حيرة، ولكن من دون فزع. اليوم، أفضل مما كانت عليه عندما بدأت عمل البوابة، حين كانت تخيف الأطفال، فأول أيام المدرسة كانوا الأسوأ. ترفض الفتيات الصغيرة أن تلمسهن، والبعض كان يجهش في البكاء عند رؤيتها ويبقيان أمامها وهن متصلبات ويائسات. كانت أكيدة زوجة الأيومو نيرو uomo noro، (الرجل الأسود) الـ (Babau) في الحكاية الخيالية، هذا الشعب الأسود الفظيع الذي كان الأهل يهددون به أولادهم عند أول غلطة. هل لديها سيقان تحت ثوبها؟ هل الجزء الأسفل من جسدها يُدخن؟ هل تختبئ في الليل تحت أسرتهن؟ ودائماً هذا الخوف من أن تلوثهن وأن تسرقهن لتأكلهن. كان يتطلب الموقف صبر كبير لتهدئتهن، هؤلاء الأطفال الذين يكبرون في الخوف وقد غير أهاليهم أثوابهم بيونيفرم الحزب الفاشي، الفساتين، والتنانير والقمصان السوداء، مع هذه الرغبة بعمل ما هو صحيح، أن يكونوا مثل الآخرين، مقبولين ومتطابقين. وهي لا تريد إلا شيئًا واحدًا استقبالهن على أكمل وجه وأن تكون أفضل بوابة ممكنة. ومن المهم، وهي تعرف ذلك، بداية اليوم. لذلك تُجلس الصغيرات قبل أن يرن جرس الدخول وتحكي لهن حياة يسوع. حياتها هي، وتريد التوقف عن الكلام عن نفسها، وعدم

الإجابة، وتفضل أن تحكي قصة العبد المصلوب، كيف كانوا يريدون أن يتبعوه، والاستماع إليه، كم كان يحب المتسولين، المرضي والأطفال الصغار. ولكن تفضل الكثيرات كتاب موسوليني المبسط للأطفال الصغار أو قصائده التي تُسمعونها بكل سرعة وهن يصفقن: "روزا كان اسمها، اسم يعني الشوك، ولكنه كان وردتها، وبنيتو، ابنها. وهي تقبل جبهته وتقول له: "أنت لي!" ولكنها كانت تعرف أنه ملك لإيطاليا. ولله". هذه لعبة. طريقة جديدة في الحياة. مجتمعون. متجمعون. حول الرئيس الذي يرفع إيطاليا بعد أن جعلتها الحرب الكبرى، بلدًا "سيئًا جدًا أسوأ من مستشفى للمجانين أو قبيلة أفريقية".

حتى عام 1933، سوف تفعل ذلك، ترحب بأطفال المعهد، وبالزوار، وتجيب على الاتصالات المستمرة من القراء، على حكايتها الرائعة أينما تكون في الدير أو المدرسة أو الكنيسة، فهي تفتح الباب عند رنين الجرس. هل لأنها اعترفت بسوء المعاملة، بالضرب، بتعذيب الوشم، هل لأنها تحدثت عن المسيرات التي لا نهاية لها، عن الجوع وعن العطش، هل بسبب كل ذلك، فلم يعد جسدها متماسكًا. يفلت منها. وهذا في الوقت الذي يحتاجونها بشدة، والذي يجب أن تُسرع حين يطلبونها بينما جسدها يريد التوقف. رغم أنها لا تزال تطيع كالعادة حين يُطلب منها شيئًا، ولكنها لا تعرف حتى الآن ماذا يريدون منها. لماذا هذه الحاجة إلى الاقتراب منها؟ لماذا يقرؤون قصتها بهذا الشغف الكبير؟ ألا يرون ما يحدث هنا، في بلادهم؟ ألا ينظرون إلى الفلاحات الصغيرات؟ إلى هؤلاء الأطفال الذي لا يعرفون تاريخ

ميلادهم، ويملؤون المعهد؟ لماذا لا يطلبون من اليتيمات رواية قصصهن الرائعة، واللواتي يصلن المعهد، بدون ملابس داخلية، قاذرات وصامتات، وقد أسيئ معاملتهن بالفعل ويشعرن بالعار؟ إنها لا تفهم ثم تقبل عدم فهمها، وهي هذه الراهبة التي بشرتها تحمل حكايتها، كوصمة عار، وهي تخفي بقدر استطاعتها آلام ساقيها الذي تنتشر حتى أسفل الظهر، ولا تطلب أبدًا أي استشارة طبية، ولا تُظهر في المستوصف هذه الكرات الصغيرة الغريبة التي تظهر على ندوبها وتلهب جلدها.

في يوم من الأيام، قيل لها إنها يجب أن تغادر. تبلغ من العمر الرابعة والستين وسوف تغادر شيو. تقدم لها المديرة، المادريه ليوبولدا بنيتي العائدة من الصين حيت عملت مع التبشيرين لأكثر من ثلاثين سنة.

- هل تعرفين أين الصين، مادريه جيوسبينا؟

بإيماءة من الرأس، بَخيتة تقول لا، وهي تبتسم بقصارى جهدها لمادريه بنيتي، التي تنظر إليها بفضول مبالغ فيه.

- الصين بعيدة جدًا. أكثر بعدًا من أفريقيا.

ومادريه بنيتي تهز رأسها، وكأنها تقول "نعم! ممكن! بلد أبعد من أفريقيا!".

تخبر مادريه بنيتي بَخيتة أنها قرأت الكتاب.

وبَخيتة تهز رأسها، على أي شيء آخر غير الكتاب سيطلبون الحديث معها، وعن أي شيء آخر يتحدثون معها منذ صدوره،

الكتاب، نعم، ثم تستمع إلى هذا الكلام عنها، عن طفولتها وتحولها، ثم عن البعثات التبشيرية التي، كما تعلم، تتواجد بشكل متزايد في أفريقيا، في السودان وفي ليبيا، تستمع وتنتظر الطلب التالي، لأنه دائماً ما يكون هناك طلب في نهاية الجمل.

- استرداد كل هؤلاء العبيد. وإنقاذ حياتهم.

- نعم.

- وأنت... يحبك الإيطاليون كثيراً.

- أنا؟

تحاول المديرة الاعتذار عن براءة بَخيتة:

- المادريه موريتا هي التواضع في حد ذاته. مادريه جيوسبينا، يمكن أن تساعدي المبشرين.

- ولكن كيف؟

- يأتي الناس من كل إيطاليا لرؤيتك، أليس كذلك؟

حسنًا، أنت الآن سوف تذهبين للقائهم.

- سأسافر؟

- نعم. ستسافرين.

- لن أبقى هنا؟ أخرج؟

إنها مطرودة، مرة أخرى، إنه خطؤها، فإنها قالت الكثير، وهذا المكان الذي اتخذته خانق، وتعلم ذلك، ويخيل إليها أحيانًا إنها علم ضخم زرعوه أمام المعهد، ويخفي كل شيء آخر، العمل المتواضع والمثابر، الذي تقوم به الأخريات، وتتذكر

سعادتها حين كانت تعمل في المطابخ وخادمة للكنيسة، سعادة هذا الزمن ما قبل الحرب حين كانت الصغيرات ينادينها في الفناء "مويتا بيللا! تعالي!". ما كان يجب أن تجمعهن وتحكي لهن عن العبدة الصغيرة التي تهرب والتي تنام في الأشجار والتي لا تلتهمها الحيوات البرية. كل شيء، بدأ هكذا.

- هل تسمعين، مادريه موريتا؟ هل تريدين مساعدتي في استرداد العبيد؟ في إنقاذ إخوانك الأفارقة؟

- في أفريقيا؟

- تفتح مادريه بنيتي على المكتب خريطة لإيطاليا، لقد رأت بَخيتة هذه الخريطة منذ الحرب، هذا البلد الطويل بجباله وبحوره.

- أنا وأنت سوف نسافر لنشر الكلمة الطيبة. أنا وأنت. والكتاب. سنطوف إيطاليا، في كل المعاهد الكانوسية للبلاد، وسوف نحصد المال اللازم من أجل المبشرين.

- يجب أن أقول لك مادريه. أنا آسفة، ولكني... أمشي بصعوبة. حقًا.

لم يفهما في البداية. يعني السفر بالنسبة لبَخيتة السير على الأقدام. وحين فهما، كان لديهما، الرغبة في الضحك وفي ضمها، كنوع من الحماية والامتنان. وفكرة مادريه سيبولا، المديرة العامة كانت جيدة وذلك من "أجل اعلاء سمعة المعهد" بالذهاب بصحبة مادريه جيوسبينا إلى جميع أنحاء إيطاليا، وبساطة عقلها وبراءتها، ستمثلان بطريقة جيدة الشعب الأفريقي!

ستركبان قطارات كثيرة. العشرات والعشرات من القطارات في

جميع أنحاء البلاد، لمدة ثلاث سنوات. قبل السفر، كشفت بَخيتة عن قلقها لإلفيرا. فقلقها كبير بسبب الذهاب للحديث عن كتاب لم تكتبه ولديها صعوبة في قراءته. وطمأنتها ألفيرا. فإن مادريه بنيتي ("الصينية" كما تلقبها) ستترجم لهجتها الفينيثية. وسيسير كل شيء على ما يرام، لأن الناس يحبونها بشدة، يحبونها دون معرفتها. حاولت تهدئتها، مع إنها كانت تود أن تنصحها بعدم الذهاب. فمن حقها أن تستريح. من حقها أن تكون مثل الأخريات، راهبة عجوزاً متعبة، محبوبة من التلميذات القديمات، والمدرسات المدنيات، واليتيمات، كل اللواتي كبرن معها.

- سوف أحصلك مادريه، سآتي لأراك، أعدك.

- رئيستك في العمل، لا تريد.

- لا تقلقي بشأن رئيستي؟

- كم من الوقت سوف أغيب، في اعتقادك .

- لا أعرف.

- هل أستطيع الحصول على عصا للمشي؟

- سأسأل.

ثم جلستا فترة بدون كلام. تنظر ألفيرا إلى وجهها المرتخي، المختلف تمامًا عن الرسومات التي يرسمها الآخرون الآن، هذه الصورة المنتشرة وهي هادئة، هادئة كصورة، شفاها مغلقة وقلبها صامت وجميع العذابات لا تظهر. وكأنها خمنت ما تفكر فيه، فباحت لها بَخيتة بهذا السر:

- هل تعرفين ألفيرا، عادت والدتي. وهي تغفر الكتاب.

- هل رأيتها؟ في المنام؟

- ليس في المنام، لقد قبلتتني.

ألفيرا تحبها بشدة عندما تبدو في الخامسة من عمرها، وتلوي فمها وترفع حاجبيها، والنجمة الزرقاء مزروعة في نظرتها المندهشة.

- كيف هذا، قبلتك؟

- الطقس بارد جدًا ولكن عندما أنام هي تقبلني، هنا، على الخد. إنها تغفر.

- نعم، يا صغيرتي، حبيبتي مادريه، لقد غفرت لك والآن لن تتركك أبدًا.

- أتظنين؟

- من يرغب في تركك؟

وتحتضنها وهي تهمس:

- اتركي للصينية مهمة حمل حقيبتك، هاه!

وهي تشعر بالضحكة التي ترفرف في صدر بَخيتة وهي في حضنها، فهمت أنها بعيدة كل البعد عن إدراك ما ينتظرونه منها. كانت تأتي من أفريقيا الحقيقية وسيطلبون منها التحدث عن بلد مخترع، تُقبلها والدتها في الليل وسُيطلب منها أن تحكي عن الحبشة المليئة بالمتوحشين. الخطاب الرسمي. هذا ما كان أفضل ما يُعمل في إيطاليا، الطمأنينة والأمل يمران عن طريق طرق تبسيطية تتوجه مباشرة إلى مخاوف الشعوب، الخوف من الآخر. هؤلاء البرابرة.

بالآلاف ولمدة سنوات، يأتون كمجموعات، مدارس. جامعات. أطفال مرضى. حجاج. يأتون ليستمعوا إليها، ولرؤيتها قبل أي شيء. في الكنائس، والمسارح، والمدارس. في دير كاستنيدو، يقبل رجال لم يسبق لهم دخول كنيسة أياديها، ويعودون وهم غارقون في الدموع. في فلورنسا وبولونيا وأنكونا، تلتقي في كل مرة بالكاردينال، ويستقبلها في لودي (Lodi) الأسقف في مقابلة خاصة. وفي ترينيتو، تؤخذ لها صوراً رسمية. وفي ميلانو، تلتقي بأطفال "البيت الكانوسي"، حيث يعلمون الصم والبكم. يهرب الأطفال عند رؤيتها. تقترب طفلة صغيرة، وتضع أصبعها عليها. لم تتسخ. وتشير إلى الآخرين بالمجيء، وينقض الجميع بين ذراعيها، ويطالبون بقبلات، وتبقى طوال فترة الظهيرة معهم، ويُعلموها لغة العلامات، وتجيب عليهم بحركتها المضطربة، وتشعر معهم، إنها فُهمت. في فينسيا، تُدعى للذكرى المئوية لتأسيس المعهد. وفي مدرسة المتدربات في vimercate فيمركات، يُطلب منها القيام عدة أيام بوظيفة البوابة. ويرفض أهل المتدربات الدخول حتى تظهر أخت بيضاء. وفي مدينة، الحشد لرؤيتها كبير لدرجة إنه يوقف القطارات، وهناك أربعة آلاف شخص في الشوارع. وفي أماكن أخرى، يصعدون فوق المنابر لرؤيتها بطريقة أفضل، ويطلبون منها وهم يصرخون أن تصعد لتُلقي الموعظة. وينتظرونها في المحطات، وعند وصول

القطار يغني البعض التراتيل، ويغني البعض الآخر، الأكثر التزامًا سياسيًّا، "Faccetta Nera" "الوجه الأسود الصغير، الحبشية الصغيرة، سنأخذك إلى روما المحررة، وسوف تقبلك شمسنا وستكونين نقية بقميصك الأسود". ويسألونها إذا كانت تعرف جوزفين بيكير، التي لديها عشيق في صقلية والتي جابت إيطاليا في جولتها المنتصرة. يسألونها إذا كانت قرأت هذا الكتاب الذي آثار شوشرة "sambadu amore negro"، والذي أمر موسيليني بسحبه من الأسواق، لأنه إهانة لكرامة العرق، (يُظهر الغلاف امرأة بيضاء وهي تقبل رجلًا أسود، لكن في نهاية الرواية تعترف المرأة الإيطالية ببربرية عشيقها وهذا الأخير يعود إلى قبيلته). وهي أفريقيا. يُقال حتى أنها "لون أفريقيا". ستعترف ببساطة، في وقت لاحق: "شعرت بالسقوط في العدم".

وما يُطلب منها هو في حقيقة الأمر، بسيط للغاية، وتسلسل الاجتماعات، متطابق دائمًا. تتحدث الأخت التبشيرية، مادريه بينيتي، عن البعثات الكانوسية، وعن قلة المال، وعن التحولات والعبيد المستردين، وحياة التبشيرين وخاصة وفاتهم (الأمراض، والعنف، والفقر)، ثم تطلب من بَخيتة أن تنضم إليها. وهو الوقت الذي ينتظره الجميع. الوقت الذي جاؤوا من أجله، وهم متأثرون حتى قبل أن تأتي. تتقدم إلى المنصة. تدخل إلى دائرة الضوء. ثم تتركهم دائمًا، ينظرون قليلًا إليها. طالما أن هذا ما يريدونه، تعلم ذلك. بعد الذهول، الذهول اللذيذ، يحاولون التعرف في حضورها على الطفلة الصغيرة في الكتاب، العبدة النصف عارية في أسواق خرطوم، ويصمتون وترى أحيانًا، من

جديد العصفور الأبيض الذي كان يرفرف فوق الأبيض، حين كان يطلب مشترٍ رؤية البضاعة. ما المطلوب عمله حينئذ، هو إعادة العصا والجري والإنحاء وإظهار أسنانها، ولا تستطيع القيام بذلك اليوم وهي تستند إلى عصا للمشي، لكن ليس هنا، ليس أمام الجمهور وتبقى العصا في غرفة خلع الملابس، وهي تتقدم نحوهم وهي تعرج بشدة. ثم تطلب منها مادريه بينيتي أن تقول "الكلمات الصادرة من القلب" وستتحدث وهي تعرف أن صوتها سيخيفهم. وأنهم سوف يحبون هذا الخوف، الذي يقول بطريقة جيدة ما هي "أفريقيا". وتحييهم وفي لهجتها الفينثية الركيكة وتشكر الجميع وهي تقول: "سوف أتذكركم في صلواتي"، وأحياناً تضيف: "أريد أن أراكم جميعًا في الجنة". ثم تنزل من على المنصة. هي لا تريد ذلك، ولكنه أمر وتطيع، (ثلاثة أشياء مادريه جيوسبينا: أولًا، بدون عصا أثناء اللقاءات، ثانيًا لا ترددي في استعمال لهجتك الأفريقية، وأخيراً، لا ترددي في النزول وسطهم، وأن تعملي ما يطلبونه منك). توقع الكتاب، وتمنح النعم، وتجلس في وسط الذين يريدون بعض "التوضيحات"، وتظهر حتى الندوب التي على ذراعها، عندما يصرون بشدة. تبارك المرضى، بميدالية العذراء، وهي تباركهم تصلي أيضًا من أجل جميع الذين رأتهم يموتون، في السودان أو في إيطاليا، وحنانها نحو هؤلاء الأولاد الذين لا يطلبون شيئًا عظيمًا. هم ينظرون إلى والدتهم، ويرجون، لهن أيضًا، الارتياح بسبب مادريه جيوسبينا وهن اللواتي يردن بَخيتة أن تأخذهن بين ذراعيها. ولكن هذا لا يصح.

وهكذا، عن طريق الاختلاط بالمجاميع، والتحدث مع الطلبة، والصحفيين المحليين، والفضوليين والصادقين، تعلم ما الذي يحدث في أثيوبيا.

في 2 أكتوبر 1935، في ساحة بيرجام Bergame، حضرت التجمع الكبير، حيث كان الجميع سيستمع إلى خطاب الدوتشي، والذي سيذاع مباشرة في الراديو. أشارت لها مادريه بينيتي على المكان الذي سيخرج منه الصوت، من مكبرات الصوت المعلقة في الأشجار.

- الدوتشي في روما، في قصره، ولكن على الرغم من ذلك، سيتحدث وسنسمعه هنا. في كل إيطاليا، وفي جميع الساحات، سيكون الأمر كذلك. الجميع سوف يسمعه.

- نعم.

- لا يجب إظهار أي علامة لعدم الفهم أو عدم الاتفاق.

- أعرف.

- لا يجب إظهار أي شيء على الإطلاق. وما لن تفهمينه، سوف أشرحه لك فيما بعد.

- نعم.

- فلنجلس على جنب قليلاً.

تفهم في وقت لاحق لماذا مادريه بينيتي حماتها من فضول الجماهير. هذا الخطاب، وما كان سيعلنه، كان من الأفضل أن لا يسمعه شخص أسود في وسط كل هؤلاء البشر الهائجين، ومن

الأفضل الجلوس، في مكان أبعد قليلًا، على دكة، في ظل شجرة الزيزفون التي تخفيها قليلًا.

استمعت للأوركسترا قبل الخطاب، الصياح، والإعلان عن وصول الدوتشي قبل الدوتشي، ولن تنسى أبدًا الموسيقي الخاصة بموسوليني. كانت تستمع بانتباه شخص يسعى لفهم الكلمات وتلقي المعنى. كانت تستمع "Rivoluzione!" (ثورة)، "tutta l'litalia" (كل إيطاليا)، Unità della Patria (وحدة الوطن) "Destino!" (قدر!)، "Determinazione!" (عزم!)، "Tutti uniti!" (كلنا معًا! (موحدون)، الإيقاع البطيء، المتقطع للبداية، كما لو أن الحكاية القادمة ستأتي في تصعيد، محملة في البداية ببطء ثقيل، بجمل قصيرة يقاطعها صياح الجماهير، والراديو وبرجام كصدى. وتستمع إلى غضب صوت الدوتشي الذي يحمل غضب جميع الإيطاليين، على كل الساحات، ثم يتغير إيقاع الخطاب، والقصة التي تُحكى تحتدم، والصوت العميق ينحدر إلى أسفل، مثل أغنية لكاروزو، ثم فجأة يتضخم ويرتفع من جديد ويصبح حادا، ثم يتراجع، أجش، مُثقل بالتمرد، والراء القوية تتدحرج مثل دق الطبل، والجمل تصبح فضفاضة وغاضبة، ويخيل إليك أحيانًا أن الدوتشي على وشك البكاء، ولكنه يمتلئ من جديد بهذا الغيظ الذي لاهوادة فيه والذي يعطيه هذه الطاقة المخيفة. ثم تسمع بَخيتة تواريخ وأرقام تقال وهو يصرخ، وتُغذي تمرد الحشد المنهك والمهووس، أرقام تُشعلهم وكأنهم على أهبة الاستعداد للذهاب للقتال والحرب ضدها. ومغزى الكلام هو"الحرب" "La guerrrra!"، "Italia proleteria e fascista!!!"

(إيطاليا البرولتيريا والفاشية). وعلى الساحة، يتعرف الرجال على أنفسهم، كما لو أن هذه الكلمات كان ما غاب عنهم طوال حياتهم. وفي نهاية الخطاب، تختلط الأصوات مع طقطقة الراديو. موسوليني كان في داخلهم، ويسري دمه في عروقهم، يدوي صدى صوته في آذانهم لفترة طويلة، حتى بعد رفع مكبرات الصوت. لم تكن تعرف بَخيتة ماذا كان يفعل الدوتشي بعد الانتهاء من الكلام إلى إيطاليا بأكملها في الوقت نفسه، ولكن في الساحة، من الدكة المنزوية، رأت انفجار الفرحة، في الأغاني والصياح، والبكاء والعناق بين أشخاص من كل الأعمار ومن الجنسين والأطفال ذوي القمصان السوداء الذين كانوا أقل فهما منها، وكانوا سعداء، لأن الكل كان لديه هذا الشعور. تتقدم إيطاليا الفاشية في انسجام للمطالبة بالمساحة الحيوية التي من حقها ولتثأر من الظلم الذي وقعت ضحية له منذ أمد طويل. ولن تكتفي بعد الآن بفتات المأدبة الاستعمارية. هذا هو الإعلان. وحين صرخ الدوتشي! "يا أثيوبيا! لقد صبرنا لمدة أربعين عامًا. والآن هذا يكفي!" الفرحة التي اجتاحت الإيطاليون كانت عنيفة جدًا كما لو أنهم سيلتقون بشخص افتقدوه منذ زمن بعيد وأصبحت الحياة بدونه مستحيلة. ولكن كانوا يفتقدون أنفسهم. ويعتقدون أنهم سيجدون ضالتهم بالقتال ضد هؤلاء "الكلاب من الحبشة"، لأن الاستعمار سيجعلهم أغنياء ومحترمين.

ومن خلال الحديث إلى كل أولئك الذين يأتون بهذه الأعداد الغفيرة للاستماع إليها (ورؤيتها أكثر من الاستماع إليها، ولمسها أكثر من مجرد مشاهدتها)، وبالاحتكاك بالإيطاليين تعرف أن

أثيوبيا، هذا البلد القريب جدًا من بلدها، هو بلد غير أخلاقي ولكنه مليء بالثروات الغير مستغلة، البترول والذهب والفضة والبلاتين والنيتراد والكبريت والحديد، فيه كل شيء، وسيلتهمون كل شيء، يغزون، ويحفرون ويبحثون في أعماق هذا البلد الغريب والبربري والذي يعرفونه، فقد رأوا التقارير المخيفة التي تتحدث عن الختان والتضحيات بالأطفال، وتمر سرًا الصور الإباحية المحظورة فيما بينهم، تغوي الأفريقيات مثل الشيطان ببشرتهن الشيطانية، فأثيوبيا لا تحمل فقط ثروات لا حصر لها، ولكنها تحمل أيضًا أوهامهم ورغباتهم أيضًا المكبوتة منذ زمن طويل، والبواخر التي تأخذهم إلى هناك محملة بالجنود والمزارعين والعمال والراهبات، والمبشرين، ولكن أيضًا بالإيطاليات الموعودات لبيوت الدعارة الإيطالية، بحيث لا يختلطْ الجنس الأبيض ويُهجن، وأن تتدفق، في المكان الصحيح هذه الرجولة، بدون أن تضعف.

يكتب أدريا فابياني لجريدة رعوية بسيطة ويطلب مثل الكثيرين، مقابلة مع بَخيتة. يجعلها تكرر ما كتب سلفًا في الكتاب وما قالته للجموع. إنها تقول وكأنها تُسمع مقطوعة، ويمكنها تقريبًا رواية كل شيء بالإيطالية من كثرة ما سمعت مادريه بنيتي تحكي قصتها باللغة الرسمية، لغة الكتاب. ومع ذلك، فهي تسعى أن تكون حاضرة في كل ما تفعله، وأن تحكي كما لو كانت المرة الأولى، لكن بدون ألم المرة الأولى. يستغل أندريا فابياني فترة غياب مادريه بينتي لطرح سؤال على بَخيتة، بصوت منخفض جدًا، وبسرعة شديدة، لدرجة أنها تفهم السؤال بطريقة سيئة، وتجيب بابتسامة آسفة حتى أن الصحفي يتصور أنه بسبب الحياء والحزن.

ولكنها تذكرت الكلمات. وغريزتها تقول لها إنه شيء خطير. وإنه يجب الاقتراب بحذر. وبحذر أيضًا، تسأل مادريه بينيتي، في القطار الذي يقودها من معهد إلى آخر، ما معنى كلمة "زرنيخ".

- زرنيخ؟ إنه سم. لماذا تتحدثين عن الزرنيخ؟

تغلق بَخيتة عينيها. وتشعر بحرارة شديدة، وترتعش يديها وهي تضغط على سبحتها. وتعتقد مادريه بينيتي أنها تصلي. تمشي في الحقول الأثيوبية. بالقرب من البحيرات ذات الأسماك الميتة، والأنهار المسممة والجثث ذات الأجساد المتشنجة. تغطى كلمات أندريا فابياني هذا المشهد المُغتال: فقد سمموا بالغازات السكان. سمموا فهمتي؟ القذائف، بغاز الأرسين والخردل. غاز الأرسين، تعرفينه بالطبع؟ هذا صحيح. لقد سمعت عنه على محطة راديو أجنبية".

تحاول أن تكبح ألمها. توجهه. تقوده. تمسكه. وفي المساء، تبكي في صومعة المعهد الذي يستقبلها. تعيش الفوضى الغاضبة للعالم. ولا تعرف أين تضع ثورتها.

لقد استمعت إليه في الراديو. تعرف الصور والرسومات، والصحف والملصقات والبطاقات البريدية، رأته وهو يروّض أسدًا، يركض على ظهر حصان، يتغلب على المدافع، يستعمل المِعْول، يبذر البذور، يضرب، بجذعه العاري، القمح، يتزحلق على الجليد، يُقبل الأطفال، يتفقد الجيوش ويظهر وجهه على خريطة أفريقيا مثل وجهها على غلاف *Storia meravigliosa*. ورأته أيضًا اليوم وهو يقول إن أثيوبيا إيطالية. وهي ذاهبة

لمقابلة الدوتشي في إقامته الخاصة، هذا Palazzo Veneziano الذي يتحدث منه إلى كل إيطاليا. الجو بارد، في هذا اليوم من 11 ديسمبر 1936، وروما مليئة بالساحات الواسعة وتيارات الهواء، وبالأطلال وبالشوارع المظلمة، وعصاها تتزحلق على الشوارع التي أصبحت متجمدة حيث تمشى بصعوبة. تتقدم منحنية وبمساعدة من أختين من الراهبات اللتين يمسكانها بمودة كبيرة كما لو أن علاقتهما بها حميمية جدًا ولكن في الحقيقة، الغرباء الآن يعرفونها. يتحدثون معها عن والدها، وعن ليلة هروبها، وعن الراعي، وكلما تحدثوا معها عن حياتها، كلما ازدادت حياته ابتعادًا عنها. حين قصت لإيدا زانوليني حياتها، كانت تجهل أنه سيتحول إلى كتاب وهذا الكتاب سيطلب منها أن تقدمه إلى قائد حرب. لو عرفت حينئذ أن ما كانت تهمس به في قاعة الاستقبال البالغة الصغر في سان ألفيز، أن ما كانت تتمزق وهي تقصه سيباع بليرتين، في جميع أنحاء البلاد، لكانت اختارت بالتأكيد أن تُبقي الأشياء غير معلنة. كانت تكلمت عن الأطفال. العبيد. الشهداء الكثيرين. ولكن ليس الآخرين.

ليس أخاها. أختها التوأم كيشمت، ليس الصغار الذين كانت تقص عليهم الحكايات وتغني الأغاني. كانت ستحمي أطفال قريتها من ذلك. قصر موسوليني. وهي تتقدم، وتُصفر الريح الجليدية وتجلدها وتدفعها وهي منحنية فلا تجعلها ترى إلا عصاها وأقدامها، فلديها ثلاثة سيقان سخيفة ومع ذلك تتحرك بشكل سيئ، ولا تستطيع أن تتبع الخطوات الباسلة للأخوات التبشريات المسافرات إلى أديس أبابا، فضولهن وخوفهن من

الاكتشاف القريب لهذا البلد الذي أنقذه الدوتشي. وتتوقف فجأة. وتأخذ نفسا. وترفع وجهها. فهو هنا، في مواجهتها، بالغ الصغر. الشرفة، التي يتكلم إلى الناس من خلالها. وهو يصرخ، وعلى استعداد، أن يبكي ويقتلهم جميعًا، وهي تعلم ذلك جيدًا، فهذا الرجل صوته صوت الرعب، وهي تعرف هذا الصوت جيدًا! إنها على وشك السقوط والانهيار والأخوات الصغيرات يرفعونها: "لا تركعي الآن، مادريه، انتظرى عندما تكوني في حضوره". نظرها مشوش. وتندفع الريح تحت ثيابها، وتلسع ساقيها التالفتين، إنها مختبأة مع بيناه، وراء أكاسيا ضخمة، لقد هربا ويسمعان صوت الحارس الذي يجلبه الريح، الصوت الذي يقترب ويأتي ليأخذهما. ثم، تسمع ببطء صوت السلاسل. وأنفاس العبيد. تنظر إلى الشرفة الصغيرة جدًا حيث ترى رايتين إيطاليتين مرفوعتين، وتستدير نحو الأخت المبشرة وتقول:

- أول شيء نفعله مع الأطفال...

لكن لا تسمع الأخت وتتحدث بَخيتة بصوت منخفض جدًا، والرياح كثيرة، وتصرخ الأخت وهي تفصل الكلمات:

أنا - لا - أفهم - فا - لنسرع!

تتشبث بَخيتة بعصاها، وتومئ برأسها وتقول من جديد بصوت منخفض جدًا، لنفسها:

- أول شيء يجب فعله مع الأطفال هو إعطاؤهم شيئًا ليشربوه.

وتدخل مع المبشرتين، في بيت الثعبان الضخم.

بعد بضعة أيام، مع نفس المبشرتين ستلتقى بالبابا (بيه الحادي عشر) Pie XI، وهذا اللقاء يمثل ذروة جولتها، وتعتقد أن بعد ذلك ستعود إلى شيو، لكن يتم وضعها كمسؤولة للبوابة في معهد الراهبات الكانوسيات في Vimercate فيمركات، بالقرب من ميلانو، حيث جاءت من قبل وحيث توجد مبتدئات جدد يستعدن للسفر في مهمة. وبوضعها هذا هي مثل جسر بين قارتين، فهي تطمئن الأهالي الذين يشعرون بالقلق من سفر بناتهن الصغيرات جدًا، والمتحمسات جدًا، والجهلة لكثير من الأشياء. الأهالي خائفون من فقدانهن، وهم ليسوا على خطأ. فمهما كانت أثيوبيا إيطالية، فلا يزال الأثيوبيون أفارقة، وتمردهم يدفع لانتقام دموي، وهناك قوة عسكرية وهم لا شيء في مواجهتها. وبالتأكيد، لا يجب أن تعرف إيطاليا شيئًا عن هذا الأمر. لكن لا يمكن الصمت طويلًا على عمليات القتل والترحيل ومعسكرات الاعتقال. ويمررون الرجال، مثل المال والبنادق. هناك ثغرات في الجدران، لمن يريد أن يرى، ظلال كبيرة تحجب شمس الدوتشي. أولئك الذين يعودون والذين يتحدثون أو يرفضون الكلام، وهؤلاء، وربما على الرغم منهم، يعترفون بالإهانة. في مواجهة حسن نية المبشرين، هناك تجارة الرجال والأطفال، الفتيات الصغيرات اللاتى تُشترى وتهدى للبعض منهم كهدية للتسلية، ثم يتخلى عنهن عند العودة إلى إيطاليا. فمن جانب، الالتزام الصادق ومن جانب آخر النهب. تُسكر موسوليني قوته الخاصة، ويلزم جيوشه بدعم قوميوا الجنرال فرانكو، "للدفاع عن الحضارة المسيحية"، إنه نهم والعالم ملكه، ويريد كل شيء، وهو غير قابل للتدمير،

منتشٍ ومختل العقل. وفي وقت قريب، سيقوم برحلة رسمية إلى ألمانيا، وفي شرفة أخرى، وفي خطاب آخر، فيه نفس النشوة للعمل وللشباب، ونفس العداء للشيوعية، والتأكيد بفخر وغرور على التشابه بين النازية والفاشية.

في مايو 1938، يأتي هتلر إلى روما. وبعد فترة وجيزة، يظهر موضوع العرق في الصحافة الإيطالية وتُربط بالمسألة اليهودية.

تبقى بَخيتة عامين في فيمركات. من 1937 إلى 1939. وهي تعرف أن الحرب لا تموت أبدًا. الحرب أبدية. وهي الآن امرأة عجوز، وهذه هي الطريقة التي يتوجهون إليها، إلى الشخص الذي يعرف. ولم تعد موضوعًا للخوف والفضول في فيمركات، كما كانت في الماضي. أنها من البلد التي يذهبون إليه. ويطلب منها المبتدئات وأولياء الأمور الصلاة من أجلهم، وقبل أي شيء، أن يتم إعدادهم. تتحدث عن بلد الطفولة، المشابه بالنسبة للجميع، وتقول إن هناك اليوم مبارك، والليل يحترم، والطبيعة تشكر. أليس الشيء نفسه بالنسبة لكم؟ مع الأب. والأم. والذين أنجبوهم والذين ينتظرون المجيء إلى العالم، "أليس الشيء نفسه بالنسبة لكم؟" وهذا بالضبط ما يزعجهم، أنهم خائفون من التعرف على أنفسهم في حياة الأفارقة، وأن يحدث امتزاج بينهم. أن يذوبوا في آمال ومآسي الآخرين، التي تشبههم تمامًا. وقد تلقت بَخيتة هدية لا تقدر بثمن. في دير كريمونا، منذ فترة، التقت بأختها. وذلك ما قررتاه بالنسبة لبعضهما البعض، وأن يصبح هذا الاحتمال صحيحًا. الأخت ماريا أجوستينا، من عمر كيشمت ولديها نفس البشرة السوداء وهي آتية من نفس السودان، والخطف وسنوات العبودية، ونفس تحول بَخيتة، بعد أن تم تحريرها من الكاهن دون بياجيو فيري، "رسول الفتيات العبيد"، "رسول الموريتات". كان قد مر، ثلاث وخمسون سنة،

لم تر فيهم بَخيتة امرأة أو رجلًا من لونها، ثلاث وخمسون سنة وهي الغرابة المخيفة، الوحيدة في العالم. عندما اقتربت من ماريا فهمت، من لون بشرتها ومن يديها ومن الطريقة التي تحرك جسدها، وتنظر بعينيها، أنهما توأمتان بنفس المعتقدات وتنتميان لنفس المناظر الطبيعية، وإلى نفس القوافل، وإلى نفس تجار العبيد وإلى نفس الأسياد. لقد فهمت أنهما أختان. فقدتا كل شيء. ورأتا كل شيء. وقلوبهما، بغرابة، استمرا في الخفقان. تعانقتا، طويلًا، دون أن تنبسا بكلمة واحدة، بامتنان عظيم لدرجة أنه باحتضانهما لبعض فأن كل واحدة تحتضن جسدها الخاص، جسدًا أسود معصومًا وشرعيًّا وبدون أي عار. تحدثتا بلغة عادت إليهما، لغة ناقصة، متباينة ومعطوبة، وضحكتا وبكيتا، بإحساس عظيم بالراحة مثل الحب واحتياجهما العميق له. كان لديهما أشياء عديدة لتقولاها لبعضهما البعض، ووراء كل كلمة، وكل موقف، كانت نفس العذوبة المفقودة، والهمجية نفسها، البداية والنهاية، وما كان يمكن أن تكون عليه حياتهما وما الذي قادهما إلى اللقاء في دير إيطالي، بصليب المسيح على صدورهما وميدالية العذراء التي تحمي الأطفال المسروقين. بعد سنتين من الطواف، شكل لقاؤها مع العبدة السودانية التي أصبحت الأخت ماريا أجوستينا، علامة لبَخيتة أنها عملت بشكل جيد وأن البرون يشكرها على ذلك. وحينئذ تغيرت حياتها. شعرت، للمرة الأولى أنها جديرة به (الله) وأنه لا شيء بعد الآن يمكن أن يخيفها، وأن لا شيء سيئ وغير معروف يمكن أن يحدث لها. كانت محمية من كل شيء.

تعلن في يوليو 1938 القوانين العنصرية التي تضع قواعد للنظام الفاشي. بعد فترة وجيزة، جيولا، صديقة لإلفيرا، جاءت إلى فيمركات ومعها خطاب لبَخيتة وكان عليها أن تحرقه على الفور بعد قراءته .

- اقرئيه لي.

- لكن مادريه... لقد فعلت ذلك منذ ثوان.

- لا أفهمه..

- لا. أنت فهمته جيدًا، للأسف.

وكان ذلك في بداية بعد ظهر ليوم حار، والنوافذ كانت مغلقةً وكان الضوء الخافت في الصومعة يشبه ساعات القيلولة حيث تسيطر الشمس. قرأت بَخيتة، بأصابعها المشوهة، خطاب ألفيرا، كثيراً، كما لو أنها كانت تحاول إزالة التجعد من نسيج. أو محو الكلمات.

- يجب حرق الخطاب، مادريه.. لقد وعدتها.

- كيف تعرف هنا؟

- إنها يهودية؟

- نعم.

- جاء صديق لجدتها ليحذرها. قال لها إن جدتها من ناحية الأم، التي قامت بتربيتها، كما تعرفين، كانت يهودية. هذا ما قاله.

- لكنها كبرت هنا في شيو. كبرت عند الكاثوليك.

قالت جيوليا إنها يجب أن ترحل ولكنها سوف تعود لإعطائها أخبارًا عند معرفة أي شيء، وما أن تكون ألفيرا آمنة في سويسرا، حيث، كما قالت، تنتظرها والدتها.

- صلّى من أجلها، مادريه.

- نعم، ولجميع الآخرين.

نهضت جيوليا لتغادر، وأخذت بَخيتة عصاها.

- لا تذهبي معي، مادريه.

فتحت بَخيتة الباب وأخذت ذراع جوليا. كان الدير صامتًا، وساراتا ببطء في الممر ذي الستائر الباهتة بسبب الشمس، وكان يسمع خلفها طنين الذباب والدبابير، المحاصرة في طيات القماش. توقفت بَخيتة لاستعادة أنفاسها، وطلبت من جيوليا أن تفتح النافذة. كان الهواء ساخنًا جدًا، وكأنهما دخلتا في غرفة ذات حرارة مضاعفة.

- انظري. هذه ميلانو. هذا جميل.

- نعم، مادريه.

- مع ذلك يختبئ الرجال. هل تري.

نظرت جيوليا طويلًا، لكنهما كانتا بعيدات جدًا عن ميلانو لإمكانية تميز أي شيء غير سهام الكاتدرائية، والأسقف المتشابكة، وأسطح المدينة.

عذرًا، مادريه. ولكني لا أرى شيئًا.

وتستدير نحوها بَخيتة.

- لأنهم مختبئون جيدًا.

ابتسمت كما لو أنها مجرد مزحة. ولكنها لم تكن كذلك. ووضعت بَخيتة يدها على قلب جيوليا.

- هذا هو المكان الذي يختبئ فيه الرجال. في القوة. قولي هذا لإلفيرا . القوة.

ثم عادت إلى صومعتها، واختلطت أنفاسها مع طنين الدبابير والذباب. وكانت تعرف. أن هنا في فيمركات، يأتي العالم. الراديو، والصحف، ومناقشات البعض والبعض الآخر. كل شيء كان معروفًا. كان زمنًا مشتعلًا ونشر الجيورنال دي إيطالي II Giornale d'Italia مقالًا بعنوان "الفاشية وقضية العرق"، الذي وضّح فيه عشرة من العلماء أن الإيطاليين، في غالبيتهم العظمى من أصل آري وشكلوا حضارة آرية. ويشجع البيان الإيطاليين أن "يعلنوا عن أنفسهم بكل أمانة ويقولوا أنهم عنصريون"، ويؤكد أن اليهود هم السكان الوحيدون الذين لم يستوعبوا أبدًا في إيطاليا. فانبثق من جديد الخوف الكبير. خوف "الجنس الأعلى" تجاه "الأجناس الدنيا": أي اليهود والزنوج. الأولون كانوا فاسدين والآخرون كانوا طفوليين، وكلاهما يهدد نقاء البلاد. كان يجب تعليم الأطفال أنهم متفوقون على السود، وعنصريًّا مختلفون عن اليهود، وأكد وزير التربية الوطنية على الطابع "الروحاني

البارز" للعداء الفاشي للسامية. نقلت الصحف والمجلات الرسالة بنشر الرسوم الكاريكاتيرية والمقالات الساخرة، وأغلقت مجلة *الديفزا ديللا راز* وكانت تظهرهما معًا، اليهود والزنوج، وهم متحالفون ضد إيطاليا، مع صور لزنجيات عاريات الصدر، ويهود بأنوف مقصوصة وراء طفل صغير أبيض، يقوم بعمل التحية الرومانية، وهناك تمثال روماني ملطخ ببصمة سوداء وملصق فوقه نجمة داود، وصور أخرى كثيرة، فالمرأة الزنجية والرجل اليهودي ضالعان دائمًا في عمل مشبوه، وبينما يُرسل بالمبشرين إلى أثيوبيا، يُطرد اليهود من الجامعات، والمدارس، ومن معظم المهن ومن الفضاء العام.

لم تحرق في هذا اليوم، بَخيتة خطاب ألفيرا. حملته في صدرها، بين بشرتها وثوب الرهبانة. في المكان الذي كان ينبض قلبها بالقوة المتبقية له، وكانت توجه صلاتها، في الوقت نفسه للبرون ولأولاده، هذه العائلة الممزقة، القاسية والضائعة، التي كانت تتقدم في الكارثة والكراهية.

تبلغ من العمر سبعين عامًا، وهذا القطار الذي تأخذه هو الأخير، وهي تعلم ذلك. يعيدوها إلى "بيتها" في شيو، ويقال لها إنها ستستريح الآن. لا تظن أن هذا صحيحًا. لا أحد يستريح في وقت الحرب. تقاتل إيطاليا جنبًا إلى جنب مع ألمانيا، حرب يُعلن عنها الحكام مرة أخرى بأنها ستكون سريعة وسهلة. يقرأ الرجال الزمن على الساعات والتقاويم، وينظرون على العالم من خلال الخرائط والطائرات. تعتقد أن الرجال ينظرون إلى كل شيء عن بعد جدًا. وهي تعرف أن الأشياء ستكون طويلة. حتى أطول من الحرب نفسها. سوف تأتي الأشياء وسوف تسجل، فمذبحة الأحياء سوف تنقل الحزن إلى ذريتهم، ومن ذا الذي سيواسي أطفال السلام الذين سيحملون الحزن الغير مرئي لآبائهم؟ فهناك ذكرى وأثر في الكون لن يتلاشى. لا شيء يخترع. ولا شيء يمُحى. وتفكر في ألفيرا، التي ليس لديها أي أخبار عنها، وتفكر في المبشرين الشباب الضائعين بين حب المسيح والخوف من الشعوب "الهمجية". لقد مرت بسنوات عديدة وببلاد كثيرة، ولم تر أبدًا إلا نفس المشهد، مشهد لرجال ضائعين، وأمهات محرومات وأطفال فقدوا البراءة. يفرمل القطار بقوة، ويحدث صرايرًا لمدة طويلة ويتوقف مرة واحدة. تقع حقيبتها عند أقدامها، وتسرع الأخت التي ترافقها، وتقلق، هل هي على ما يرام؟

- نعم. أنا بخير.

لا يشتغل القطار مرة أخرى. تُفتح النوافذ. الجو حار. ثقيل جدًا. الطقس سيتغير. سيكون من اللطيف أن تهطل الأمطار وأن تنفجر السماء. فُتحت الأبواب ونزل المسافرون في الحقول. تسمع بَخيتة النداءات والأصداء.

- إنها ظبية.

- نعم. يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإخراجها.

- ماذا ينتظرون؟

الجميع يتحدث ويتدخل. تظل بَخيتة جالسة. أذناها تطنان وترسل صفارات مستمرة. يحدث لها ذلك أكثر فأكثر، صرير بين العالم وهي. لا شيء ينفع. وفجأة، تُمطر، قطرات كبيرة ساخنة تُصعد روائح من الأرض. يمد الأطفال أياديهم إلى الخارج. ويوبخوهم الأهل وتُغلق النوافذ. الجو خانق. والقطار لا يغادر.

- لكن حركوه، هذا الحيوان!

- ماذا يفعلون؟

الطلقة النارية جافة، وتوقف طنين آذان بَخيتة، ويسود فجأة صمت مندهش، يتبعه إثارة كبيرة.

- لكن ماذا؟

- ماذا يحدث؟

ثم يبدأ القطار في التحرك ببطء. صعد المسافرون على

عجل، غارقون من المطر، يضحكون ويهزون ملابسهم ويخلعون قبعاتهم. أصابهم الخوف لكن لم يكن شيئًا. لم يتمكنوا من إخراج الظبية دون قتلها. كانت ساقاها مكسورتين. يبدأ طفل في البكاء من الضيق، تقبله والدته وتعطيه قطعة من الخبز. ينظر إلى بَخيتة وهو جالس على ركبتيها . المرأة العجوز ذات الوجه المحروق، تبتسم لهذا الطفل الذي دخل الحرب للتو.

ستدخل في الشيخوخة. في شيو، لم يعد لديها أي مهام أو مواعيد ثابتة. إنها في العراء الذي يعطيه المرض. أصابعها مشوهة بسبب التهاب المفاصل والتهاب الغشاء المفصلي، معصماها يشوبهما الحَمار ومنتفخان بسبب الاستقاء الموضعي (الأوديما)، وركبتيها والوركين والأكتاف، كل شيء ينكمش ويضيق، ويقيدها الألم، وتدريجيًّا تحت تأثير التكسف في عدسة العين (المياه البيضاء)، ستفقد البصر. تضيع في الممرات، تنكمش الجدران، تمشي وفقًا للصوت، لكن أذنيها تطنان وكل شيء يمتزج، والعلامات تشوش، وينسحب جسدها، ويظل عقلها متيقظ. تعيش في الدير مثل كل الأخوات المسنات والمريضات، تُصلي وتحضر نفسها لما هو قادم. الليل. أو النهار. تسير ببطء في المعهد من مكان إلى آخر. تجتهد في تمشيط وغسل أيادي التلميذات اللواتي يصلن متسخات ومهجورات، وتقدم لهن نصيبها من الخبز، وثمرة فاكهتها، للواتي يعانين من الجوع وتخفياه، البنات المتعبات التي تقفن على جنب لرؤية الأخريات وهن يلعبن، بهذا الشكل الحالم للآتي تغرقن. تغسل كل يوم بيدها المفارش وتعتني بغرفة الكنيسة. تنظم عنبر الطعام.

تحيك وتقوم بخياطة، وإصلاح وتُطريز ولا أحد يجرؤ على إخبارها ببشاعة أعمالها الجديدة، لأنها ترى بشكل سيئ أصابعها مشوهة لدرجة أنه يُخيل للمرء أنها ستنكسر، مثل الخشب الصغير. تستقبل زيارات في هدوء قاعة الاستقبال أو في غرفتها، وتدريجيًّا يُدرك الجميع رغم أنها شبه مكفوفة، لكنها تتمتع بقوة استبصار مذهلة، معلنة عن شفاء قريب، ومتنبئة عن تكليف راهبة، أو ببساطة عن المكان الذي يُعثر فيه عن خطاب مفقود. تبلغ من العمر الثالثة والسبعين عندما تسقط للمرة الأولى، ثم مرة أخرى. وأخرى. الكاهن الذي تنهار أمامه يطلب منها أن لا تكرر ذلك أبدًا السجود أمامه بالطريقة الشرقية. تطلب مساعدته لتنهض. وبعد فترة وجيزة، يدفعونها على كرسى متحرك، كرسي كبير من الخشب يشبهها، غامق وبدون ليونة، ويحدث أن يأخذوها إلى الكنيسة وينسوا أن يعيدوها، وتظل محنية في كرسيها، منسية في الكنيسة. بعد قليل، تفتقد التنفس. إنها تعاني من التهاب في الشعب الهوائية والربو، ويعرفونها من الصوت الذي تحدثه، فالكرسي المتحرك يطقطق، وتنفسها يُصفر، وتسعل وتبصق في منديل يرتعش بين يديها. تزداد إقامتها في المستوصف كل مدى. لم تعد تعرف كيف تقف. البقاء وهي ممددة مستحيل. والبقاء وهي جالسة يُكسر قفصها الصدري، وينزلق جذعها ببطء وتنهار، وتُمدد ساقيها خارج السرير، على كرسي، لأنها مصابة بداء الفيل (الجذام)، تأتي الأخوات للجلوس معها وتسليتها، وتطردهن، لأنها تخشى أن تعتقد الممرضة أنها لا تهتم بها كما يجب وأن تشعر بالحزن لذلك.

في 8 ديسمبر 1943، يُحتفل بيوبيلها الذهبي، بخمسين عامًا من حياتها كراهبة، ويمُنح للجميع ساعة سلام وهدنة من قصف الحرب. تظل جالسة بعد القداس، صامتة، في جانب من قاعة الطعام، وتنظر للجميع. لقد جاؤوا للاحتفال بيوبيلها، وليس فقط من المعهد، لكن المدينة كلها في عيد. لقد قضت خمسين عامًا بين الأخوات، وتبدو معظمهن بالنسبة لها شابات جدًا. ما الذي دفعهن، هن، بقول: "أنا لن أخرج. أنا باقية"؟ لن يكون لهن أطفال أبدًا. لن تتعلقن بأحد. لن يمتلكن شيئًا. يجب إطاعة كل شيء. "أنا لن أخرج أنا باقية". السجن في الخارج. الوجود في الدير هو الحرية. هناك قواعد، صعبة، قاسية، وغير عادلة أحيانًا. لكن هذه القواعد تطمئن ونحن نسير، وهي تسندنا. تعرف بَخيتة أن الدير في الداخل. نحن لا نفهم ذلك على الفور. يستغرق المرء سنوات لإيجاد مكانه. وهي ترى المتدربات والراهبات الشابات، اللواتي يندمن بعض الشيء واللواتي يشعرن بالإجهاد منذ الآن، والأخريات اللواتي يشعن من الرضا لدرجة أن بشرتهن مغمورة بالضوء. يعشن معًا، صباحًا وليلًا، ويتحملن بعضهن أحيانًا بصعوبة. وتوجد مضايقات وتنافسات وصداقات لا يحق لهن أن تُولد. لكن تمر المودة، من خلال اهتمامات صغيرة، بعض الاعترافات أحيانًا، كما يحدث مع بَخيتة. الأخوات يتكلمن معها وهناك أشياء من الأسهل البوح بها لامرأة أخرى عن أب الاعتراف والموريتا التي عاشت كل شيء، يمكن أن تسمع أي شيء. تنظر بَخيتة إلى هؤلاء الناس الذين جاءوا من أجلها، وهي حاضرة ومنسحبة في آن واحد، مهيبة ومنزوية. كانت تتمنى وجود

الفيرا وأن تشاركها هذه اللحظات. ليس لديها أخبار، لكن تعرف أن اليهود قد انزلقوا إلى حافة العالم، وهي تستشعر بما سوف يحدث. ليست امرأة ترى الغيب كما يقولون، ولكنها تعرف العالم قليلًا. تعرف أن ما سيحدث لنا هو مطبوع داخلنا. وما سيحدث للعالم مدبوغ أيضًا. لن ترى أبدًا ميمينا ولا إلفيرا. هما جزء من ذلك الجزء من نفسها الذي تم اقتلاعه مثل الجلد الملتهب، المؤلم والضائع.

تبدأ المداهمات، ولم يعد السود هم الذين يؤخذون، لكن اليهود. قبل أن ينضموا إلى الحلفاء في صقلية، اعتقل الملك موسوليي وحرره هتلر وتحت سيطرته يرأس الجمهورية النازية والفاشية لسالو Salo، في شمال البلاد. وفي سبتمبر سافر أول موكب للمبعدين عن الوطن إلى أوشفيتز.

سقطت القنابل على العالم، وعلى إيطاليا وعلى شيو. لم تقبل أبدًا بَخيتة أن تؤخذ إلى المخابئ. كانت تقول إنه لن تسقط قنبلة واحدة على المعهد، لكن كان يجب حماية الأطفال. هي سوف تظل في البيت، مثل الحارسة، امرأة عجوز مهشمة تستمع إلى فرقعة الهجمات. حدث كثير من الأموات وتدمير فظيع بالقرب من ألتا فابريكا. السماء كانت تُرعب الأطفال. لمن تستطيع الآن إظهار جمال العالم من خلال النافذة المفتوحة؟ غزى الليل النهار. كانت تصلي كي لا تخاف كثيراً الصغيرات في الأقبية في الطابق الأسفل وأن لا تصبحن ضعيفات أو مريرات في مواجهة حياتهن القادمة. تتوسل "يا إلهي، امنحهن القوة". وتتساءل من قرر أن ندع الأطفال يموتون؟ من قرر هذه الأمومة المذبوحة؟ إلى الأطفال الذين كانوا يصوتون عند سماع الطائرات كانت تقول: "هذا الصوت يا حبيبتي، هو صوت عربة النقل بالخيول، لأنها تغادر دائماً، أتسمعين؟" وهذا صحيح لأن ممكن التعرف في هدير الطائرات، على خطوات الخيول على الحصى. "لا يجب أن تخافي من عربات النقل بالخيول، لأنها تذهب دائماً، تعرفين هذا حبيبتي؟" وينظر الأطفال بدون أن يجيبوا على هذه المرأة العجوز المليئة بالتجاعيد، الملتوية والسوداء، والتي كانت تبدو فقيرة وقوية جدًا. كانوا يصدقونها وينزلون إلى المخابئ، "حتى تمر العربة". بعد القصف كانت تسأل بَخيتة: "كيف حدثت

الأشياء بالنسبة للصغيرات؟" هل قص عليهن أحدًا قصصًا؟ هل غنّى أحدٌ أغنية؟".

ثم عاد السلام، مع عالم ممحي. خمسون مليون إنسان من القتلى. وأعداد غفيرة من المفقودين، كانت تحلم بَخيتة أحيانًا بألفيرا، وتخلط بينها وبين أخريات، توأمها، أو عبدات كانت تعتقد أنها نسيتهن وكن يبعثن في أحلامها بأسماء محددة ووجوه تتعرف عليهن. تعلم أنهم سيأتون لأخذها. وأن الأمور انتهت. هذه المرة، كانت نهاية حياتها. تعيش بشكل مكثف أكثر في أحلامها عن وجودها في غرفة المستوصف، حيث كانوا يعتنون ليلًا ونهارًا بها. لسانها كان متورمًا، وتنفسها يضعف، وأعضاؤها المنفوخة بالماء تورم ندوبها، وجسدها على وشك أن يتمزق. ذروة من الآلام بعد أن حاربتها طيلة حياتها، هل كانت تسمع الصلوات التي كانوا يهمسون بها والكلمات الرحيمة؟ هل كانت تعرف أنها ليست بمفردها؟

في ليلة، وهي مستلقية على سريرها، شعرت بأقدامها على الرمال الساخنة، المتهربة والناعمة. استعادت ساقيها الرقيقة، ساقي طفلة تمشي. استعادة القلق وعبء القلق.

صرخت:

- السلاسل! السلاسل!

وصرختها كانت من الضعف لدرجة أن الأخت التي كانت ترعها اقتربت.

- ماذا تقولين مادريه؟ أي سلاسل. مادريه.

- هي ثقيلة جدًا.

أخذت يدها وكانت خائفة بعض الشيء من هذه الكلمات.

ماذا كان يمكنها أن تفعله؟ ماذا كان يمكنها أن تقوله؟ "لديها حمى": "إنها ترحل"، "يا رب!"..

وبدأت الصلوات، لمدة يومين وليلتين، بجانب سريرها. كانت الأخوات يبللن شفتيها بقليل من الماء، يمسكن يدها، كأنهن يعطين للمرأة العجوز ما كانت الطفلة الصغيرة في أمس الحاجة إليه. تلقت بَخيتة المسحة الأخيرة، والدير كان يعتني بها، والدروس توقفت، والجميع كان يصوم، والذين يأتون من لانروسى كانوا متوقفين عن العمل للصلاة من أجلها، وفي الكنيسة سكان شيو كانوا يتناوبون ليلًا ونهارًا للصلاة. المدينة بأكملها كانت من حولها، تحسبًا لما يمكن أن يحدث. وأخطرت الأخوات في البندقية، وإيدا زنوليني وأولاد ستيفانو. وكل المعاهد التي مرت عليها. ودور الأيتام، والإرساليات والأديرة. أعطى قرب موتها، للجميع، الرغبة في الصمت، أن يضعوا أنفسهم لأول مرة، على إيقاعها الخاص، إيقاع داخلي متصل بالعالم، وفهموا أنها أحضرت معها أكثر من حياة.

- مَّاما! آه مَّامَّا...

اقتربت الأخوات. صرخت مادريه جيوسبينا، لكن ماذا قالت؟ صوتها المخدوش يأتي وكأنه من إنسانة أخرى ولا يمكن معرفة إذا كان يعبر عن الفرحة أو الفزع. احتضارها كان معركتها الأخيرة.

- أظن أنها نادت على السيدة العذراء.

- ماذا؟

- أنا أقول لك أن المادريه ناد ت على السيدة العذراء.

انتشر ذلك في الدير والمعهد والمدينة والمدن الأخرى. أثناء احتضارها، رأت مادريه جيوسبينا السيدة العذراء. كانت سعيدة إذاً. فانحني الجميع. أُشعلت شموع أخرى تحت أقدام السيدة العذراء، ولعب الأرغن الـ Ave Maria "الأفيه ماريا".

لم تسمعه، لم تعد تسمع أو تشوف شيئًا. إلا والدتها. التي كانت تقف وراءها. اليد الناعمة في شعرها المضفر، وأضافت لألئ صغيرة ملونة جاءت من والدتها هي، وبعيدًا قليلًا، كل نساء عائلة داجو التي كانت تعيش على النهر منذ زمن طويل. شعرت بفم والدتها على رقبتها، الشفاه الطازجة، والرطبة، التي قبل أن تقبلها عضت بشرتها الجديدة وهمست في أذنها، بطريقة فريدة، مبهجة ومعصومة من أي غلط، باسمها حين ولدت.

يوم السبت 8 فبراير 1947، في سن الثامنة والسبعين، مادريه جيوزفا، مارجارتيا، فورتوناتا، ماريا، بَخيتة، توفت في شيو. في اليوم التالي نقل جثمانها في كنيسة صغيرة مليئة بالشموع. لمدة يومين، من أجل رؤيتها، والموكب لا نهاية له.

الثلاثاء 11 فبراير، بعد قداس في الكنيسة الصغيرة للمعهد، دفنت في شيو، في مدافن الأسرة الثرية للجاسبرلا، كاعتراف لما قدمته.

في 1969، تم استخراج جثتها ونقلها إلى الكنيسة الصغيرة لمعهد بنات الإحسان الكانوسيات في شيو.

في 1 ديسمبر 1978، البابا يوحنا بولس الثاني، يوقع على مرسوم البطولة من أجل فضائلها. وبعد التحريات، اعتبرت بَخيتة جليلة بسبب جهودها البطولية لتتوافق مع الإنجيل وإخلاصها للكنيسة.

في 6 يوليه 1991، البابا يوحنا بولس الثاني يوقع على قرار تطويبها.

في 17 مايو 1992، البابا يوحنا بولس الثاني يعلن مباركة التي "تركت رسالة توفيق ومغفرة إنجيلية في عالم منقسم ومجروح بسبب الكراهية والعنف".

في 1995 البابا يوحنا بولس الثاني يعلنها شفيعة السودان.

في 1 أكتوبر 2000، يعلن البابا يوحنا بولس الثاني أنها قديسة. وهكذا تصبح أول قديسة سودانية وأول امرأة أفريقية يتم رفعها لمجد المذابح، دون استشهاد. سوف يقول البابا في كلمته: "لا يوجد سوى الله الذي يمكن أن يعطي الأمل للضحايا لأشكال العبودية القديمة والجديدة".

ومن أجل إعلان شخص مبارك أو مقدس، تطلب الكنيسة من الأشخاص الذين لم يستشهدوا، عمل معجزة من أجل التطويب ومعجزة أخرى من التقديس. المعجزة الأولى التي سجلت لبَخيتة تتعلق بإنجيللا سيللا، أخت كانوسية من بافيا، التي كانت في 1947، عشية عملية في الركبة يتوقع بتر ساقها وشفيت من انسلال في الركبة بعد صلاة للمتوفية مادريه جيوسبينا بَخيتة. والثانية تخص إيفادا كوستا، برازيلية كانت في 1992، مصابة بمرض السكري الذي تفاقم، وكان يستلزم بتر ساقها اليمنى، وشفيت بسبب الصلوات المباركة لمادريه جيوسبينا بَخيتة.

شكر

شكرًا لأوديل بلندينو التي تابعت وشجعت عملي بصداقة يقظة، وبفرحة لا تمس.

شكرًا لإلينا فيزاديني التي أجابت بصدر رحب على أسئلتي عن العبودية في السودان في نهاية القرن التاسع عشر.

شكرًا للأخوات الكانوسيان في شيو وفي البندقية لترحيبهن ولإصغائهن.

شكرًا للأخوات الساليزين من البندقية لاستقبالي في دير دورسودورو.

شكرًا لكلير ديلانوي، لريتشارد دوكوسيه ولفرنسيس إيزمينار لثقتهم وحضورهم.

لنفس المؤلف

روايات

- شاطئ البحر - أكت سود - 2001
- رقم ستة - أكت سود - 2002
- مستقبل أخضر جدًا - أكت سود - 2004
- تغيرات رياح لا تغير شيئًا - جراسيه Grasset - 2005
- ولعها - جراسيه - 2007
- نزهة الروس - جراسيه - 2008
- الحب الأول - جراسيه - 2010
- هذا الصيف - جراسيه - 2011
- كان من المفروض أن نكون سعداء
أو كنا سنكون سعداء - ألبان ميشيل - 2012
- ليلة في الحقيقة - ألبان ميشيل - 2015
- كان أفضل حين كنت أنت - ألبان ميشيل - 2015

قصص قصيرة

- خاص - لارش L'Arche - 1998
- الفتاة الصغيرة والكبريت - ستكوك - 2004

مسرح

- الممر - لارش - 1996
- الفوضى والليالى بدون قمر - لارش - 1997
- نقطة على السطر، متعة العقرب - لارش - 1997
- حديقة المظاهر - أكت سود - ورقية - 2000
- ماتيلد - أكت سود - ورقية - 2003 و2001
- أحبك كثيراً - جراسيه - 2006
- فراق - ترياتيس - 2009
- ألبان ميشيل - 2013
- قبلات، آسفة - أفان سين - 2014
- شخص آخر غيرى - ألبان ميشيل - 2016

المحتويات

اهداء 5

I من العبودية إلى الحرية 9

هي لا تعرف اسمها 11

حينما ولدت 13

من المؤكد 15

كانت والدتها كثيرة الأطفال 22

سارت معهما حتى هبوط الليل 28

هم مربوطون 35

بعد بضعة أيام 51

في الصباح، الغابة 60

اليوم التالى هو يوم سعيد 66

في صباح أحد الأيام 73

مع القافلة تمشيان 78

بعد ثلاثمائة كيلو متر من السير 86

في الأُبيض لمدة أيام 92

يتركان السوق وهما ممسوكتان 99

وهكذا بدأت الحياة في خدمة الأسياد 105

وقد ظلت بَخيتة لمدة ثلاث سنوات 110

بعد حوالى عامين من وصول 116

بعد ضربات سمير 124

تغادر البيت الثعبان 127

في منزل الجنرال التركى 132
هى الآن في الثالثة عشرة من عمرها..... 137
بَخيتة لم تحمى الطفلة الصغيرة..... 147
ترصد بَخيتة قريتها 155
عندما تُقدم نفسها في اليوم الأول..... 158
عمرها أربعة عشر عامًا..... 170
إنه، مثل كل انقلاب 178
كان من الضروري..... 187
تدخل الباخرة في ميناء جنوى..... 190
من نافذة الغرفة..... 195
اسمه سنيور إليميناتو ششيني..... 203
هذا الطفل، سوف ينتظرانه معًا 213
ولد الطفل في 3 فبراير 217
تركض بَخيتة بمفردها في 225
إنه السودان 233
تسافر الباخرة إلى جنوى 241
في الصباح والمساء، 245
في غرفة الاستقبال هذه،..... 261
تنتظر بَخيتة، في اليوم الأول،..... 267
لمدة عام، 279
قيل لها فقط 293

II من الحرية إلى القداسة 303
في صباح اليوم التالي، 305
مادريه، إبدئى من جديد..... 310
ويطلق عليها رسميًّا جيوزفا،..... 321

إنها تمطر على البندقية.....328
لقد جاءوا، في عجلة 335
تعود إلى حياتها التي عاشتها.....341
تطلب إشعال النار 348
في عام 1907، خمس سنوات بعد 355
إنها تحب المشي في المدينة 364
في صباح كل الأيام.....369
سُمح لها بمرافقة ألفيرا.....374
يمر الزمن 379
تحب أن تكون بالقرب.....384
تدور شمس سوداء بالغة الصغر، 392
الأراضي. المصانع.....398
طلبت الأم الرئيسة.....401
تلتقى من جديد بالبندقية.....407
بالطبع، اليوم، 421
بالآلاف ولمدة سنوات، 428
تبقى بَخيتة عامين في فيمركات. 440
تبلغ من العمر سبعين عامًا،.....446
سقطت القنابل على العالم، 452
يوم السبت 8 فبراير 1947، 456
شكر.....458
لنفس المؤلف.....459
المحتويات 461

الكتاب

□ اُختطفت بَخيتة في قرية دارفور وهي في سن السابعة، وعانت ما عانته من مظالم العبودية وآلامها. لقد ابتيعت من قبل قنصل إيطاليا واكتشفت بلداً ملؤه عدم المساواة والفقر والإقصاء.

□ تمّ إعتاقها إثر محاكمة عاصفة في البندقية، ثم دخلت في سلك الكهنوت، واجتازت معمعة الحربين العالميتين، والفاشية ناذرة نفسها لخدمة الأطفال الفقراء.

□ يروي هذا الكتاب المثير حياة هذه الامرأة الاستثنائية التي عرفت أطوار الأسر ثم العبودية، فالحياة الكهنوتية والقداسة.

□ نجحت فيرونيك أولمي باقتدار نادر على الإيحاء، أن تعيد سرد مصيرها وكفاحها الذي لا يصدق، وعظمة روحها التي ارتوت من الينبوع الخفي الذي تغذّى من ذكرى طفولتها قبل أن تقع في شرك الاختطاف.

الكاتبة

الكاتبة من مواليد نيس تكتب بصورة خاصة الروايات والنصوص المسرحية. عملت أيضاً كاتبة سيناريوهات وممثلة، وقد شاركت في تأسيس مهرجان المسرح تحت اسم «باريس النساء».

□ رشحت لجائزة غونكور للثانويين، وجائزة غونكور پلاس.

□ منحت جائزة غونكور اختيار الشرق وغونكور اختيار تونس.

مكتبة نوميديا 224
Telegram@ Numida_Library

ISBN: 978-614-456-144-7
9 786144 561447

دار المؤلف
Dar Al-Moualef
للنشر والطباعة والتوزيع ش م م
for Publishing, Printing and Distribution s.a.r.l.